عبد الكريم الخطيب

عمر بن الخطاب

الوثيقة الخالدة ـ للدين الخالد

(دراسة كاشفة وعبرة بالغة)

الطبعة الأولى ١٩٧٨

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

عبد الكريم الخطيب

عمر بن الخطاب

الوثيقة الخالدة - للدين الخالد

(دراسة كاشفة وعبرة بالغة)

الطبعة الأولى ١٩٧٨

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمؤمنين

المقدمة

(١)

منذ نحو عشر سنوات نازعتني نفسي أن آخذ بنصيبي مع الذين كتبوا في سيرة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد أن قطعت معظم العمر في صحبة الرسول الكريم . مستمعاً إلى سيرته العطرة ، ودارساً لما يتجمع ليدى من دراسة الدارسين ، ومدح المادحين من أوليائه ، وناظراً في مفتريات المفترين ، وأباطيل المبطلين ، من أعداء الإسلام ونبي المسلمين .

وإنه مع ما اجتمع لي من سيرة الرسول من هذا الفيض الكثير من المشاعر التي اختزنتها في صدري ، وسكبتها في وجداني ، ومع ما كان يمدني به القرآن الكريم من إمداد لا تنتهي من أنوار النبوة التي تطلع مع كل آية من آيات الكتاب الكريم . ومع كل كلمة من كلماته — أقول : مع هذا كله فقد رأيتني أقف متردداً بين يدي هذا الموقف المهيب الجليل ، الذي أريد أن أقوم عليه ، وأن ألقي بنفسي في عبابه الزخار ! ومع هذا ،

فالشوق غالب ، والرغبة دافقة .. وبين الشوق والرغبة ، والإشفاق والرهبة وقف القلم حائراً ..

أقدم رجلا رغبة فى رغيبة　　　　وأؤخر أخرى رهبة للمعاطب

إنها لجرأة تكاد تبلغ حد الخروج عن الأدب ، أن أقتحم جلال هذا المقام الجليل ، وأن أحوم حول هذا الحمى الطهور ، بنفس أثقلتها الأوزار ، وبقلب عصفت به الأهواء ، وبقلم مازال يستملى من أباطيل الحياة وترهاتها ، فإن استقام على طريق الحق يوماً لم يلبث إلا قليلا حتى تختله الأمانى الباطلة والآمال الكاذبة ، فيرد الموارد التى يصطاد منها ما ضنت به الحياة عليه من متاعها الغرور ..

وهكذا طال بى الوقوف المتردد بين الإقدام والإحجام . لا أجد عندى قوة تنتصر لهذا الاتجاه أو ذاك . فأستريح من هذا القلق الذى استبد بى ، وأسكن إلى المرفأ الذى ألقت بى سفينة القدر ومراسيها عليه !!

(٢)

وفى هذا الموقف الحائر المتأزم ، طلع على خاطر لم أكن قد راودت نفسى عليه ، بل ولم يكن مما ورد على فيما توارد من أمواج الخواطر الهادرة أو الهادئة ، خلال هذه المعاناة .. ولكنه طرق فجأة ، ولمع كما يلمع البرق .. ثم اختفى فى غمار هذه الخواطر المتدافعة ، ثم عاد فظهر خافتاً واهياً ، يغدو ويروح فى رؤى المنام ، وأحلام اليقظة .

وهنا أمسكت به ، حيث وقع فى نفسى أن لهذا الخاطر شأنا ، وأنه لأمر ما دفع بى فى عباب هذه المشكلة ، ثم ها هوذا يهتف بى سائلا :

لماذا تصر على الكتابة فى المسيرة النبوية ، ولماذا لاتكتب فى سيرة عمر؟

وإذا كنت تتهيب ركوب هذا البحر العظيم ، فلماذا لاتسبح على سواحله وشطآنه . . ؟ ذلك هو الخاطر الذى كان عنه هـذا الحديث آنفاً .

ووقع لى فى أول الأمر أن هذا خاطر أثيم متهم ، يريد أن يصرفنى عن موقفى حيال السيرة النبوية ، وأن يعللنى بهـذه الخدعة ، وكأنه يقول لى :

إذا لم تستطع أمراً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

وحقاً إن الكتابة فى سيرة « عمر » رضى الله عنه — رغيبة نفسى ، ومهوى فؤادى .. ولكن ذلك بعد أن أقضى ما لرسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من واجب أراه حياة نفسى ومسكن قلبى ، ودعوة دينى ، وغذاء إيمانى .

وهنا أسفر لى هذا الخاطر عن وجهه ، ليدفع تهمة عجلت برميه بها .. وإذا بى أجد له وجها مقبولا فيما يدعونى إليـه ، من الانصراف ـ مؤقتاً ـ عن الكتابة فى المسيرة النبوية إلى الكتابة فى سيرة الخلفاء الراشدين .. حتى يكون أشبه برحلة إلى السيرة النبوية ، يتزود لها القلم بما يجد فى سيرة الصحابة من آثار النبوة فيهم ، إذ كانوا ثمار غرسه ، وتلاميذ مدرسته ، وصنعة تربيته .. فإذا أنس المرء إلى هذا الجوار الكريم لصحابة رسول الله واطمأن إلى الحياة الطيبة من سيرتهم ، وتنفس فى أجوائها العطرة ، وقبس من أنوارها المضيئة ، وطعم من مجانيها المباركة ـ كان له

أن يجد الطريق ممهداً إلى حيث السناء العالية ،والأفق المبين، فلا تعشى عينيه أضواء النبوة ، ولا يصعقه جلال جلالها ..

(٣)

ورضيت عن هـــذا الخاطر فى جملته .. ولـكن بقى فى نفسى منه شىء !!

إذا كان من الحـكمة أن أبدأ الـكتابة عن السيرة النبوية بالـكتابة فى سيرة الخلفاء الراشدين ـ كمقدمة لها ، وكدليل لارتياد الطريق إليها ـ فلماذا يكون البدء بعمر بن الخطاب ؟ ولـماذا لا يكون ذلك حسب الترتيب الزمنى فى خلافتهم لرسول الله .. أبو بكر، فعمر، فعثمان ، فعلى ؟

وقلت لنفسى ـ بعد لأى ـ هذه مسألة شكلية أكثر منها موضوعية ، مادام الأمر سينتهى بك إلى الـكتابة فيهم أو عنهم جميعا .. إنه يستوى فى ذلك من يتقدم أو يتأخر .. فهم جميعا فى الفضل سواء ..

وإذن وعلى بركة الله ـ فلنبدأ فى سيرة « عمر » .. وليقض الله أمراً كان مفعولا ..

وعشت مع سيرة عمر ـ رضى الله عنه ـ أياماً وليالى .. وجرى القـلم على الورق بخط ما وعيت من سيرته ، وما وقع لخاطرى من ملامح صورته ، وإذا بى أجد أن ماصنعت لايعدو أن يكون قصيدة شاعر علقت عينه بمشهد رائع من مشاهد الطبيعة ، فرأى فيه من آيات الله ما ملك لبه ، وأهاج مشاعره ، فجعل ينظم من كلماته ما ينظم البستانى من أنواع الزهر، تحية لعظيم دخل عليه بستانه !!

والواقع أننى - إزاء شخصية عمر - لم أستطع أن أكون كاتب سيرة ، أرصد الأحداث ، وأحلل المواقف ، وأستخلص النتائج ، وأنتهى إلى مقررات وأحكام .. لم أستطع أن أملك على مشاعرى إزاء هذه الشخصية، التى تكاد - لولا الواقع المشاهد - أن تكون أسطورة من عالم الأساطير ، فكنت - فى مواجهة هذه السيرة العظيمة - شاعراً ، ولم أكن مؤرخا ، وكنت مشاهداً همه متعة القلب وروح النفس ، ولم أكن دارساً ، مطلبه التحليل والتعليل !

لهذا لم يكن ما كتبته من سيرة عمر سيرة بالمعنى الكامل للفظ سيرة ، وإنما هو - كما قلت - مجرد خطرات وقعت لنفسى وأنا بين يدى تلك المشاهد الرائعة التى ضمت عليها صحف التاريخ من سيرة هذا الرجل العظيم !

كان ذلك منذ عشر سنوات - كما قلت - أو بالتحديد كان ذلك فى سنة ١٩٦٦ يوم أن كتبت فى سيرة عمر هذا الكتيب تحت عنوان «عمر بن الخطاب الوثيقة الخالدة للدين الخالد» وها نحن أولاء الآن فى سنة ١٩٧٧ .

ومع هذا ، فقد كانت هذه الخطوات القليلة التى خطوتها فى هذا العالم الرحيب من حياة عمر - كانت هذه الخطوات القليلة ، كافية لأن تملأ قلبى طمأنينة ، وأن تقيم وجهى مستقيما على سيرة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وإذا بى - ودون تردد - أطرق باب السيرة العطرة ، بجنان ثابت ، وعزم وثيق ؛ بمجرد أن ودعت عمر بن الخطاب ، بعد هذه الوقفة القصيرة التى وقفتها بين يديه . . ثم إذا بى أفرغ من كتابة ما بلغ جهدى ، وما طالت يدى من سماء هذه السيرة المباركة ، وكان أن أخرجت كتابا تحت هذا العنوان : « النبى محمد » صلى الله عليه وسلم : « إنسان الإنسانية

ونبى الأنبياء » ومع أن عدد صفحات الكتاب قدجاوزت أربعمائة صفحة، من القطع الكبير ، فإنها لم تنقع منى صدى ، ولم ترو لى غليلا .. وإنه على الرغم مما بذلت من جهد فى تصوير مشاعرى ، وفى نقل أحاسيسى ، وما أجد بين جوانحى من أنوار النبوة وجلالها — فإن غاية ما استطاعت الكلمات أن تحمله من مشاعرى وأحاسيسى لم يكن إلا الرغوة التى طفت على السطح من فوران المشاعر ، والتهاب الأحاسيس . . أما جوهر هذه المشاعر ، وخالص تلك الأحاسيس فقد بقى قاراً فى الأعماق ، لا تناله الكلمات ، ولا تكشف عن وجهه العبارات .

وهنا بدا لى أن أمضى فى الكتابة فى سيرة الخلفاء ، لعل ذلك يفتح إلى سيرة الرسول الكريم طرقاً، ويرتفع بى إلى آفاق أشهد منها مالم أستطع أن أشهده من جلال النبوة وبهائها .

وقد كان ، فأخذت وجهتى إلى الكتابة فى سيرة الخلفاء الراشدين — رضوان الله عليهم — وكان فى تقديرى أن أبدأ بسيرة الخليفة الأول — أبى بكر رضى الله عنه . . ولكن جاء الأمر على خلاف ما تصورت وقدرت ! وإن تلك لقصة أخرى ، من قصص القدر الغالب ! !

(٤)

لقد وجدت أننى لم أمض بعد هذا فى كتابة سيرة الخلفاء الراشدين ، على نحو ما أوحى به إلى هذا الخاطر الذى كان قد صرفنى — مؤقتاً — عن الكتابة فى سيرة الرسول ، إلى أن أرد أولا سيرة الخلفاء الراشدين ، وأتزود منها الزاد الذى يعيننى على لقاء السيرة النبوية الكريمة .. وهنا أدركت أن هذا الخاطر لم يكن يريد منى ما وقع فى نفسى منه أول ماطرقنى ، وإنه إنما وقع فى نفسى لقاء عمر بن الخطاب بالذات ليأخذنى من أقرب طريق

إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إذ ما كان لقائى مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى سيرته إلا مجرد استئذان منه للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيرته المباركة .. فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فيما وقع لى من سيرته أشبه بجندى يقوم على حراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حراسة دائمة ملازمة ، إذ كان ذلك شأن عمر منذ دخل فى دين الله إلى أن لحق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالرفيق الأعلى ، يأخذ بهذا المكان الأول بين أصحاب رسول الله الذين كانوا كلهم جنودا من حوله ، وحرسا أمينا قائما من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، إذ كان عمر فى شدته وصلابته وصرامته أجهرهم فى هذا المقام صوتا ، وأجرأهم قلبا ، وأطولهم يداً ولسانا على من يحوم حول حمى الرسول الكريم من المشركين ، والكافرين ، والمنافقين . . فما أكثر ما كان يجىء صوت عمر فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : يارسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ! . . يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

وإذن فلم يكن هذا الوقوف الذى وقفته مع عمر — رضى الله عنه — فى سيرته إلا وقفة على باب رسول الله صلى عليه وسلم ، مع الجندى القائم على هذا الباب ولم يكن ما كتبته من سيرة عمر إلا مجرد صورة له من « الذاكرة » لما وقع فى عينى من ملامح وجهه وأنا بين يديه أطلب الإذن للقاء النبى الكريم فى سيرته الزكية المباركة ! !

ولهذا فإننى قد كنت على نية — وأنا لم أفرغ بعد من كتابة سيرة الرسول الكريم — أن أعود إلى عمر رضى الله تعالى عنه ، فأكتب سيرته من جديد ، على النحو الذى يرضى مشاعرى ، بمجرد أن أنتهى من كتابة السيرة النبوية ، إذ كان ما كتبته عن عمر لا يعدو أن يكون لمحة

خاطفة فى صفحة محيط لا ساحل له ، لم تمسك بشىء من جلاله وعظمته ، ولم تسبر غورا من أغواره ، ولم تطلع على شىء مما فى أعماقه ، من كريم الجواهر ، وعظيم اللآلىء ، وفى هذا — حسب ما وقع فى نفسى — عدوان على هذا المقام العظيم ، وجور على الحقيقة يعرضها هذا العرض الباهت الهزيل .. وإنه لن يصحح هذا الموقف ، ولن يرد إلى هذه الحقيقة بعض اعتبارها إلا أن ألتقى بسيرة عمر لقاء مجددا ، وأن أبدأ بكتابة سيرته ، إذا كنت على نية الكتابة فى سيرة الخلفاء الراشدين . . فهو وإن لم يكن أول الخلفاء الراشدين ؛ فإنه كان أول من طرقت بابه ، واتخذت منه الوسيلة التى أتوسل بها لقاء سيرة رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه .

(٥)

هكذا قدرت ، ولكن جرى القدر معى على غير هذا التقدير .. فلم أعد إلى الكتابة من جديد فى سيرة عمر كما أردت وقدرت ، بعد أن أنهيت ما قدرت عليه من سيرة الرسول ، بل وجدتنى بين يدى سيرة على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — دون من سبقه من خلفاء رسول الله : أبى بكر وعمر وعثمان ..

والحق أننى لم أراجع نفسى هذه المراجعة حينذاك ، بل مضيت مع سيرة على مرسلا نفسى على سجيتها ؛ مقدراً أن هذا لأمر يراد لا علم لى بتاويله فى حينه ، وإن يكن مما قد يأتى تأويله بعد حين ! !

ومضيت فكتبت سيرة على كرم الله وجهه : تحت هذا العنوان « على ابن أبى طالب .. بقية النبوة .. وخاتم الخلافة » تصحبنى فى هذا نية قائمة على الكتابة فى سيرة الخليفتين الراشدين ، أبى بكر وعثمان ، رضى الله عنهما ، حتى إذا فرغت من هذا عدت إلى ما كتبت من سيرة عمر ، فأعدته على منهج جديد ، حسب تصورى له .. ولكن جرى القدر — مرة أخرى —

فى خط هذه المسيرة ، فغير من وجهها ، وعد بى عن طريقها ، وإذا أنا بين يدى القرآن الكريم ، أعرض نفسى عليه ، وأدعوها إلى أن ترد موارده، وأن تدفع بسفينتها فى عبابه ، وأن تلقى بشباكها فى محيطه ، ثم تعرض مايقع فيها من لآلئه وجواهره على الأنظار .. وقد كان ..فأخرجت من كنوز القرآن الكريم ماعرضته باسم : «التفسير القرآنى للقرآن » والذى اشتمل على تفسير القرآن الكريم ، فى ستة عشر كتابا ، فى نحو إثنتى عشرة ألف صفحة .

وأشهد أننى خلال تلك السنوات التى كنت فيها مع كتاب الله لم ألتفت إلى أى أمر سواه ، من شئون نفسى ، أو اتجاهات تفكيرى .. وهل يترك القرآن الكريم لمؤمن اتصل به ، وحل ضيفا عليه – شيئا غير القرآن يشغل به نفسه ، أو يصرف إليه تفكيره !

(٦)

والآن ، وقد قطعت بسلام هذه الرحلة المباركة ، مع كتاب الله ، فإلى أين يأخذ القلم طريقه . وإلى أية غاية يكون مقصده ؟

وهل طريق بعد هذا إلا الطريق المتجه إلى خلفاء رسول الله ، وهل غاية – بعد صحبة القرآن – إلا الغاية – التى نلتقى عندها مع هؤلاء الصفوة المتخيرة من صحابة رسول الله ، إنهم هم التفسير الحى للقرآن الكريم ، وهم – فى سيرتهم – البواكير الطيبة الناضجة لمغارس كتاب الله فى قلب الإنسانية وعقلها ، وفى ضميرها ووجدانها ..

ولكن بمن يبدأ القلم رحلته معه ، من هؤلاء النفر الكرام ؟

إنه لاخيار ..

فلقد وجدتنى ـ على غير ماقدرت ودبرت ـ بين يدى عمر بن الخطاب مرة أخرى لا لأستأذنه فى لقاء رسول الله ﷺ ـ على بساط سيرته الزاكية ، الهادية بل للقائه هو لقاء صامتاً ، على طريق حياته ، من مولده ، إلى وفاته ، فى جاهليته وإسلامه . فى صحبته لرسول الله ، وفى وزارته لأبى بكر ، ثم إمارته المسلمين ، وفى قيامه على دولة الإسلام ..

ولا أدرى إن كان ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سيرضى أو يسخط على تلك الصورة التى سيرسمها القلم له .. وهل يراها أقرب إلى الحق فيه ، وأشكل بالواقع منه ، أم أنها قد دخلها كثير أو قليل من السمات والألوان والظلال ، التى جاوزت الحق ، أو جارت عليه ، وليس عند ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ما هو أعظم من الحق ! الذى هو حرم الله ، والذى لا يقبل ابن الخطاب فيه مهادنة ، ولا يقيم فى الانحراف عنه عذراً لمعتذر .. إنه لا يرحم أحداً عثرت به قدم على طريق الحق ، هكذا هو عمر ، وتلك هى خصيصته التى دان بها نفسه ، وأخذ بها أهله وولده ، وأجرى عليها حكمه فى رعيته ، حتى لقد قيل فيه : « إن الحق ماترك لعمر صاحبا » !!

وماذا أفعل لإقامة شهادة الحق على وجهها فى سيرة عمر ، وفى الأحداث التى وقعت فى حياته ، وفى المقولات التى قيلت فيه .. له أو عليه .

كيف السبيل إلى هذا ، وليس بين يدى إلا ما ضمت عليه صحف التاريخ من أخبار ، وما رواه الرواة من مقولات ؛ وماذكروه من أحداث وفى تلك الأخبار ، وهذه المقولات ، وتلك الأحداث ، شىء ليس بالقليل من الكذب والتلفيق ، ومن الدس والكيد ، مما اختلط فيه الحق بالباطل والرأى بالهوى ..

وإذا كان هذا هو الشأن فى كثير من أحداث التاريخ التى اصطبغت بألوان غريبة ، غيرت وجه الحقيقة فيها — فإن تاريخ العظماء من الرجال يذهب بأوفر نصيب من هذا التحريف والتبديل لوجه الحقائق المتصلة بهم ، والأحداث التى لابست حياتهم ، فيضاف إليهم الكثير مما ليس لهم ، ويدفع عنهم الكثير الذى لهم .

ولا شك أن عمر قد أخذ أوفر نصيب من هذا وذاك ، إذ كان فوق عظمته عنيداً عنيفاً فى الانتصار للحق ، وفى حمل الناس منه على مركب خشن لا هوادة فيه ولا رحمة معه ، فاتسع للناس مجال القول فيه ، بالحق وبغير الحق ، حتى لقد اجتمع فى سيرته من ذلك ما لا يكاد يمسكه حصر ، أو يحيط به جمع . . وهذا من شأنه أن يشق على طالب الحقيقة ، وأن يحرج الباحث عن الكلمة الصادقة ، والخبر الصحيح ، من بين هذه المقولات الكثيرة المتناقضة المتضاربة التى جمعتها كتب السيرة والأدب ، مضافة إلى عمر رضى الله عنه . .

وعذرى عند ابن الخطاب — فى الصورة التى يخطها قلمى له — أنى متبع غير مبتدع . . بمعنى أنى إنما أنظر إليه من خلال هذه الصورة التى احتفظ له التاريخ بها ، مع ماحملت من ألوان وأصباغ ، وماتشكلت به من أصيل أو دخيل . . ثم أحتكم فى هذا إلى الشواهد الصادقة من سيرته ، فأرد إليها كل مايقع عندى موقع شك أو ريبة ، فأقيمه على ميزانها ، فإن استقام أخذت به ، وإن انحرف عدلت عنه . .

وأن مما ييسر على هذه المهمة ، أن شخصية ابن الخطاب — رضى الله عنه — تكاد تكون خطاً واحداً ، ولوناً واحداً ، . أشبه بالنهر العظيم ، الذى

استقام مجراه على وجه واحد ، وطبيعة واحدة . . فليس فى شخصية عمر رضى الله عنه ، مرتفعات ومنخفضات ونجود وسهول . إنما هو نجم ثاقب ، يتحرك فى فلك لا يجاوزه أبداً ، فحيث رصده الراصد رآه كما عهده ، على أى أفق كان مطلعه .

(٧)

بقى بعد هذا تدبير آخر ، لا أدرى ماذا أنا محول عليه منه . . وهو هذه السيرة الموجزة غاية الإيجاز التى كتبتها من قبل عن عمر بن الخطاب تحت عنوان : « عمر بن الخطاب . . الوثيقة الخالدة للدين الخالد » — إنها كانت فى تقديرى — يوم أخرجتها فريدة دون غيرها من سير الخلفاء الراشدين — كانت فى تقديرى مجزية فى تحقيق الغاية التى انتصبت لها ، ثم إننى حين بدا لى أن أكتب سيرة الخلفاء الراشدين : أبى بكر ، وعثمان ، وعلى — رضى الله عنهم — أزمعت فى نفسى أن أبدأ بسيرة أبى بكر ، ثم أتناول ما كتبت من سيرة عمر فأقيمه على الوجه الذى يستوفى — ما أمكن — سيرته . . ثم أمضى مع سيرة عثمان ، ثم على — رضى الله عنهما — ولكن كان الذى أشرت إليه من قبل ، وهو ما انتهى بى إلى كتابة سيرة على !! « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » .

وها أنذا بين يدى سيرة عمر . .

فهل أعود إلى ما كتبت من سيرته ؛ فأجعل منه ركيزة للكتابة فى سيرته تلك التى أنا آخذ طريقى معها الآن ، أم أصرف النظر عن هذا الذى كتبته من قبل ، وأبدأ فى كتابة السيرة الجديدة دون التفات إلى ما كتبت وكأن شيئاً لم يكن ؟

لا أدرى ـ وأيم الحق ـ إلى هذه اللحظة ـ أى الطريقين أسلك ، وبأى الرأيين آخذ .. وإنه ليهمس فى خاطرى وأنا أكتب الكلمة الأخيرة من الجملة السابقة ، أن عمر بن الخطاب لا يرضى بهذه المرقعات فى كتابة سيرته التى تمس الصميم من حقيقة الإسلام فى كثير من جوانبها ، وإن كان قد رضى بالمرقعات ثوبا يلبسه ، ويستر به جسده فى حياته الخاصة .

إننى أحكى هنا مشاعرى ، وخواطرى ، وأسجل إيماءات وإشارات ربما حسبها البعض مدعيات ، أو تخيلات ، أو أحلام يقظة أو نحو هذا .. ولست أقطع بأنها ليست تخيلات أو أحلام يقظة .. ولكن الذى أقطع به أنها ليست مما يدخل فى باب الادعاء من قريب أو بعيد !!

وإذن ، فأنا ماض بإذن الله فى سيرة عمر رضى الله عنه أصوغها من جديد ، فى دراسة مستقلة ، عن الدراسة السابقة .

وإذن فهما كتابان أو دراستان عن عمر بن الخطاب .

هذه الدراسة التى صدرت منذ أكثر من عشرين عاما ، ولتكن أشبه بأنغام الموسيقى التى يستفتح بها عروض رواية تاريخية على مسرح الحياة !!

ثم تلك الدراسه التى نبدأ كتابة السطور الأولى منها الآن،ولا ندرى الوصف الذى يكون لها بعد أن تستكمل وجودها ، وتخرج إلى الحياة .

ومن الله نستمد العون . وهو ولى التوفيق

والصلاة والسلام على سيدى وحبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، وسلام على عباده الذين اصطفى ؟

عبد الكريم الخطيب

القاهرة جمادى الثانية ١٣٩٦
يونيــو سنة ١٩٧٧

تمهيـــــد

وها نحن أولاء بين يدى عمر ، يطالع علينا بكل ما خلف وراءه من آراء الناس فيه ، ومقولاتهم عنه ، وولاء الموالين له ، ونقمة الناقمين عليه ومغالاة المغالين فى التشيع له ، ومبالغة المبالغين فى التشنيع عليه .

وعمر وإن بلغ مابلغ من الكمال المقدور للناس ، فى صدق دينه ، ووثاقة إيمانه ؛ وفى عفته . وعدله ، واستقامته ، وسلامة صدره ، ورجاحة عقله ، ونفاذ بصيرته ، وصدق حدسه ، وفى كل صفة يتحلى بها أهل الكمال ويتعشقها أولو الفضل من الرجال — فإنه لا يسلم مع هذا كله — من أن يجد فيه الذين يطلبون المعايب والمآخذ ، ما يعاب منه ، وما يؤخذ عليه . . وقديما قيل : « من طلب عيباً وجده » . . فالكمال المطلق صفة انفرد بها الله سبحانه وتعالى ، لايشاركه فيها مخلوق من خلقه . .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

هذا إذا نظر إلى الإنسان — أى إنسان — مهما بلغ من الكمال — بعين العدل والإنصاف ، والتجرد — على القدر الممكن — من الهوى الغالب أو الشهوة المتحكمة .. فكيف إذا كان النظر هنا ، بعين حولاء ، وبقلب سقيم ، وبضمير منحرف؟ إن الهنوات حينئذ تتضخم وتعظم ، وتبدو شنائع من الخطايا وكبائر الآثام ، حتى لكأنها البعوضة ينظر إليها من خلال مجهر ، فإذا هى صورة فيل عظيم !!

أما الحسنات فيخف ميزانها هنا ، وتكاد تكون هباء منثورا ،

لا حساب له ، ولا غناء فيه .. هذا إذا لم تنقلب الحسنات ـ فى هذا الميزان الجائر ـ فتوضع فى كفة السيئات ، وتحسب فى حسابها .

والعظماء من الناس ، هم أكثر الناس تعرضا لهذا الابتلاء ، أحياء وأمواتا .. إذ كانوا وهم القمم العالية ، والرءوس البارزة فى المجتمع ، بحيث تتعلق بهم الأبصار ، وتتحدث عنهم الألسنة ، وتتسمع إليهم الآذان . . فكل حركة لهم مرصودة عليهم ، وكل عمل منهم مشهود لهم ، وكل قول مسموع فيهم . . ومن هنا يخضع العظماء لما لا يعد من الأحكام الواقعة على كل حركة من حركاتهم ، أو عمل من أعمالهم ، أو قول من أقوالهم ، من استحسان واستهجان ، ورضى وسخط ، وقبول ورد .. حتى ليكاد يكون ذلك الجمع الكثير من المتناقضات ، محسوباً بحساب عظمة العظيم ، وما يجتمع إليه من الناس ، وما يدور فى فلكه من أولياء وأعداء .

وفى القرآن الكريم شاهد لهذا . . ففى ما كان من إمرأة العزيز مع يوسف ـ عليه السلام ـ كان يمكن أن يقع مثله فى غير بيت العزيز من عامة الناس ، ثم لا يدرى به أحد . . ولكن لأن هذا الحدث قد وقع فى بيت رجل له مكانته فى قومه ، فإنه سرعان ما انتشر فى الناس وتناقلته الألسنة ، همساً خافتاً ، ثم أصبح حديثاً عالياً ، طرق بيت العزيز نفسه ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين » .. وهكذا يصبح هذا الحديث حديث الدنيا كلها إلى يوم الدين .

ثم ما ظنك بإنسان قد امتد سلطانه على شطر هذا العالم ، واحتمل ضميره مسئولية الحياطة والرعاية له ، والحماية ، والأمن والسلامة ، وكفالة

العمل ، وتوفير الطعام لكل ذى نفس حية عاش تحت راية الدولة الإسلامية حتى لقد امتد ذلك إلى عالم الحيوان ؟

لقد حمل عمر هذه الأمانة ، وأخذ نفسه على القيام بها ، ووطنها على آدائها كاملة إلى أهلها ، بل ودعا كل إنسان أن يطالبه بأداء هذه الأمانة وأن يحاسبه حساب المقصرين إذا هو قصر قليلا أو كثيراً فى حق ذوى الحقوق عليه ..

ومن هنا فلا غرابة أن كثرت الأنظار المتجهة إلى عمر ، وكثر الراصدون لحقوقهم ، أو حقوق غيرهم .. ومن هنا أيضاً تواردت عليه المشكلات ، صغيرها وكبيرها ، وتوافدت إلى ساحته الشكايات باطلها وحقها ، فكان عمر يلقى كل هذا الفيض الزاخر بالحزم والحسم . ويأخذ الناس جميعاً بالعدل الذى يقيمهم على ميزان واحد ، لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وغنى وفقير ، ومسلم وذمى .

وطبيعى أن يرضى كثيرون بعدل عمر ، وشدة عمر ، واستقامة عمر ، وخاصة والناس فى بقية من أضواء شمس النبوة التى غربت منذ قليل .. وطبيعى أيضاً أن يغص بعدل عمر وبسلطان عمر غير قليل من الذين انتزع الإسلام ما كان لهم من سيادة على الناس ، وتحكم فى رقابهم ، ولم يكن لهم من إخلاص إيمانهم ما يحرسهم من أهواء النفس ووساوس الشيطان !!

وبادىء ذى بدء ، فإن الدارسين لشخصية عمر دراسة محايدة ، من غير المسلمين ، يرون فى عمر صورة ـ تكاد مثالية ـ للحاكم الرشيد العادل ، وللسياسى الحكيم البارع ، الذى يستعلى حكمه على الأحداث ، وعلى الأشخاص ، وبالإخلاص المطلق للحق ، وبالرعاية المطلقة للصالح العام ،

وبالتطبيق الدقيق ، والالتزام التام لحدود الشريعة . . وهذا من شأنه أن يطلق الملكات الفطرية فى الإنسان ، وأن يجعل نظرته إلى الأمور مستولية عليها ، نافذة إلى الصميم منها ، وذلك من غير معاناة ، ومن غير مكابدة فى دراسة أحكام المنطق ، ومقولات الفلسفة . . ذلك لأن منطق الفطرة ، هو من منطق الحياة ، فإذا كانت الفطرة على الصحة والسلامة ، كان حكمها على الأشياء حكماً صحيحاً سليماً . . أشبه بالحواس السليمة فى حكمها البدهى الصحيح على ما تلتقى به من محسوسات !!

والقرآن الكريم والهدى النبوى ، والصحبة الملازمة للنبى — لا شك أن ذلك كله هو الذى أطلق ملكات عمر من أسر الهوى المتسلط على النفوس ، وهو الذى جعل له تلك الحاسة الملهمة التى عرفت عن عمر ، والتى يسميها علم النفس « حدساً » ويسميها الإسلام « تحديثاً » وهى إلهام ربانى يفيضه الله تعالى على خاصة المؤمنين ، كما يقول الرسول الكريم : « إن فيكم محدثين ، وإن منهم لعمر » .

والمسلمون فى جملتهم على رأى واحد فى عمر ، وهو أنه قمة فى الإسلام ورجل دولته ، لا ينازعه فى هذا غير أبى بكر الصديق . . ومن هنا يأخذ عمر فى نفوس المسلمين مكان القدوة والأسوة ، يتمثله كل مسلم فى كل ما يدعوه إليه دينه ، وتتسع له همته من فضائل وكمالات ، إذ كان عمر خير من يدل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما حلاه به ربه من كمال وجلال تتقطع دونه أعناق البشر . . ومن هنا أيضا أحاط المسلمون عمر — رضى الله عنه — بالحب المشبوب بعواطف الولاء ، الذى يرى جماع الفضائل كلها فيمن يصفيه المرء الحب والولاء !

وفى المسلمين جماعة قليلة ذات هوى ، يرى فى عمر رأياً غير هذا الرأى الذى عليه جماعة المسلمين فيه ، وتقيمه على ميزان غير هذا الميزان ، وهى جماعة من فرق الشيعة التى أفرطت فى حب على – كرم الله وجهه – فحملها هذا الإفراط على أن تفرده بالفضائل كلها لا تبقى على شىء منها لأى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى عن صحابته .. ثم ذهب بها هذا الإفراط – بعد سلب المحاسن – إلى اصطياد المعايب ، وجلب المنكرات تلقى بها فى ساحة كل من نازعوا علياً صفة من صفاته ، أو فضيلة من فضائله حتى لكأن دولة الإسلام تضيق بالعظماء من رجالها ، ولا تحتمل أن يكون فيها غير عظيم واحد ، يحمل كل فضائلها ، ويمتص فى كيانه كل منابع الخير والإحسان فيها .

وعمر – فى ميزان الشيعة – معتد ، ظالم ، انتهازى ، حسود ، سلب آل البيت – غدراً وخيانة – حقهم فى ميراث الرسول ، وفى قيامهم على خلافة على المسلمين من بعده .. وذلك هو أعدل مواقف الشيعة عموما فى عمر – إذا كان لأى موقف جائر أن ينسب إلى العدل بالنسبة لما هو أشد جوراً منه – وهناك آراء كثيرة لبعض فرق الشيعة تكفر عمر ، بل وتتقرب إلى الله بلعنه وسبه ، رضى الله تعالى عنه ، وأرضاه .

* * *

هذه ثلاث نظرات ينظر بها الناس إلى عمر رضى الله عنه :

نظرة حيادية ، ينظر بها إليه أولئك العلماء الدارسون لعظماء الرجال ليكتشفوا مواقع العظمة فيهم ، وذلك لحساب العلم والمعرفة ، غير ناظرين إلى عقيدة ، أو وطن ، أو جنس ، أو لون ..

ونظرة متعاطفة ، مع صاحب السيرة رضى الله عنه ، هى التى ينظر بها إليه كتاب السيرة من المسلمين ، فهم إذ يبحثون عن مواقع العظمة فى عمر لاينسون أبداً ، فى أى موقف من المواقف أو حدث من الأحداث ، أن عمر هو ابن الإسلام ، وأن عظمته من عظمة الإسلام ، فهم يدرسون سيرة عمر كشاهد يقدمونه مع الشهود الكثيرة التى تشهد لصدق الرسالة الإسلامية ، وللآثار الطيبة التى نتركها فيمن يؤمنون بها . ويتربون فى حجرها . .

ونظرة ثالثة مجافية ، متهمة لصاحب السيرة ، وهى نظرة الشيعة ، وهى نظرة - كما قلنا - متفاوتة بين الاقتصاد والإفراط فى الجفاء والاتهام، حسب موقف كل فرقة من فرق الشيعة من على بن أبى طالب ، ورأيها فيه .

فبأى هذه النظرات الثلاث ستكون نظرتنا إلى عمر فى سيرته ؟

وبغير تردد ، فإن نظرتنا لن تستقيم مع نظرة الشيعة أبداً فى عمر . . إذ كان لها مذهب يخالف مذهبنا فى الخليفتين أبى بكر وعمر بوجه خاص ، وهو مذهب يمس العقيدة من قريب أو بعيد .. ومن أجل هذا فإن خطتنا فى دراسة السيرة العمرية هى ألا نعول على شىء مما تقول به الشيعة فى عمر وما ترميه به من تهم ، إلا إذا كان ذلك لتصحيحه ، وإقامته على ميزان الحق والإنصاف .

أما النظرة الحيادية ، وإن كانت أعدل النظرات فى الدراسات المجردة للحق ، ولطالب الحقيقة ، إلا أننا لا يمكن أن نلتزمها فى سيرة عمر ، حتى لو أردنا ذلك ، واجتهدنا فيه إذ لابد أن يكون العاطفة الدينية التى تجمعنا

إلى عمر ، أثر ، فى موقفنا من سيرته ، ومن تعاطفنا معه ، وإعجابنا به ، ورجائنا فى الله أن نتأسى به فيما نأخذ من دنيانا ، وما نتزود به لآخرتنا .

والذى نرجو أن نلتزمه فى سيره عمر ، هو أن نكون أقرب إلى الدراسة الحيادية ، وذلك بالاقتصاد ما أمكن من العاطفة الدينية ، فلا تطغى على الحقيقة ، ولا أن تعير وجهها ، ذلك ما نرجوه ، ونسأل الله تعالى أن يعيننا عليه .

* * *

ولكن ماذا نأخذ أو ندع من سيرة عمر ؟ أو قل ماذا نقبل أو نرفض من المرويات عن سيرة عمر ؟

إننا — كما أشرنا من قبل — بين يدى مرويات كثيرة متضاربة ، تذهب كل مقولة منها مذهبا فى عمر ، تعطيه أو تأخذ منه !

على أنه مما يهون الأمر ويخف العبء فى هذا المقام ، هو أن لعمر — رضى الله عنه — سمة ظاهرة ، وقسمات واضحة ، قد فرضت وجودها على الزمن ، وأنزلت الأولياء والأعداء على حكمها ، بحيث ترى كل إضافة جديدة إليها — من محمود أو مذموم ، أو تجريح — عملا محسوبا على أصحابه لا يغير قليلا أو كثيراً مما يمكن أن نطلق عليه «الشخصية العمرية» .. ذلك أن الذى لا شك فيه هو أن لعمر — رضى الله عنه — شخصية ذات طابع مميز لا يخطئه الناظر إليه من خلال المواقف والأحداث التى حفظها التاريخ من سيرته ، سواء فى هذا ماروى عن واقع فى أمانة وصدق ، وماجاء عن غير الواقع من محب مغال فى الحب ، أو شانئ غير مقتصد فى الدس والكيد .

ذلك أن للعظماء من الناس – وعمر من غير جدال فذ فى هؤلاء العظماء – نقول إن للعظيم من الناس أسلوب حياة ، ومنهج تفكير ، ومنزع سلوك ، هى دلائل يستدل بها عليه ، ويعرف منها ما يصح أن يضاف له ، ويحسب عليه ، وما لا ينبغى أن يكون منه ، أو يصدر عنه .. تماما كما تعرف أعمال الفنان الأصيل بالروح السارية منه فى فنه ، وبأنفاسه العالقة بكل أثر من آثاره ، وببصماته المطبوعة على كل عمل من أعماله . . وبهذا استطاع نقاد الفنون أن يكشفوا عن الزيف المدخول على أرباب الفنون ، وأن يميزوا بين ما يصح أن يكون من عمل هذا الفنان أو ذاك ، وما لا يصح .. وأقرب مثال لهذا ما كان من صنيع النقاد فى الشعر الجاهلى ، الذى دس عليه كثير من شعر المولدين ، كما اختلط فيه شعر الشعراء الجاهليين أنفسهم بعضه ببعض .. فكانت دراسة الحياة الجاهلية ، ومنازع الناس فيها ، ثم دراسة الشاعر الجاهلى ، وظروفه ، والنظر فى وجه الشعر المقطوع به من شعره – كان ذلك هو المعيار الذى استطاع به نقاد الشعر أن يجمعوا ديوان الشعر الجاهلى جملة ، ثم ديوان كل شاعر على حدة ، وقد كان هذا أقرب إلى الحق وأدنى إلى العدل والإنصاف .

وبهذه الشخصية المتميزة للعباقرة من الفنانين ، قامت حراسة قوية على أعمالهم ، فلم يجرؤ أحد على نسبتها إليه ، أو محاولة محاكاتها ، فإن البصمات التى يتركها العبقرى الفنان على روائع فنه ، تفضح كل متطفل عليها ، أو متمسح بها .

* * *

بمثل هذا ، أو قريب منه ستكون دراستنا لشخصية عمر ، ونظرتنا إلى الأحداث والمواقف التى حفظتها صحف التاريخ عنه .. بمعنى أننا سنواجه هذه الأحداث وتلك المواقف كلها ، ونفترض بادىء ذى بدء أنها تراث عمر ومخلفاته .. ثم نعرض كل حدث وكل موقف، على ما أسميناه «بالشخصية العمرية » ، فما تجاوب منها مع هذه الشخصية ، ووجد فى جوارها أنسا وسكنا ، قبلناه ، وجعلنا منه لبنة تضاف إلى بنائها ، وما لم يكن كذلك صرفنا النظر عنه ، وأخلينا أيدينا منه .

ولكن هذا الأسلوب من الدراسة يفرض علينا أن نرد على اعتراض من شأنه أن يثار هنا ، وهو: على أى أساس أقيمت هذه الشخصية العمرية، التى يحتكم إليها فى قبول أو رفض مايروى عنها من المواقف والأحداث؟ إن هذه الشخصية لايمكن أن تتحدد وتتشخص إلا من خلال هذه المواقف والأحداث .. فكيف تكون هى السبب والمسبب معا ، ثم كيف — وهى مسبب لأسباب — تسبق أسبابها .

ونقول رداً على هذا : إن الشخصية العمرية التى أشرنا إليها هى شخصية قد فرضت نفسها على التاريخ .. ولم يعد أحد بقادر على أن يغير من وجهها ، أو يبدل من صورتها .. وكل مايمكن الدارسين للشخصية العمرية هو أن يقفوا بين يدى هذه الشخصية ، وأن يطوفوا بها ، وأن يقرءوا الأحداث والمواقف المسطورة عنها ، ثم إذا هم جميعا على موقف سواء من تلك الشخصية ، وأنهم جميعاً قد التقوا بعمر ، وأعجبوا به ، وراعهم منه تلك العظمة الإنسانية ، التى تلدها البشرية فى فلتات أزمانها وأجيالها، لتكون شاهدا على مدى اتساع المجال الذى تتحرك فيه الإنسانية ، ذلك

المجال الممتد من بين الأرض والسماء .. فبينا يكون من بنى آدم من هم على مستوى التراب الذى يمشون عليه إذ يكون أفراد منهم قد لامست هاماتهم مدارات الكواكب والنجوم !

أما الذين لم يكن عمر موضع إعجاب وبهرلهم ، فإنهم إذ ينظرون إليه ، إنما تشخص أبصارهم إليه حيث هو فى هذا الأفق البعيد العالى ، وإن ضاقت صدورهم به ، وازورت نفوسهم عنه ، كما تضيق الصدور أحيانا بالنظر فى وجه الشمس ، وتزور النفوس عنها .. ومع ذلك فهى هى الشمس لا يرفع من قدرها رضا الراضين ، ولا مدح المادحين ، كما لا يزيلها عن مكانها سخط الساخطين ، ولا قدح القادحين .

ما كلام الناس فى الشمس إلا هى شمس ليس فيها كلام ! !

وإذن فالشخصية العمرية ، التى نقوم بهذه الدراسة لها ، شخصية مفروغ من البحث فى الاستدلال على عظمتها ، أو مواطن هذه العظمة فيها وإنما نحن منها فى موقف أشبه بموقف بين يدى رائعة من روائع الطبيعة ، تقع من النفوس جميعها موقعاً من الإعجاب والانبهار لا يكاد يختلف روعة وجلالا ، وإن اختلف مذاقا وطعما .

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصغى له ركب تلاحى
شجا قلب الخلى فقيل غنى وبرح بالشجى فقيل ناحا

وعظمة عمر ليست نغما واحداً ، وإنما هى لحن ينتظم كثيراً من الأنغام بعضها قوى عنيف ، وبعضها خفيض هامس ، وبعضها هادر صاخب ، وبعضها ناعم حالم ، أشبه بأوتار العود . لكل وترنغمه ، ومقامه .. ولكن

لا تخطىء الأذن نغم العود مهما اختلفت أنغام أوتاره، وتباعدت مقاماتها !!

والقوة، هى النبرة الواضحة العالية فى الشخصية العمرية، لا نعنى بها القوة التى تضبط بالمكاييل والموازين، ويستدل عليها بالعد والحساب، وإنما نعنى بها تلك القوة التى يبسط بها الإنسان سلطانه على الأمور التى تهجم عليه من داخل نفسه أو خارجها، فيحتويها بشخصيته، ويستولى عليها بكيانه؛ ويملك زمانها برأيه وحزمه، تلك هى قوة عمر، وهى ملاك عظمته وسر هذا الإعجاب الذى حظى منه بأوفر نصيب عند المسلمين وغير المسلمين . . ولعل تلك القوة هى التى أشار إليها أبو بكر حين عزم على قتال المرتدين ومانعى الزكاة بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقد أراده عمر على ألا يغامر بالمسلمين فى هذه الحرب التى يواجه بها معظم قبائل العرب بعد أن لحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى، وتألبت معظم قبائل العرب على قريش التى استأثرت بالنبوة، ثم هاهى ذى تريد أن تستأثر بالخلافة ! فكان رد أبى بكر عليه : « أجباراً فى الجاهلية، خواراً فى الإسلام ياعمر » .

إن أبا بكر لينكر هذا الموقف من عمر لأنه موقف لم يعهده من عمر فى جاهلية أو إسلام، فلقد كان المعروف عن عمر أنه فى جانب القوة دائما .. القوة التى تستغنى باستنادها إلى الحق عن كل قوة، والتى تستخف مع الحق بكل قوة . . فلقد واجه عمر قريشا كلها يوم أن أسلم، فأعلن بصوت جهور أنه قد آمن !! ثم لم يقف عند هذا، بل دعا النبى صلى الله عليه وسلم، والجماعة المؤمنة التى لم تكن تتجاوز الأربعين عدداً إلى الصلاة جهرة وجماعة فى المسجد الحرام على مرأى ومسمع من قريش، فاستجاب له النبى وخرج إلى المسجد فى صفين من أصحابه، على رأس أحدهما عمر،

وعلى الآخر حمزه ! وكان لهم كديد وضجيج هز منازل المشركين ، دون أن يقف أحد فى طريقهم .

ثم كانت هجرة عمر على هذا الوجه الواضح الصريح القوى .. فما هاجر مهاجر قبل عمر إلا مستخفيا عن أعين المشركين ، متسللا من بينهم ، حتى جاء دور عمر ، فأعلن فى قريش أنه مهاجر غداً ، فمن أراد أن تثكله أمه فليلقه خلف الوادى على طريق هجرته .. وعمر هو الذى نادى بقتل أسرى بدر من المشركين ، وفيهم أهله وذوو قرابته .

وعمر ، هو الذى لم يكن منه رضى بمهادنة المشركين فى صلح الحديبية ، بعد بيعة العقبة ، بل نادى بدخول مكة عنوة على المشركين ، ولو كانت الحرب !!

هذا بعض من مواقف عمر التى أملتها عليه « قوته » التى كانت طبيعة مركوزة فيه ، والتى جعلته يأخذ موقفاً فى الحياة يكاد ينفرد به وحده دون جماعة المؤمنين . . ولم يكن عمر أقوى أبطال المسلمين فى الحرب ، ولا أربطهم جأشا ، وأشجعهم قلبا .. بل كان يشاركه ، ويزيد عليه فى هذا كثير من الأبطال ، كعلى ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم ممن عرف بلاؤهم وصبرهم فى القتال .. ولكن قوة عمر كانت قوة رأى ووضوح رؤية تقطع عليه كل شك فى الأمر الذى يعرض له . . فلا يكون منه بعد هذه الرؤية الواضحة الكاشفة ، ارتياب أو تردد ، ومن هنا كان إيمانه بما يقع فى قلبه من أمور الدين ، إيمانا راسخا متمكنا ، يستولى على كل خاجة من خلجات نفسه ، وعلى كل منزع من منازع سلوكه ، فلا يملك أن يعدل بوجهه عن الغاية التى استبانت له ، واجتمع عليها رأيه ، وأمسك بها قلبه .

وللرسول صلى الله عليه وسلم قولة فى عمر رضى الله عنه ، وهى قوله صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما رواه البخارى ومسلم، عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان فى الأمم محدثون ، فإن يكن فى أمتى ، فعمر » .

والمحدث ـ بتشديد الدال وفتحها ـ هو من يهمس فى خاطره من عالم الغيب بحديث ، كأنما يتنزل عليه من السماء ، فتشرق به جوانب نفسه ، ويجد منه برد السكينة والطمأنينة فى قلبه . إنه ـ أى التحديث ـ درجة فوق درجة الإلهام ، حيث يقع الإلهام دون أن يشعر صاحبه بأن قوة خفية ألقت به إليه ، أو أن شيئاً جديداً قد دخل عليه، على حين يجد المحدث كأن كائنا خفياً يعيش فى كيانه ويخالط عقله ووجدانه ، ثم لا يزايله حتى يلقى إليه بالحديث الذى يعيه منه وعى السامع لمن يتحدث إليه .. وهذا التحديث ـ كما أشرنا ـ وارد من عالم الحق ، فكل ما يحمله من معان ومن أخبار ، وأحكام على الوقائع والأحداث ـ كل هذا حق صريح ، لا يخالطه باطل أبداً .

ومن هنا كان ما يقع فى نفس عمر من رأى ، أقرب شىء إلى الوحى ، حيث يملك عليه كل سبيل إلى التأويل فيه أو الانحراف عنه أو التحلل منه حتى لكأن قوة قائمة وراء هذا الرأى تأبى على عمر إلا أن يجهر به ، وإلا أن يشكل منه واقعاً ، وإن وقف به وحده فى وجه الناس جميعاً ..

روى البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال لعمر : « والذى نفسى بيده ، مالقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك » . وهذا يشرح حقيقة قول الرسول الكريم فى عمر وأنه من المحدثين . فإن من كان من المحدثين فلن يكون للشيطان سبيل إليه ، لأن الحق الذى أضاء جوانب نفسه يأبى عليه أن يهادن أو يساوم فى هذا الحق ، وإن هذه القوة لتبلغ غايتها عند رسول الله ﷺ ، حيث واجه

الشرك والمشركين وحده ، وحيث أوقع اليأس فى قلوب المشركين يوم جاءوا إليه يترضونه بما يشاء من ملك أو مال فى مقابل أن يدع الأمر الذى فى يده من الدعوة إلى الله ، فكانت قولته الخالدة لعمه أبى طالب : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر ماتركته ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه »

وبعد ، فقد آن لنا أن نلتقى بسيرة عمر ، فى الجاهلية والإسلام.. وأنه إذا كان يعنينا من عمر الجانب الاسلامى منه ، وهو الجانب الذى لولاه ما كانت لعمر تلك الشخصية الفذة التى أطلق منها الإسلام بتعاليمه وآدابه، تلك الطاقات الخلاقة التى كان من شأنها أن تظل حبيسة فى ظلام الجاهلية وضلالها ، إلى أن تموت بموت صاحبها ، فلا يحس بها أو بصاحبها أحد .. نقول إنه إذا كان يعنينا من عمر الجانب الإسلامى منه ، فإن المورد الذى ورد منه عمر على الاسلام ، لابد أن يكون له حساب فى الحياة الجديدة التى لبسها عمر بالإسلام .. ذلك أن انتقال الإنسان من حياة إلى حياة ، وتحوله من حال إلى حال ، لا يقطع حاضره عن ماضيه ، ولا يعزل يومه عن أمسه أو غده .. فالإنسان إنما هو مدارك ومشاعر، وعواطف، وهى جميعها ثمرة هذا الإنسان ، الذى هو ابن الحياة التى نضج أو ينضج فى بوتقة أيامها ولياليها جميعاً ..

على أننا لا نقف كثيراً عند جاهلية عمر ، وحسبنا أن نعرف البيئة التى نشأ فيها ، والظروف الخاصة أو العامة التى مرت به ، وأثرت فى تكوينه الجسدى أو العقلى ، ثم يكون لقاؤنا ـ بعد هذا ـ بعمر الذى دخل فى دين الله ، وعاش فى صحبة رسول الله .. ثم بعمر بعد وفاة رسول الله ، وموقفه من الخلافة والدعوة بها لأبى بكر . ثم بعمر وقد اختاره أبو بكر خليفة

من بعده ، وكيف اضطلع عمر بأمر الخلافة .. ثم بعمر وقد حضره الموت بطعنة من أبى لؤلؤة المجوسى ــ لعنه الله ــ وأسلوبه فى اختيـــار الخليفة من بعده ..

هذه هى الوجوه البارزة فى سيرة عمر .. وعلى قسمات كل وجه من هذه الوجوه نتبين ما انفرد به عمر من صفات خاصة ، فى زهده ، وفى عدله ، وفى شدته ، وفى لينه ، وفى تطبيقه لأحكام الشريعة ومراعاه تغيير الحكام بتغير الظروف . . إلى غير ذلك مما يمكن أن يطلق عليه « العمريات » نسبة إلى عمر ، إذا كان هو الذى أقامها على هذا الوجه ، وطبعها بهذا الطابع العمرى .

وحول هذه الوجوه البارزة من شخصية عمر ، وفى تلك القسمات العمرية المطبوعة على هذه الوجوه سيكون مدار بحثنا إن شاء الله تعالى . .

* * *

الباب الأول
جاهليّة عمر

ولد عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فى الجاهلية ، وقطع فيها طفولته ، وصباه ، وقطعة غير قليلة من شبابه ، قبل أن يدرك الإسلام ، ويدخل فى دين الله . .

وقد عاش عمر جاهليته على ولاء كامل لعادات الجاهليين وتقاليدهم ، بحيث تتمثل فيه كل سمات الجاهلية ، من حمية ، وغيره ، وعصبية ، وفتوة ولعب بالميسر . ومعاقرة للخمر ، وعبادة للأصنام . . فلم يؤثر عنه أنه خرج على مألوف قومه ، أو أنكر عليهم شيئاً مما هم فيه من ضلال ، وعمى . . إن ولاء عمر لعروبته ، وعصبيته لقومه قد بلغ به الغاية التى نجدها عند قادة الجماعات وزعمائها ، الذين يمثلون خصائص قومهم ويحملون فى كيانهم أبرز ما فى القوم من صفات جسدية ، وعقلية ، ونفسية ، ومن عادات وتقاليد وموروثات . . وعلى الرغم من أن ابن عمه زيد بن نفيل ، كان ممن نظر فى حياة قومه ، فأنكر عليهم عبادة الأوثان ، فكان لا يلم بها ، ولا يغشى أماكنها ، ولا يأكل ما ذبح على النصب ، وكان يطلب دين إبراهيم ، وينتظر ظهور النبى الذى أظل زمانه ، وظهرت البشرات بين يدى مولده ــ على الرغم من هذا . فإن عمر لم يلتفت إلى هذا الاتجاه الذى اتجه إليه ابن عمه « زيد » هذا ، بل ربما كان قد اتجه إليه اتجاه المنكر له ، ولكنه لم يقف منه موقفا عدائيا ، إذ لم يكن يرى فيه أكثر من مزاج منحرف ذهب بصاحبه هذا المذهب لا يعنى أحداً غيره . . ولو أنه كان يرى فى موقف زيد حركة تهدد النظام الذى قام عليه بناء قومه ، لوقف فى وجهه ، وأخذ عليه كل سبيل ، كما فعل مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم قبل أن يدخل فى الإسلام ، وكما فعل مع ابن عمه « سعيد بن زيد » ، وأخته (أم جميل) بنت الخطاب ، زوج سعيد هذا ، وقد سبقاه إلى الإسلام ، كما سنرى ذلك فى خبر إسلامه . .

وهذا الوفاء من عمر لحياة الجاهلية التى كان يحياها لا يدخل منه شىء من الضيم على مكانته فى الإسلام ، ولا يحسب عليه شىء منه . . لأن الناس يولدون فى الإسلام ميلادا جديدا من يوم أن يدخلوا فيه ، حيث يطوى الإسلام كل صحائف أعمالهم قبل الإسلام ، ويفتح لهم كتابا جديدا ، تسجل فى صحفه أعمالهم التى يعملونها فى ظله . .

وإذا كان لنا أن ننظر فى حياة عمر فى الجاهلية وفى حفاظه على موروثات عاداتها وتقاليدها ، فليس ذلك إلا للتعرف على مقومات شخصية عمر ، التى دخل بها فى الإسلام . . فالإنسان السوى لا تغير الأحداث من شخصيته ، ولا تذهب بالملامح البارزة فيها . . فالشجاع ، شجاع فى الحرب وفى السلم ، والكريم ، كريم فى الجدب وفى الخصب . . وهكذا يلقى الإنسان السوى الحياة بوجوده كله ، ويواجه الأحداث بشخصيته جميعها . . وهذا ما يشير إليه الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه فى قوله : (الناس معادن : خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا رشدوا) . . فالمعدن الكريم ، هو معدن كريم حيث كان ، لا ينقص من قيمته أن يكون آنية محملة بالأقذار الكريهة ، ولا يرفع من قدره أن يكون عيبة مسك وإن كان فى الحال الأولى مصدر أذى وضر لمن يدنو منه ، وكان فى الحال الثانية مبعث بهجة ورضا لمن يلم به . . ولهذا كان من دعاء الرسول الكريم فى مطلع الدعوة الإسلامية : (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، أبو جهل بن هشام ، أو عمر بن الخطاب) .

فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يرى فى الرجلين ـ مع شدة عداوتهما الاسلام ـ كسباً عظيما للدعوة الإسلامية ، إذا هى ظفرت بأى منهما ، لأنهما ـ فى أصلهما معدن كريم من معادن الرجال ، ولكن غطى على هذا المعدن ما غشيه من ظلام الجاهلية ، وضلالها . فلو أن هذا الظلام والضباب قد انجلى عنها ، لعاد إليها صفاؤها ، ولانكشفت حقيقتها ، ولبان فى الناس أثرها وخطرها .. كالذهب يعلو صفحته التراب ، فلا يعرف جوهره إلا إذا انكشف التراب عنه ، والإسلام كفيل بأن يعيد إلى هذه النفوس وجودها ، وأن يرد إليها اعتبارها ، إذا هى وردت موارده ، ورويت من ينابيعه .

ولعل سؤالا يرد على الخاطر هنا ، وهو ، لماذا كانت دعوة الرسول الكريم قاصرة على أحد الرجلين ، عمر بن الخطاب ، أو أبى جهل ابن هشام . . ولماذا لم تكن طالبة للرجلين معا ؟ أليس ذلك مما يزيد جبهة الاسلام قوة لو ظفر الاسلام بالرجلين معاً أكثر مما لو ظفر بأحدهما .

والجواب على هذا يحتمل أموراً :

أولها : أن يكون الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد وعد من ربه سبحانه وتعالى بدعوة مستجابة له بإيمان أحد أولئك الجبابرة الذين يقفون سداً عاتياً فى وجه الدعوة . . فكان أن نظر الرسول الكريم فى وجوه القوم ليختار الرجل الذى يختصه بدعوته ، فتساوى لديه فى هذا المقام عمر ، وأبو جهل ، فكانت دعوته لهما ، وكان إلى الله أن يستجيب للنبى فى أحب الرجلين إليه سبحانه وتعالى . . فكانت الدعوة مستجابة لعمر . .

ثانيهما : أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يعلم ـ مما علمه ربه ، مما نزل عليه من آياته ـ أن أكثر هؤلاء المشركين قد حق عليهم القول ، وأنهم لا يؤمنون بل سيموتون على شركهم الذى هم فيه ، كما يقول سبحانه وتعالى : (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) ومن ثم لم يكن للنبى أن يدعو الله تعالى لهم بالدخول فى الاسلام ، وإنما عليه أن يلقاهم بالدعوة إلى الاسلام ، وأن يتلو عليهم آيات الله ، ليقيم الحجة عليهم فإذا دعا ربه لهم بعد هذا كان دعاؤه فى أضيق الحدود ، فى واحد يتخيره أو فى واحد من اثنين ، يدع لله سبحانه وتعالى الأمر فيه . .

وثالثهما : أن دعاء النبى صلى الله عليه وسلم مستجاب عند ربه ، فلو أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ دعا ربه بما يشاء فى قومه لاستجيب له ـ ولكنه يعلم أن له رسالة فى قومه ، وجهاداً فى سبيل الله لإبلاغ تلك الرسالة ، والذود عنها ، وأن إيمان قومه بدعوة مستجابة من الله تعالى له فيهم ، هو مما يبطل الحكمة من رسالته التى هى ابتلاء واختبار ، يميز الله تعالى بها الخبيث من الطيب ! !

وندع هذا ، لنقول إن إسلام عمر ، كان حدثا فريدا فى الاسلام ، لم يشاركه فيه أحد من المسلمين ، ممن سبقوه أو جاءوا بعده . . فلقد كان إيمانه بدعوة مستجابة فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأمر الذى لم يكن لمسلم غيره .

فهل لهذا الأمر من تأويل ؟ وهل هو مما يفرد عمر بمزية خاصة ترتفع بإسلام عمر إلى درجة غير درجة السابقين من المهاجرين والأنصار من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ولقد يقول قائل ممن ينتقصون فضل عمر ، ويتصيدون له العثرات والزلات — إن هذا الخبر — إن صح — فإنه يعد منقصة فى حق عمر ، لافضيلة ! . . لأنه لم يؤمن عن بلاء وتمحيص ، وعن جهد ذاتى ، ونظر فى وجه الحق الذى بين يدى الرسول ، وإنما جاءه الإيمان بدفعة من يد خفية لم يملك معها دفعا . . فإيمانه هذا أشبه بإيمان المضطر ، إذ لا خيار له فيه ، ولا رأى له معه ! !

ونقول : إن فى هذا القول عدوانا على الحق ، ومجافاة للعدل . . وأنه إذا كان عمر قد أسلم بدعوة مستجابة من رسول الله فيه ، فإن ذلك لا يخرج عن كونه توفيقا من الله سبحانه وتعالى لعمر ، شأنه فى هذا شأن كل من استقام على طريق الحق ، وهدى إلى صراط مستقيم ، إذ لا يكون ذلك إلا بتوفيق من الله ، كما لا يكون انحراف المنحرفين وضلال الضالين إلا بخذلان من الله ، نعوذ بالله منه .. والله سبحانه وتعالى يقول : «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء .. »

فالدعوة المستجابة من رسول الله ﷺ فى عمر ، كانت توفيقا من الله سبحانه وتعالى أصاب عمر ، فشرح الله به صدره للاسلام . وملأ قلبه إيمانا ويقينا به . . إنه توفيق ممدود بعناية خاصة من الله سبحانه وتعالى : « والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (١٠٥ : البقرة) .

نسبه : اسمه ولقبه :

يلتقى نسب عمر بن الخطاب برسول الله ﷺ فى الجد السابع ، « كعب ابن لؤى» وأبوه هو الخطاب بن فضل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله ابن قرط بن زراع بن عدى بن كعب بن لؤى . .

وأمه « حنتمة » بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .. وهاشم هذا هو أخو هشام بن المغيرة « أبو جهل » .. ولهذا كان عمر فى الجاهلية يدعو أبا جهل خاله ، لأنه ابن عم أمه ، ومن هنا دخل على بعض المؤرخين أن أبا جهل هو خال عمر ، على الحقيقة لا على سبيل التوسعة ، فى تسمية العم أبا ، وابن العم أخا . .

واسم « عمر » هو اسمه فى الجاهلية والاسلام ، هو اسم أحد أجداد أمه ، عمر بن مخزوم . . وقد كناه رسول الله ﷺ « أبا حفص » وكان ذلك يوم بدر ، على ماذكره ابن إسحق . .

والذى نرجحه هو أن عمر كنى بأول ولد له ، وأن هذا الولد كان اسمه « حفصاً » وأنه قد مات صغيرا ، وشاهد هذا أن عمر سمى إحدى بناته « حفصة » وهى أم المؤمنين ، رضى الله عنها ..

فاسم « حفص » و « حفصة » من الأسماء الواردة على خاطر عمر ، فى تسمية أبنائه أو بناته بها . . ومن عادة العرب أن يكنوا بعضهم بأول مولود يولد للرجل منهم ، وقد كنى رسول الله ﷺ بأبى القاسم ، الإبن الثانى له ، ولعل الولد الأول وهو « عبد الله » لم يعش إلا أياماً بعد ولادته، ولم ير الناس وجهه !

أما لقب « الفاروق » الذى اشتهر به عمر ، فقد اختلف فيمن لقبه به ، فقيل إن رسول الله ﷺ هو الذى لقبه بالفاروق ، وقيل إن الله تعالى هو الذى خلع عليه هذا الوصف الكريم ، ونزل جبريل مخبرا عن الله تعالى النبى صلى الله عليه وسلم به . .

فيروى عن ابن عباس أن عمر قال : « إنما سمانى رسول الله ﷺ بالفاروق يوم أسلمت ، وإذ قلت يارسول الله : ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم ».. قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن ، فأخرجناه صلى الله عليه وسلم فى صفين ، حمزة فى أحدهما ، وأنا فى الآخر ، ولى كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد . . فنظرت قريش إلى وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالفاروق .. فرق الله بى بين الحق والباطل » .

ويروى عن الشعبى أن رجلا من المنافقين ويهوديا اختصما ، فقال اليهودى ننطلق إلى محمد بن عبد الله ـ ليقضى بيننا ، وقال المنافق : بل إلى كعب بن الأشرف ، فأبى اليهودى ، وأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى لليهودى ، فلما خرج ، قال المنافق ننطلق إلى عمر بن الخطاب فأقبلا إليه فقصا عليه القصة ، فقال رويداً حتى أخرج إليكما ، فدخل البيت ، واشتمل على السيف ثم خرج فضرب عنق المنافق ، وقال : هكذا أقضى بين ممن لم يرض بقضاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فنزل جبريل ، فقال : إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمى الفاروق . . » .

ويروى عن ابن عباس ـ غير ماروى عنه من قبل ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : بينما أنا جالس فى مسجدى أتحدث مع جبريل ، إذ دخل عمر بن الخطاب ، فقال : أليس هذا أخوك عمر بن الخطاب ؟ فقلت : بلى ياأخى : أله اسم فى السماء كما له اسم فى الأرض ؟ فقال والذى بعثك بالحق إن اسمه فى السماء أشهر من اسمه فى الأرض . . اسمه فى السماء فاروق ، وفى الأرض عمر ! ! »

وهناك روايات أخرى كثيرة تدور فى هذا المجال ، وقد اختلفت وتضاربت فى الوقت الذى سمى فيه عمر بهذا الاسم ، أو وصف فيه بتلك الصفة . . « الفاروق » فبعض الروايات ، كما رأينا فى رواية ابن عباس ـ الأولى ـ تقول إن ذلك كان لأول يوم دخل فيه الإسلام ، وعلى حين أن الرواية عن الشعبى تصرح بمفهومها أن ذلك كان بعد الهجرة ، حيث كانت خصومة بين يهودى ومنافق ، والنفاق لم يظهر إلا بعد الهجرة ، حيث قويت شوكة الإسلام ، وعلت كلمة المسلمين .. وأما الرواية الثانية عن ابن عباس ، فهى تصرح بمنطوقها ومفهومها أن ذلك كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى مسجده بالمدينة يتحدث مع جبريل عليه السلام . .

ولا يمكن القطع بصحة أية رواية من هذه الروايات ، وإن كنا نستبعد روايه الشعبى التى نرى فيها عمر يقتل رجلا من المسلمين ، عده منافقا ، ولم يرجع فى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن بين يديه سابقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل فيها أحد المنافقين الذين نزل القرآن الكريم فاضحاً لهم ، معلناً من نفاقهم . : فبعيد غاية البعد أن يقتل عمر هذا الذى قيل إنه قتله حين تبين له أنه منافق .

وقد يمكن حمل هذا الخبر على عمر رضى الله عنه رأى فى عدم رضا هذا المؤمن الذى استبطن النفاق بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن ذلك ردة عن الاسلام ، وكفر صريح ، وفتنة معلنة بين المسلمين واليهود فقتله .

ولا نستبعد كذلك أن يكون هذا الوصف قد خلفه المسلمون على عمر فى خلافته لمـــا اشتهر به من عدله ، وإن يكون هذا الوصف قد نطق به ناطق

فى حال ما ثم وجدله قبولا فى نفوس المسلمين، فجرى على ألسنة الناس، وتداولوه فيما بينهم .. كما لا نستبعد أن يكون هذا الوصف قد لحق بعمر بعد وفاته، وبعد أن نجمت فى المسلمين تلك الأحداث التى كانت فى أواخر خلافة عثمان — رضى الله عنه — والتى انتهت بقتله، أو تلك التى ظهرت فى خلافة على، وأدت إلى موقعة الجمل، وإلى تلك الحروب التى كانت بين على ومعاوية.. حيث كانت عيون الناس شاخصة — فى مواجهة هذه الأحداث إلى عمر، وإلى ما وجد الناس فى خلافته من سلام، وأمن وسكينة، فكان ذلك مدعاة إلى استحضار سيرة عمر، وتقليب صحف خلافته، وكيف أقام ميزان العدل والأمن، والسلام فى كل مواطن الإسلام على اتساع رقعتها، وامتداد آفاقها . . فكانوا يشيرون إليه بكلمة الفاروق .

وعلى أى، فإن هذا الوصف هو أليق الأوصاف بعمر، وأقربها نسبا إليه، وأكثرها دلالة عليه . .

صفاته الجسدية .

هذا، ويذكر المؤرخون من صفات « عمر » الجسدية أنه كان آدم — أى أسمر — شديد الأدمة، وأنه كان طوالا جسيما أصلع شديد حمرة العينين، خفيف العارضتين .. وأنه كان أعسر أيسر أى يعمل بكلتا يديه .. وأنه إذا مشى يتباعد صدره قدميه ويتدانى عقباه ..

صفاته النفسية :

وإذا كان لنا أن نستدل من هذه الأوصاف الجسدية على شيء من صفات

عمر النفسية أو العقلية ، فإن لنا أن نقول إن حمرة العينين تنبىء عن صراع قوى بين الجسد والروح ، بحيث يقع الجسد تحت وطأة الأرق من هذا الصراع ، إذ تحاول الروح دائماً أن تستشف ما وراء العالم المادى ، وتكتشف شيئاً مما وراء حجبه .. وذلك غالباً ما يغلب على أصحاب المجاهدات ، وأهل الكشف ، حيث يكون من سمات الكثير منهم تلك الحمرة التى تفشى بياض العينين وتخالطه . وليس يعنى هذا أن هذه الحمرة يلازمها دائماً أن يكون صاحبها ذا قدرة على الكشف . . ولكن يكون سمة دالة على أنه إذا وجد هذا الوصف فى إنسان عرف عنه أنه من ذوى البصائر النافذة كعمر ابن الخطاب ، وكان من شأن هذه الصفة الجسدية أن تكون قرينة مادية على صدق هــذا الاستقراء فى بعض أفراده ، وإن لم يكن منسحبا على جميع الأفراد . .

وقد عرف عمر بصدق الفراسة ، وبصحة التظنى للأمور .. فكان إذا تظنى أمرا وقع كما تظناه .. إنه ملهم تتكشف له غايات الأمور ، وتستدير له عواقبها ، فيرى غائبها حاضرا وقريبها بعيدا ، وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قد كان فى الأمم محدثون — أى ملهمون — فإن يكن فى أمتى أحد — فهو عمر بن الخطاب » وسنرى فى فصول هذا الكتاب — إن شاء الله — مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمر ، وأنه كان من المحدثين ..

ونسأل ، أذلك الالهام . وصدق الفراسة كان طبيعة قائمة فى نفس عمر ، وجبلة مستقرة فيه ، أم هو كسب جاءه عن طريق الإسلام بما سكب هذا الدين فى قلبه من نور ، وبما أفاض عليه من روحانية وصفاء ؟

ونستطيع أن نجمع بين الأمرين فى عمر .. فنقول : إنها طبيعة جلاها الإسلام فى عمر ، وكشف الغطاء عنها ، فكانت موارد هذا الإلهام عنده طبيعة وكسباً معاً ..

فلقد كان عمر فى جاهلية من النسابين المعدودين ، شأن كثير من حكماء العرب ، وذوى الفراسة فيهم . وقد ورث هذه الصفة عن أبيه الذى ورثها عن جده . يقول الجاحظ : «ثلاثة فى نسب واحد كانوا أصحاب نسب : عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ ذلك عن الخطاب أبيه ، وكان كثيراً ما يقول : سمعت هذا من الخطاب ، ولم أسمع هذا من الخطاب ، والخطاب ابن نفيل ، ونفيل بن عبد العزى .. وتنافر إلى نفيل عبد المطلب بن هاشم ، وحرب بن أمية ، فنفر عبد المطلب ، أى حكم له على صاحبه »[1] ، فهو من أهل بيت لهم استطلاعات فى حياة الناس ، ودراسات فى فروعهم وأصولهم ، تشد الفروع إلى الأصول ، وتجمع الخلف إلى السلف ، فيما ينتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء .. ولا تتهيأ هذه الدراسة لكل إنسان ، وتستجيب له .. إنها تحتاج إلى ذكاء ، وفراسة ، وألمعية .. وكان لعمر من هذه الصفات حظ غير قليل ، عرف بها فى الجاهلية ، وأجالها فى مجالات كثيرة .. فكان له معرفة بالقراءة والكتابة ـ وهو أمر كان نادراً فى حياة الجاهليين ـ وكان يحفظ الكثير من الشعر ويرويه ، وينقده نقد الصيرفى البصير .. فقد روى عن محمد بن سلام الجمحى أن عمر بن الخطاب ، كان لا يعرض له أمر إلا تمثل فيه ببيت شعر ..

ورسائل عمر وخطبه ؛ ومحاوراته ، ومقاطع كلماته ، تكشف عن ثقافة

---

(١) البيان والتبيين : الجاحظ — تحقيق السندوبى ج ١ ص ٢٤٤ .

واسعة ، ونظر نافذ ، وبصيرة كاشفة .. كما سنرى لهذا شواهد كثيرة ، فيما يلقانا من فصول هذا الكتاب ، إن شاء الله . فهذا كله مما يعين على تنمية موروثة من آبائه ، وما عرف لهم من فطنة وذكاء ..

كذلك مما وصف به عمر من أنه كان أيسر أعسر ، أى يعمل بكلتا يديه ، اليمين والشمال ، وهذ الذى يسمى (الأضبط) . فهذا التكوين الجسدى ليدى عمر من شأنه أن يعطى دلالة خاصة على إرادة قوية ، وهمة مهيأة للاطلاع بعظائم الأمور بحيث يرى صاحبها أن عليه أن يلقى الحياة بكل قوة مندسة فى كيانه وأن يطلق كل طاقة مستقرة فيه ، وألا يسمح لأى عضو من أعضائه أن يأخذ دوراً ثانوياً فى معركة الحياة ..

واليدان هما أكثر أعضاء الإنسان وجوارحه ، عملا وأثراً فى الحياة ، بهما يأخذ ويعطى ، وبهما يصول ويجول ، وبهما يصنع ويبدع ، إنهما أشبه بالجناحين للطائر ، وإنه بقدر ما يعمل الجناحان ويقويان على التحليق بقدر ما يملك الطائر من مملكة السماء ، وبقدر ما يكون له من سلطان هناك ..

وإذن فهذه الظاهرة الجسدية فى عمر إن أمكن إغفالها ، وعدم الالتفات إليها عند كثير ممن شاركوا عمر فيها ، ولم يشاركوه فى العظمة التى تفرد بها — فإنه لا يمكن إغفالها عند الدراسة لشخصية عمر ، والبحث عن موارد عظمته الطبيعية ، أو الكسبية ، إذ ينبغى أن يكون لكل صغير أو كبير حسابه فى هذه الظاهرة أو الخارقة العجيبة ، فى ميزان العظمة لهذ الإنسان. العظيم الذى يكمن سر عظمته فى طاقة خلاقة مبدعة ، تضبط هذه الأجهزة التى اشتمل عليها بناؤه الجسدى ، وتديرها على الوجه الذى يفجر منها ما يفجر « الدينامو » من حرارة ونور عندما تثيره الأحداث ، وتحركه المواقف المتأزمة ، على حين أن كثيراً من الناس الذين يشاركون « عمر » فى

صفاته الجسدية تلك ـ كلها أو بعضها ـ وليس فيهم هذا السر الذى يبعث في كيانهم الجسدى هذا التجاوب بين قواه الكامنة فى كل عضو ـ هؤلاء أشبه « بالدينامو » الذى انقطع عنه التيار الكهربى ، فيظل هكذا صورة بلا حركة ، وجسداً بلا روح ..

فالعدل الذى اشتهر به عمر ، يمكن أن يقوم له شاهد من تلك المساواة بين يمناه ويسراه ، فى العمل له ، على خلاف ما عليه الناس . قد كانت يمناه ويسراه أشبها بكفتى ميزان استقامة وضبطا . . والصلابة التى عرف بها عمر فى مواقف الحق ، هى صلابة إنسان ليس فيه جانب لين إلى جوار جانب قوى .. وإنما جانباه معا على سواء فى القوة التى لا يدخل عليها ضعف من أية ناحية منه ..

ويتحدث التاريخ عن عمر أنه كان فى جاهليته رأساً من رءوس قريش وأشرافهم ، وإليه كانت سفارتها ، فإذا أوقع بين قريش وبين غيرهم حربا، ثم كان صلح بين الفريقين ، بعثوا عمر سفيرا يقول كلمة قريش فى هذا الصلح ما إلى هذا .. وإذا نافر قريشاً منافر ، أو فاخرهم مفاخر ، من ينافرهم أو يفاخرهم[1] .

وفى هذا دلالة على أن عمر كان يمثل الوجه البارز فى قريش ، من حيث اعتدادها بنفسها ، وفخرها بحسبها ونسبها ، وقوة عارضتها فى الجدل والخصام ..

يقول ابن أبى الحديد ، عن عمر ـ رضى الله تعالى عنه ـ : « وكان فى أخلاق عمر وألفاظه جفاء وعنجهية ظاهرة »[2] .

---

(١) انظر الرياض النضرة فى مناقب العشرة . المحب الطبرى . ج ٢ ص ٢٤٨

(٢) شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد ج ١ ص ١٨٣

وهذا الجفاء وتلك العنجهية هما من واردات الاعتزاز بالنفس، والاعتداد بها ، فيؤثر صاحبها ركوب الخشن ، وإيثار الحزن على السهل من كل شيء في قول أو عمل ، فالصلابة ، والخشونة ، والغلظة ، والنبرة القوية ، مما تحمده العرب ، وتنشيء عليه أبناءها ، وتستعرضه في مواقف الخصومة ، ليكون هذا المظهر أرهب للخصم ، وأقتل لكثير من منازع طمعه في خصمه .. وذلك أشبه باستعراض الأمم لجيوشها ، ومعدات قتالها .. وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في عمرة القضاء ، وهم يطوفون بالبيت ، ويسعون بين الصفا والمروة ، وعيون قريش ترصدهم ـ أمرهم أن يجدوا في سيرهم ، وأن يزلزلوا الأرض بأقدامهم ، حتى تشهد قريش ما بهم من بأس وقوة . فيقول صلوات الله وسلامه عليه يومئذ « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة »

هكذا كانت تنظر العرب من خلال المظاهر الجسدية إلى ماوراءها من قوى مادية ومعنوية معاً . .

فالنفوس القوية لا يوائمها من الأمور إلا ما كان مثلها في القوة والصلابة . . فآكلة اللحوم من الحيوان لا تقارب النبات وما يخرج منه لأن جهازها الهضمي لا يعمل إلا مع الطعام القوى الذى يجد فيه قوة وقدرة على تحريك تلك الأعضاء العاملة في هضم الطعام .. وكذلك النفوس الكبيرة لا يحركها إلا عظائم الأمور ولا يكشف عن معدنها إلا الاحتكاك بالخشن الصعب منها ـ وإلى هذا المعنى يشير المتنبى بقوله :

سبحان خالق نفسى كيف لذتها ... فيما النفوس تراه غاية الألم ! !

وفى هذا المعنى يقول أيضاً :

وشر ما قنصته راحتى قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم

وقد صحب هذا الجفاء وتلك العنجهية ، عمر فى إسلامه ، قولا وسلوكا ، فكان فى ألفاظه كثير من الغريب الجافى ، الذى تجنبه القرآن الكريم .. إذ قد أثر عن عمر فى محاوراته ، وفى مقاطع تشريعاته وأحكامه من غريب الكلام ما يصح أن يطلق عليه (القاموس اللغوى) لعمر بن الخطاب .. ولا بأس هنا من أن نذكر بعض الشواهد لهذا ، مما احتفظ به التاريخ من سيرة عمر بعد الإسلام ، ففيه إشارة واضحة إلى أن هذه القوة ، وتلك الخشونة طبيعة ملازمة لعمر فى جاهليته وإسلامه ..

جاء إلى عمر رجل فى سنة جدباء يسأله ، فقال الرجل : هلكت وأهلكت : فقال له عمر : أهلكت وأنت تنث نثيث الحميت ؟ أعطوه ربعة من الصدقة[1] .

فكلمات : تنث ، ونثيث ، والحميت ، من الكلمات الغليظة الجافية ، التى تتجنبها الطباع اللينة ، وتتجاوزها إلى غيرها مما هو أرق وألين ..

ويقول عمر ، وقد دعى إلى أن يتخذ له طعاما غير ما اعتاد من طعامه الخشن : لو أشاء لدعوت بصلاء ، وصناب ، وصلائق ، وكرا كرة وأسنمة وأفلاذ .. والصلاء ، هو الشواء من اللحم ؛ والصناب : الخردل بالزبيب ، والصلائق : الخبز الرقيق ، والأفلاذ : جمع فلذ ، وهو القطعة من الكبد ، ونحوه ..

فانظر كيف استدعى عمر هذه الكلمات : صلاء ، وصناب ، وصلائق ،

(١) الحميت : الإناء فيه اللبن أو السمن .. والنثيث : العرق .. والمعنى : أتقول أنك هلكت من الجوع وأنت تمر يرشح جسمك عرقا من كثرة الطعم ، والربعة من الإبل ما ولد فى أول النتاج والذكر ربع

وكراكرة ، وأسمنة ، وأفلاذ ، وحشدها جميعاً بين يديه ، كأنما يحشد كتيبة لمعركة حاسمة ، يتخير لها أقوى الأبطال قوة ، وأشدهم مراساً .. ! !

وفى حديث له ، وهو يذكر صباه فى الجاهلية ، وخشونة الحياة التى كان يحياها ..

لقد رأيتنى مرة وأختاً لى ترعى على أبوينا ناضحاً لنا ، وقد ألبستنا أمنا نقبتها [1] ، وزودتنا بيمينتيها من الهبيد،فنخرج بناضحنا ، فإذا طلعت الشمس ألقيت النقبة إلى أختى ، وخرجت أسعى عريان ، فنرجع إلى أمنا وقد جعلت لنا لفيتة من هذا الهبيد ، فياخصباه ! !

والناضح : البعير الذى يستخدم فى رفع الماء من البئر .. والنقبة : القطعة من الثوب .. واليمينتين ، مثنى يمين .. ولم يقل يديها ولا كفيها ، لأنه لم يرد أنها جمعت كفيها ثم أعطتهما بهما ، وإنما أراد أنها أعطت كل واحد كفا كفا بيمينها ، فهاتان يمينان.. والهبيد : حب الحنظل ، يعالج حتى يمكن أكله .. واللفيتة : ضرب من الطبيخ ، كالحساء .

وهذا يعنى أن بيت عمر كان فقيرا ، وأنه لم يكن من أبناء ذوى اليسار فى قريش .. ومع هذا امتلأت نفسه بالعزة العربية ، وشمخ أنفه بالنسب القرشى ، فكان فى الجاهلية رأسا من رؤس قريش ، وسيدا من سادتها ، وصاحب كلمة مسموعة فيها ..

ثم يعنى هذا — من جهة أخرى — أن تلك الحياة الموحشة القاسية ،

(١) النقبة : ما تلقيه المرأة على وجهها ، لتستره به ، وهو الخمار .

قد استلانها عمر منذ مطلع حياته ، وراض نفسه عليها ، وأمسك بها أن تتطلع إلى ماوراءها ، مما كان يذكره أبناء ذوى اليسار من طعامهم ، ومايخرجون به على أعين الصبيان من أزياء مجلوبة من تجارات الشام واليمن .. لقد وجد عمر فى ذات نفسه أنه فى جوعه وعريه أثقل ميزانا ، وأرفع شأنا من لداته هؤلاء الذين يأكلون طيب الطعام ، ويلبسون لين الثياب .. حتى إنه ليجد فى هذا الطعام الخشن أنه طيب لين ، لا تطلب نفسه طعاما أشهى منه ، وحتى إنه ليجد هذه الخرقة التى يلبسها هو وأخته معاً ، والتى لاتكاد تستر إلا القليل من جسديهما — يجد فى هذه الخرقة مايزيد عن حاجته ، بل إنه فى غير حاجة إليها ، أو إلى غيرها من الملابس ، فيلقى بها من جسده ، استعلاء على ضرورات الحياة ، وكسراً لقيودها التى تلزم الناس الخضوع لسلطانها .. !!

هكذا النفوس الكبيرة . تستغنى بمشاعر العظمة التى تتحرك فى كيانها عن كل ما يرد عليها من خارج ذاتها ، وتأنف أن تكون مستنده إلى غير وجودها ، أو قائمة على غير أصولها ..

يروى أن جماعة كانوا على سفر وقد مرت بهم ليلة قد عصفت ريحها ، واشتد بردها ، حتى لكادت تتلف من ذلك نفوسهم ، فأوقدوا ناراً ، ولصقوا بها ، وفيهم أعرابى أقام حيث هو بعيداً عن النار ، فقيل له : ألا تستدفىء ؟ قال : « إنما يدفئنى حسبى !! » ..

إنها مشاعر نفس عظيمة ، متعالية عن الحاجة ، مترفعة عن أن تحكمها الضرورة ..

وإذا ذكرنا هنا تقشف عمر ، وزهده ، وترفعه عن طيب الطعام ولين

الباس ، وبين يديه خزائن كسرى وقيصر ـ فلنذكر أن عظمة نفسه تلك التى صحبته منذ صباه هى التى أبت عليه أن يغير جلده ، وأن يبدل لونه الذى ولد به ، وأن ذلك مما أعانه على أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى هذا ، وأن يكون مضرب المثل فى الوفاء لهذه الأسوة ، وعزل نفسه عن الحياة الجديدة التى دخلت على المسلمين ، مما أفاء الله عليه من غنائم.. وسيط العناقى سيرة عمر كثير من مواقفه مع نفسه ، وحسابه الحساب العسير لها ، وحملها على حمل هموم المسلمين فى دولة الإسلام كلها . وقد امتدت أوطانها ، وتعددت شعوبها ، وحتى ليكون منه أن يرى أنه مسئول عن كل ذى نفس ، ولو كان من عالم الحيوان فى هذه الدولة ذات العرض والطول » . . يقول عمر : « لو مات جدى بطفت[1] العراق لخشيت أن يطالب الله به عمر » !.

وليس هذا القول من عمر على سبيل المجاز ، بل هو الحقيقة التى يعنيها عمر ، ويؤمن بها ، ويعمل جاهدا على الوفاء بها . .

عن عيسى بن طلحة ، قال قلت لابن عباس : أخبرنى عن أبى بكر ، قال : كان خيراً كله ، على الحدة ، وشدة الغضب (أى كان خيراً كله ، مع ما فيه من حدة وشدة غضب) قال : قلت أخبرنى عن عمر : قال : كان كالطائر الحذر ، قد علم أنه نصب له فى كل وجه حباله (أى شبكة صيد)[2] .

ومن اعتزاز عمر بنفسه كما التقى بها ، أو كما التقت به على تلك الحال

---

(١) طفت العراق : طف الشىء . . أعلاه . ويريد به عمر أبعد مكان فى العراق بالنسبة إلى المدينة حيث كان مقيما .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ، حـ ٣ ص ٢٦٦ تحقيق عبد السلام هارون .

من الفقر ، فى الجاهلية ، الأمر الذى أبى عليه أن يخرج بها عن مألوفها مما اعتادت من لقيمات الطعام وخشن اللباس ـ من هذا الاعتزاز أنه لم يغير لون شعره ، ولم يصبغه بأى صبغ ، فقد روى عن ابن عمر ، أن عمر كان لا يغير شيبه ، فقيل له يا أمير المؤمنين : ألا تغير ؟ ـ وقد كان أبو بكر يغير ـ فقال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة . . وما أنا بمغير ! ! .. وإذا لم يصح هذا الخبر ، فأحر به أن يكون صحيحاً ، لأنه يستقيم مع طبيعة عمر ، ويجرى مع أسلوب حياته المادية التى عاشها فى الجاهلية والإسلام .. فى الفقر والغنى ، فى العسر واليسر . .

إنه عمر كما عرف نفسه منذ طفولته . : إنه يأخذ من الحياة ما يزيد فى بنائه الجسدى ، دون أن يأخذ منها ما يغير من فطرته التى فطره الله تعالى عليها .. فكان عمر الطفل ، هو عمر الصبى ، وهو عمر الفتى ، وهو عمر الكهل ، وهو عمر الشيخ .. وكان عمر ابن الجاهلية هو عمر ابن الإسلام ، فى قوته ، وشدته ، وصراحته ، وصرامته ، كانت الجاهلية ليل عمر ، وكان الإسلام نهاره ، وهكذا اختصر عمر حياته كلها فى يوم واحد ، ليله جاهلية لا ضوء فيه ، ونهاره إسلام ليس فيه بقية من ظلام !!

الباب الثانى
عمر فى الاسلام

الفصل الأول

كيف دخل عمر في الإسلام

لم يكن من القريب الميسور أن يستجيب عمر لدعوة الإسلام ، كما أنه لم يكن من العسير المستبعد أن يستجيب لتلك الدعوة ، وأن يكون من السابقين إليها ..

أما أنه لم يكن يستجيب لدعوة الإسلام من قريب ، ويدخل مع الداخلين فى دين الله لأول داع يدعوه إليه ، فذلك لما عرف عن عمر من اعتزاز بنفسه ، والاحتفاظ بها فى القالب الذى صحب بها الحياة فيه ، والذى أقام فى كيانه شعوراً بأنه أكبر من أن يكون تابعاً لإنسان فى أى موقع من مواقع الحياة .. وذلك فضلا عن المكانة التى كانت له فى قريش ، تلك المكانة التى تفرض عليه أن يقف مع سادتها فى وجه كل حدث يعرض لها ، ويؤثر فى مجرى حياتها ، ويغير من موروث عاداتها ، وتقاليدها .. فكان لا بد أن يستقبل عمر دعوة الدين الجديد بما استقبلها به رءوس قومه ، كأبى جهل ، وأبى سفيان ، وأبى لهب ، والوليد بن المغيرة وغيرهم .. ممن قاموا فى وجه الدعوة الإسلامية ، وحاولوا بكل ما لهم من قوة ، التصدى للنبى ، والإمساك بمن استجاب له .. ليحولوا بينهم وبين اللحاق به ، والاتباع له .. إنه يمثل فى قريش كبرياءها ، وعنادها وتشامخها على الناس ، وأدلالها عليهم بأنهم تبع ، لها ، ومنقادون لرأيها ، ومقلدون لما تأخذ أو ندع من الأمور ، إذ كان إلى قريش قيام البيت الحرام الذى يحج إليه العرب جميعاً ، حيث

يأخذون عن قريش أعمال الحج ومناسكه ! فإذا جاء من يزحزح قريشا عن هذا الموضوع ، وأن ينزلها والناس منزلة واحدة حتى ولو كان هؤلاء الناس السلاطين، والأمراء فذلك ما تلقاه قريش بكل وجه من وجوه الإنكار له ، والقضاء عليه ، وأن يتولى قيادة الحملة على هذا الذى يحاول أن يزحزحها عن مكانها هذا ـ أولو الناس ، والقوة والحمية من أبنائها الذين ترجوهم لمثل هذا ، وتفزع إليهم عند كل مكروه .. وكان عمر ممن لا تخطئه عين قريش فى هذا المقام .. ومن أجل هـذا كان عمر فى أول لقائه للدعوة الإسلامية مباعداً لها ، متربصا بها ، راصداً للعدوان عليها ، وعلى من يستجيب لها ، ويسير فى اتجاهها ، وذلك ليحفظ على قومه موروثاتهم ، وما يعيشون فيه ، حتى ولو كان الشوك والقتاد ، فذلك هو جلدهم وصبغته فلن يستبدلوه بأى جلد آخر تتغير به ملامحهم ، وتذهب معه شخصيتهم ، ولأن يلبس الإنسان ثوباً مهلهلا من صنع يده خير ألف مرة من أن يلبس ثوباً مستعارا ولو كان من ثياب الملوك .. إنه ثوب أشبه بما يلبسه الممثل ليظهر به على المسرح وهو يؤدى دور ملك أو قائد ، لا يلبث أن ينزعه بعد أن يؤدى دوره الذى يمثله ، ثم إذا هو بعد هذا إنسان آخر غير هذا الإسان الذى كان على المسرح منذ قليل .. وإنه لتأبى على العربى الحر نفسه أن يكون فى حال ما غير ذاته التى ولد بها وعاش فيها .

هذا ما كان يتلبس بكيان عمر ويستولى على مشاعره وهو فى وجه الدعوة الإسلامية ، وما تفرض على العرب من متغيرات يتبدل بها وجودهم كله ، ظاهراً وباطناً .

وأما أنه لم يكن من العسير المستبعد أن يأخذ عمر مكانه فى الدين الجديد ، وأن يكون من السابقين إليه ، فذلك لما عرف عن عمر من فطنة

وركانة ، إلى شفافية نفس ، وصفاء روح ، ونفاذ بصيرة .. فهو بهذا أقدر الناس على النفاذ إلى حقيقة الدعوة الإسلامية والتعرف على مواقع الخير الذى تحمله إلى الناس .

فعمر الذى واجه الإسلام لأيامه الأولى ، كان بعيداً من الإسلام قريبا منه وقت معاً .. كان بعيداً من الإسلام بعاطفته المشدودة إلى قومه وإلى ناموس الجماعة الذى هو أحد عمدها وممسك زمامها .. فهو والأمر كذلك ـ لا ينظر إلى هذه الدعوة ، ولا يتعامل معها لحسابه الشخصى وحده ، وإنما يدخل فى هذا ، أو قبل هذا حساب الجماعة التى ارتبط بها وارتبطت به ارتباطاً عضوياً . ليس من اليسير إغفاله ، أو التغافل عنه ..

وكان عمر قريبا من الإسلام بعقله الحر ، ورأيه السديد ، ونظره الكاشف لما فى دعوة الإسلام من الحق والخير ..

ومن هنا كانت تلك الوقفة التى وقفها عمر قبل أن يدخل فى الإسلام . وقفة التحفز والوثوب ، وقفة استجمع لها كل قواه ، ونبه لها كل وجوده ، ثم إذا اجتمع له من ذلك ما يستطيع أن يكسر به هذا السد العظيم من العادات والتقاليد التى رسخت جذورها فى كيانه اندفع اندفاع التيار العتى وقد انهار من وجهه الصخر الذى كان يأخذ الطريق عليه !!

إنها لم تكن وقفة اللامبالاة ، التى تكون من الذين يلقون الأمور الجادة باستهانة واستخفاف ، ولكنها وقفة الرجل الذى يزن الأمور بميزان دقيق ، ثم لا يهرب من مواجهة الموقف ، بل يتصدى لحمل تبعاته بكل قوته ولو كان فى ذلك هلاك نفسه ..

إنها وقفة القائد الذى يريد أن يدخل معركة حاسمة ، فلابد له من أن يتخذ قراره ، هجوما أو دفاعاً ، بعد أن يدرس جميع الاحتمالات بعين ساهرة لا تنام ، وبقلب مهتاج لا يهدأ ...

كانت الفترة التى قضاها عمر منذ طرقت أذنه دعوة الإسلام إلى اليوم الذى دخل فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم دار « الأرقم » معلنا إسلامه ـ كانت هذه الفترة من أشق الفترات التى واجهها عمر فى حياته ، إذ كانت معركة مشبوبة الأوار بينه وبين نفسه لا تدع له سبيلا إلى السكينة ساعة من نهار أو ليل ، وإن بدا أنه ساكن هادىء فإن باطنه كان يغلى كغليان القدر ، إنه وقد لمح شعاعات الحق فى هذا الدين ، يريد أن يستوثق لنفسه منه استيثاقا لا تبقى معه ذرة شك فى نفسه .. إنه يرى أن دخوله فى الإسلام هو معناه عنده أن يعفى ـ وفى الحال ـ على كل أثر من آثار الجاهلية ، وما تتخبط فيه من أمواج الشرك والوثنية ، وقد كان هو أحد الحافظين لها ، والقائمين عليها .. فإذا تحول عن هذه الحياة ، كان لا بد ـ حسب تقديره ـ أن يتحول الجميع معه ، وأن تخرج قريش كلها من جلدها ، لتلبس ثوب هذا الدين الجديد ظاهرا وباطنا ، فإذا هى اليوم غيرها بالأمس .. إنها تولد ميلاداً جديداً لأمة جديدة .

وإن عمر لا يغامر هذه المغامرة الكبرى بنفسه ، وبقومه ، إلا على طريق واضح المعالم ، وإلا على بينة مشرقة من الأمر الذى هو قاصد إليه .. فإذا بلغ من ذلك غايته وقامت بين يديه الحجة على صدق الرسول وسلامة الرسالة التى يدعو إليها لم يكن لأية قوة أن تقف فى وجه عمر لمناصرة الرسول والتمكين لدعوته ، ولهذا فانه ما إن استبان له طريقه إلى الإسلام حتى اندفع إليه بكل قوته ، وجرف فى طريقه كل من حاول أن يتصدى له ، بل إنه كان يعمد إلى بعض تلك الصخور التى كانت تعترض طريق الذين يريدون الاسلام فيحاول الاحتكاك بها ، والاصطدام معها ، دون أن يدور من حولها ، أو أن يدخل من وراء ظهرها ، فالأمر عند عمر إما حق أو باطل

ولا ثالث وراء هذا .. وأما وقد عرف الحق ، وانتظم بجبهته ، فهو حرب على الباطل حتى يزول ، وتصفو للحق سماؤه التى يطلع منها ..

اسلام عمر :

وتختلف الروايات التى تروى عن دخول عمر فى الإسلام ، ولكنها تتفق جميعاً فى الحديث عن الأسلوب الذى دخل به ، وهو أسلوب التحدى لقريش ، والمواجهة الصريحة لها ، والهجوم العنيف العنيد عليها ..

أسلم عمر فى السنة السادسة من البعثة النبوية ، ونستطيع أن نقطع بأن عمر كان طيلة تلك السنوات فى صراع عنيف مع نفسه ، وأنه كان يكسب كل يوم أرضا جديدة للاسلام فى كيانه ، ويضيف رصيداً جديداً من مشاعر التعاطف مع الإسلام فى ضميره، حتى إذا أخلص وجوده كله للاسلام،وملأ كل قلبه به ، جاء إلى الإسلام وقد تفرغ له ، وأخلى نفسه من كل شيء يشغله عنه ، فكان إسلامه على هذا الوجه الذى جعل منه حدثا من تلك الأحداث البارزة فى تاريخ الدعوة الإسلامية والذى ظل يذكره المسلمون كمعلم من معالم التاريخ ، فيقولون كان هذا الأمر قبل أن يسلم عمر ، أوفى السنة التى أسلم فيها عمر ، أو بعد أن أسلم عمر بكذا وكذا من السنين .. وهكذا . .

روى عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — عن عمر — رضى الله عنه — وهو يذكر خبر إسلامه . . قال : « خرجت متقلداً سيفى ، فلقيت رجلا من بنى زهرة ، فقال : أين تعمد ؟ قلت أقتل محمداً ! ! قال : وكيف تأمن فى بنى هاشم وبنى زهرة ؟ فقلت:ما أراك إلا صبوت ؟[1] قال : أفلا

(١) صبا ، يصبو ، وهى الميل مع الهوى ، وكان المشركون يطلقون هذا الوصف على من دخل فى الإسلام ، وعندهم أنه اتبع هواه ، وانحرف عن دين آبائه .

أأدلك على العجب ؟ إن أختك وزوجها قد صبوا ! ؟ . . فدخل عمر عليهما ذامراً[1] وعندهما رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، يقال له خباب بن الأرت . . فلما سمع خباب حس عمر توارى ، فقال عمر : ما هذه الهينمة[2] التي سمعتها عندكم ؟ وكانوا يقرءون سورة « طه » على خباب ، فقالا : ما عندنا شيء ، إنما هو حديث كنا نتحدثه بيننا ، قال فلعلكما قد صبوتما . . فقال ختنه (أي زوج أخته) : أرأيت ياعمر إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطئاً شديداً ، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها ، فنفحها عمر بيده ، فأدمى وجهها ، فجاهرته قائلة : إن الحق في غير دينك ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فاصنع مابدا لك ! فلما يئس ، قال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه — وكان عمر يقرأ الخط — فقالت أخته إنك نجس ، وإن هذا الكتاب لايمسه إلا المطهرون ، فقم فتوضأ ، فقام فأصاب ماء ، ثم أخذ الكتاب فقرأ : « طه · ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى.. » إلى قوله تعالى : « إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى » . . فقال عمر : «دلوني على محمد» .. فلما سمع خباب قول عمر، ورأى منه الرقة في قلبه لما قرأه خرج من البيت ، فقال : أبشر ياعمر ، فإني لأرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الخميس ، لك . . سمعته يقول : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، أو بعمرو بن هشام » . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار التي في أصل الصفا ، فانطلق عمر حتى أتى الدار،وعلى الباب حمزة بن عبد المطلب ، وطلحة بن عبيدالله، وناس من أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى الناس عمر قد

(١) ذامراً : أي مهدداً ، يقال ذمر فلان فلاناً ، يذمره ، بضم الميم ، أي عنفه ،وتوعده.
(٢) الهينمة : الصوت الخفيض .

أقبل ، كأنهم وجدوا - أى حزنوا - وقالوا : قد جاء عمر !! فقال حمزة : قد جاء عمر ، فإن يرد الله به خيرا يسلم ، وإن يرد غيرذلك كان قتله علينا هينا . . قال : والنبى صلى الله عليه وسلم من داخل البيت ، يوحى إليه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام القوم ، فخرج مسرعاً حتى انتهى إلى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه ، وحمائل سيفه ، وقال : أراك منتهيا ياعمر حتى ينزل الله بك ما أنزل بالوليد ابن المغيره [١] ثم قال : اللهم هذا عمر ، اللهم أعز الإسلام بعمر ؛ فقال عمر : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله » ، فكبر أهل الدار ومن كان على الباب تكبيرة سمعها كل من كان فى المسجد من المشركين [٢] » .

وواضح من هذا الخبر،أن عمر كان قد انتهى إلى رأى فى الإسلام قبل أن يلتقى بأخته وزوج أخته وخباب بن الأرت . . وأن هذه الدورة التى كان يدورها هنا وهناك إنما هى دورة من حمل بين جنبيه أمراً عظيما ، وأراد أن يضرب ضربته الحاسمة فيه ، وأن ينهى موقفه معه ، فجعل يحوم حول الهدف ويطوف به ، ويلتمس أوهى الأسباب ليلقى بنفسه عليه ، إنها أشبه بدورة ماء السيل حول الصخر الذى يعترض طريقه ، حتى إذا وجد صدعاً ، جرى فيه متدفقاً ، وجرف كل ما يلقاه فى طريقه . . أو هى دورة الحامل ، وقد جاءها المخاض ، لتلد مولودها الذى تم خلقه فى بطنها ، ويريد أن يخرج إلى الحياة .. فلقد نضجت فى كيان عمر تلك المشاعر

(١) ما أنزل بالوليد بن المغيرة هو ما أنزل الله تعالى فيه من قرآن ينذره بأنه يموت على ضلالة ويتوعده بالعذاب الأليم فى الآخرة « سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لاتبقى ولا تذر ، لواحة للبشر » .

(٢) الرياض النضرة : حـ ١ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ وشرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد حـ ١٢ ص ١٨٢ — ١٨٣

التى تطوف بنفسه عن الإسلام ، ثم التأم شملها ، وتكامل خلقها ، فلابد لها ـ والحال كذلك من أن تخرج من كيان عمر إلى واقع الحياة !

لقد كانت الأسباب كلها مجتمعة فى نفس عمر للدخول فى الإسلام ، ولم يكن ينتظر أكثر من لمسة خفيفة أشبه باللمسة التى تجمع بين طرفى التيار الكهربى ، فتنطلق منه القوة الكهربية التى تشع النور، وتبعث الحرارة!!

عن أسامة بن زيد ، قال: قال عمر بن الخطاب: أتحبون أن أخبركم كيف كان إسلامى؟ قال ، قلنا نعم ! قال : كنت من أشد الناس على رسول الله صلى ﷺ ، فبينا أنا فى يوم حار شديد الحر فى الهاجرة فى بعض طرق مكة ، إذا لقينى رجل من قريش، فقال : أين تريد فى هذه الساعة يا ابن الخطاب: قلت: أريد هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى : فقال: عجباً لك يا ابن الخطاب: إنك تزعم أنك هكذا ، وقد دخل هذا الأمر فى بيتك قال : قلت وما ذاك؟ فقال : أختك.. قال :فرجعت مغضبا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ضم إلى زوج أختى رجلين من المسلمين يعلمانه ويصيبان من فضل طعامه.. فقرعت الباب ، فقيل من هذا ؟ فقلت : ابن الخطاب .. قال ، وكانوا يقرءون كتابا فى أيديهم، فقاموا مبادرين ، واختبئوا منى، وتركوا الصحيفة على حالها.. فلما فتحت لى أختى، قلت لها : ياعدوة نفسها.. أصبوت ؟ وأرفع شيئاً فى يدى فأضرب به رأسها، وسال الدم .. فلما رأت الدم بكت ، وقالت ما كنت فاعلا فافعله ، فقد صبوت !! قال : فدخلت وأنا مغضب حتى جلست على السرير، فنظرت، فإذا صحيفة فى وسط البيت..فقلت لها : ما هذه الصحيفة؟ فأعطنيها . قالت : إنك لست من أهلها ، إنك لا تغتسل من جنابة ، ولا تطهر ، وهذا لا يمسه إلا المطهرون .. قال: فلم أزل بها حتى أعطتنيها، فأخذتها، ففتحتها فإذا فيها: « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما قرأت « الرحمن الرحيم »

ذعرت وألقيت الصحيفة من يدى ، ثم رجعت إلى نفسى ، فأخذتها ، فاذا فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

قال : فكلما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت ، ثم ترجع إلى نفسى ، حتى بلغت : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »[1] قال : فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .. قال : فخرج القوم مستبشرين ، فكبروا ، وقالوا : أبشر يا ابن الخطاب فإن رسول الله ﷺ ، دعا يوم الإثنين — وفى رواية أنس أنه دعا يوم الخميس — فقال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : أبى جهل بن هشام ، أو عمر بن الخطاب » وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ، فأبشر ، قال . فقلت دلونى على مكان رسول الله ؛ فأخبرونى أنه فى بيت بأسفل الصفا ، فخرجت حتى جئت الباب فقرعته ، فقالوا : من هذا ؟ قلت ابن الخطاب قال : فما اجترأ أحد منهم أن يفتح لى ، قد علموا شدتى على رسول ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ افتحوا له ، فإن يرد الله به خيراً يهده ، ففتحوا ، ثم أخذ رجلان بعضدى حتى أجلسانى بين يدى رسول الله ﷺ ، قال : «خلوا عنه» ثم أخذ بمجمع قميصى ، فجذبنى إليه ، وقال : «أسلم يا ابن الخطاب .. اللهم اهده .. قال ، فقلت . أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . . قال فكبر المسلمون تكبيرة حتى سمعت من مكة ، وكانوا قبل ذلك مستخفين)[2] .

---

(١) سورة الحديد آية ١ — ٧

(٢) الرياض النضرة جـ ١ ص ٢٥٠ — ٢٥١

ويروى ابن إسحق فى تاريخه عن عمر ، أنه كان يقول (كنت للاسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية ، أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال قريش بالحزورة عند دور آل عمر بن عمران المخزومى قال : فخرجت ليلة أريد جلساى أولئك فى مجلسهم ذلك ، فجئتهم ، فلم أجد منهم أحداً .. قال : فقلت لو أنى جئت فلاناً — وكان بمكة يبيع الخمر — لعلى أجد عنده خمراً فأشرب منها .. قال : فخرجت فجئته ، فلم أجده .. قال ، فقلت فلو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ؟ قال فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود ، والركن اليمانى .. قال ، فقلت حين رأيته ، والله لو أنى استمعت من محمد الليلة حتى أسمع ما يقول ! ! فقلت لئن دنوت لأسمع منه لأروعنه ، فجئت ورسول الله ﷺ قائم يصلى يقرأ القرآن ، حتى قمت فى قبلته مستقبله ، وما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة . فلما سمعت القرآن رق قلبى ، فبكيت ، ودخلنى الإسلام ، فلم أزل قائماً فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته . ثم انصرف . فتبعته حتى إذا دخل — بيته — من دار العباس ودار ابن أزهر — أى من طريقهما — أدركته ، فلما سمع رسول الله ﷺ وقع أقدامى عرفنى ، فظن أنى إنما أتبعته لأوذيه فنهمنى[1] ثم قال : ماجاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة ؟ قلت . جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، فحمد الله ثم قال : قد هداك الله يا عمر .. ثم مسح صدرى ودعا لى بالثبات)[2] .

---

(١) نهمنى : أى زجرنى ، ومنه نهم الإبل ، ينهمها ، أى زجرها لتسرع فى سيرها .
(٢) الرياض النضرة ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣

ولا نحسب أن هذه أول مرة استمع فيها عمر إلى القرآن ، ولا أول مرة رق فيها قلبه الاسلام ولكن الذى نكاد نجزم به هو أن عمر قد استمع إلى القرآن مرات كثيرة قبل هذا ، من رسول الله ﷺ ،ومن جماعة المسلمين ، الذين كان يلقاهم عمر ، محاسبا ، أو معاتبا ، أو معنفا ، أو متوعدا ، أو من جماعة المشركين الذين يلقونه عارضين ماسمعوا من رسول الله ، ليكون ذلك مادة سخرية واستهزاء منه ومنهم وما كان لعمر أن ينتظر طويلا والأحداث تدور من حوله ، دون أن يعرف مصدر هذه الأحداث ودون أن يطلع على ماتحمل الدعوة الإسلامية التى أثارت هذا الهياج العاصف فى مكة وماحولها . وإلا فما كان جديرا بأن يكون فى هذا المقام من قريش ، وقد هب سادتها وزعماؤها لمواجهة هذا الحدث العظيم !!

وأكثر من هذا ، فإن عمر — كما يروى التاريخ — كان موعوداً مبشراً بما وصل إليه فى الإسلام قبل أن يظهر الإسلام . وذلك من شأنه أن يجعل التفات عمر قويا إلى الأحداث التى تظهر فى محيطه ، حيث يكون وقوفه بين يدى كل حدث وقوفا فاحصاً متأملا ، لأنه كان يبحث عن نفسه فى كل حدث ، لعله يصادف فيه تأويل ما بشر به . وليس هناك أعظم من هذا الحدث الذى هز الجزيرة العربية كلها وماحولها بظهور نبى يوحى إليه من السماء بقرآن يتلوه على الناس ..

يروي أن عمر خرج عسيفا[1] مع الوليد بن المغيرة إلى الشام فى تجارة للوليد .. وعمر يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، فكان يرعى للوليد إبله ،

---

(١) العسيف : الأجير

ويرفع أحماله ، ويحنط متاعه . . فلما كان بالبلقاء[1] لقيه رجل من علماء الروم ، فجعل ينظر إليه . . ويطيل النظر ، ثم قال : أظن اسمك يا غلام «عامرا» أو «عمران» أو نحو ذلك ؟ قال اسمى : «عمر» قال : اكشف عن فخذيك ، فكشف،فإذا على أحدهما شامة سوداء فى قدر راحة الكف، فسأله أن يكشف عن رأسه ، فكشف فإذا هو أصلع ، فسأله أن يعتمل بيديه ، فإذا هو أعسر أيسر . . فقال له : أنت ملك العرب ، وحق مريم البتول . . قال فضحك عمر مستهزئاً ، فقال : أو تضحك ؟ وحق مريم البتول إنك ملك العرب ، وملك الروم ، وملك الفرس ، فتركه عمر مستهيناً بكلامه ، وكان عمر يحدث بعد ذلك ، ويقول : تبعنى ذلك الرومى ، وهو راكب حماراً ، فلم يزل معى حتى باع الوليد متاعه ، وابتاع بثمنه عطراً وثياباً ، وقفل إلى الحجاز ، والرومى يتبعنى لا يسألنى حاجة ، ويقبل يدى كل يوم إذا أصبحت كما تقبل يد الملك ، حتى خرجنا من حدود الشام[2] . .

وسواء صح هذا الخبر أو لم يصح ، فإنه يدل على شىء من الاستطلاعات والتوقعات كانت تدور فى خاطر عمر ، وقد كان ذلك طبيعة فيه ، تلك الطبيعة التى استضاءت بنور الإسلام ، فصارت «تحديثاً» اختص به عمر ، وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وطبيعة كطبيعة عمر هذه التى تكاد تخترق حجب الغيب ، لا يمكن أن تظل بعيدة عن مجرى الأحداث ، دون أن تأخذ أعدل المواقف فيها ، وأن تضع يديها على أكبر قدر من الخير الذى تحمله بين يديها .. وهذا ما كان

---

(١) البلقاء : موضع يشمل الصف الجنوبى من شرقى الأردن ، وحاضرتها «السلط» ويضرب بها المثل فى جودة حنطتها .

(٢) شرح نهج البلاغة لأبى الحديد . . الجزء الثانى عشر ص ١٨٣ — ١٨٤

من عمر ، فإنه ما كاد يرى طريقه واضحاً إلى دعوة الإسلام حتى أسرع الخطا إلى دين الله ، وحتى أعطاه وجوده كله ، فأعطاه الإسلام بدوره من الخير ما يرجح ميزانه بالأمة الإسلامية كلها . بعد رسول الله ، وبعد أبى بكر الصديق ، كما جاء ذلك فى الخبر الصحيح عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . .

ولا بد من وقفة هنا بين يدى هذه الروايات المختلفة التى تحدثت عن إسلام عمر ، فهى إن دلت على شىء ، فإنما تدل على أن إسلام عمر كان حدثاً من الأحداث العظام ، التى يلتفت الناس جميعاً إليها ، والتى يتشكل منها كثير من التصورات ، التى تتلون بها الأخبار ، ويضاف إليها كثير من الذيول والواشى ، ولا نظن كذلك أن هذا الخبر الذى يرويه الرواة عن هذا الراهب الذى التقى بعمر فى طريقه إلى الشام ، وأخبره عن اسمه ، ثم كشف عن ملامح جسدية فيه أخذ منها الراهب دلالة على أنه ملك العرب ، والفرس والروم . . ما نظن هذا الخبر إلا وارداً من موارد الأساطير التى تنسج حول سيرة عظماء الرجال .

الفصل الثانى

ما بعد إسلام عمر

دخل عمر فى الإسلام ، كما يقول الرواة وهو ابن ست وعشرين سنة ، وكان ابنه عبد الله بن عمر ابن ست سنين . . وكان إسلامه متمما أربعين إنسانا دخلوا فى دين الله ، من رجال ، ونساء وصبيان . .

ومنذ أن دخل عمر فى الإسلام بدأ الصراع بين المشركين والمسلمين يأخذ طابع الجد ، ويقوم الأمر بين الفريقين على خلاف لا سبيل إلى مصالحة معه . أو موداعة فيه ، وإنما لهى القوة التى تحمل أحد الفريقين على إخلاء الميدان للفريق الآخر . .

فأما المشركون فقد رأوا أن إسلام عمر ، بعد إسلام حمزة ، يؤذن بأن محمداً ينتزع كل يوم سيداً من ساداتهم ، ويملك يداً قوية من أيديهم الضارية ، وأنهم لو صبروا على ذلك لرجحت عما قليل كفة محمد وأصحابه وأصبحت له اليد الغالبة عليهم . . وإذن فليتعجلوا ، وليأخذوا محمداً وأصحابه قبل أن يأخذوهم ، وإلا اتسع الخرق على الراقع ، وخرج السهم من الرمية .

وأما النبى — صلوات الله وسلامه عليه — والمسلمون معه ، فقد رأوا فى إسلام عمر قوة لهم ، وإعزازاً لدينهم . وأن الله تعالى قد استجاب لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما دعا به ربه فى قوله : « اللهم أعز الإسلام بأحب

الرجلين إليك ، عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام » .. وإذن فلن يصبر المسلمون منذ اليوم على ضيم ، ولن يحجموا عن لقاء المشركين ورد العدوان بالعدوان ، ولن يعيشوا مع دينهم فى خفاء ، بل يجب أن يعلنوا على الملأ أمرهم ، وأن يكشفوا عن وجوههم .. وليكن ما يكون . .

وقد بدأ عمر بنفسه ، ليفتح الطريق للمسلمين ، وليحمل الصدمة الأولى من قريش حتى تكون دعوته للمسلمين بعد ذلك للقاء قريش دعوة تقوم من ورائها تجربة حية أجراها على نفسه .

هكذا كان أسلوب عمر فى حياته ، لا يدعو إلى أمر حتى يكون هو آخذاً نفسه به ، فى غير هوادة أولين . فلم يحمل عماله وولاته على التعفف والاستعلاء على شهوات النفس ، إلا بعد أن أراهم من نفسه كيف تصغر الدنيا فى عينيه ، وكيف يملكها ويعف عنها ، فهان عليهم بعد هذا أن يملكوا وأن يزهدوا فيما ملكوا .. فالناس ـ كما يقولون ـ على دين ملوكهم !

عن عبدالرحمن بن الحارث ، عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما أسلمت تلك الليلة التى أسلمت فيها تذكرت أى أهل مكة أشد عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى آتيه فأخبره أنى أسلمت ، فذكرت أباجهل — وهو عم أمه ـ فأقبلت حين أصبحت فضربت عليه بابه ، فخرج إلى ، فقال : مرحباً وأهلا يا ابن اختى .. ما جاء بك ؟ قلت . جئتك أخبرك أنى آمنت بالله ، وبرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقت بما جاء به قال : فضرب الباب فى وجهى ، وقال : قبحك الله ، وقبح ما جئت به !!

وعن ابن عمر ، قال : لما أسلم عمر لم تعلم قريش بإسلامه ، فقال : أى أهل مكة أفشى للحديث ؟ ، قالوا : جميل بن معمر الجمحى . . فخرج إليه ،

وأنا معه ـ أى ابن عمر ـ أتبع أثره ، وأعقل ما أرى وأسمع . . فأتاه ، فقال : يا جميل . . إنى قد أسلمت ! ! قال ، فو الله ما رد عليه بكلمة ، حتى قام عامداً إلى المسجد ، فنادى أندية قريش ، فقال : يا معشر قريش . . إن ابن الخطاب قد صبأ ، وعمر وراءه يقول : كذبت ، ولكنى أسلمت ، وآمنت بالله ، وصدقت رسوله .. قال : فثاوروه[1] ، فقاتلهم حتى ركدت الشمس على رؤوسهم ، وحتى فتر عمر[2] فجلس فقاموا على رأسه ، فقال : «افعلوا ما بدا لكم ، فوالله لو كنا ثلاثمائة رجل لتركتموها لنا ـ أى مكة ـ أو تركناها لكم . . » .

ولقد صدقت فراسة عمر ، إذ لقى المسلمون قريشاً فى بدر ، وكانت عدتهم نحو ثلاثمائة رجل ، على حين كانت قريش فى أكثر من ألف رجل وقد كتب الله تعالى النصر للمؤمنين ، والخزاء والخذلان على المشركين !! وهكذا صدقت فراسة عمر ، فإن هزيمة المشركين فى بدر كانت مقدمة لفتح الطريق إلى مكة ، ودخول النبى والمسلمين على أهلها فاتحاً بعد ست سنين!!

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ، أنه لما أسلم عمر ، قال : يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنا قليل . . فقال عمر : والذى بعثك بالحق نبياً لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان . . ثم خرج فطاف بالبيت ، ثم مر بقريش وهم ينظرونه ، فقال أبو جهل بن هشام : زعم فلان أنك صبوت ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فوثب عليه المشركون ، فوثب عمر على عتبة بن ربيعة فبرك عليه ، وجعل يضربه ، وأدخل إصبعه

(١) ثاوروه : هجموا عليه .

(٢) فتر : همد ، وسكن من الإجهاد .

فى عينيه ، فجعل «عتبة» يصيح ، فتنحى الناس عنه ، فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف[1] من دنا منه حتى أحجم الناس عنه .. ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ظاهر عليهم ، فقال : يا رسول الله مايحبسك ؟ بأبى أنت وأمى !! فو الله ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا ظهرت فيه بالإيمان ، غير هائب ولا خائف .. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمر وحمزة بن عبد المطلب بين يديه حتى طاف بالبيت ، وصلى الظهر معلناً . ثم انصرف النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى دار الأرقم .. » .

وفى البخارى ، عن ابن مسعود ، قال : « مازلنا أعزة منذ أسلم عمر » . وعن ابن مسعود أيضاً : « كان إسلام عمر فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة . : لقد رأيتنا ولم نستطع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا » .

وعن ابن عباس ، قال : « أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة وثلاثون رجلا .. ثم إن عمر أسلم ، فصاروا أربعين رجلا ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى : « يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »[2] .

وهذا الخبر الذى يروى عن ابن عباس إن صح أوله ، فإنه لا يصح آخره ، لأن قوله تعالى «يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» هو قرآن مدنى فى سورة الأنفال ، التى نزلت فى أعقاب غزوة بدر . . .

---

(١) أى نظر الى سيد الجماعة فأمسك به واشتبك معه . ـ أو نظر إلى الشخص الذى هو معه فمسك بأشرف عضو فيه ، كوجهه ، أو رأسه .

(٢) سورة الأنفال : ٦٤

فنزول هذه الآية لم يكن مقارناً لإسلام عمر ، حتى يمكن القول بأنها نزلت يوم أن أسلم عمر !

على أنه إن صح هذا الخبر يمكن أن تكون الآية قرآناً مكياً ، وضع فى سورة مدنية ، كما حدث ذلك من وضع آيات مدنية فى سور مكية .. وذلك بأمر سماوى . . كما هو معروف . .

وعلى أى فإن إسلام عمر رضى الله عنه ـ كان حدثاً بارزاً من أحداث الدعوة الإسلامية ، ومعلما من المعالم المضيئة على طريقها .. لقد كان إسلامه فتحاً ، كما يقول ابن مسعود ، لقد قويت به شوكة المسلمين ، وعز به جانب المستضعفين منهم ، فقويت نفوسهم ، ورأوا فى مسيرة الدعوة الإسلامية اتجاهاً إلى مواقع العزة يوماً بعد يوم ، وأنها تكسب كل يوم أنصاراً ، دون أن تخسر شيئاً مما كسبت .

الفصل الثالث

هجرة عمر

نبه إسلام عمر فى قريش دواعى العدوان الذى كانت ترصده للنبى والمسلمين الذين آمنوا به منذ اليوم الأول للدعوة الإسلامية ، ولفتها إلى هذا الخطر الذى يتهددها من محمد ودعوته ، وإن المطاولة والصبر لايجديان عليها فى دفع هذا الخطر الذى استشعرته من تلقاء هذا الدين الجديد ، الذى إن مضت الأيام به على تلك الحال ، دون أن تعاجله بالضربة القاضية ، أفلت الأمر من يدها ، ووقع بها ماتخشاه من ذهاب هيبتها وسلطانها بين العرب .. ولهذا أخذت قريش منذ إسلام عمر تشدد من قبضتها على المسلمين ، بعد أن تداولت الأمر فيما بينها ، وألزمت أهل كل بيت فيها أن يتولى دوره فى تأديب من دخل فى دين محمد من رجاله ، أونسائه،أوعبيده أو إمائه .. وبهذا التدبير اشتد البلاء على المسلمين ، فكان فى كل بيت معركة ، بين أب أو أم أو إخوة وبين من دخل عليهم بدين محمد.. فكانت القطيعة والعدوان والحرمان .

لقد كان كثير من المسلمين يخفون إسلامهم قبل أن يعلن عمر إسلامه فلما أسلم عمر أعلن هؤلاء إسلامهم ، حتى العبيد منهم قد وجدوا أن من تمام إيمانهم أن يجهروا بدينهم ، وأن يحتملوا الأذى فى سبيله كما احتمله عمر ، وغيره من المسلمين. وبهذا عرفت وجوه المسلمين ، وهم قلة بين المشركين ، فوقعوا فى حصار شديد ، حيث كان الواحد منهم فى مواجهة

عشرات أو مئات من أهله وعشيرته ، إن سلم من أيدى بعضهم لم يسلم من أيدى البعض الآخر ، وإن سلم من أيديهم جميعاً لم يسلم من ألسنتهم ، وهو مرتبط معهم فى سكنه ، ومعاشه ، بحـــكم رابطة القرابة والنسب ، أو التبعية بالرقة !

ولم يكن للمسلمين والأمر كذلك ـ إلا أن يلتمسوا طريقاً للخروج من هذا الحصار المضروب عليهم ، وذلك بالهجرة من مكة إلى أى مكان يمكن ألا تنالهم فيه يد أهليهم المبسوطة عليهم بالبغى والعدوان .

وكيف هذا ، وقريش واقفة بالمرصاد على باب هذا السجن الـكبير الذى ضربته على كل من دخل فى الإسلام منها ؟

وإلى أية قبيلة من قبائل العرب يهاجر المسلم ، ولقريش مكانة ، عند كل قبائل العرب ، ولها ـ بحكم قيامها على سدنة البيت الحرام ـ توقير واحترام عند العرب جميعاً ، ولها الـكلمة النافذة على كل من يخرج على دين الآباء والأجداد ؟ فإذا هاجر قرشى إلى أية قبيلة لم يكن للقبيلة التى هاجر إليها أن تمسكه إذا طلبته قريش وأرادت رده إليها ..

ومن أجل هذا ، فقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم أن تكون وجهة الذين يهاجرون من المسلمين لا إلى إحدى القبائل العربية ، بل إلى خارج الجزيرة العربية كلها ، فـكانت الحبشة البلد الذى اختاره النبى صلى الله عليه وسلم ليكون مهاجر المسلمين إليه لأن أهل الحبشة كانوا أهل كتاب يدينون بالنصرانية ، فهم ـ والحال كذلك ـ أقرب إلى المسلمين ، وإلى دين الله الذى يدينون به .. ومع هذا ، فقد عملت قريش جاهدة على أن تنتزع هؤلاء الذين هاجروا إلى الحبشة من هذا الملجأ الذى لجئوا إليه ، فبعثت برسلها إلى النجاشى تطلب إليه أن يرد إليها هؤلاء الخارجين عليها من

أبنائها ، لتتولى حسابهم وتأديبهم .. وكان على رأس وفد قريش إلى النجاشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص .. ولكن النجاشى أبى أن يخذل جماعة من المؤمنين لجئوا إليه ، وأن يسلط يد الوثنيين عليهم ، وهو على دين المسيح عليه السلام !

وقد كان فى إسلام عمر – رضى الله عنه – إذنا بفتح طريق الهجرة للمهاجرين من المسلمين ، وباعثاً على مواجهة قريش وتحديها بموقف اعتزالها ، والبعد عنها حين لم يمكن الانتصاف منها ، برد عدوانها .. فهاجر كثير من المسلمين إلى الحبشة ، رجالا ونساءً . ولكن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، أبى أن يهاجر إلى الحبشة ، وأن يخرج من موطنه ، وأن يقبل حكم قريش فيه ، بل ظل صامداً فى مكة ، يتحدى المشركين ، ويلقاهم جهرة بما يسوؤهم ويكبتهم ، ثم إن كثيراً من المستضعفين والعبيد ممن أسلموا لم يكن لهم إلى الهجرة سبيل ، فإذا خرج من مكة عمر وأمثاله من الأقوياء القادرين وهنت عزائم هؤلاء المستضعفين ، واستشعروا الوحشة والغربة بين المشركين .. لهذا آثر عمر أن يبقى فى مكة مع جماعة المؤمنين ، يلقى ما يلقون من عنت وكيد إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا ..

ثم إنه لما بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، وعلى النصرة له وللمسلمين الذين يهاجرون إليهم وكان ذلك فى بيعتى العقبة ، الأولى والثانية – لما كان هذا أذن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه أن يهاجروا إلى المدينة .. وأن ينزلوا منازل إخوانهم الأنصار ... فكان ذلك داعية إلى كثير منهم أن يهاجر إلى المدينة ، حيث يستبدل أهلا بأهل وبلداً ببلد ، دون أن يخرج من الجزيرة العربية أو أن يغير من لسانه وزيه العربيين .

وهنا يفكر عمر فى الهجرة إلى المدينة لا فراراً من مواجهة قريش ، ولكن ليكون فى مواجهتهم ، وليرصد ليوم يلقاهم مع المسلمين فيه ، ثم ليكون قوة المهاجرين فى مهاجرهم الجديد ، حيث يأنسون به ، وبغيره من وجوه قريش الذين دخلوا فى دين الله .

وجاء اليوم الذى عقد فيه عمر النية على الهجرة إلى المدينة . . فكان يوم هجرته حدثاً مزلزلا للمشركين كيوم إسلامه ، وكان فعلة من فعلات عمر التى يكاد ينفرد بها .

فعمر حين أسلم لم يخافت بإسلامه ، ولم يجعله أمراً بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين، بل نادى بإسلامه فى قريش ، وطرق به أبواب سادتها ، وزعمائها ، وصك به أسماعهم ، وألقى به الحسرة فى قلوبهم .

وكذلك فعل عمر حين أزمع الهجرة إلى المدينة . . فلقد كان الذين يهاجرون إلى المدينة من المسلمين يهاجرون إليها فى ستر وخفاء ، ويلتمسون لذلك الوسائل التى تخفى عن قريش أمرهم حتى يبلغوا مأمنهم فى دار هجرتهم . . أما عمر فإنه أعلنها صريحة مدوية على الملأ من قريش ، وكأنه بهذا إنما يعذر لنفسه من أن يخرج من بلده وكأنه ينذر قريشا بحرب يعلنها عليها قبل أن يهاجر ، فإن هى استطاعت أن تمنعه من الهجرة ، فقد كسبت الحرب ، وانتصرت عليه وإن هى لم تستطع أن تحول بينه وبين أن يهاجر ، فقد أوقع بها الهزيمة ، وانتصر عليها ، وكانت هجرته هى المغنم الذى وقع ليده من هذه الحرب . . وإذن فهو لم يفر من قريش بهذه الهجرة ، وإنما هو قد انتصر عليها ، وأرغم أنفها ، فاستسلمت لحكمه الذى أمضاه فيها ، فلم تستطع أن تنقض عليه هذا الحكم . . وما أصدق قول ابن مسعود — رضى الله عنه — حين قال عن هجرة عمر :

«وكانت هجرته نصراً» .. وأى نصر أبلغ من أن يتحدى عمر قريشاً هذا التحدى ، ويغريها به هذا الإغراء ، ثم تنكص على أعقابها ، فلا تجرؤ على مواجهته ؟

هكذا كان حساب الهجرة عند عمر — رضى الله عنه — وتلك كانت مشاعره التى ارتبطت بها نيته التى انعقدت عليها .

عن ابن عباس — رضى الله عنه — قال ، قال على بن أبى طالب — كرم الله وجهه : ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفيا ، إلا عمر بن الخطاب ، فانه لما أراد الهجرة ، تقلد سيفه ، وتنكب قوسه[1] ، وانتضى فى يده أسهماً[2] ، واختصر عنزته[3] ، ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها .. فطاف بالبيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى متمكنا ، ثم وقف على الحلق[4] واحدة واحدة ، فقال لهم : شاهت الوجوه[5] ؛ لا يرغم الله إلا هذه المعاطس[6] من أراد أن يثكل أمه ، أو ييتم ولده ، أو يرمل زوجه ، فليلقنى وراء هذا الوادى .. فما اتبعه أحد ، إلا قوم من المستضعفين علمهم ما أرشدهم ، ثم مضى لوجهه » .

ويروى ابن اسحق فى سيرته رواية أخرى فى هجرة عمر .. يقول ابن اسحق : خرج عمر بن الخطاب مهاجراً ، وعياش بن أبى ربيعة .. قال عمر : اتعدت (أى تواعدت) أنا وعياش بن ربيعة ، وهشام بن العاص

---

(١) أى جعله على منكبه ، أى كتفه .

(٢) انتضى أسهماً : أى استلها من كنانته ، وحملها فى يده .

(٣) عنزته : أى حربته .

(٤) الحلق : جمع حلقة ، وهم الجماعة من القوم ، يجلسون فى دائرة أشبه بالحلقة .

(٥) شاهت الوجوه : دعاء عليها بأن تشوه وتقبح .

(٦) المعاطس : جمع معطس كمجلس وهو الأنف وإرغام الأنوف إلصاقها بالرغام وهو التراب ، كناية عن إذلالها .

ابن وائل السهمى ـ المناصب من أضاة بنى غفار فوق سرف [1] وقلنا أينا لم يصبح عندها فقد حبس (أى منعه المشركون من الخروج) .. فليمض صاحباه .. فأصبحت أنا وعياش عند المناصب ، وحبس عنا هشام ، وفتن فافتتن ، فلما قدمنا المدينة نزلنا فى بنى عمرو بن عوف بقباء .

وظاهر هذا الخبر يدل على أن عمر خرج متخفيا ، كسائر المهاجرين ، ولكن الخبر المروى عن ابن عباس أقرب إلى القبول عندنا ، لأن طبيعة عمر تأبى عليه أن يهاجر على هذا الأسلوب الذى لا يلقى فيه قريشاً مواجهاً متحدياً ، كما لقيها بإسلامه مواجهاً متحدياً .

ويمكن أن يكون لما رواه ابن إسحق وجه من التأويل ، وهو أن عمر أراد أن يكون له رفيق سفر ، أو رفيقان من المسلمين ، وأنه سيخرج معلنا خروجه فى قريش على حين يكون رفيقاه اللذان ينتويان الخروج معه قد خرجا من وراء قريش ، وأن يلتقيا به عند المكان الذى تواعدوا عليه وقد أمكن أحد الرجلين أن يجد فرصة مواتية تخرج فى غفلة من قريش ، على حين أن الآخر لم يجد تلك الفرصة ، أو أنه رجع إلى نفسه فعدل عن الهجرة لضعف فى دينه وهذا هو الأرجح فإنه قد ارتد ، كما تقول الرواية .

ويمكن أن يوفق بين الروايتين ، وذلك بأن يقال إن عمر حين عزم على الهجرة ، وأن تكون هجرته على أعين الناس ، أراد أن يصحب فى سفره رفقة للائتناس بها فى وحشة هذا الطريق الطويل ، فدبر الأمر مع صاحبيه عياش بن أبى ربيعه ، وهشام بن العاص ، واتعدوا على اللقاء ظاهر مكة ، وذلك حتى لا تكون هجرتهم على تلك الصورة الجماعية التى تكون بمثابة إعلان الحرب السافرة على قريش . وقد خرج عمر مهاجراً معلناً هجرته ،

(١) المناصب ، جمع أنصاب ، والأنصاب جمع نصب وهو ما يذبح عليه للأصنام ، والأضاة الحجارة الصغيرة . وهذه كلها أسماء مواضع خارج مكة .

على ما جاء فى الخبر المروى عن ابن عباس . . فلما خرج من مكة انتظر صاحبيه اللذين كان على وعد معهما ، فجاءه أحدهما ، أما الآخر فقد تخلف لسبب أو لآخر .

وإذن ، فقد هاجر عمر على هذا الوجه الذى تحدى فيه قريشا ، وأدل به كبرياءها ، والذى فتح به الكثير من المسلمين طريق الهجرة . فلم يكن لقريش بعد هذا أن تمسك أحداً عن هذا الطريق ، حتى لاتفتضح على الملأ بخروج عمر رغم أنفها . . وكأنها تقول بعد هذا ، إنها هى التى تركت عمر يمضى ، وها هى ذى تترك غيره يمضون إلى حيث يريدون . . وكأنها تقول إن خروج هؤلاء الخارجين هو دعوة منها إليهم ، وأنها هى التى ترغب فى طردهم من بينها . . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلها معه شأن غير هذا الشأن ، ولها فيه رأى غير هذا الرأى . . إنه — صلوات الله وسلامه عليه — هو رأس هذه الجماعة ، وهو نظام عقدها ، وإن فى إمساكها به وعدم إفلاته من يدها هو ضمان لها بالقضاء على دعوته ، وخنق أنفاسها بيدها القابضة عليه ، وإن فى هجرة من هاجر من أصحابه إضعافاً له ، وزيادة فى التمكين لها منه .

والذى يؤيد ماذهبنا إليه من الأخذ برواية ابن عباس — رضى الله عنه — عن على كرم الله وجهه من أن عمر رضى الله عنه ، قد خرج مهاجراً معالنا بهجرته — الذى يؤيد هذا ما يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه من قوله فى عمر — رضى الله عنه — « كان إسلام عمر فتحاً وهجرته نصرا ، وإمارته رحمة » ولن تكون الهجرة نصراً ولن تختص بهذا الوصف من بين الهجرات إلا إذا كانت بهذه الصفة التى هاجر بها عمر .

الباب الثالث
عمر في صحبة الرسول ﷺ

الفصل الأول

في دار الهجرة

هاجر عمر إلى المدينة مع من هاجر إليها من المسلمين ، قبل أن يهاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل في بني عمرو بن عوف من الأنصار . . وقد ظل هناك يرقب أخبار رسول الله ﷺ في مكة ، ويستمع لما ينقله إليه القادمون منها من المهاجرين وغير المهاجرين الذين كانوا يأتون مكة ، ثم يمرون بها من قبائل العرب .

وما ندري ما كان يعتمل في صدر عمر غير مشاعر الألم لما يلقى رسول الله ﷺ من ضيق ومن عنت . وهو صلوات الله عليه وسلامه مقيم في مكة بين هذه الوجوه المنكرة له ، الآخذة عليه كل سبيل يصل بينه وبين الناس داعياً إلى دين الله .

وهل كان مما يدور في خاطر عمر أن يعود إلى مكة ، وأن يقف إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يحمل معه بعض ما يحمل من أعباء الدعوة ؟ ربما كان ذلك أو شيء منه .. ولكن اتصال هجرة المهاجرين من مكة إلى المدينة ، كان يحدثه بأن المدينة هي دار الإسلام ، ومجتمع المسلمين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يدعو المسلمين إلى الهجرة إليها لأمر أمره الله تعالى به ، وأطلعه عليه .. وإذن - فليقم عمر حيث هو ، وليحتمل ما يحتمل من ألم ببعده عن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولينتظر ما تأتي به الأيام !!

ولم يذكر التاريخ أن عمر رضي الله عنه قد كان له دور خاص

فى دار الهجرة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان من غير المستبعد أن يكون وجهاً بارزاً من وجوه المسلمين هناك ، وأن يكون بموضع الاحترام والتقدير من المهاجرين والأنصار على السواء .. فإن شخصية عمر جدير بها أن تحله محل الصدارة حيث كان ، وأن تجعل منه الرجل الذى إذا غاب افتقده الناس ، وإذا حضر تعلقت به الأنظار ، وشخصت نحوه القلوب .

وحين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة ، سكنت نفس عمر ، واجتمعت مشاعره الممزقة .. فأضاف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوده كله ، لا يتجه متجهاً ، ولا يعمل عملا ، ولا يقول قولا ، إلا لحساب رسول الله ومن أجل رسول الله .. فكان عمر ، واحداً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين علقت نفوسهم بنفسه الشريفة ، وتواصلت أنفاسهم بأنفاسه الزكية ، لا يرون لهم حياة إلا فى حياة الرسول ، ولا يشعرون لهم بوجود إلا فى وجوده ، أشبه بالزهرة فى شجرتها ، إذا هى انفصلت عنها لا تلبث أن تزوى ، وتجف ، وتموت .

ولقد برزت شخصية عمر بروزا واضحا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفتح الإسلام بأنوار هديه مغالق العظمة التى كانت تجيش بها نفس عمر ، ولا تجد لها متنفسا فى حياة الجاهلية وأوضاعها .. وقد وجد الرسول الكريم فى عمر أرضاً بكراً مشبوبة الخصب ، طيبة المعدن ، فبذر فيها بذور الحكمة ، وصابها بغيث مدرار من أدب النبوة وحكمتها .. وسرعان ما استجاب عمر لهذا التوجيه العلوى ، فأطلع أطيب الثمرات الإنسانية وأكلها ، مما تجود به العقول من حكمة ورأى ، وما تنبض به القلوب من فضل ونبل .

كان عمر منذ أسلم أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ ، وألزمهم له ، لا يكاد يفارقه إلاّ لحظات محدودة من ليل أو نهار .. كان ظلاً لرسول الله ، لا يتحوّل عنه أبداً ، ولو استطاع أن يقضى الأيام والليالى لحظة لحظة مع رسول الله لفعل .. ولكنّ للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — — وهو بشر — ساعات يخلو فيها إلى أهله ، أو يريح فيها بدنه ، أو يناجى فيها ربّه .. أما فى غير هذه اللحظات فقد كان عمر أحرصَ الناس على ملازمة رسول الله ، وإرواء روحه من النظر إليه ، والاستماع له .

وقرّبه الرسول الكريم إليه ، وأدناه منه ، وخالطه مخالطة الأخ الودود لأخيه ، وتزوج رسول الله ﷺ أم المؤمنين حفصة بنت عمر — رضى الله عنهما — ، توثيقاً لهذه الرابطة ، وتمكيناً لها ، وتكريماً لعمر ، وتعريفاً بمنزلته عنده ، وفتحاً لبيته ، يدخله حيث شاء ، وفيه ابنته حفصة !

وبهذه الصلة الوثيقة برسول الله ﷺ استطاع عمر أن يتلقى عن النبى الكريم فيضا زاخراً من نفحات النبوة ، وأن يكسو روحه من أنوارها ، ويملأ قلبه وعقله من هَدْيها ، فكان له من هذا زاد طيب ، مكّن له أن يأخذ طريقه فى قوة وعزم ، متأسّياً برسول الله ، مستظلا بصحبته ، مأنوساً بهديه .

ومن هذا كله ، قامت لعمر بين المسلمين شخصية لها كيانها المستقل ، وطابعها العمرى الذى انفردت به .

هذا وكان عمر فى ملازمته لرسول الله ﷺ مع أولئك النجوم المختارة من صحابة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يرصد كل حركة من حركات الرسول ، ويقرأ كل إحساس يجده فى نفسه ، أو شعور يظهر

على قسمات وجهه الشّريف .. فيستبشر ، ويسعد بما يستبشر ويسعد به الرسول ، ويألم ويضيق أشد الضيق مما يألم ويضيق به الرسول .. ومن هنا كانت حدّة عمر ، وشدته واندفاعه فى غير مبالاة فى دفع كل ما يعرض للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — مما يؤذيه ، أو يكدر خاطره .. ومن هنا كانت تلك المواقف الكثيرة التى ذكرها التاريخ لعمر ، والتى سنذكر بعضاً منها فيما يلقانا من فصول هذا الكتاب . والتى كان عمر فيها «دَيْدَباناً» حارساً للنبى ، لا يعرف غير السيف يشهره فى وجه كل من يعترض طريق رسول الله ﷺ ، بكلمة نابية ، أو سلوك منحرف حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يُمسك عمر ، ويطفىء حمرة غضبه .. وهذا ما يشير إليه قول رسول الله ﷺ : « أشدّ أمتى فى أمر الله تعالى عمر » وأخرج أحمد بن حنبل فى مسنده عن الأسود بن سُرَيع ، قال . أى الأسود : أتيتُ رسول الله ﷺ ، فقلت يا رسول الله : إنى قد حمدت الله تعالى بمحامد ، ومدح ، وإياك[1] . فقال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يحب المدح ، هات ما امتدحت به ربك تعالى « قال : فجعلت أنشده ، فجاء رجل يستأذن ، أدْلَمُ[2] طُوال ، أعسر أيسر[3] .. فاستنصتنى له رسول الله ﷺ[4] .. ووصف لنا أبو سلمة كيف استنصته ، قال كما يَصْنَع بالهِرّ (أى أن رسول الله ﷺ رَبَت عليه كما يرتب على الهر ، فى عطف ورقة) .. فدخل الرجل ، فتكلم ساعة ثم خرج ، ثم أخذت أنشده أيضاً ، ثم رجع (أى الرجل) بعد ، فاستنصتنى رسول الله ﷺ ، فقلت يا رسول الله :

---

(١) أى وقد مدحتك أيضا بعد أن حمدت الله ومدحته .

(٢) أدلم : الأدلم ، الذى يميل لونه إلى السواد

(٣) أى يعمل بكلتا يديه : اليمنى واليسرى .

(٤) أى دعانى إلى أن أسكت ، وأمسك عن القول .

مَن ذا الذى تَستنصتنى له ؟ فقال : « هذا رجل لا يُحب الباطل ، هذا عمر ابن الخطاب » .

ووصف رسول الله ﷺ ، لِما كان يُنشده الأسود بن سريع ، وصفه له بالباطل ، لا لأنه باطل فى حقيقته ، وإنما لأنه من موارد الشعر ، الذى يغلب عليه الباطل ، وإلا فما كان رسول الله ﷺ ليستمع إلى باطل ، ثم يعود فيستمع إليه مرة أخرى .. ولكن عمر — رضى الله عنه — وإن كان يُحب الشّعر ، وينقد جيّده من رديئه وحقه من باطله ، ولا يرى بأسا فى الاستماع إليه . إذا كان ذلك شأن عمر ، وموقفه من الشعر مع نفسه ، فإنه يرى أن مقام رسول الله ﷺ فوق أن يكون للشعر فيه مكان .. ولأذنه منه موضع . ولكن عظمة الرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — وسعة نفسه الشريفة ، كانت أقوى وأرحب من أن تضيق بمثل هذه الأمور التى قد يضيق بها أوسع الناس صدراً .. إنه بحر لا يُعكّر صفوه تلك العوارض التى تمرّ به .

ما يضير البحر أمسى زاخرا   أن رَمَى فيه غُلام بحجر ! ؟

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ينزل من سمائه العالية إلى مستوى أصحابه يخالطهم مُخالطة الصديق للصديق ، على أرض البشر ، ليُطيّب بذلك نفوسهم ، وليرضى مشاعرهم ، فيكون من ذلك سَكَن منهم إليه ، ومُداناة منهم له .. ولو ظل النبى الكريم فى سمائه العالية ، لانقطعت بينه وبين الناس الأسباب ، ولما تقبل من أقوالهم وأعمالهم إلاّ ما يُسامت سماء النبوة ويَطُول آفاقها العالية .. الأمر الذى لن يكون أبداً ..

وعن سعد بن أبى وقاص — رضى الله عنه — فيما رواه البخارى ومسلم

قال : دخل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ على رسول الله ﷺ ، وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه رافعات أصواتهن ، فلما سمعن صوت عمر انقمعن[1] وسَكَنّ ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا عَدُوّاتِ أنفسهن ، تَهَبْنَنِي ولا تَهبن رسول الله ﷺ ، فقال : رسول الله ﷺ : « يا عمر ما لَقِيكَ الشيطان سالكاً فَجًا إلا سَلك فَجًا غير فَجك » .

والأمر هنا ، كما أشرنا من قبل ، هو سماحة رسول الله ﷺ ، ومداناته للناس ، وقربه منهم ، هذا القرب الذى لا يجور على شىء من مقام النبوة ، ولا يعكّر من صفو سمائها ، وحرص عمر على ناموس النبوة أن يطوف به طائف من غبار الحياة البشرية التى يتقلب فيها الناس .

هذا عمر فى نظرته إلى رسول الله ﷺ ، وفى موقفه من الأحداث الدائرة حوله ، فيما يكون بينه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وبين الناس . . الجرأة ، والصرامة فى محاسبة الناسِ بين يدى رسول الله ، ومراجعةِ رسول الله ﷺ فى كثير من تلك الأمور ، كما فَعل فى صُلح الحديبية ، وكما كان منه حين صلّى رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبىّ بن سلول ، يوم مات . . أرأيت إلى موسى والعبد صالح ، وما كان منهما من تلك المُفارقات البعيدة فى نَظْرتهما إلى الأحداث ؟ .

لقد كان موسى يمشى على أرض الواقع ، وينظر إلى الأمور بعينى بَشَر سوىٍّ ، يقيسها برأيه ، ويحكم فيها بعقله ، على حين كان صاحبه يستملى حكمه على الأحداث من عالم الغيب ، بما علّمه الله من لدنه .

( ) أى انزوين ، وانكمشن .

ومن هنا كان هذا التصادم الحادّ المزلزل الذى وقع بين موسى وصاحبه ، والذى آذن بقطع الصحبة بينهما وهما على أول الطريق .

إن شيئاً كهذا كان فى موقف عمر من رسول الله ﷺ مما كان يعرض لرسول الله ﷺ من أمور .. لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ـ بما آتاه الله تعالى من لدنه من العلم ـ يرى الأمور بنظرة شاملة تجمع بين مبادئها وخواتيمها ، نظرةً تنفذ بها من ظاهر الأمر إلى باطنه ، على حين كانت نظرة عمر ـ مهما عمُقت ـ لا تتجاوز الظاهر الذى تقف عند حدوده قُدْرات البشر ، وتنحسر عن أعماقه رُؤَى البصائر .

فلا عجب إذا كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يجرى من الأمور أو يقبل منها ما يضيق به صدر عمر مما يراه عدوانا على حرَم النبوة ، وافتياتا على مقام النبى !

ثم لا عجب أن يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المواقف التى يحجب فيها عن عمر أموراً لو رآها فى حضرة النبى لأنكرها على أهلها ، ولقامت نفسه منها ، ولضاق صدره بها ، كما حجب عنه ما كان ينشده إياه الأسود بن سريع من شعر !

ذلك هو أدب النبوة ، وذلك هو الأسلوب النبوى فى تربية أصحابه ، وفى أخذهم بالرفق واللين ، وفى سكبه الهدى قطرة قطرة فى عقولهم وقلوبهم ، دون أن يهجم عليهم بما لا تحتمله مدركاتهم ، ولا تتسع له صدورهم .

إن البحر هو الذى يستقبل ما تحمل الأنهار ، والجداول من ماء ، فلا نفسد طبيعته ، ولا تخرج به عن حدوده ، على خلاف ما لو جرى الأمر

بالعكس ، فكان البحر هو الذى يدفع بمياهه فى مجرى الأنهار والجداول، إذن لاحتواها فى كيانه ، ولذهب بكل معلم من معالمها .

روى البخارى ومسلم ، عن ابن عمر ، قال : لما مات عبد الله بن أبىّ ابن سلول ، جاء ابنه عبد الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه ، وسأله أن يصلى عليه ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ ثوب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : أتصلى عليه ، وقد نهاك الله أن تصلى عليه ؟ فقال ـ الرءوف الرحيم ـ : « إنما خيرنى » فقال : «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم» وسأزيده على السبعين ، قال : إنه منافق !! فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنزل الله عز وجل : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره » .

وفى البخارى ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن عمر ، رضى الله عنه ، قال لما مات عبد الله بن أبىّ بن سلول ، دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه — فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت إليه ، فقلت : يا رسول الله أتصلى على ابن أبىّ ، وقد قال يوم كذا ، كذا وكذا[1]، أعدد عليه قوله .. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

(١) يشير عمر — رضى الله عنه — إلى ما كان من عبد الله بن أبى ، فى غزوة بنى المصطلق ، والتى تسمى غزوة المريسيع ، من قوله يؤمئذ ، بعد أن حدث ما حدث من فتنة كاد يقتتل فيها المهاجرون والأنصار : « لقد كاثرونا فى ديارنا ، وكادوا يعلوننا غرباء فى بلدنا ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وعلم أصحابه بما قاله ابن أبى : قال عمر : يارسول الله إلا تبعث إلى هذا المنافق من يضرب عنقه؟ فقال صلوات الله ، وسلامه عليه ، « كلا .. أترى يا عمر كيف يقول الناس، محمد يقتل أصحابه ؟ » وفى هذا نزل قوله تعالى فى عبد الله بن أبى وأصحابه المنافقين :

أخر عنى يا عمر ، فلما أكثرت عليه قال : أما إنى خيرت فاخترت ، ولو أعلم أنى زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ، قال فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انصرف ، فلم يمكث يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا .. » قال : « فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ » .

إن وقفة عمر هنا إنما هى ضن برسول الله صلى الله عليه وسلم — حسب تقدير عمر — أن يعطى منافقا مثل عبد الله بن أبىّ غير ما يستحق من غضب الله ولعنته ، وأن يلبسه الخزى حيا وميتا .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى وصفه ربه بأنه رؤوف رحيم ، لن يضن برأفته ورحمته على أحد من عباد الله ما وجد إلى ذلك سبيلا ؛ وهو — صلوات الله وسلامه عليه — المبعوث هدى ورحمة للعالمين .. ولقد أصابه المشركون يوم أحد بجراح ، وقتلوا كثيرا من أصحابه ، ومثلوا بعمه حمزة ، ولو أنه دعا عليهم دعوة لأخذهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكنه — صلوات الله وسلامه عليه — رفع وجهه إلى السماء ، وبسط يديه إلى ربه داعيا : « اللهم اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون » وقد غفر — صلوات الله وسلامه عليه — لوحشى قاتل عمه حمزة ، كما غفر لهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان

= « لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ، ولرسوله ، وللمؤمنين » — وكان لعبد الله بن أبى ، ابن اسمه عبد الله ، وكان من أصدق الناس إيمانا ، ولما علم بمقالة أبيه ، رصد أباه على مشارف المدينة ، فلما دنا ليدخلها جرد ابنه سيفه ، وشهره فى وجهه ، وقال له : والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله ، لتعلم من الأذل ، ومن الأعز ؟ فجاء إلى رسول الله يشكو ابنه ، إليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعه يا عبد الله يدخل ، وترفق به ! » . . فما أعظمك أيها النبى ، والله تعالى يقول فيك : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ويقول سبحانه « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم ، واستغفر لهم » .

وقد مثلت بعمه حمزة بعد قتله يوم أحد ، وبقرت بطنه ، وانتزعت كبده ، ولاكت بعضاً منه فى فمها تشفيا وانتقاما ، لما أصيب به أهلها يوم بدر .

وعبدالله بن أبىّ ، وإن كان على رأس المنافقين ، فإن ابنه عبد الله من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ، ولقد جاء يوما إلى رسول الله ﷺ يستأذنه أن يضرب عنق أبيه ، فدعاه رسول الله ﷺ أن يرفق بأبيه ويحسن صحبته .

فإذا استجاب رسول الله ﷺ لدعوة هذا الإبن المؤمن التقى ، بالصلاة على أبيه ، طامعاً فى أن يغفر الله تعالى بهذه الصلاة ما كان من أبيه — كان ذلك مما تسمح به نفس النبى ، وتستجيب له .. عزاء لهذا الصحابى فى أبيه .. ثم من يدرى ، لعل الله تعالى أحسن خاتمة هذا المنافق ، فكانت منه توبة خالصة لله ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .. ولعل هذا هو بعض السر فى أن النهى للنبى عن الصلاة على المنافقين لم يجىء إلا بعد أن صلى رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبىّ ، وذلك لإرادة نافذة وقدر مقدور ، حتى يصلى النبى ﷺ على عبدالله بن أبىّ هذا ، ثم لا يصلى على أحد من المنافقين بعد هذا .. ولو كان عبدالله بن أبىّ هذا ممن لا يجوز للنبى أن يصلى عليهم ، لجاء النهى قبل موته ، أو لنزلت الآية حين دعى الرسول إلى الصلاة عليه . فإن الصلاة هنا مما يتصل بأمور الدين التى إن أخذ النبى باجتهاده فيها ، وكان فى اجتهاده ما لا يجوز العمل به ، جاء الوحى السماوى من الله سبحانه وتعالى لإقامة اجتهاد الرسول ﷺ على الوجه الصحيح .. أما أن يترك النبى يمضى اجتهاده على وجه غير جائز ، ثم يجىء الوحى بتصحيحه — فذلك ضرب من المنوبة للنبى ، ووجه من وجوه إعناته ، الأمر الذى لا يلتقى بوجه من الوجوه مع مقام الرسول

الكريم عند ربه ، ذلك المقام الذى يعلو به فوق هامات المقربين من أولياء الله وأحبابه . وإلا فكيف يكون صنيع الله تعالى بأعدائه ؟ وهل نافع أن يترك المرء يتخبط فى طريقه إلى غاية من الغايات ، والعين الحارسة له تدعه يمضى فى هذا الطريق ، حتى يضل ويتوه ، ثم تقول له تلك العين الحارسة ، إنك كنت مخطئاً ، وإن الطريق الذى ركبته هو طريق الخاطئين ؟

لقد كانت عين الله دائماً ترقب رسول الله ، وترعاه ، وتسدد خطاه ، وتقيم وجهه على الحق دائماً .. فلا يخطو خطوة إلا على طريق الحق، سواء كان ذلك باجتهاد منه ، أو بتوجيه الوحى السماوى له . .

ويحضرنا هنا أكثر من شاهد لهذا . .

فالذين بنوا مسجد الضرار ، حينما أتموا بناءه ، جاءوا إلى النبى ﷺ فقالوا إنا قد بنينا مسجداً لله ، يصلى فيه من تدركه الصلاة ، وينزل به الغريب ، وإنا ندعوك أن تصلى لنا فيه .. وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد تجهز للخروج بالمسلمين إلى غزوة تبوك .. فقال لهم : إنى على جناح سفر ، فلو قدمنا أتيناكم إن شاء الله ، فصلينا لكم فيه » .

فهذا اجتهاد من الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لو ترك فيه وشأنه لصلى فى هذا المسجد ، بعد أن عاد من تبوك ..

ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حقيقة هذا البناء الذى أقامه المنافقون ، وسموه باسم المسجد ، فى حين أنه مأوى منافقين ، ومجتمع ضلال ، الأمر الذى لا يجوز للنبى أن يغشاه ـ فكان أن نزلت آيات الله تنهى النبى عن الصلاة فى هذا المسجد قبل أن يتجه إليه ، وتكشف عن وجهه المنكر قبل أن يستجيب لدعوة الداعين إلى الصلاة فيه ، وذلك فى قوله تعالى : «والذين

اتخذوا مسجدا ضرارا ، وكفرا ، وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون .. لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ... » وبهذا قامت حماية سماوية لرسول الله ﷺ من أن يضع قدمه فى هذا المكان الذى أقيم للكيد للمسلمين ، ولم يترك النبى حتى يصلى ، ثم يجىء الوحى منبهاً إلى ما وقع فيه النبى ﷺ من خطأ بالصلاة فى هذا المكان ..

نخلص من هذا إلى القول بأن عمر بن الخطاب ، كان فى مواقفه تلك التى يظهر فيها على وجهة غير وجهة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان واقعاً تحت مشاعر قوية ضاغطة عليه من تعلقه برسول الله ﷺ ، وحرصه على أن يكون رسول الله دائما حيث هو فى مقامه الجليل الرفيع ، الذى رفعه إليه ربه ، وأن على الناس أن يرتفعوا إلى هذا المقام ، وأن يسعوا إليه ، لا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى ينزل إلى مستواهم ، ويمشى على أرضهم ..

هذا ما كان من مواقف عمر من رسول الله ﷺ فيما هو من شأن النبى مع الناس ، ومن شئون الناس معه .. أما ما كان من شأن النبى ﷺ ، مع ربه .. وفيما يتصل بصميم العقيدة أو الشريعة ، فقد كان عمر على الولاء المطلق ، والتسليم الكامل ، يقبل الأمر كما هو ، لا يسأل ، ولا يتوقف ، ولو كان الأمر داعياً إلى مراجعة واستفسار ..

روى أبو داود فى سننه عن أبى هريرة قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ ، إحدى صلاتى العشى ـ الظهر أو العصر ـ قال ، فصلى بنا ركعتين ، ثم سلم ، ثم قام إلى خشبة فى مقدم المسجد فوضع يديه عليها ، إحداهما على الأخرى ، يعرف فى وجهه الغضب .. ثم خرج سرعان الناس ، وهم يقولون :-

« قصرت الصلاة ، وفى الناس أبو بكر وعمر ، فهاباه أن يكلماه ، فقام رجل كان رسول الله ﷺ يسميه ذا اليدين ، فقال : يارسول الله .. أنسيت أم قصرت الصلاة ، فقال : « لم أنس ولم تقصر الصلاة » .. قال : بل نسيت يارسول الله ، وأقبل رسول الله على القوم فقال : « أصدق ذو اليدين؟ » فأومئوا ، أى نعم ، فرجع رسول الله إلى مقامه فصلى الركعتين الباقيتين ثم سلم ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع فكبر » .

والشاهد من هذا ، أن عمر كان من بين المصلين مع النبى ، ولاشك أن كثيراً من الخواطر والتساؤلات دارت فى رأسه ، ولكنه وقد وجد نفسه مع أمر هو من خاصة النبى وحده فيما يتلقى من ربه من شريعة الدين ، فإنه لم يجرؤ على أن يسأل النبى : لم صلى هذه الصلاة الرباعية ركعتين ؟ وهل كان ذلك عن سهو أم أن أمراً سماوياً قد نزل عليه بقصد الصلاة ؟ لم يسأل عمر ، وانتظر أن يبين رسول الله ﷺ حقيقة هذا الأمر ، ويكشف المسلمين عنه . . ولا نحسب إن عمر ترك ذا اليدين يسأل سؤاله هذا من غير أن يهم بمساورته ، وردعه ، أو أن تنازعه نفسه بالوثوب عليه ووضع يده على فمه كما كان يفعل دائماً فى مثل هذه المواقف !

وأمر آخر من عمر ، وهو تقبيل الحجر الأسود .. فلقد رأى عمر أن النبى ﷺ يقبل هذا الحجر فى طوافه بالكعبة ، فلم يسأل عمر النبى — صلوات الله وسلامه عليه — فى هذا ، إذ عده من أمور الدين ، فكان عمر يقبل الحجر ، ويقول أنا أعلم أنك حجر ، لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك » !

وهكذا كان عمر يفرق بين ما هو من أمر السماء متصلا بالدين ، وما هو من شئون الحياة متصلا بالدنيا !!

الفصل الثانى

فى السلم والحرب

بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، بدأ بوضع اللبنات الأولى في بناء دولة الإسلام ، فكان أول ما بدأ به أن آخى بين المهاجرين . ثم آخى بين المهاجرين والأنصار .. فكان لكل مهاجر أخوان .. أخ من المهاجرين ، وأخ من الأنصار .. أخوة فى دين الله ، يملأ بها المسلم فراغ مشاعره التى خلت من مشاعر الأخوة وعلائق النسب التى قطعها الإسلام بين المسلمين وذوى قرابتهم من المشركين .. هذا إلى الأخوة العامة التى تجمع المسلم إلى المسلمين جميعاً ..

أما عمر فكان أخوه من المهاجرين الذى آخاه به رسول الله ﷺ ، أبا بكر .. وكان أخوه من الأنصار عتبان بن مالك من بنى سالم ابن عوف ..

وقد أثمرت هذه الأخوة بين أبا بكر وعمر ، ثمرة مباركة ، فكانا أشبه بكيان واحد ، فى مكانهما من رسول الله ﷺ وقربهما منه ، وتأسيهما به وقيامهما على أمر المسلمين من بعده .. فاختصا من بين المسلمين جميعاً بأن ضمهما قبر واحد إلى جوار رسول الله ﷺ .

أما أخوة عمر لعتبان بن مالك . فلم يذكر التاريخ شيئاً ذا بال عن عتبان بن مالك هذا .. ولربما يكون قد مات فى زمن متقدم ، فلم يشارك

فى أحداث الإسلام ، وفى غزوات الرسول ، ولم يشهد يوم السقيفة ، وبيعة أبى بكر بالخلافة .. ولكن الذى نقطع به أن عتبان بن مالك كان أشكل الناس وأشبههم بعمر بن الخطاب ، إذ كان رسول الله ﷺ إنما يواخى بين المتوافقين خلقاً وطبيعة ..

لم يكن عمر ممن برزوا من أبطال المسلمين فى الحرب ، شأنه فى هذا شأن أبى بكر ، حيث لم يعرف لهما ماعرف لعلى ، وطلحة ، والزبير ، وحمزة وغيرهم من النكاية بالعدو فى ميدان القتال .. وليس هذا لأنهما لم يكونا ذوى بأس وقوة ، أو لأنهما كانا يضنان بأنفسهما عن الاستشهاد فى سبيل الله ، ولكن الذى حجزهما عن الضرب بسيفهما فى وجوه المشركين ، هو أنهما كانا وزيرين لرسول الله ﷺ وأنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ كان يضن بهما عن تلك المواقف ، ليكونا إلى جواره ، كما أن ذلك كان أرضى لهما حيث يظلان إلى جوار رسول الله ، يدفعان عنه كل خطر يطوف به .

عن محمد بن عقيل ، عن على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ أنه قال يوماً وهو فى جماعة من الناس : من أشجع الناس ؟ قالوا أنت يا أمير المؤمنين .. قال : أما أنى ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه .. ولكن أشجع الناس أبو بكر .. لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً ، وقلنا من يكون مع النبى ﷺ لئلا يصل إليه أحد من المشركين .. فوالله مادنا منه أحد إلا أبو بكر شاهراً السيف إلى جوار رسول الله ﷺ .

وروى ابن إسحاق فى تاريخه أنه بينما كان رسول الله ﷺ بالشعب يوم أحد مع أولئك النفر من الصحابة ، إذ علت عالية من قريش الجبل ،

فقال ﷺ : « إنه لا ينبغى أن يعلونا » فقام عمر ورهط معه من المهاجرين حتى أنزلوهم من الجبل .

فأبو بكر وعمر — رضى الله عنهما — لم يضنا بنفسيهما عن الموت فى سبيل الله ، وفى سبيل الدفاع عن رسوله ، ووقايته بحياتهما .. ولكن رسول الله ﷺ كان يضن بهما عن مواطن الخطر ، إذ كان البلاء بفقدهما عظيما ، وخلو مكانيهما من جوار رسول الله ﷺ لا يقوم أحد بملئه بعدهما .

عن السيدة عائشة — رضى الله عنها قالت «لما خرج أبى شاهراً سيفه راكباً راحلته ، يعنى يوم الردة جاء على بن أبى طالب ، فأخذ بزمام راحلته ، فقال : إلى أين ياخليفة رسول الله ﷺ ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد : شم سيفك — أى أغمده — لا تفجعنا بنفسك فارجع إلى المدينة ، والله لئن أصبنا بك لا يكون من بعدك نظام أبداً .. فرجع » .

والذى يشير إليه على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — من قوله ﷺ لأبى بكر يوم أحد : « شم سيفك لا تجعنا بنفسك » هو ما ذكره أصحاب السير من أن عبد الرحمن بن أبى بكر — وكان مع المشركين يوم أحد — خرج شاهراً سيفه ، يدعو إلى النزال ، فقام إليه أبو بكر يريد أن يلقاه مبارزاً فقال له النبى ﷺ : « يا أبا بكر ، شم سيفك ، لا تفجعنا بنفسك » ..

نعم كان أبو بكر وعمر وزيرين لرسول الله ﷺ ، فى السلم وفى الحرب ومن هنا كانت لهما تلك المكانة المسموعة فى كل أمر يعرض لرسول الله ﷺ فما عرض له صلوات الله وسلامه عليه أمر لم ينزل القرآن الكريم بحكم فيه إلا كانا على رأس من يستشيرهم النبى فيه ، ثم يمضى الأمر على ما اجتمع عليه رأى أصحابه ، وارتضوه ..

وكان عمر رضى الله عنه فى هذا المقام أكثر أصحاب رسول الله ﷺ مشورة عليه، إن لم يستشره رسول الله ﷺ، عرض هو عليه الأمر، وأراه رأيه فيه ..

وقد كان رسول الله ﷺ ينزل رأى عمر من نفسه منزلة خاصة، نه كان يعلم أنه من المحدثين، وأن الله تعالى قد جعل الحق على لسانه وقلبه .. كما يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه أحمد فى سنده. عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه .. ».

روى الترمذى عن على كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال : «رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مراً، تركه الحق وماله من صديق » !!

وليس ينبغى أن يفهم من قول رسول الله ﷺ : « إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه » أن عمر معصوم من الخطأ، وأنه لا يقول مالا يمكن أن يكون بمظنة الخطأ .. وكلا، فإن عمر قبل كل شىء بشر خالص البشرية، لا يوحى إليه، وإن كان من المحدثين أى الملهمين. ذوى القريحة اللماحة، والبصيرة النافذة ـ ولكن الذى يفهم من قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه، هو أن عمر قد برىء من النفاق، وأنه لا يجرى على لسانه إلا ما يعتقده فى قلبه، وأنه لا يعتقد فى قلبه إلا ما يراه حقا، وصدقا، وما يغلب على ظنه أنه الصواب، وإن كان خطأ .. فهو خطأ مجتهد، يتحرى مواقع الحق، والعدل، وينشد طريق الصواب .. ولهذا كان قول رسول الله ﷺ : «إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه » كان هذا شهادة من رسول الله ﷺ عن وحى من ربه بأن عمر

قد برىء براءةً تامة من النفاق ، وأن هذا الداء لا يجد له سبيلا إلى عمر .. فما يقول عمر بلسانه قولا إلا إذا كان هذا القول كاشفا عما فى قرارة قلبه .. وهذا على غير ما يقول المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ..

ومن هنا كانت الصّراحة المُطلقة فى حياة عمر هى الخطّ الواضح فى شخصيته ، وهى مظهرُ القوة النفسية والشجاعة القلبية لعمر، ولمواقفه الرائعة التى لا تقبل شيئا من الموادة أو اللين فيما هو حق ، أو فيما يراه هو أنه حق .. سواء أكان فى سلطان رسول الله ﷺ ، أو فى إمرة أبى بكر رضى الله عنه ، أو كان هو صاحب السلطان .. إنه لا يعرف المجاملة أو اللين فى طريق الحق .. فالحق عنده طريق مستقيم أشبه بالخط الهندسى ، إذا انحرف قيدَ أنملة تغير وجهه، وتبدلت حقيقته .. وقد كان هذا الخُلُق المتهيد العنيف فى الانتصار للحق سببا فى ضِيقِ كثير من النفوس المريضة من عمر، ومن ازورارها عنه ، ونفورها منه ، وعدم السّكن إليه .. ذلك أن الحق مُرّ لا يستسيغه الناس عامة إلاّ على كره، وإلاّ مع معاناة ومشقة .. ولهذا كان التلّطف واللين سياسةً من سياسة الحكماء ، والقادة والمصلحين، بل كان أدبًا من أدب السماء لأنبياء الله ورسله فى مواجهة الناس بالحق، وفى دعوتهم إليه وأخذهم به ، أشبه بالدواء الناجع لمن ألمّ به عارض من علة .. يقول الله تعالى لنبيه الكريم : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » ويقول جل شأنه فى وصف الرسول الكريم ، وأسلوب دعوته الذى جمع به القلوب إليه : « ولو كُنْتَ فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك .. فاعفُ عنهم، واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر[١] » ..

( ) آل عمران الآية ٥٩ .

رُوى أن عمر بن عبد العزيز — رضى الله عنه — كان يقول : «والله إنى لا أريد أن أخرج لهم — أى للناس — بالمُرّة من الحق ؛ فأخاف أن ينفروا عنها ، فأصبر حتى تجىء الحلوة من الدنيا ، فأخرجها معها . . فإذا نفروا لهذه ، سكنوا لهذه » . . ويقول أبو الدرداء رضى الله عنه : « إنى لأستجم نفسى بالشىء من الباطل أستعين به على الحق »! والمراد بالباطل هنا ما كان من اللّمم بحواشى الباطل ، دون اقتحامه ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون[1] »

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد كان على طبيعة واحدة مع الحق ، لا يعرف فيه هوادة ولينا ، ولا يقبل مهادنةً ، أوموادعة معه ... فالأمر عنده ، حق ، أو لا حق.

فرجلٌ جعل الله الحق على لسانه وقلبه ، ورجل أوتى من شجاعة القلب ، وثبات الجنان ما يجعله يجهر بكلمة الحق ، ولو كانت مُرّة ، ولو أثارت عليه العداوة والبغضاء - رجل كهذا وذلك رأىُ النبىّ ﷺ فيه - لابد آخذ مكانه من قلب رسول الله وسمعه ، وأن يكون عنده الرجل الذى يُدْعى لمهمات الأمور ، ويلتفت إليه حين لم يكن إلا القطع والحسم .

وكذلك كان عمر.. فما عرض للمسلمين أمر فى حياة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه — إلا كان لعمر فيه مكانه ، ورأيه ، وحسابه ، وإلا كان موقفه حيث وقف ، هو الإشارة إلى الموقف الذى ينتهى إليه أصحاب

(١) الشورى ٣٦ — ٣٧ .

الحق بعد أن تعييهم وسائل اللين واللطف ، وإن كان عمر يأخذ هذا الموقف ابتداء لم يعالجه بشيء من لين أو لطف .

وهنا نحب أن نقف قليلا عندما كان من مشورة النبي ﷺ لأصحابه فى كثير من الأمور ، والمواقف التى ربما وقع فى ظن بعض الناس أن هذا مما ينزل من مقام النبوة ، وأن النبى لو كان موصولا بالسماء لما احتاج إلى مشورة أحد ، ولاستبانت له الأمور على وجهها الذى هو أعدل وجوهها ، من غير استعانة بمشورة أحد أو نظر فى رأى أحد .. وأما والنبى يعرض له الأمر فيسأل من حوله عن وجه الرأى فيه ، ثم يأخذ بما يشار عليه به فهذا من شأنه أن يجعل كثيراً من الظنون والشكوك تحوم فى قلوب الذين فى قلوبهم مرض حول القول بعصمة النبى ، وبأنه ما ينطق عن الهوى .. وذلك ظن الجاهلية الذين لا يعرفون طبائع الناس . ولا يحسنون شيئاً من سياسة النفوس ورياضتها ، ولا يدرون الطريق إلى جذب القلوب وتألفها ، ثم هم من جهة أخرى أبعد ما يكونون من التهدى إلى وظيفة الرسول ، وإلى فحوى رسالته التى غايتها مداواة أدواء النفوس والاستشفاء لعلل القلوب .. الأمر الذى لا يكون إلا مع الحكمة والموعظة الحسنة ، وما المشورة فى هذا المقام من فتح مغالق العقول والقلوب والنفوس ، وشدها إلى من يستشيرها ويطلب حضورها فى كل أمر يعنيها ويعنى من استشارها ، حيث يرفع ذلك من شأنها عند نفسها ، ويعلو بها إلى ألا تكون من الإمعات الذين يضيع وجودهم فى دنيا الناس .

ومهمة الرسول الكريم إنما تقوم أساساً على إبراز معالم الإنسانية الكريمة فى الإنسان ، لتبنى به وبأمثاله تلك الأمة التى وصفها الله تعالى بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس[1] »

---

(١) آل عمران الآية ١١٠

ولهذا ، فإن ردنا على الذين ينكرون على الرسول ـ وهو رسول مؤيد بوحي السماء ـ أن تكون المشورة محملا من محامل رسالته . أن نقول :

أولا : إن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — إلى جانب أنه رسول ، هو أيضاً بشر .. ومن حق هذا الجانب البشرى منه أن يأخذ مكانه فيه ، وأن يؤدى وظيفته عنده ، وأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى حمله رسالته ، وزوده بما هو أهل له من علم ، وحكمة ، فإن ذلك لا يعنى أن يكون الرسول دائما موحًى إليه من ربه بكل ما يقول ، وما يعمل من أمور الدنيا ، إن ذلك من شأنه أن يعطل قُواه المدركة ، ويأتى على كل جهد ذاتى له ، فيكون أشبه بمن يُغذّى تغذيةً صناعية عن طريق الوريد ، دون أن يدخل فى جوفه طعام أو شراب عن الطريق الطبيعى من الفم والمعدة .. إنه سرعان ما تضمر أجهزته الهضمية ، ثم لا تلبث أن تفسد ، ولا تصلح لاستقبال طعام أو شراب .

... فكان من تدبير الحكيم العليم أن أعطى النبى الكريم حقّه كاملا فى هذا المقام ليحيا حياته البشرية الكاملة نحو ما يحيا البشر حياتهم فى أرفع مستوى وأعلاه ، ثم جعل له إلى جانب ذلك حياته النبوية الخاصة الخالصة التى يتلقى فيها ما يتلقى من أنوار الحق فيما يوحى إليه من ربه ، لا يشاركه فيه أحد من أمته !

وثانيا : إن نزول النبى الكريم إلى هذا المستوى البشرى ، الذى يلتقى فيه مع أصحابه ، ويتبادل فيه الرأى والشورة فيما يعرض من أمور ، هو تدريب عملى للمسلمين على مواجهة الحياة على امتداد الأزمان ، وعلى التعرف على وجوه الأمور التى تعرض لهم مما يجد من صور الحياة وأحداثها .

بما لم يكن للشريعة رأى فيه . . إذ أنه من المحال أن تحمل تلك الشريعة العامّة الخالدة كلّ ما تلد الحياة من أحداث على مرّ الأزمان ، وإن جاءت بالمبادىء العامة التى تومىء إلى الجزئيات التى تندرج تحتها هذه الأحداث دون أن تكشف عنها ، الأمر الذى يحتاج إلى رأى ، ونظر ، ومشورة ، وبهذا يظل المسلمون متصلين بالشريعة قائمين على مواردها ، يلقون بدلائهم فيها ، ويأخذون ما يفتح الله لهم منها من أنوار هداه ورحمته . .

وثالثا : قامت هذه الشريعة على أساس من العقل ، وإنه لفرضٌ على مَن يَدين بها أن يستعمل عقله فى كل ما يعرض له من أمور دينه ، عقيدة أو شريعة ، دون أن تقوم عليه وصاية من أحد بعد كتاب الله وسنة رسول الله .

ومن هنا كان أمر الله سبحانه وتعالى لنبيه بمشورة أصحابه ، وتداول الرأى معهم ، إقراراً لهذا الحق للمؤمنين ، وهم فى حضرة رسول الله ﷺ وفى هذا يقول الله تعالى : « فبما رحمة من الله لِنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر . . فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين »[1] .

فاستشارة النبى للمسلمين اعتراف لهم بحق النظر معه ، وفى هذا تكريم للإنسان ، وللعقل الذى كرمه الله تعالى به ، الأمر الذى لا ينبغى لأحد أن يفرط فيه ، كما لا ينبغى لحاكم أياً كان أن ينكره على أى فرد من أفراد الجماعة التى تحت سلطانه ، بعد أن وضع الرسول الكريم هذا الحق فى يدها بأمر من ربه !

(١) آل عمران الآية ١٥٩ .

رابعا : هذا التشاور فى الأمر بين النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وبين جماعة المؤمنين ، إنما هو فيما لم يكن لله سبحانه وتعالى ، أو لرسوله حكم قاطع فيه .. فإذا كان ذلك عن أمر من الله ورسوله لم يكن ثمة مجال لمشورة ، ولم يكن لمؤمن ولا مؤمنة إلا الامتثال والقبول ، دون تردد ، أو توقف . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً[1] » .

خامسا : ليس من الحتم اللازم فى كل أمر يعرض للشورى أن يقع المتشاورون على الرأى الصحيح فيه . . فقد يصيبون وقد يخطئون ، وإن كانت مواقع الصواب أكثر من الخطأ .

إن المشورة عمل بشرى ، وأعمال البشر غير منزهة عن الخطأ .

ومع هـذا ، فإن خطأ المشورة أحسن من صواب التفرد بالرأى ، والاستبداد به ، إذ كان ما ينجم عن خطأ المشورة من ضرر واقعاً على الجماعة كلها ، تحتمل تبعاته وتتقاسم آثاره الضارة ، فيخف محمله ، ويهون ضرره ، وليس كذلك ما يكون من صواب الرأى المتفرد المستبد ، وما يجنى من ورائه من ثمرات طيبة . . حيث تفتقد فيه المشاركة الوجدانية ، فتقع آثاره فاترة باردة ، لا يكاد يشعر بها أحد . أما إذا وقع الأمر الذى لم يخرج عن مشورة ، موقع الخطأ ، فإنه يقع على من استبد به وحده ، فلا يجد من أحد عذراً ولا يستقبل من نظرات الناس إليه إلا النظرات اللائمة أو الشامتة ، وإلا القلوب المليئة بالكراهية والضغينة . . الأمر الذى يجعل مقامه فى الجماعة حرجا مضطربا .. فإذا كان ذلك الإنسان على رأس الجماعة ، والتصرف فى

(١) الاحزاب الآية ٣٦ .

شئونها كانت عثرته التى تقع عن غير مشورة خطبا بلاؤه . دون أن يشارك أحد فى إصلاح ما فسد !!

وعلى هذا ، فإنه ليس بالمستبعد أن تجىء المشورة التى يجريها النبى ﷺ على غير الوجه الصحيح ، لأنها كما قلنا عمل بَشَرىّ ، اشترك فيه النبى — صلوات الله وسلامه عليه — ببشريته ، لا بنبوته ، لأنه بنبوته ﷺ ، لا يحتاج إلى أن يشاور .. أمَا وقد عُرض الأمر معرض المشورة ، فمعنى هذا أنه أمر لا تتدخل فيه السماء ، بل تدعه للناس يقضون فيه بما يدلهم عليه تفكيرهم وتقديرهم .

عن معاذ بن جبل ، أن النبى ﷺ لما بعثه إلى اليمن ، استشار ناسا من أصحابه ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وطلحة ، والزبير ، وأسيد بن حضير ، فقال أبو بكر : لولا إنّك استشرتنا ما تكلّمنا ، فقال النبى ﷺ « إنى فيما لم يوحَ إلى كأحدكم » فتكلم كلُّ إنسان برأيه . . فقال رسول الله ﷺ :

« ما ترىَ يا معاذ ؟ » قال : أرى ما قال أبو بكر ، فقال ﷺ : إن الله يكره مِن فوق سمـــائه أن يُخَطّأ أبو بكر ، أو قال أن يُخطىء أبو بكر » !!

والأمر الذى يصدر عن مشورة واجتهاد لا يمكن أبداً أن يكون موضع لوم أو مؤاخذة مهما كان الوجه الذى صدر عنه ، ومهما كان من الخطأ والبعد عن الصواب ، لأنه غاية المجهود الإنسانى ، ومبلغ ما بلغ العقل من الإحاطة به .. والله سبحانه وتعالى يقول : « لا يُكلّف الله نفساً إلا وسعها » وغاية ما هنالك هو أن ما يقع من الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ

من خطأ فى رأيه صدر عن المشورة أو الاجتهاد ، لا يمضى هكذا من غير تصحيح ، بل إنه سرعان ما يأتيــه وحى السماء كاشفاً عن الوجه الصحيح له .

هذا ويلاحظ أن هذا التصحيح يجىء أكثر ما يجىء — كما يقول المفسّرون والفقهاء — فى صورة عتاب للنبى ﷺ أو نهى له عن العودة لمثل هذا الأمر أو استبعاد لأن يقع منه هذا الأمر ... وذلك كما فى قوله تعالى : « عَفَا اللهُ عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين[1] » وقوله سبحانه « ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره .. إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون[2] » . وقوله جل شأنه : « ما كان لنبىٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم[3] » .

وقد ذهب كثير من المفسرين والفقهاء إلى أن هــذه الآيات وأمثالها هى عتاب النبى ﷺ بل ذهب بعضهم إلى أنه عتاب يبلغ حد المؤاخذة ، ولهذا جاء مشفوعا بالعفو والمغفرة .

وهذا ما لا يقبله منطق ، فضلا عما فيه من العدوان على مقام النبوة ، ووضع النبى ﷺ موضع الاتهام والتقصير .

والنبى — صلوات الله وسلامه عليه — فيما يتصرف فيه أو يقضى به مما لم يأمر الله به أو لم ينهه سبحانه وتعالى عنه ، هو فى هــذا كسائر حكماء الناس وحكامهم ليس له إلا أن يتنخل رأى أصحابه ، ويجتهد رأيهَ ،

(١) التوبة الآية ٤٣ .
(٢) التوبة الآية ٨٤ .
(٣) الأنفال الآية ٦٧ .

ويتحرى ما استطاع الرأىَ الصحيح .. وهو المحمود فى كل حال ، أصاب أو أخطأ ، لأنه لم يَمِلْ مع هَوىً ، ولم يقصد إلى بغى أو ظلم ، وحاشاه — صلوات الله وسلامه عليه — أن يطلب غيرَ الحق ، وأن يتجه إلى غير العدل والإحسان . . فكيف يُلام ، أو يُعاتب على أمر لم يدخر له من جهده شيئاً ؟ إن المقرر فى الشريعة الإسلامية ، هو أن « من اجتهد فأخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران » . . وهذا هو الحق والعدل . . إن له على أى حال أجر ، هو أجر اجتهاده وطلب وجه الحق .. فإن هو أخطأ فلا عليه ، ويبقى له أجر اجتهاده ، وإن أصاب كان له أجرُ اجتهاده ، مُضافاً إليه الصواب الذى وفق إليه ، والحق الذى انتصر له ! فكيف لا يكون لرسول الله ﷺ هذا الأجر فى اجتهاده ، إن أصاب أو أخطأ ؟ وكيف يتحول الأجر إلى لوم أو عتاب ؟ ذلك مالا يقبله عقل ، ولا يتسع له منطق بحال أبداً !

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » والسيئة هنا هى ما يسوء النبىّ فى نفسه ، أو فى أصحابه كما حَدَث فى وقعة أحد .. وليس على النبى فى هذه الموقعة من لوم أى لوم ، بل إن الحمد كل الحمد له ، والثناء كل الثناء عليه ﷺ ، لما كان منه من بلاء وصبر ، حتى ثَبَتَ وحده فى وجه المشركين ، والرماح تَنُوشه ، والسيوف تحوم حوله ، وليس معه إلا نَفَر يعدّ على الأصابع من أصحابه الذين ثبتوا معه .. وواضح من الآية الكريمة أن النبى الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — قد يقع له ما يسوؤه ، لا ما يُعَد ذنبا عليه — نتيجة رأى رآه ، أو عمل عمله ، حسب ما أداه إليه رأيه واجتهاده تماماً كما يحدث لأى قائد أو زعيم صَدَرَ فى عمل من أعماله عن رأى أصحابه ،

ثم وقع لهم من الأمر ما يسوء .. إن ذلك هو كسب أيديهم وغاية اجتهادهم!.

ونعود فنكرر القول بأن هذا كله فيما يتصل بأمور الدنيا ، وتقلب الناس فيها ، أما ما يتصل بأمور الدين فإنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يقول إلا ما يأذن الله له به ، من دينه .. فإذا تأول أمراً من أمور الدين ثم كان على غير ما يريد الله تعالى أن يكون من شريعة — إذا حدث شيء من هذا جاء الوحى إلى رسول الله ﷺ بما هو الحق من دين الله فى هذا الأمر .

روى أن أوس بن ثعلبة الأنصارى ظاهر من زوجته ، أى قال لها : « أنت علىّ كظهرِ أمىّ » وكان هذا من طلاق الجاهلية . . ثم ندم أوس على ما حدث ولكنه اعتزل زوجه ، وقال لها لقد حَرُمت على . . فجاءت المرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله : إن أوساً ظاهر منى وهو زوجى ، وأبو عيالى .. فقال لها ﷺ : ما عندى شيء لك .. وما أراك إلا قد حرمت عليه .. فجعلت المرأة تراجع رسول الله ﷺ ، وتقول ، إن أوساً لم يرد طلاقاً وقدم ندم على ما كان منه .. وهو أبو عيالى : إن تركتهم ضاعوا ، وإن أخذتهم جاعوا ورسول الله ﷺ يقول لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه .. ثم أخذ النبى ﷺ ما يأخذه من الوحى .. فلما قضى الوحى ، قال أين المرأة ؟ فقالت ها نذا يا سول الله ؟ فقال لها — صلوات الله وسلامه عليه · « ادعى زوجك فدعته ، فتلا عليه الرسول الكريم الآيات الأولى من سورة المجادلة التى نزلت عليه فى هذا الحدث .

وهى قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللآئى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور . . والذين يظاهرون من

نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم[1] ثم قال له ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ « اعتق رقبة » فقال : لا أجد : فقال « فصم شهرين متتابعين » فقال : لا أستطيع ، إنى إذا جعت كلّ بصرى وخشيت أن تعشى عيناى .. فقال « فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا » : فقال : لا ، والله إلا أن تعيننى على ذلك ، فأعان رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعا.

وقد يسأل سائل :

وما تأويل الآيات التى تكاد تصرح باللوم ، أو العقاب .. فى مثل قوله تعالى : عفا الله عنك لم أذنت لهم ! وقوله تعالى : « وما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » ، وقوله تبارك اسمه « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » ... ما تأويل هذا ؟

ونقول — والله أعلم — .

إن هذا الذى يلوح من لوم أو عتاب ، هو فى صميمه موجه إلى أولئك الذين أخذوا رسول الله ﷺ باللين والرفق ، وأنهم ليسوا أهلا للين أو الرفق .. فالنبى — صلوات الله وسلامه عليه — إنما يلقى هذا العتاب من ربه ، فى صورة حمد له ، ولخلقه الكريم ، على حين أن هذا تجريم لمن عوتب النبى فى شأنهم .. وذلك مثل قوله تعالى « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » وقوله سبحانه « فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » فهذا وإن بدا فى ظاهره أنه نهى ، ولوم ، أو عتاب ، هو فى صميمه حمد ومدح ،

---

[1] ( ) المجادلة ١ ـ ٤ .

وثناء على رسول الله ﷺ ، وعلى ما طبع الله تعالى نفسه الشريفة عليه ، من لين ورحمة وإحسان ، وهو مثل قولك فى عتاب إنسان نبيل كريم أتحسن إلى هذا الذى يفسده الإحسان ! أتعفو عن هذا الذى لا يعرف قدر العفو ؟ وذلك فى مواجهة أهل اللؤم والخسة ، دون أن تتجه باللوم إليهم، لأنهم ليسوا أهلا لأن تتجه إليهم بحديثك ، استصغاراً لهم ؛ واستخفافاً بهم . فهؤلاء الأسرى يوم بدر من رءوس المشركين الذين أخذ رسول الله ﷺ بمشورة بعض أصحابه فيهم ، بقبول الفدية منهم بدلا من قتلهم، هؤلاء يواجهون بعتاب النبى فيهم بأنه لم يقتلهم ، إنما يرون مافعله النبى معهم كان فضلا منه وإحسانا وشفاعة له مقبولة من ربهم فيهم ، ولا شك أن هذا من شأنه أن يضعهم أمام اللوم من أنفسهم ، وما تحمل من جرم غليظ يستحقون القتل عليه ، أما النبى ﷺ وأصحابه فهم فى هذا فى مقام الحمد والإحسان . ولهذا يختمهم قول الله تعالى فيما أخذوا من فداء هؤلاء المشركين « فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً » فهل يتفق اللوم على أخذ الفدية والدعوة إلى أكلها حلالا طيباً ؟

* * *

وأرانا قد أطلنا هــذه الوقفة التى كنا نقدر أنها لا تطول إلى هذا المدى ، ولـكن الذى حملنا على هذا ـ ونحن مع سيرة عمر بن الخطاب ، هو أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنـه — كان أبرز صحابة رسول الله ﷺ فى مواقف المشورة ، وأنه كان ينفرد كثيراً بالرأى الذى يأخذ النبى ﷺ بغيره مما يراه أصحابه ، ثم يجىء القرآن موافقاً لرأى عمر ، ممـا عرف عنه أهل القرآن والفقه بموافقات عمر .

ومن تلك الموافقات ، ما كان فى أسرى بدر ، وما كان من رأى عمر فى قتلهم ، دون قبول الفدية منهم .

ففي صحيح مسلم عن ابن عباس ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. قال : لما كنا يوم بدر قال رسول الله ﷺ : ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال : أبو بكر : يا رسول الله ، بنو العم ولعل الله يهديهم إلى الإسلام ويكونون لنا عضداً .. قال : فما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت : يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدهم ، فنضرب أعناقهم .. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء .. قال عمر فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان . . قلت يا نبي الله : أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك .. فإن وجدت بكاء بكيت ، وإلا تباكيت لبكائكما . فقال لقد عرض علي عذابكم أدنى من الشجرة ، والشجرة قريبة حينئذ — فأنزل الله « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

وقد روى البخاري هذا الحديث بهذا المعنى ، وزاد عليه قوله : « فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا — أي المسلمون — بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه ، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه ..

وفي مسند أحمد عن أنس بن مالك ، قال استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر ، فقال : « إن الله قد أمكنكم منهم » ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله أضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ . ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يأيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم

---

(١) الأنفال آية ٦٧ .

بإخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال : يارسول الله أضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر فقال : يارسول الله ، نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل الفداء منهم .. قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم ، فعفا عنهم ، وقبل الفداء منهم .. فأنزل الله تعالى :« لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم[1] » .

ويعلق صاحب « الرياض النضرة » على هذه الأخبار فيقول : وفي هذه الأحاديث دليل على أنه ﷺ كان يحكم باجتهاده[2] .

ونعم كان رسول الله ﷺ هنا يحكم باجتهاده ، وبما يروى مما يشير به أصحابه عليه .. وقد أشار عمر ـ رضي الله عنه ـ بقتل الأسرى . وأشار أبو بكر بقبول الفدية . . ولا شك أن رأي عمر كان رأياً لبعض صحابة رسول الله ﷺ كما أن رأي أبا بكر — رضي الله عنه — كان رأياً للبعض الآخر منهم . . وأن رسول الله ﷺ أخذ برأي أبو بكر ، ومن كان على رأيه ، لأنه الرأي الذي يوافق رأي الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كما يشير إلى ذلك ما جاء في مسند أحمد من إعراض النبي ﷺ عن عمر ، حين أشار بقتل الأسرى ، ومن أنه ﷺ قد ذهب ما كان على وجهه من غم حين أشار عليه أبو بكر بقبول الفداء ، كما يشير إلى ذلك أيضاً قوله : « إنما هم إخوانكم بالأمس ، فهذه كلها أمارات تدل على اتجاه رأي النبي ﷺ في هذا الأمر ، وأنه لم يقطع به حتى رأى في أصحابه من يرى رأيه هذا .

---

(١) الانفال الآية ٦٧ .

(٢) وقد هدى الله كثيراً منهم إلى الاسلام ، ومنهم أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان من هؤلاء الأسرى .

ولا شك أن كلا الرأيين قتل الأسرى ، أو قبول الفدية منهم ، كانا واردين على خاطر رسول الله ﷺ ، ولكنه كان يميل إلى الرأى الثانى ، وهو قبول الفدية ، وذلك لما طبعه الله تعالى عليه من الرحمة ، والسماحة ، واللطف .. إن الشدة واللين جانبان متوازنان فى النفوس السوية ، فلا تلين إلا فى حق ، ولا تشتد إلا فى حق .. ولهذا قال رسول الله ﷺ تعقيباً على رأى كل من أبى بكر وعمر فى هذا الحدث : « أنت يا أبا بكر مثلك مثل عيسى ، إذ يقول فى قومه : « إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » وأنت ياعمر مثلك مثل نوح إذ يقول فى قومه : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

فانظر كيف شبه الرسول الكريم صاحبيه من لان أو اشتد منهما ، بنبيين كريمين ـ هما عيسى ونوح عليهما السلام ـ فى لين أحدهما ، وشدة الآخر.

وهذا الرأى الذى مال إليه الرسول الكريم وأخذ به ، هو الذى يجرى مع ما طبعه الله تعالى عليه من السماحة ، وما ملأ به قلبه الكبير من الرأفة والرحمة ، إذ وصفه سبحانه بقوله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »[1] ، ورحمته ورأفته بالمؤمنين لا تتخلى عنه صلوات الله وسلامه عليه فى أى موقف يرى فيه الرأفة والرحمة موضعا .

وظاهر هذا العتاب الذى وجه للنبى وللمسلمين فى قوله تعالى « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » . هو كما أشرنا من قبل تجريم لهؤلاء المشركين ، الذين آذوا رسول الله ﷺ ، وآذوا المسلمين وأخرجوا

---

(١) التوبة الآية ١٢٨ .

الرسول والمهاجرين معه ، من ديارهم وأهليهم ، إنهم فى شريعة العـدل لا يستحقون غير القتل . . ولـكن الرحمة فوق العدل ، إذا كانت لا تجور على حق الغير ، وكانت تـكريما وتفضلا من صاحب الحق . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها . . فمن عفا وأصلح فأجره على الله »[١] ويقول تبارك اسمه : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم[٢] » ويقول جل شأنه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين[٣] ».

ومن أولى من رسول الله ﷺ بالأخذ بما هو أوفى وأتم فى كل خير ؟ تقول السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن فيه مأثم » .

هكذا رسول الله ﷺ يقوم أمره كله على الرفق ، والرحمة ، واليسر وقد وضع الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأسرى بين يديه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليستبقيهم لا ليقتلهم ، لأن فيهم كثيرين ممن سيدخلون فى الإسلام ، ويجاهدون فى سبيل الله ، وقد كان ، فإن كثيراً من هؤلاء الأسرى ، قد أسلموا ، ودخلوا فى دين الله ، وكان من المجاهدين فى سبيل الله ، ومنهم العباس ، عم النبى ﷺ !!

وأما هذا العتاب ، فهو كما قلنا : موجه فى صميمه إلى هؤلاء المشركين فى صورة تجريم وتهديد لهم وأن العفو عنهم ، وإعفاءهم من القتل كان مكرمة

---

(١) الشورى الآية ٤٠ . (٢) فصلت ٣٤ ـ ٣٥ .
(٣) النحل الآية ١٢٦ .

وفضلا من النبي ﷺ ، الذى آذوه وأخرجوه من بلده وأهله ، كما أنه أصل من أصول الشريعة السمحاء التى يدعون إليها ، وهى الشريعة السمحة التى أمهل الله تعالى المدعوين إليها ، وطاول لهم فى الزمن ، ولم يعجل لهم العذاب فى الدنيا ؛ حتى يراجعوا أنفسهم حياتهم كلها ، فيهدى الله منهم من أقبل على دعوة الله ، وشرح لها صدره ، ويقيم الحجة على من كذب وتولى .. وهذا من فضل الله تعالى على رسوله ، وعلى الأمة المبعوث فيها ، حيث لم يأخذ الله المكذبين بعاجل عذابه ، كما نمل مع أقوام الرسل من قبله ، وفى هذا يقول الله تعالى : «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون[١] » .

وأما ما يشير إليه قوله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » فهو توكيد لتجريم هؤلاء المشركين وتهديد لهم ، بحيث كاد جرمهم يصيب الذين مدوا أيديهم إليهم بالرفق والإحسان .

والكتاب الذى سبق من الله تعالى والذى يشير إليه فى قوله جل شأنه : «لولا كتاب من الله سبق» هو أنه سبحانه لا يحاسب إلا بعد بيان وبلاغ ، ولا يعاقب إلا بعد إنذار وإعذار .. وفى هذا يقول سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[٢] » ويقول جل شأنه : «وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا[٣] » ويقول تبارك اسمه : «وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون[٤] » ويقول سبحانه : « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون»[٥] .. فهذا هو كتابه

(١) الأنفال الآية ٣٣ .
(٢) الإسراء الآية ١٥ .
(٣) القصص آية ٥٩ .
(٤) التوبة الآية ١١٥ .
(٥) الأنعام الآية ١٣١ .

الله الذى كتبه على نفسه ، وهو أنه سبحانه لا يحاسب ولا يعاقب إلا بعد بلاغ وبيان بما يرسل من رسل ، ينذرون الغافلين ، ويوقظون النائمين ، وبهذا يقيمون الحجة على الناس : «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل»(١).

وهذا يعنى أن هذا الذى حدث فى أسارى بدر ، وفى قبول الفدية منهم هو أمر لم يتلق فيه النبى والمسلمين بياناً من السماء ، فأجروه على ما أدى إليه اجتهادهم فيه ، وهذا مما لا يقع فيه لوم أو مؤاخذة . . ولهذا جاء بعد قوله تعالى « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » جاء قوله تعالى «فكلوا مما غنمتم حلالا طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم » . . فقد دعا الله سبحانه المسلمين إلى أن يأكلوا من هذا الذى غنموه ومنه ما أخذوه من فداء الأسرى ، وهو حلال طيب ، حيث أخذ بحقه . ولو كان هذا الذى فعلوه مع الأسرى يوجب لوما أو ذماً ، لما كان ما أخذوه من فدية حلالا طيباً ، ولجاً أمر الله تعالى بحرمة هذا المال الذى أخذه النبى والمسلمون من فداء الأسرى . . ثم يجىء بعد هذا قوله سبحانه فى شأن هؤلاء الأسرى : « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم(٢) » فكما نظر الله تعالى إلى المؤمنين نظرة عطف ، ورحمة ، ومغفرة ، نظر كذلك إلى هؤلاء الأسرى المشركين نظرة داعية إلى المغفرة والرحمة لمن نزع لباس الشرك عنه ، وأنه سبحانه وتعالى سيؤتى من آمن منهم خيراً مما أخذ منه من فداء . . وذلك لأن من هؤلاء الأسرى من سيدخل فى دين الله ، ويحسن مقامه فى المؤمنين بالله ، جهاداً وبلاء فى سبيل الله . . فهل فى مثل هؤلاء الأسرى يقع لوم أو عتاب على أن عصموا من القتل بأخذ الفدية منهم ؟

---

(١) الأنفال الآية ٧٠ .
(٢) النساء الآية ١٦٥ .

إن الأمر — كما قلنا — لم يكن — والله أعلم — إلا تذكيراً لهؤلاء الأسرى بما كان منهم من عدوان على النبي والمسلمين ، وإلا تنديداً لهم على ما فعلوا ، وإلا حثاً لهم على مراجعة أنفسهم ، وإصلاح ما أفسدوا .

ومن جهة أخرى ، فإن قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » قد ذهب فى تأويله المفسرون إلى رأى كادوا يجمعون عليه ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لنبي أسرى حتى يثخن فى الأرض ، أى حتى يتمكن سلطانه فى الأرض ، وتكون له شوكة غالبة وقوة قاهرة لأعدائه .. عندئذ يحق للنبي أن يكون له أسرى .. أما قبل هذا ، فلا يكون له مطمع فى الأسرى ، وذلك بالعدول عن قتلهم إلى أسرهم ، ليؤخذ منهم الفداء ..

وهذا ما وقف عنده رأى المفسرين لهذه الآية الكريمة ، ولم نر أحداً — فيما أطلعنا عليه من كتب التفسير — ذهب إلى أبعد من هذا .. فلم يشر أحد إلى هؤلاء الأسرى فى موقعة بدر ، وقد وقعوا أسرى فعلا .. فما هو الرأى فيهم ؟ وما موقف الشريعة الإسلامية منهم ، أيقتلون ؟ وكيف يصح قتلهم ؟ وعلى أى وجه يقام هذا الحكم ؟ إن قتل الأسرى أمر تأباه شريعة المتحاربين ، حتى أولئك الذين لا يدينون بدين سماوى ، فكيف يباح فى هذا شريعة سماوية ، وفى شريعة الإسلام بالذات ، تلك الشريعة العامة للناس جميعا على امتداد الأزمان ؟ أفتكون الجاهلية أبر بالإنسانية من الإسلام ؟ ألم يقل الشاعر الجاهلى :

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم ... إذا أثقل القوام حمل المغارم

إنه — والأمر كذلك — لا سبيل إلى قتل هؤلاء الأسرى الذين وقعوا ليد النبي ﷺ والمسلمين فى غزوة بدر ، أو الذين سيقعون أسرى فيما بعد .

وقد يعترض على هـــذا ، بأن يقال : إن عمر بن الخطاب رأى فى هؤلاء الأسرى أن يقتلوا ، وأن هذا رأى استوحاه عمر من الشريعة التى يدين بها ! !

ونقول : إن هذا الرأى من عمر ، لم يكن ـ قطعاً ـ مستوحى من الشريعة ، وإلا لـكان ذلك إلى رسول الله ﷺ ، ولم يكن عنده محل استشارة فيه .. وإنما الذى كان من عمر هو من دواعى الغيظ والنقمة من هؤلاء المشركين ، الذين آذوا رسول الله ﷺ ، وآذوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم . فأخرج هذا الرأى على إطلاقه ، وعلى ما كان يعتمل فى نفسه من حنق وموجدة على هؤلاء المشركين ، الذين حادوا الله ورسوله ، وفى يقين عمر أن الأمر فى هذا إلى رسول الله ﷺ ، وأنه لا بأس ـ والأمر كذلك ـ أن ينفس عن نفسه بهذا القول فى المشركين .. أما الرأى السليم فمرجعه إلى رسول الله ﷺ .. ونجزم بأنه لو كان مرجع الرأى فى هذا الموقف إلى عمر وحده لما أشار به ، ولما رضى بقتل هؤلاء الأسرى لا فى جاهلية ولا فى إسلام .. وأما وهو فى سعة من الأمر فليقل ما بدا له ، وليشر بما يرى ، ما دام ذلك سيوضع على ميزان الحق والعدل ، الذى يمسك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

أما قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يـكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » ـ فهو .. إلى ما فيه من إشارة صريحة إلى أن هؤلاء الأسرى لم يكونوا أهلا لأن يؤسروا ، بل كان الحكم فيهم هو أن يقتلوا ، ولـكن لا أن يقتلوا بعد الأسر ، بل كان الواجب قتلهم فى ميدان القتال ، ورحى الحرب دائرة ، لا أن يستبقوا ليـكونوا أسرى ـ نقول أن قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » ـ إلى ما فيه

من تغليظ لجرم المشركين ، فيه أيضاً لوم للمؤمنين الذين آثروا أن يبقوا على هؤلاء المشركين، وقد أمكنتهم الفرصة فى قتلهم فى المعركة وكان الواجب قتلهم فى المعركة ، لا ليكونوا أسرى فى أيديهم ، ومغنماً من مغانمهم ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى الآية الكريمة : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .. فما وقع فى الآية من لوم على المسلمين فى هؤلاء الأسرى ، إنما هو لوم على أسرهم دون قتلهم وقد كانوا فى معرض القتل بأيدى المسلمين فى المعركة .. وأما وقد وقعوا أسرى ، فلاسبيل بعدهذا إلا المن عليهم بإطلاق سراحهم أو قبول الفدية منهم ، كما يقول سبحانه: « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها[1] » . . وهذه الآية من سورة نزلت قبل سورة الأنفال ، حيث أنها نزلت فى طريق هجرة النبى ﷺ ، على حين نزلت سورة الأنفال بعد غزوة بدر . . فالأمر الذى كان مع المسلمين من ربهم قبل أن يلتقوا بالمشركين فى بدر هو قوله تعالى: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء » ــ وقد كان على المسلمين فى غزوة بدر ألا يحرصوا على إبقاء بعض المشركين أحياء طمعاً فى أسرهم ، بل كان عليهم أن يقتلوا كل ما أمكنهم قتله فى المعركة . وعلى هذا يكون قول النبى ﷺ : « لقد عرض على عذابكم أدنى من الشجرة» ــ مشيراً به إلى أولئك الذين حرصوا على أن يستبقوا من المشركين ما أمكنتهم الفرصة من قتله ، ليكونوا أسرى فى أيديهم ، دون أن يسمى أحداً منهم .. وأما بكاؤه ﷺ، وبكاء صاحبه أبى بكر معه ، فهو رحمة وإشفاق على هؤلاء الذين كان منهم ذلك

---

(١) سورة محمد الآية ٤

الحرص على استبقاء بعض المشركين أحياء ليأخذوهم أسرى .. أما حكم الرسول ﷺ في هؤلاء الأسرى ، الذين وقعوا فى الأسر فعلا ، فهو الحكم الذى قضى به ﷺ بعد مشورة أصحابه ، لأن فى هؤلاء الأسرى من كان أسره عن قصد وتدبير ولم يكن جاريًا على حكم الآية الكريمة : « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق،فإما منا بعد،وإما فداء » ولو كان هؤلاء الأسرى جميعًا ممن أثخنتهم الجراح ، وسقطوا فى ساحة المعركة لما استشار النبى أصحابه فيهم .. فالاستشارة هنا ـ والله أعلم ـ إنما كانت لما دخل على هؤلاء الأسرى ممن حقه ألا يكون أسيرًا ، بل قتيلا .. !

هذا ، ويؤيد ما ذهبنا إليه فى تأويل قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » ـ من أن المراد بالأسرى ، هو طلب أسر المقاتلين أثناء القتال ، والحرص على وقوعهم فى الأسر بدل قتلهم ، حتى تؤخذ الفدية منهم ، كما حدث ذلك فى غزوة بدر ـ يؤيد ما ذهبنا إليه ، هو ما حدث بعد ذلك فى غزوة أحد ، فقد وقع فى يد المسلمين بعض الأسرى من المشركين ، ومع ذلك فقد قبل النبى منهم الفداء ، ولم يقتل إلا واحدًا منهم[1] .. على الزغم مما أصاب المسلمين فى هذا اليوم من هزيمة ، ومن قتل الكثير من وجوه الصحابة ، وفيهم حمزة عم النبى . فلو أن الآية كانت تعنى الأسرى الذين يقعون فى الأسر من غير قصد لأسرهم ، كما حدث فى أحد ، لما كان للنبى أن يقبل منهم الفداء . وقد عوتب من قبل فى أسرى بدر !!

(١) فى غزوة أحد وقع فى الأسر عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب ، وهو الأسير الوحيد ، الذى أسره المسلمون فى تلك الموقعة ، وكان قد أسر يوم بدر ، وكان من فقراء قريش ، وله بنات يعولهن ، فمن عليه رسول الله ، وأخذ عليه ألا يظاهر على المؤمنين أحدًا ، ولكنه لم يف بهذا فجاء مع المشركين يوم أحد ، محاربا لرسول الله فوقع فى الأسر ، وقال أمنن على يا محمد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه : ولو لم يكن هذا المشرك قد نقض العهد لقبل الرسول منه الفداء ، أو من عليه .

إن أسرى بدر ، هم ممن أسروا قصداً ، بقصد الإبقاء على حياتهم ، وكان فى يد المسلمين قتلهم .. أما أسرى أحد ، فلم يكن حال المسلمين يومئذ بالذى يجعل لهم فى المعركة خياراً بين قتلهم وأسرهم .

تلك هى قضية الأسرى ، التى كثرت الأقوال فيها ، وهى كما رأينا لا تخرج عن مسألة عارضة ، أخذ فيها النبى والمسلمون بما أدى إليه النظر والاجتهاد ، إذ لم يكن لله سبحانه وتعالى سابق بيان لها ، أو حكم فيها .. إنها أشبه بما كان من موقف رسول الله ﷺ من المشركين يوم بدر ، حين نزل منزلا ، رأى أن يقاتل المشركين فيه ، ثم جاءه بعض أصحابه وهو — الحباب بن المنذر — فقال يارسول الله : أهذا منزل أنزلكه الله ، فليس لنا أن نعدل عنه ، أم هو الحرب ، والرأى والمكيدة ؟ فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ « بل هو الحرب والرأى والمكيدة » ..

وهنا أشار الحباب بن المنذر إلى المكان الذى نقضى به الحرب والمكيدة ، فأخذ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بما أشار به الحباب بن المنذر ، وتحول عن موضعه إلى الموضع الذى أشار به الحباب بن المنذر .. وقد صح هذا الرأى ، وانتفع به المسلمون أيما انتفاع فى قتال العدو ، ثم فى كسب المعركة .. فاذا يكون لو أن هذا الرأى لم يكن صحيحا وقد أخذ به النبى ؟ إنه لاشىء على النبى ﷺ ، ولا على المشير الذى أشار عليه ، إذ كانت مشورته عن مناصحة مخلصة ، لا عن خيانة وخديعة ، وإن الموقف فى أسرى بدر ، لهو مثل هذا الموقف سواء بسواء ..

إن موقف عمر فى أسرى بدر هو الموقف الذى يتفق مع طبيعة عمر فى الشدة والصرامة ، التى لا تتسع لشىء من اللين ، فى مواجهة أهل الشرك والضلال .. إنه ليس إلا الإيمان ، أو السيف ، ولاشىء بينهما من الموادعة ولو لوقت قصير تسكن فيه النفوس الثائرة ، وترجع فيه العقول العازبة ..

ولو كان عمر فى جاهليته ، لما رأى فى الأسرى ما رأى من قتلهم ، ولكنه حين أشار بقتل أسرى بدر ، كان لا يرى غير الإسلام الذى كاد له هؤلاء المشركون ، ولا يرى طريقاً للإسلام إلا بالقضاء على الواقفين فى سبيله .

روى البخارى ومسلم ، فى قصة الحديبية . وفى الصلح الذى أجراه النبى ﷺ مع المشركين : أنه لما أتى النبى ﷺ عينه[1] ، فقال : إن قريشا جمعوا لك جموعا ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ، ومانعوك .. فقال ـ ﷺ : أشيروا على أيها الناس .. أترون أن أميل إلى عيالهم وإلى ذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت[2] ، فإن قاتلونا كان الله قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محرومين ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتال أحد ، ولا حربا ، فتوجه له[3] ، فمن صدنا عنه ، قاتلناه .. فقال ﷺ : « امضوا على اسم الله عز وجل .. فلما كان أمر الصلح ، ولم يبق إلا أن تكتب وثيقته ، وثب عمر إلى أبى بكر فقال : يا أبا بكر : أوليس برسول الله . أولسنا بالمسلمين ، أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلى.. قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال أبو بكر : « الزم غرزه[4] حيث كان ، فإنى أشهد أنه رسول الله » ، فقال عمر : « أنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى — أى عمر — رسول الله ﷺ : فقال : يارسول الله: أو لسنا بالمسلمين ؟ أوليسوا بالمشركين ؟ فقال ﷺ : بلى ! ! قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال ﷺ : « أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ،

---

(١) العين هو الذى يكون عينا للجيش على العدو ، يتعرف أحوالهم وأخبارهم .. أشبه بعمل المخابرات اليوم .

(٢) وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد جاء فى المسلمين معتمرا ، يسوق الهدى أمامه إلى البيت الحرام ، لا يريد قتالا .

(٣) أى توجه للبيت الحرام .

(٤) الزم غرزه : أى اتبع أثره ، وسر وراء خطوه (أى النبى ـ صلى الله عليه وسلم) .. وأصل الغرز ركاب الرحل من جلد ، فإن كان من خشب أو حديد ، فهو ركاب ..

ولن يضيعنى » .. فسكت عمر عند ذلك وسكن .. لأنه رأى هذا الموقف من النبى — ﷺ — بقبول التصالح مع قريش ، عزمة من رسول الله، فأمسك عمر عن القول فى هذا الأمر بعد ما رأى من رسول الله ، وما سمع من قوله — صلوات الله وسلامه عليه — : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » .. ومعنى هذا أن قبول الصلح كان بأمر من السماء تلقاه الرسول الكريم ، وإذن فلا مراجعة فى هذا الأمر من عمر أو غيره !!

وفى البخارى ومسلم — واللفظ للبخارى — عن عمر رضى الله عنه قال: فأتيت النبى ﷺ ، فقلت يارسول الله : ألست نبى الله حقا ؟ قال : بلى!! قلت ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى !!.. قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ فقال : « إنى رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصرى ، قلت: أو لست كنت تحدثنا أننا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال : أو أخبرتك أننا نأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به . قال فأتيت أبى بكر فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقاً ؟ قال : بلى ! قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال :أيها الرجل .. إنه رسول الله !! وليس يعصيه وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق .. قلت أو ليس كان يحدثنا أننا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال: أفأخبرك أنا نأتيه العام ؟ قلت لا..قال:فإنك آتية ومطوف به ، قال عمر فعملت لذلك أعمالا .

هذا، وفى قول رسول الله ﷺ: « إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى» — إشارة إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه ، إنما قبل صلح قريش ومهادنتها بأمر من ربه ، وأن استشارته لأصحابه ، وإشارتهم عليه بقتال المشركين إن هم صدوهم عن المسجد الحرام الذى جاءوا إليه معتمرين لا مقاتلين إنما كانت تلك الاستشارة قبل أن يتلقى أمر ربه بالصلح والمهادنة ، وفى هذين

الخبرين الذين رواهما البخارى عن موقف عمر من صلح الحديبية ، اختلاف في ترتيب الأحداث ، فبينما الخبر الأول ، يتحدث عن عمر بأنه أتى أبابكر أولا معترضاً على الصلح ، ثم جاء إلى النبى ﷺ بعد ذلك ، فلما أخبره النبى الكريم بما أخبره به اطمأن ورضى وسكن ، على حين أن الخبر الثانى يجعل عمر يعود بعد أن سأل رسول الله ﷺ ، فيسأل أبا بكر . . وهذا مالا يكون من عمر ولا مسلم .. فالخبر الأول هو الأصح المقبول عندنا .

قالوا ، ولما كان فتح مكة فى العام التالى ، ودخلها رسول الله ﷺ فاتحاً، بعث بلالا ، ثم أبا بكر وعمر إلى عثمان بن طلحة ليأتياه بمفتاح الكعبة فجاء عثمان بن طلحة إلى النبى ﷺ به ..فلما أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة وضعه فى يد عمر وأمره أن يفتح الكعبة ، وأن يكسر ما بها من تماثيل وصور . . وكأن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقول لعمر مذكراً إياه بما كان منه فى صلح الحديبية :لقد عجلت ياعمر فى أمر كان لله سبحانه وتعالى فيه مارأيت . ولقد صدق الله سبحانه وتعالى النبى وعده ، وماأراه من دخول المسجد الحرام ، كما يقول سبحانه :« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . . فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً . .[1] »

والذى يلاحظ من مواقف عمر بين يدى رسول الله ﷺ أنه كان على سجيته من الصراحة والقوة ، وأنه كان يأخذ الجانب العنيف الصارم الذى لا هوادة فيه ولا مهادنة . . لأنه كان على علم بأن رسول الله ﷺ سيقبل منه مايقبل، ويرد منه ما يرد ، وأنه لا يدعه يمضى على الوجه الذى يريد ، حتى يقيمه الصراط المستقيم من حكمة النبوة وهديها . . إن عمر هنا بين يدى رسول الله ﷺ أشبه بالصبى الذى يتعلم السباحة بين يدى والده ، فيهجم

(١) الفتح الآية ٢٧ .

على السباحة فيما وراء الحد الذي حدده له والده وهو على ثقة من أنه في حمى والده الذي سرعان ما تمتد يده إليه لإنقاذه ، إذا هو تعرض للغرق !

يقول عمر : « قد كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه ، وكان — صلوات الله وسلامه عليه — ممن لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وقد سماه الله تعالى بذلك ، ووهب له إسمين من أسمائه سبحانه : « رؤوف رحيم » فكنت سيفاً مسلولا ، حتى يغمدني أو يدعني فأمضي ، حتى قبض رسول الله ﷺ وهو عني راض .

وهذا أصدق وصف لعمر .. وما كان يعتمل في نفسه من مشاعر وهو في صحبة رسول الله إنه كان بين يدي النبي سيفاً مسلولا في يد رسول الله ، وهل يكون السيف سيفاً إلا إذا كان ماضياً قاطعاً ؟ إنه سيف ، واليد التي تمسك به ، هي التي تضرب به ، وهي يد رحيمة حكيمة ، لا تضرب به إلا بالحق . وللحق . إنها يد رسول الله ﷺ .

أما رضا رسول الله ﷺ عن عمر ، فقد جاءت به أخبار كثيرة عن رسول الله ﷺ تحدث عن فضل عمر ووثاقة إيمانه ، وصدق نيته ، وإخلاص طويته في النصح لله ولرسول الله ولدين الله ، لا يألو في ذلك جهداً ، ولا يدخر وسعاً من كل ذرة من ذرات وجوده .. وقد أشرنا من قبل إلى قول رسول الله ﷺ في عمر « قد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فهو عمر بن الخطاب » وقول رسول الله ﷺ فيه أيضاً : « رحم الله عمر ، يقول الحق وإن كان مراً .. تركه الحق وماله من صديق » .

وها نحن أولا نذكر بعض ما روى عن رسول الله ﷺ في فضائل عمر ومناقبه .

- في البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال :

بينا أنا نائم ، رأيت الناس يعرضون على وعليهم قمص ، منها ما يبلغ الثدى ومنها ما هو أسفل من ذلك ، وعرض على عمر وعليه قميص يجره ، فقال من حول رسول الله : ما أوّلت يا نبى الله ذلك ؟ قال : « الدين » .. قالوا وفسر الثوب بالدين — والله أعلم — لأن الدين يشمل الإنسان ويحفظه ، ويقيه المخالفات ـ أى الوقوع فى الآثام ـ كوقاية الثوب وشموله .. وقد لبس عمر الإسلام فكان له منه رداء يكسوه من رأسه إلى إخمص قدميه !!

وفى البخارى ومسلم وغيرهما أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « بينا أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت به ، فيه لبن فشربت حتى إنى لأرى الرى يجرى فى أظفارى ، ثم أعطيت فضلى — أى ما بقى منى — عمر ابن الخطاب قالوا فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : « العلم » .

وفى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان قال : كنا عند عمر فقال : أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الفتنة وما قال ؟ فقلت : أنا . فقال : هات إنك لحرى[1] وكيف قال ؟ قلت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فتنة الرجل فى أهله ، وماله ، ونفسه ، وولده ، وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فقال عمر : ليس هذا أريد ، إنما أريد التى تموج كموج البحر — أى التى تشتمل على الناس جميعاً — قال قلت مالك ولها يا أمير المؤمنين .. إن بينك وبينها باباً مغلقاً .. قال : أفيكسر أو يفتح ؟ قلت لا بل يكسر قال : ذاك أحرى ألا يغلق أبداً[2] .

---

(١) أى لجدير أن تحفظ قول الرسول ، وأن تحدث به ، وأن يقبل منك ما تقول .

(٢) أى أن كسر الباب الذى تجىء منه الفتنة يجعل غلقه أمراً خارجاً عن الإمكان ، ولو فتح لأمكن غلقه ، لأن الكسر لا يكون إلا بفتنة عامة شاملة تأتى على كل شىء ، فلا سبيل إلى خير بعدها .

وهناك أحاديث تروى عن رسول الله ﷺ فى غير الصحاح منها :

- « إن السكينة لتنطق على لسان عمر » .

- « إن الله تعالى ضرب بالحق على لسان عمر وقلبه » .

- « إن بين عينى عمر ملكا يسدده ويوفقه » .

- « لو لم أبعث فيكم لبعث عمر » .

- « لو كان بعدى نبى لكان عمر » .

- « وزنت بأمتى فرجحت ووزن أبو بكر بها فرجح ، ووزن بها عمر فرجح ، ثم رجح ، ثم رجح » ومعنى هذا الحديث أن النبى ﷺ وزن بأمته وفيها أبو بكر وعمر فزاد عليها ، وأن أبا بكر وزن بالأمة دون رسول الله ﷺ وفيها عمر فرجح عليها ، وأن عمر وزن بالأمة دون النبى ، ودون أبى بكر ، فرجحها ثلاث مرات !!

وهذه الأحاديث ماصح منها ومالم يصح قد جاء عمر فى سيرته ـ وخاصة فى حال خلافته ـ بما يصدق ما صح منها ، وبقبول ما لم يصح ، مضافاً إلى التاريخ الحى الواقع من سيرة عمر ، ومن شهادة صادقة يشهد بها التاريخ له فلو لم يكن شىء من هذه الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ والمضافة إليه ـ لو لم يكن شىء منها فى عمر ، لكان جديراً أن يكون .

وسنرى فى خلافة عمر ، وفى قيامه على دولة الإسلام ، أنه أهل لكل هذه الأوصاف وتلك الفضائل ، وأنه كان عند حسن ظن رسول الله ﷺ به ، فرأيه فيه ، وإعداده لهذا الدور العظيم الذى قام به فى بناء الدولة الإسلامية ، وإرساء قواعدها على أسس وطيدة من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسول الله ﷺ .

الفصل الثالث

مع شمس النبوة الغاربة

مع العلم اليقيني عند كل إنسان بأنه ميت ، وأن الموت لابد أن يلقاه يوماً من الأيام ، بعد هذا اليوم أو قرب ، فإنه قل أن يذكر الإنسان هذه الحقيقة إلا لماما ، وإلا كخطوة عابرة ، لا يلبث أن يعمل على الفرار منها وعلى إغراقها فى أكثر من تيار من تيارات الحياة المتدافعة فى كيانه ، فيمضى فى طريقه ، وكأنه لن يموت أبداً .

إن حب الإنسان للحياة وحرصه على البقاء ، وكراهيته للموت ، أو خوفه منه ، كل هذا يدعوه إلى أن يعمل بكل جهده على تجاهل هذا العدو الراصد له والتربص به ، لينتزعه من الحياة فى أية لحظة .. من ليل أو نهار ، فى منام أو يقظة ، فى مرض أو صحة ، فى شيخوخة أو شباب ، فى فقر أو غنى ، فى شقاء أو سعادة .. ومن هنا تتولد فى كيان الإنسان مشاعر ، تنسيه هذه الحقيقة ، وتذهله عنها ، كما يذهل المخمور عما بين يديه وما خلفه من حقائق ، وفى هذا يقول الله تعالى فيمن أخذتهم سكرة الحياة ، فلم ينظروا فيما وراءها من موت وبعث وحساب ، وجزاء . « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون[1] » وهذا بعض ما يشير إليه قوله ﷺ : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .

وكالحياة وحبها وتعلق الإنسان بها ، يكون كل شىء يحرص المرء عليه ويؤثره بحبه ، وبالحياة معه . من زوج ، أو ولد ، أو أخ ، أو صديق .. بحيث لا يكاد يقع فى تصوره ، أن الموت سيفرق بينه وبين من يحب ..

---

(١) الحجر الآية ٧٢ .

فإذا وقعت الواقعة واختطف الموت تلك الزوجة ؛ أو هذا الولد ؛ أو ذلك الأخ ؛ أو ذلك الصديق لم يكد يتصور هذا الواقع أو يقبله ؛ بل هو يدفعه دفعاً قوياً عن مجال تفكيره وتصوره ، وتشهد الحياة صوراً كثيرة من تلك الأحوال التى يخاطب فيها الأحياء الأعزاء من أمواتهم مخاطبة الأحياء ؛ فيهتفون بهم ؛ ويتحدثون إليهم ؛ وينطقون عنهم بما يمليه عليهم الوهم والخيال وهو عندهم حقيقة واقعة مجسدة .

وما أكثر ما نسمع من قائل يقول فيمن بلغه موته من أحبابه : أنا لا أصدق أنه مات !

وقد صور الشاعر المتنبى هذا الإحساس ؛ وهو يعزى أحد ممدوحيه فى موت عزيز لديه . فيقول :

طوى الجزيرة حتى جاء فى خبر
فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
فلما لم يبق لى فى صدقه أمل
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

ولقد كان رسول الله ﷺ من صحابته السمع والبصر والفؤاد. كأن أنفاس الحياة التى يتنفسونها ؛ ونور العيون التى يبصرون بها ، ونبض القلوب التى تمسك الحياة عليهم ؛ ولهذا ، فإن ذكر موت رسول الله ﷺ كان أبعد شىء يطوف بهم ؛ أو يطرق أفكارهم . وكيف يفكر الإنسان فى أن ينتزع نفسه من هذا الحلم المسعد الذى يعيش فيه ، ويخرج نفسه طائعاً من تلك الجنة التى يقيم فيها وينعم بها ؟

* * *

ولا بأس أن أذكر هنا طرفة من تلك الطرف التى رأيتها فى عصرنا هذا مع أحداث السياسة التى كانت تساس بها مصر فترة من الزمان حيث كان رئيس الدولة ؛ وقد جمع لديه كل سلطان يتصرف به فى مقاليد الحياة وفى مصائر الناس حتى خيل إليه من ذلك أنه لا يزحزح عن هذا المكان المكين بموت أو تقلب أحوال ؛ وكان بين هذا الرئيس وبين أحد العاملين معه صلة وثيقة ، مكنت له من مكان مكين عنده ، حتى أن الذين كانوا يحسدون على هذه المكانة التى له عند هذا الرئيس لم يستطيعوا أن يزحزحوه عن تلك المكانة على كثرة ما قالوا فيه ؛ وما تقولوا عليه عنده ؛ على مدى سنوات كثيرة حتى كان ذلك اليوم الذى جاءوا فيه إلى الرئيس يقولون له : إن فلاناً هذا قد تحدث فى أحد مجالسه . فقال : هناك الرجل الأول فى الدولة يقصد الرئيس . ولكن أين الرجل الثانى ؟ أهناك دولة لا يكون فيها الرجل الثانى الذى يخلفه إذا خلا مكانه يوماً منه ؟ أهكذا تترك الدولة بعده إلى الرجل الذى لم يعد من قبل لهذا الأمر ولم تتهيأ النفوس له ؟ إن ذلك يوقع الناس فى فتنة واختلاف !

وهنا كانت قاصمة الظهر ، فما أن سمع الرئيس هذا القول حتى امتلأت نفسه نقمة وتنكيلا لهذا الرجل الذى كان أقرب الناس إليه ، إذ كيف يتصور هذا الرجل أن تكون له حياة بعد الرئيس ؟ وهل يتوقع اليوم الذى يخلى فيه الرئيس مكانه من هذا المكان الذى هو فيه ، وأن يحل غيره محله ؟ إنه لو كان على حب وولاء للرئيس لما طرقته هذه الأفكار ، ولما امتد به نظره إلى غير الرئيس فى يوم من أيام الدهر . . وسرعان ما تبدلت حال الرجل ، فصعب عليه النقم صباً ، حيث عزل من منصبه مطروداً منه ، ثم ألبس أثواباً من الشناعات التى انطلقت بها الشائعات عنه بما هو حق وباطل حتى لاكته الألسن بالسباب واللعنات ، تمزق كل ما يعتز به الإنسان من دين ، أو خلق ، أو عرض ، فلم يرفع بعد ذلك رأساً ، ومشى فى الناس

مطأطىء الرأس خامل الذكر ، تقتحمه العيون بنظرات الاتهام فى دينه وخلقه وعرضه ! وإن فى ذلك لعبرة لمعتبر !

* * *

ونعود فنقول إنه من أجل هذا الشعور القوى القائم على نفوس الصحابة من حب رسول الله ، ومن تعلقهم به تعلق الجسد بالروح — كانت آيات القرآن الكريم تتنزل حينا بعد حين تذكر المسلمين ، فى رفق بهذه الحقيقة وهى أن رسول الله ﷺ بشر، وأنه سيموت كما يموت البشر ؛ وأن له أجلا تنتهى به حياته فى هذه الدنيا كما تنتهى حياة كل حى .. ومن ذلك قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون(١) » ، هكذا يجىء الحكم قاطعاً ينعى النبى ﷺ إلى المسلمين وهو حى بينهم « إنك ميت » . . وقوله سبحانه : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون (٢) » إنك بشر وإنه لاخلود لبشر ؛ وإذن فلا يظنن أحد بك الخلود فى هذه الحياة الدنيا. وقوله تبارك اسمه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم (٣) » .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : جلس رسول الله ﷺ مرجعه من حجة الوداع على المنبر فقال : « إن عبداً خيره الله عز وجل بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وعزها والخلد فيها ثم الجنة ؛ وبين ما عنده والجنة ، فاختار ما عند الله والجنة ؛ فبكى أبو بكر وقال : « فديناك بآبائنا وأمهاتنا » فكان رسول الله ﷺ هو المخبر — أى بموته — ولكن لم يفجعنا — أى لم يصرح بالموت حتى لانجزع ؛ وكان أبو بكر أعلمنا بالأمور » .

وهكذا يعد القرآن الكريم والرسول — صلوات الله وسلامه عليه ؛

(١) الزمر الآية ٣٠ (٢) الأنعام الآية ٣٤
(٣) آل عمران الآيه ١٤٤

نفوس المسلمين لاستقبال هذا الأمر الذى لابد منه ، من موت النبى ، قبل أن يموت ، حتى يأخذوا للأمر عدته ، وحتى يروضوا أنفسهم على احتمال هذه الصدمة القاسية ، التى تطيش لها الأحلام ، وتذهب بها العقول .. وإلى جانب الآيات الكريمة التى كانت تنزل مذكرة المسلمين بأن الرسول بشر ، وأن له أجلا فى هذه الدنيا سينتهى عنده ، وأنه لابدّ مفارق المسلمين يوما، إلى جانب تلك الآيات كانت تقع عليه الأحداث تتعرض فيها حياة النبى ﷺ لخطر الموت ، فى تلك المؤامرات التى كان يدبرها له اليهود ، تارةً بدس السم له ، وتارة بالتآمر على إلقاء حجر عليه وهو جالس إلى جانب أحد الجدُر . . ثم كانت التجربة الكبرى التى واجه فيها رسول الله ﷺ الموت عيانا ، وذلك فى معركة أحد ، حيث وصلت سيوف المشركين ورماحهم إلى رسول الله ﷺ ، وأصابته منها جراح لولا عناية الله تعالى به لأصابت منه مقتلا . . وحتى لقد نادى منادى المشركين يومئذ أن محمداً قتل ، وحتىَ لقد صدّق بعض المسلمين هذا الخبر ، فصعقوا له ، وأخلوا أيديهم عن كل شىء ، وانطلقوا هائمين على وجوههم إلا نفراً قليلا منهم ثبت إلى جوار رسول الله . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين[(١)] .

لقد سمع المسلمون كلمة الموت مضافةً إلى رسول الله ﷺ ، فقال المشركون يومئذ : ألا إن محمداً قد قتل . . وقال المسلمون يومئذ ، لاخير فى الحياة بعد موت رسول الله .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٤ .

ولا شك أن هذا الموقف يوقظ المسلمين على تلك الحقيقة التى صرح بها القرآن فى أكثر من موضع ، وهو أن محمدا . . صلى الله عليه وسلم . . إن لم يكن قد مات اليوم ، فإنه سيموت غدا ، أو بعد غد فيما يستقبلون من أيام .

ثم إنه قبيل وفاة الرسول . . صلوات الله وسلامه عليه .. تتنزل آخر آيات القرآن مشيرة إلى ختام رسالة النبى ، كما فى قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا[1] » وكما فى قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا[2] » وقد فهم كثير من الصحابة من هذه الآيات وأمثالها قرب وفاة رسول الله ﷺ ، بعد أن أدى رسالته ، وقالوا إن الله ينعى إلينا رسول الله ، وإنه يدعوه إليه بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وإنه لا بقاء له فى هذه الدنيا بعد هذا .

ومن تدبير الحكيم العليم لهذا الأمر ، ولطف اللطيف الخبير بصحابة رسول الله ﷺ . أن لم يجىء موت رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى صورة مفاجئة لهم ، بل لقد مرض رسول الله ﷺ لأول مرة مرضاً اضطر معه إلى أن يقطع به عادة اعتادها المسلمون منه ، وهى إقامة الصلاة بهم ، فيخلى صلوات الله وسلامه عليه هذا المكان لأبى بكر ، وإذا المسلمون لأول مرة فى حياتهم يشهدون الصلاة فى مسجد رسول الله بغير رسول الله ، تلك الصلاة التى لم يمكث بعدها الرسول إلا قليلا حتى لحق بالرفيق الأعلى !!

---

(١) سورة المائدة الآية ٣

(٢) سورة النصر

ولا شك أن هذا لا يمردون أن يذكر المسلمين باليوم الذى يخلى فيه رسول الله ﷺ مكانه من هذه الدنيا . وأن يستقبل المسلمون الحياة بعده فى غير صحبته ، وإن ظلوا فى صحبة ملازمة مع سيرته فيهم ، يتأسون بها ، ويعيشون فى ظلها !!

ثم يطول مرض رسول الله ﷺ ، فيكون بضعة أيام ، يشتد فيها المرض حيناً ، ويخف أحياناً ، والقلوب واجفة ، والنفوس مضطربة هالعة ، يتنازعها اليأس والرجاء ، ويعتامها الخوف والاطمئنان .. ثم تكثر الوساوس ويشتد الجزع ، كلما اشتد المرض برسول الله ﷺ ، وكلما غشيه منه ما يغشى الذين يحضرهم الموت من دلالات وإشارات تنبىء عنه ، وتشير إليه .

ومالت شمس النبوة للغروب ، وأخذت تلملم خيوطها ، وتجمع أشعتها شيئا فشيئا ، حتى اختفى آخر شعاع لها ، وبدأ الظلام ينسج من خيوطه السوداء ثوب الحداد للموكب الحزين الذى ينتظم معالم الوجود — عندئذ انبعث من قلب هذا الصمت الرهيب الذى خيم على المسلمين صوت صارخ : « مات رسول الله » !!

هكذا الأمر إذن ؟ أقد مات رسول الله حقا ؟

والناس بين مصدق ومكذب ، قد كدهم الحزن ، وعقد ألسنتهم الهول ، وذهب بعقولهم المصاب ، وحلت عزائمهم النازلة .. وجمد الناس على الحال التى لقيهم هذا الخبر الصاعق عليها .. فما جلس من كان قائما ، ولا قام من كان جالسا ، ولا نزل من كان راكبا ، ولا تحرك من كان ساكنا .. لقد استحال الناس إلى ما يشبه الدمى ، لا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » .

ويفيق الناس شيئا فشيئا ، ويتحركون فى تثاقل وتباطىء وتتعلق العيون فى ذهول وشرود ، وتتحرك الشفاه فى خفوت وذبول . . ويسمع عمر همهمات وهمسات ، أن رسول الله ﷺ قد مات . ويصحو عمر صحوة المحموم ، ويمسك سيفه فى يده يتهدد به كل من يقول إن رسول ﷺ قد مات .

عن سالم بن عبيد الأشجعى قال : « لما مات رسول الله ﷺ كان أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب . . قال : فأخذ بقائم سيفه وقال : « لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفى هذا . . قال الناس يا سالم : اطلب صاحب رسول الله ﷺ — يعنى أبا بكر — قال : فخرجت إلى المسجد فإذا بأبى بكر ، فلما رأيته أجهشت بالبكاء ، فقال : مالك يا سالم : أمات رسول الله ﷺ ؟ فقلت : هذا عمر بن الخطاب يقول : لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفى هذا . . قال ، فأقبل أبو بكر ، فلما رآه الناس وسعوا له ، فدخل على النبى ﷺ وهو مسجى ، فوضع البردة عن وجهه ، ووضع فاه على فيه واستنشأ الريح[١] — أى شمه — ثم سجاه . . والتفت إلينا ، فقال : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين»[١] . وقال « إنك ميت وإنهم ميتون[٢] » . و« من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت » فقال عمر : والله فكأنى لم اقرأ هذه الآيات قط . قالوا : يا صاحب رسول الله ﷺ : أمات رسول

---

(١) أى أنه أراد أن يجد أنفاس رسول الله ليستدل منها على حياته ، فلما لم يجد له نفسا عرف أنه مات ! !

الله قال نعم ؟ قالوا : يا صاحب رسول الله ﷺ : من يغسله ؟ قال رجال أهل بيته ، الأدنى فالأدنى . . قالوا يا صاحب رسول الله ﷺ :أين يدفن؟ قال في البقعة التي قبضه الله عز وجل فيها ، لم يقبضه إلا في أحب البقاع إليه[٣].

وعن جعفر بن محمد . . قال : قبض رسول الله ﷺ ، وأبو بكر غائب بالسنح[٤] «عند زوجته بنت خارجة ، فسل عمر سيفه وتوعد من يقول: مات رسول الله ﷺ ، وكان يقول : « إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه السلام ، فلبث — أي غاب — عن قومه أربعين ليلة ، والله إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم » فأقبل أبو بكر من السنح حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة ، فأذنت له ، فدخل ، فكشف عن وجه رسول الله ﷺ ، فجثا يقبله ويبكي . ويقول : توفي رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده . . صلوات الله عليك يا رسول الله . . ما أطيبك حيا وميتا » ثم خرج سريعاً إلى المسجد ، حتى جاء المنبر ، فقام عليه ، ونادى الناس : اجلسوا ، فجلسوا وأنصتوا ، فتشهد شهادة الحق ، ثم قال : إن الله تعالى: نعى نبيكم وهو حي بين أظهركم ، ونعى لكم أنفسكم ، وهو الموت ، حتى لا يبقى أحد إلا الله

وفي البخاري ومسلم ، عن أبي سلمة ، عن ابن عباس ، أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس ، فقال — لعمر — اجلس ، فأبى ، فقال : اجلس ، فأبى

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٢) سورة الزمر : ٣٠ .

(٣) الرياض النضره جزء /١ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٤) السنح : بضم السين ، مكان على أطراف المدينة .

فتشهد أبو بكر ، فمال إليه الناس وتركوا عمر ، فقال : أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمدا ﷺ قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . . قال الله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . إلى قوله تعالى . . وسيجزى الله الشاكرين » . . فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس ، فما نسمع بشراً إلا يتلوها ، وفى البخارى ، عن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله ﷺ مات ، وأبو بكر بالسنح — تعنى العالية — فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ﷺ ، فجاء أبو بكر ، فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله ، وقال : بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا . . ثم خرج ، فقال أيها الحالف — يقصد عمر — على رسلك . . فلما تكلم أبو بكر ، جلس عمر ، فحمد — أى أبو بكر — الله وأثنى عليه ، وقال : ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله ، فان الله حى لا يموت . . ثم تلا الآيات . فنشج[1] الناس يبكون » .

لم يكن إذن عمر وحده الذى أذهلته هذه الصدمة العاتية ، بل إن هذا الموقف قد أخذ بعقول المسلمين جميعا ، وأطار صواب كثير منهم ، وربما كان من ذلك من هو أشد من الإنكار لموت رسول الله الذى تلفظ به عمر ، ليجد منه العزاء الذى يمسك عليه بعض نفسه ، إلى أن يستجمع وجوده ، ويواجه هذا الأمر العظيم . . ولسنا نستبعد أن يكون بعض المسلمين قد مات صعقاً فى هذا اليوم ، أوطار عقله ، فارتد كافراً بالله الذى أمات محمداً ! !

---

(١) نشج من النشيج ، وهو صوت يسمع من الباكى حين يشتد فى البكاء .

وإذا كانت الأخبار قد تواردت بأن عمر هو الذى وقف هذا الموقف شاهرا سيفه مهددا متوعدا من يقول إن رسول الله قد مات ـ فما ذلك إلا لأن عمر قد كان أبرز وجوه المسلمين ، وقد غاب أبو بكر ، وشغل علىّ بتجهيز رسول الله ﷺ ، والإقامة بشئونه بعد موته ٠٠ فكان علىّ عمر والأمر كذلك أن يحفظ نظام الجماعة الإسلامية ، وأن يمسك وجودها ، وألا يدع خبر موت رسول الله ـ فى هذه اللحظة الحرجة أمراً واقعاً ، وذلك إلى أن يتحقق هذا الخبر أولا ، ثم ليكن لأصحاب رسول الله ﷺ التدبير الذى يواجهون به هذا الموقف الرهيب .

وهذا الذى كان من عمر لم يكن بالذى يغيب عنه ، أو يقع منه موقع الشك والارتياب لو أثير هذا الأمر فى حياة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بل إن عمر هو الذى كان يجرد سيفه على من يقول إن رسول الله ﷺ لا يموت كما جرده اليوم على من يقول إن رسول الله ﷺ قد مات .. ولكن وقع الصدمة ـ كما قلنا ـ كان شديداً على نفس عمر ، وأمله كان فسيحا كبيراً ، فيما سوف يتحقق للمسلمين فى حياة الرسول ، بعد أن دخل العرب جميعاً فى دين الله . . إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه معه كانوا إلى ماقبل فتح مكة ، فى صراع متصل مع المشركين والمنافقين فلم يكن صحابة رسول الله ـ والأمر كذلك ـ يستطيعون أن يستصفوا وقتهم كله إلى جوار رسول الله ﷺ ، والسكن إليه ، والاستظلال بظله. وإنما كان ما تسعفهم الحياة به لحظات خاطفة من لحظات السلم يقضونها فى ظل رسول الله ، ثم لا يلبثون إلا قليلا حتى يستدعيهم داعى الجهاد .

كان عمر رضى الله عنه يدخر الجزء العزيز من حياته للحياة مع رسول الله ﷺ فى هذا الجو الذى رفرفت فيه أعلام السلام ، وخمدت فيه نار الحرب..

ذلك ما كان قد ترسب فى مشاعر عمر ، وأصبح بعضاً من نبضات قلبه ، ومسارب وجدانه . .

وإذا كان كثير من الصحابة يشارك عمر هذا الإحساس المسعد ، ويدير فى نفسه مثل هذا الأمل العزيز ـ فإن الأمر عند عمر كان أكثر من مجرد إحساس أو أمل . . إن ذلك كان عنده أمراً لازماً ، وحقيقة مقررة ، بما استقرأه من بعض آيات القرآن ، وبما استنبأه من إشاراتها . وكما جادل رسول الله ﷺ وأبا بكر فى صلح الحديبية ، وأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يومئذ قد وعد المسلمين بدخول مكة ، ثم هم أولاء يصدون عنها ولا يدخلونها — كذلك جادل عمر فى موت النبى ، وكيف يموت ولم يجىء مصداق قوله تعالى « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[1] » فلقد وقع فى نفس عمر أن هذا أمر لابد أن يتم فى حياة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه ـ كما وقع فى حسابه ـ من قبل ـ أن النبى والمسلمين معه سيدخلون مكة فى هذا العام الذى صدوا فيه عن البيت الحرام . . وقد دخل النبى والمسلمون مكة فى العام التالى فاتحين ظافرين ، وسيظهر دين الله على الأديان كلها فى دورة من دورات الزمن ، أشبه بدورة من دورات العام . . ولكن عمر بطبيعته الجازمة الحاسمة استعجل الزمن ، ولم يقبل أن يكون الزمن بعضاً من العلاج ، وعنصرا من عناصر النجاح ، بل لابد أن يكون هذا الوعد منجزاً وفى حياة الرسول !!

ماذا يؤخذ على عمر فى هذا الموقف ؟

وقد كان موقف عمر هذا ، من إشهار سيفه فى وجه من هتفوا بموت

---

(١) التوبة : الآية ٣٢

النبي يوم مات كان هذا مطعنا من المطاعن التي عددها عليه بعض فرق الشيعة ، ممن همهم كله هو اصطياد العيوب فيه ، وتلفيق التهم له .. وقديماً قيل : من طلب عيباً وجده . . وكل هم — بعض فرق الشيعة فى هذا — هو تجريح عمر ، وأنه لا يصلح للخلافه ، وأنه هو وأبو بكر اغتصبا الخلافه من على ! !

ونلخص هنا ، ما طعن به الطاعنون على عمر فى موقفه هذا ، فيما أورده الفقيه المعتزلى « عبد الجبار » فى كتابه المغنى « وما كان للشريف المرتضى ، من رد عليه ، ثم ما كان لابن أبى الحديد ـ المعتزلى[1] وشارح نهج البلاغة ـ من تعقيب على الشريف المرتضى :

قال عبد الجبار :

أول ما طعن به عليه — أى على عمر — قول من قال : إنه بلغ من قلة علمه[2] أنه لم يعلم أن الموت يجوز على النبي ﷺ ، وأنه أسوة الأنبيـاء فى ذلك ، حتى قال — أى عمر — « والله مامات محمد ، ولا يموت حتى تقطع أيدى رجال وأرجلهم » فلما تلا عليه أبو بكر قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وتلا قول الله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل أنقلبتم على أعقابكم .. » الآية . . قال : أيقنت بوفاته ، وكأنى لم أسمع هذه الآية .

---

(١) والمعتزلة أقرب فرق الإسلام إلى الشيعة ، وأكثر رجال الشيعة من المعتزلة .

(٢) وعمر ممن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم ، فى قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه البخارى ، عن ابن عمر . قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « بينا أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت به ، فيه لبن ، فشربت حتى إنى لأرى الرى يجرى فى أظفارى ، ثم أعطيت فضلى ـ أى مافضل منى ـ عمر بن الخطاب » قالوا فما أولت ذلك يارسول الله ؟ قال « العلم » . . فكيف يتهم عمر بعد هذا بأنه على غير علم ، وقد شرب من العلم الإلهى الذى شرب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ثم يقول عبد الجبار ، على لسان الطاعنين فى عمر :

فلو كان يحفظ القرآن ، أو يفكر فيه لما قال ذلك ، وهذا يدل على بعده من القرآن وتلاوته ، ومن هذا حاله لا يجوز أن يكون إماما !

ويرد عبد الجبار على هذا بقوله :

« هذا لا يصح ، لأنه قد روى عنه ـ أى عن عمر ـ أنه قال « كيف يموت ، وقد قال الله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وقال تعالى : « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

ولذلك نفى — أى عمر — موته عليه الصلاة والسلام ، لأنه حمل الآية على أنها خبر عنه — صلوات الله وسلامه عليه ، فى حال حياته ، حتى قال له أبو بكر : إن الله وعده بذلك وسيفعله ، وتلا عليه ما تلا ، فأيقن عند ذلك بموته . . وإنما ظن أن موته يتأخر عن ذلك الوقت ، لا أنه منع من موته .

وقوله ـ أى عمر ـ كأنى لم أقرأ هذه الآية أو لم أسمعها تنبيه على ذهوله عن الاستدلال بها ، لا أنه على الحقيقة لم يقرأها ولم يسمعها .

ويعترض الشريف المرتضى من الشيعة ـ على ما أورده « عبد الجبار » ردا على هذا المطعن ، فيقول ليس يخلو خلاف عمر فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كل حال ، والاعتقاد بأن الموت لا يجوز عليه على كل وجه ، أو يكون منكرا لموته فى تلك الحال من حيث لم يظهر دينه على الدين كله .

فإن كان الأول — وهو إنكار موت النبى أصلا — فهو مما لا يجوز خلاف العقلاء فى مثله ، والعلم بجواز الموت على سائر البشر لا يشك فيه عاقل

والعلم من دينه عليه الصلاة والسلام ، بأنه سيموت كما مات من قبله — ضرورى ، وليس يحتاج فى مثل هذا إلى الآيات التى تلاها أبو بكر

وإن كان خلافه على الوجه الثانى — وهو أن النبى لا يموت فى هذا الوقت — فأول ما فيه أن هذا الخلاف لا يليق بما احتج به أبو بكر من قوله « إنك ميت وإنهم ميتون » لأنه لم ينكر على هذا جواز الموت ، وإنما خالف فى تقدمه — أى تقدم الموت ومجيئه قبل أوانه ـ وقد كان يجب أن يقول ـ أى عمر ـ وأى حجة فى هذه الآيات على من جوز عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الموت فى المستقبل ، وأنكره فى هذه الحال[1] .

ثم يقول المرتضى : وبعد ، فكيف دخلت هذه الشبهة البعيدة على عمر من بين سائر الخلق[2] ؟ ومن أين زعم أنه لا يموت ـ أى النبى ـ حتى يقطع أيدى رجال وأرجلهم ؟ وكيف حمل معنى قوله تعالى : «ليظهره على الدين كله» وقوله تعالى «وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا» على أن ذلك لا يكون فى المستقبل بعد الوفاة ؟ وكيف لم يخطر هذا إلا لعمر وحده ؟ ومعلوم أن ضعف الشبهة إنما يكون من ضعف الفكرة، وقلة التأمل والبصيرة !! وكيف لم يوقن بموته لما رأى ما عليه أهل الإسلام من اعتقاد موته ، وما ركبهم من الحزن والكآبة لفقده ؟ وهلا دفع بهذا اليقين ذلك التأويل البعيد ، فلم يحتج إلى موقف ومعرف ؟

---

(١) أى أن قوله تعالى « إنك ميت وإنهم ميتون » لا يرد على إنكار عمر موت النبى فى هذا الوقت قبل أن يتحقق قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » .

(٢) ومن قال إن هذا الموقف كان من عمر وحده دون سائر المسلمين حين بلغهم موت النبى ؟ إن عمر ـ كما قلنا ـ كان أبرز وجوه المسلمين ـ قبل مجىء أبى بكر . وتحققه من موت النبى ـ ولهذا كان الحديث عنه فى هذا المقام ، ولم يشر إلى أحد غيره ، وقد قلنا إنه لا يستبعد أن يكون الأمر قد بلغ ببعض المسلمين أن يموت صعقاً من هذه الصدمة !!

ويقول ابن أبى الحديد تعقيبا على هذا كله :

« الذى قرأناه ورويناه من كتب التواريخ يدل على أن عمر أنكر موت رسول الله ﷺ من الوجهين المذكورين : أنكر أولا أن يموت إلى يوم القيامة ، واعتقد عمر أنه يعمر ، كما يعتقد كثير من الناس فى الخضر ، فلما حاجه أبو بكر بقوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وبقوله تعالى « أفان مات أو قتل » « رجع عن ذلك الاعتقاد » .

ثم يقول « وليس يرد على هذا ما اعترض به المرتضى ، لأن عمر ما كان يعتقد استحالة الموت عليه كاستحالة الموت على البارى تعالى - أعنى الاستحالة الذاتية - بل اعتقد استمرار حياته إلى يوم القيامة .

« فأما قول المرتضى رحمه الله : وكيف دخلت هذه الشبهة على عمر من بين الخلق ؟ فهكذا تكون الخواطر والشبه والاعتقادات ، تسبق إلى ذهن واحد دون غيره .

وأما قوله : « كيف لم يؤمن بموته لما رأى من كآبة الناس وحزنهم » فذلك لأن الناس يبنون الأمر على الظاهر ، وعمر نظر فى أمر باطن دقيق ، فاعتقد أن الرسول لم يمت ، وإنما ألقى شبهه على غيره ، كما ألقى شبه عيسى على غيره ، فصلب ، وعيسى قد رفع ولم يصلب[1] .

ونقول إن الأمر أهون من ذلك - لو نظر إلى موقف عمر فيه نظراً مجرداً من التعصب . . إنسان أحب إنسانا بروحه ، وعقله ، وقلبه ، وبكل خلية فى جسده ، وبكل قطرة دم فى عروقه ، ثم يراه وقد آذنه بفراق طويل ،

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .. الجزء الثانى عشر ص ١٩٥ وما بعدها

وسفر لا لقاء بعده فى هذه الدنيا . . فكيف تكون حال هذا الإنسان ؟ وكيف يتلقى هذه الصدمة المزلزلة ؟ وهل ينكر عليه أن يغشاه فى تلك الحال ذهول ـ ولو لساعة من الزمان ـ يشرد فيها عقله ، ويعزب فيها عنه وعيه؟ ذلك أقل ما يكون فى هذا الموقف من رجل كعمر ، وتعلقه برسول الله ﷺ وارتباطه الروحى به .

أن عمر ـ كما قلنا ـ لم يغب عنه لحظة واحدة أن رسول الله ـ ﷺ ـ واقع تحت حكم الموت الواقع على كل حى . . ولكن ما كان منه فى إنكار موت النبى ، هو أن يموت النبى ، ولم يحقق ما كان عمر يطمع فى تحقيقه على يده . من إظهار دين الله على الدين كله . . وهذا ما صرح به عمر بعد بيعة أبى بكر . .

فقد روى ابن إسحق ، عن أنس بن مالك قال : « لما بويع أبو بكر فى السقيفة ، وكان من الغد جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أيها الناس . إنى قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ، ما كانت ، ولا وجدتها فى كتاب الله عزوجل ، ولا كانت عهداً عهده إلىّ رسول الله ﷺ ، ولكننى كنت أرى رسول الله ﷺ سيدبرنا — أى يكون آخرنا موتاً — وأن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هو هدى رسول الله ﷺ ، فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له » .

إن موقف عمر هنا ليدل على أنه كان يحمل من هموم الإسلام والمسلمين ما لا يحمله ، أو يحمل بعضه كثير غيره ، وإذا كان رسول الله ﷺ هو نظام عقد الإسلام ، وجامعة أمره ، فإن إخلاء النبى مكانه من

بين المسلمين يلقى على مشاعر عمر من الهم ما لا يلقيه على غيره ، لأن طبيعة عمر تفرض عليه أن يحمل عن الإسلام والمسلمين كل عارض ، ولو كان فى ذلك هلاك نفسه . . وموت الرسول يضع عمر أمام تجربة رهيبة ، ويلقى عليه من الأعباء ماتنوء به الجبال . . فلاعجب إذا أخذه من هول الصدمة ما يزلزل وجوده ، ويذهب بصوابه ، ولو للحظات عابرة من الزمن !!

أما ما يذهب إليه ابن أبى الحديد من أن عمر أنكر موت النبى يومئذ لأنه كان يظن أنه لن يموت إلى يوم القيامة ، وأنه سيعمر كما يعتقد كثير من الناس فى الخضر ، أو أنه كان يعتقد أنه ألقى شبهه على غيره — وأن الله تعالىٰ رفعه إليه كما رفع المسيح إليه بعد أن ألقى شبهه على غيره — فهذا كله أبعد ما يكون عن اعتقاد عمر أو ظنه .

وكيف يكون هذا من اعتقاد عمر أو ظنه ، وقد جاءت آيات القرآن تنعى النبى إلى المسلمين ، وكان هذا حديثاً مداراً بين المسلمين ؟

ثم ألم يسمع عمر قول رسول الله ﷺ فى خطبة الوداع ، وهو يقول : « اسمعوا أيها الناس ، فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ؟ » إنه لو وقع فى نفس عمر شبهة فى هذا لقام إلى رسول الله ﷺ يسأله : كيف يقول هذا والله سبحانه وتعالى يقول : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؟ » .

وكيف يتعجل النبى لقاء ربه ولم يظهر دينه على الدين ؟ .

إن عمر قد راجع النبى وحاجه فى الرؤيا التى رآها بدخول المسجد الحرام ، فلما لم يدخل النبى بالمسلمين المسجد الحرام عام الحديبية لم يسكت عمر وقال للنبى : ألم تقل لنا إننا سندخل المسجد الحرام ؟ فإذا كان هذا هو موقف عمر مع الرؤيا التى رآها النبى ، أفلايكون هذا مع ما نطق به قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » — إذا كان عمر قد فهم تلك الآية على

هذا الفهم الذى ألزموه إياه ؟ — ذلك ما لا يستقيم على أى وجه من وجوه المنطق أبداً .

ثم إنه لو صحت النيات فى تأويل هذا الموقف من عمر — رضى الله عنه — لكان له متأولا آخر ، وهو أنه رضى الله عنه ، حين بلغه موت النبى ، خاف الفتنة على المسلمين ، فتتفرق بهم السبل ، ويقوم فيهم المنافقون الذين كانوا يستبطون الكفر بالردة عن الإسلام ، وانفراط عقد المسلمين ، فكان منه هذا الموقف ، حتى يمسك على المسلمين وحدتهم ، ولا يجعل للمنافقين سبيلا إلى المجاهرة بكفرهم ، حيث يتمثل لهم أن رسول الله ﷺ لايزال باقياً بين المسلمين ، على عهدهم به .. فما أكثر الفتن التى تقوم بين الجماعة حين يموت الزعيم الذى كان قائماً عليها بعد موته !

هذا ما كان يجول بخاطر عمر حين أمسك بسيفه ، ونادى بقطع أيدى رجال وأرجلهم ممن خيل إليهم أن موت رسول الله ، يفتح لهم الطريق إلى إعلان الثورة على الإسلام والمسلمين !

ولقد صدقت فراسة عمر ! ! ألم يكن اجتماع المجتمعين يوم السقيفة — والرسول الكريم لم يدفن بعد — كاد يكون فتنة ، لولا أن الله تعالى سد بابها بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح حيث تمت البيعة بالخلافة لأبى بكر ، والتى يقول عنها عمر « إن بيعة أبى بكر كانت فلتة ، وقى الله الناس شرها » ؟ ثم ألم يكن ارتداد المرتدين بعد موت رسول ﷺ فتنة كادت تعصف بالإسلام ، لولا أن قيض الله لها أبا بكر ومن معه من صحابة رسول الله ؟ فماذا لو حمل موقف عمر فى موت الرسول الكريم على هذا الحمل ، وما فيه من حيطة للحفاظ على وحدة المسلمين ، وهم فى مواجهة هذا المصاب العظيم ؟

الفصل الرابع

يوم السقيفة .. وما بعده

« اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك »

« اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب !! » [حديث شريف]

دعوة مستجابة من رسول الله ﷺ فى عمر بن الخطاب . كسب بها الإسلام كسباً عظيما فى هذا الدور من بزوغ شمسه فى هذا الدنيا ، وسط هذا الضباب المتكاثف ، وبين تلك الغيوم المتراكمة من الجهل والضلال .

دعوة مستجابة نذكرها دائما كلما غشيت الإسلام غاشية ، وألم بالمسلمين خطب ، فنرى عمر بن الخطاب يطلع كما يطلع القدر المسعد ، فيجلى عن وجه الإسلام الغشاوة ، ويدفع عن المسلمين عوادى الخطب النازل !!

هكذا كان عمر مع أول يوم دخل فيه فى دين الله ، إلى يوم وفاته ... وهكذا كان عمر منذ وفاته وإلى اليوم .. حيث كانت سيرته ، وكانت مواقفه الرائعة الخالدة أسوة المتأسى ، وقدوة المقتدى ، لمن تغشاه من أولى الأمر غاشية ، أو تلم به نازلة ، تهدده فى سلطانه ، وتزلزل قواعد بنيانه ، ثم يكون له من نفسه واعظ يدعوه إلى طلب السلامة ، وارتياد طريق النجاة ، والاستضاءة بنور الحق والعدل والحزم ، فيرتفع له حينئذ من عمر ابن الخطاب وسيرته ، لواء يلوذ به ، وحمى يلتجىء إليه ، إذ يجد فى

مواقف عمر العادلة الحاسمة ، الهادى الذى يهديه ، والمثل القويم الذى يمتثله .

وعمر فى عظماء الرجال أشبه ببيت القصيد فى القصيدة العصماء ، تجود بها شاعرية شاعر ملهم . فيكون بيت قصيدها هذا مثلا سارياً ، وحكمة جارية ، يُستدعى عند كل موقف ، ويُهتفُ به عند كل خصومة ، فيكون فيه مقطع الرأى ، وفصل القول .

وقد ذكرنا من قبل كيف كان التقاء عمر بالإسلام لأول مرة ، وفى لحظة كانت قد ضاقت فيها على المسلمين الأرض بما رحبت ، وكيف جاء عمر فى هذا اليوم فدعا رسول الله ﷺ والمسلمين معه إلى الخروج من معتزلهم فى بيت الأرقم ، إلى مواجهة قريش ، وتحديها ، والجهر بدعوة الإسلام فى وجهها .. ولأول مرة يخرج النبى ﷺ بموكب المسلمين ، ويطلع به على قريش ، ولأول مرة تنفذ أضواء الإسلام إلى شعاب مكة وطرقاتها ، فتبهر بجلال هذا النور عيون وتغشى به عيون ! !

واليوم ، وقد غربت شمس النبوة ، وأخلى رسول الله ﷺ مكانه من هذه الدنيا ، اليوم وقد أظلمت دنيا المسلمين ، بعد غياب نبيهم ، واستولت عليهم حال من الحيرة والاضطراب ، لا يدرون معها إلى أين تتجه بسفينتهم رياح المستقبل ! ! إن خطر التيه محدق بهم ، وإنهم لن يخرجوا من هذا التيه إلا أن يهيىء الله تعالى لهم من أمرهم رشداً ، وإلا أن يقوم من بينهم الربان الماهر الذى يمسك زمام السفينة ، ويقيم وجهها على الاتجاه الذى كان النبى ﷺ قد وجهها إليه .

وندع هذا الحديث الذى يعتمد على لغة الشعر ، أكثر من اتكائه على لغة العلم ، ورسم صورة الواقع كما هو ، من غير ألوان أو ظلال لنقول :

لم يخف على المسلمين الخطر الذى كان يتهددهم بعد وفاة النبى ﷺ ، كما لم يغب عن كثير منهم أن أعظم الخطر وأشده عليهم ما يأتيهم من جهة أنفسهم ، وتنازعهم جماعات وأفراداً فى أمر الخلافة على المسلمين بعد النبى العظيم ! ! .

فهناك الأنصار والمهاجرون ، وهناك القبائل العربية من غير الأنصار والمهاجرين . .

والأنصار ، ولهم حجتهم على أنهم هم أولى الناس بالخلافة على المسلمين بعد رسول الله ﷺ . . فهم الذين آووا رسول الله ﷺ ونصروه ، وقاسموا المهاجرين دورهم وأموالهم . . فهم لهذا أولى الناس بالنبى ، إنهم أولى به من أهله الذين أخرجوه من بلده ، وآذوه فى نفسه ، وأهله وصحبه .

والمهاجرون .. ولهم حجتهم ، على أنهم أولى الناس إسلاما ، وأنهم أقرب قرابة إلى رسول الله من الأنصار ، وأنه إذا كان الأنصار قد نصروا الإسلام ، وآووا المهاجرين ، فإن المهاجرين قد تركوا الدنيا كلها وراء ظهورهم ، وباعوا أهليهم ، وقطعوا أرحامهم ، بل قتلوا بسيوفهم أقرب الناس إليهم فى سبيل إعزاز دين الله ، ونصرة رسول الله ﷺ .

ثم إنه إذا كان للأنصار رجلهم الذى يجتمعون عليه ، إذا سلم له المهاجرون بهذا الأمر ، فإن المهاجرين كان لهم أكثر من رجل يصلح لهذا الأمر ، ويتصدى له ، وينازع فيه .

فإذا ذكرت الصحبة لرسول الله ، والسبق إلى الإسلام ، ذكر على ، وأبو بكر ، وطلحة ، والزبير ، وعثمان ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعيد ابن أبى وقاص ، وعمر بن الخطاب . .

وإذا ذكرت الهجرة ، فهؤلاء كلهم قد هاجروا ..

وإذا ذكر البلاء والجهاد .. فهؤلاء كلهم قد ابتلوا وجاهدوا ..

وإذا ذكرت القرابة من رسول الله ﷺ ، فكلهم فرع من شجرته المباركة الميمونة .

وإذا ذكر رضا الله ورسوله ، فكل هؤلاء ممن رضى الله ورسوله عنهم ، وكلهم ممن بشره الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بالجنة .

الأمر إذن كان معقداً أشد التعقيد ، والخروج منه لايكون إلا بمعجزة تكون آخر معجزات رسول الله التى يشهدها المسلمون ، وهو بينهم لم يدفن بعد ، ولم يوار جسده الشريف ، ولم يغب وجهه الكريم عنهم .. وقدجاءت المعجزة ، فاهتدى المسلمون ورشدوا ، واجتمعت كلمتهم على الرجل الذى يخلف رسول الله ﷺ .

رسول الله . ومن يخلفه ؟

وهنا سؤال يعرض فى هذا المقام ، وهو : هل أوصى رسول الله ﷺ قبل وفاته بمن يخلفه على المسلمين من بعده ؟ .

هذا سؤال قد كانت الإجابة عليه ، بلا ، وبنعم . وبين لا ، ونعم ، تضاربت الآراء ، وتصارعت الحجج ، وكثرت المقولات والموضوعات على رسول الله ﷺ وعلى كثير من أصحابه ، وذلك بعد أن صار الأمر إلى أهله ، وبعد أن أصبح تاريخاً من التاريخ ، فاتسع مجال القول للقائلين ، وانفسح المجال للمتقولين على رسول الله ، بتقديم بعض الصحابة على بعض ، وبالنص على استخلاف بعضهم دون بعض ..

ولا نريد هنا أن نزج بأنفسنا فى مزدحم هذا المعترك ، إلا بالقدر الذى

نلمح فيه موقف عمر ، وأثره فى حسم هذا الأمر ، وقطع الطريق على الخلاف فيه ، الأمر الذى لو وقع لتغير به وجه الإسلام ، ولذهب ريح دولته ، قبل أن تتعمق جذورها ، وتمتد فروعها . . .

فى البخارى ومسلم ، عن ابن عباس ، أن عمر قام على المنبر خطيباً ، فقال : لايغترين امرؤ أن يقول إن بيعة أبى بكر كانت فلتة[١] ألا وإنها كانت كذلك ، ألا وإن الله وقى شرها ، وليس فيكم اليوم من تقطع له الأعناق مثل أبى بكر ، وأنه كان من خيرنا حين توفى رسول الله ﷺ . . إن عليا ، وأبا بكر ، ومن كان معهما تخلفوا فى بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وتخلفت عنا الأنصار بأجمعها فى سقيفة بنى ساعدة ، فاجتمع المهاجرون إلى أبى بكر ، فقلت : يا أبا بكر ، انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار ، فانطلقنا نؤمهم ، حتى لقينا رجلان ـ صالحان ، فذكرا لنا الذى صنع القوم ، فقالا : أين تريدون يامعشر المهاجرين ؟ فقلت نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار ! فقالا : لا عليكم ألا تقربوهم ، واقضوا أمركم يامعاشر المهاجرين . فقلت : والله لنأتينهم . . فانطلقنا حتى جئناهم فى سقيفة بنى ساعدة ، فإذا هم مجتمعون وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل[٢] فقلت من هذا ؟ قالوا : سعد بن عباده . فقلت : ماله ؟ قالوا : وجيع . . فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ، وقال : أما بعد ، فنحن

---

(١) كانت فلتة ، أى جاءت على غير روية أو تدبير . . وأمر عظيم كهذا لايجىء إلا عن روية وتدبير ، ولكن هكذا وقعت بيعة أبى بكر وكان الظن بها — وقد جاءت هكذا — ألا يجتمع المسلمون عليها ، ولكن الله تعالى وقى المسلمين الشر ، وأمضى لأبى بكر بيعته .

(٢) أى ملتف فى ثوبه . . ومنه قوله تعالى « يأيها المزمل » خطابا للنبى الكريم ، وقد دخل بيته بعد أن فاجأه الوحى فى غار حراء ، فجاء أهله يرجف فؤاده ، وقال : زملونى ، دثرونى » .

أنصار الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معاشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة منكم[١] تريدون أن تختزلونا[٢] من أصلنا ، وتحضنونا[٣] من الأمر» فلما سكت أردت ـ أى عمر ـ أن أتكلم ، وكنت قد زورت مقالة أعجبتنى[٤] أريد أن أقولها بين يدى أبى بكر ، وقد كنت أدارى منه بعض الحدة ـ أى أمسك بعض الحدة التى عندى ـ وهو كان أحلم وأوقر ، فقال أبو بكر على رسالك ، فكرهت أن أغضبه ، وكان أحلم منى وأوقر .. والله ما ترك كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قالها فى بديهة ، وأفضل ، حتى سكت .. فقال قائل من الأنصار : منا أمير ، ومنكم أمير . فكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات ، حتى خشينا الخلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده ، فبايعته وبايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار»

هذا مجمل ما حدث يوم السقيفة ، وقد بايع الأنصار جميعاً ، أوسهم وخزرجهم ، إلا ما كان من سعد بن عبادة ، فإنه لم يبايع ، ولم يكن لخلافه كبير شأن حيث كان وحده ، على خلاف ما أجمع عليه الأنصار جميعاً من بيعة أبى بكر ..

وهنا ينفتح باب الخلاف بين المهاجرين ، بعد أن أغلق بابه من جهة الأنصار . . وتختلف بالمختلفين مذاهب الخلاف ودوافعه .

ولقد كان بنو هاشم وبنو عبد شمس يتقاسمون الزعامة على قريش فى الجاهلية ويتنافسون عليها . . فلما جاء الإسلام ، أصبح لبنى هاشم المكان

---

(١) دفت دافة : أى دبت دبيبا خفيا ، يشير بذلك إلى أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ابن الجراح .

(٢) تختزلونا : أى تقطعونا .

(٣) تحضنونا : أى تضعونا فى أحضانكم كما تحضن الأم وليدها .

(٤) زورت مقالة : أى أتقنها ورتبتها وحسنت وجهها بالحجة والمنطق .

الأول فى العرب جميعاً . بل فى الناس كلهم ، لا فى قريش وحدها ، إذ كانوا بيت رسول الله ﷺ وآباءه الأقربين ، وكانوا المنافحين عنه ، والمحتملين فى سبيل دعوته أعباءها وشدائدها ، سواء منهم من دخل فى الإسلام ، أو ظل على الشرك ، فمن لم تعطفه عاطفة الدين ، عطفته عصبية الدم والقرابة ، ولهذا دخل بنو هاشم جميعاً فى شعب عبد المطلب ، حين قاطعتهم قريش ، لموقفهم من النبى ، فكتبت قريش بذلك وثيقة لمقاطعة بنى هاشم : لا يعطونهم ، ولا يأخذون منهم ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم فكان أن اعتزل عبد المطلب قريشاً ، وجمع أهله فى شعب سمى شعب عبد المطلب الذى كان أشبه بسجن ، دخل فيه بنو هاشم جميعاً ، مسلمهم ومشركهم .

وكان اختيار أبى بكر خليفة للمسلمين — وهو تيمى ، أى من غير بنى هاشم ، وعبد شمس — كان داعية إلى تحريك العصبية الجاهلية عند كثير ممن أسلموا يوم الفتح ، إسلاماً لم يتمكن من قلوبهم بعد ، كأبى سفيان ومن على شاكلته .

وإذا لم يكن لأبى سفيان — وهو على رأس بنى عبد شمس أن يطمع فى الخلافة لأكثر من سبب يحول بينه وبين هذا المقام الذى للدين المكان الأول فيه — فقد سعى إلى إثارة بنى هاشم ، وتحريضهم على أن يتولوا هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ إذ هم أولى الناس بميراثه ، وأحقهم بتولى أمر المسلمين من بعده .

روى أنه لما بويع أبو بكر بالخلافة فى سقيفة بنى ساعدة دخل أبو سفيان على على بن أبى طالب ، وعمه العباس بن عبد المطلب ، فقال لهما :

ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها[(١)] ؟ والله إن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا ولأورثنها[(٢)] عليه من أقطارها ، فقال على : ما نريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أنا رأيناه أهلا ما خليناه وإياها .
يا أبا سفيان ، المؤمنون قوم نصحة بعضهم لبعض متوادون وإن بعدت ديارهم ، والمنافقون غششة بعضهم لبعض وإن قربت ديارهم[(٣)] .

وفى قولة «على» هذه لأبى سفيان تعريض ولما كان لا يزال فى قلبه من آثار الجاهلية ، ومن موقفه من الإسلام ، الذى انتزع ما كان له من مكانة فى قريش .

وإذ يقتل « على » هذه الفتنة فى مهدها حين يطلع بها أبو سفيان عليه ويريده أن يحمل الأمر إلى العصبية الجاهلية - فإن عليا كرم الله وجهه - كان مع ذلك يرى كما يرى معه بعض من المهاجرين والأنصار أنه أحق بالخلافة من أى من المسلمين ، لقرابته القريبة من رسول الله ﷺ ، ولسبقه إلى الإسلام ، ولبلاء سيفه فى جهاد المشركين ولمؤاخاته لرسول الله ﷺ ، ولمرباه فى حجره ... ثم لزواجه من ابنته فاطمة رضى الله عنها التى انحصرت فيها ذرية رسول الله ﷺ من بعده .. إلى غير ذلك من الشواهد والقرائن التى كانت قائمة قبل وفاة النبى وبعد وفاته - تشير إلى مقام « على » من رسول الله ﷺ وإلى أنه أولى الناس بميراثه من بعده .

ولا نعرض لأحقية على بالخلافة أو عدم أحقيته ، ولا نحاول أن نقيم

---

(١) يشير الى « تيم » قبيلة أبى بكر ، التى لم يكن لها فى الجاهلية ما كان لبنى هاشم - رهط النبى - صلى الله عليه وسلم - ولا لبنى عبد شمس ، رهط أبى سفيان ، من مكانة فى قريش
(٢) أى أثيرها على أبى بكر .
(٣) الرياض النضرة : جزء « ٢ » ص ١٩٧ .

ميزاناً بينه وبين أبى بكر ، فكلاهما عندنا بمنزلة سواء فى الفضل والإحسان ، وإن كلا منهما لأهل للخلافة على المسلمين بعد رسول الله ﷺ. وإن اختيار أحدهما لملء هـذا المنصب لا يعنى بحال أن يكون أحدهما فاضلا والآخر مفضولا ، فكلاهما كما قلنا فى الفضل سواء ، كما أن هذا لا يعنى أن غيرهما من صحابة رسول الله ﷺ دونهما فى الفضل والإحسان .

ولـكن الذى نقطع به هو أن رسول الله ﷺ لم يوص لأحد من الصحابة بالخلافة من بعده ، ولم ينص على ذلك نصاً صريحاً . . لأنه — صلوات الله وسلامه عليه — لو قصد إلى هـذا الأمر لجاء به واضحاً صريحاً ، ولجعله بلاغا منه إلى المسلمين جميعاً ، الأمر الذى لو وقع على تلك الصفة لـكان حجة على كل مسلم ، ولـكان خلافه والخروج عليه خلافاً لرسول الله ، وكفراً بالله وبرسوله ، وهذا أمر لا يمـكن أن يتصور وقوعه فى مجتمع المسلمين ، وخاصة مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد ترك رسول الله ﷺ الأمر من بعده للمسلمين يتولونه بأنفسهم ، ويدبرونه على الوجه الذى يرون فيه رضى لهم ، وحسبهم أن بين أيديهم كتاب الله وسنة رسوله ، ففيهما الناصح الأمين لها ، والهادى الذى لا يضل من اتبعه . أما الأشخاص أيا كانوا ، فهم زائلون ، وأما الحديث المروى عن رسول الله ﷺ فى « على » كرم الله وجهه وهو قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه : « من كنت مولاه فعلى مولاه » فإن المراد بالموالاة ـ إن صح هذا الحديث ـ هو الحب له ، لقربه من رسول الله ﷺ ، فالحب لآل بيت رسول الله هو حب لله ولرسول الله ، إذ كانوا بيت الدعوة التى اهتدى بها كل مهتد . . وهذا ما يشير إليه قول الرسول الـكريم فى « على » : « لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » لأن من كان مؤمناً بالله ، أحب رسول

الله ، الذى دعاه إلى الله ، وأحب من يحب رسول الله ، ومن كان منافقاً، فإنه يضمر الكراهية والعداوة لرسول الله ، ولكل من يلوذ برسول الله . وأما أن تكون الموالاة هى إقرار الخلافة لعلى بعد رسول الله ﷺ فذلك بعيد، من وجوه :

أولها : أن المبايعة بالخلافة ، لايترتب عليها حب الخليفة حباً موصولا بحب الله ورسوله ، إذ قد ينحرف الخليفة عن سواء السبيل ، فلايكون حبه حباً لله ولرسول الله .. على حين أن ولاء الحب يكون دائماً ، سواء أكان علىّ خليفة أو غير خليفة .. بل إن بُعد علىّ عن الخلافة هو الذى جمع القلوب على حبه كرم الله وجهه ، فلما لبس ثوب الخلافة كثر الخلاف عليه والمبغضون له ، والهالكون كفراً ونفاقاً فى سبه، والعدوان عليه والتطاول على مقامه .

وثانيهما : أنه لو كان المقصود من قول الرسول الكريم « من كنت مولاه فعلى مولاه » إن صح هذا الخبر - هو مبايعة على بالخلافة بعد رسول الله ﷺ لكان جميع المسلمين الذين بايعوا أبا بكر آثمين ، بل كافرين لخروجهم عن أمر رسول الله ﷺ وهذا منفى عن المسلمين بإجماعهم على بيعة أبى بكر ، وبقول رسول الله ﷺ « لا تجتمع أمتى على ضلاله » .

وثالثها : أن عليا - كرم الله وجهه - وهو صاحب الموقف هنا ؛ قد بايع أبا بكر رضى الله عنه ، وهذا إقرار منه بأن الموالاة غير البيعة بالخلافة ، وإلا لكان عليه أن يثبت على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ولو تخطفته الطير ..

رابعها : أن علياً - كرم الله وجهه - قد روى عنه أكثر من خبر صرح فيه بأن النبي ﷺ لم يعهد له بالخلافة ...

فعن ابن عباس أن العباس أخذ بيد « على » وقال له : ألا ترى أنك بعد ثلاث عبد العصا ؟ والله لأرى رسول الله ﷺ سيتوفى فى وجعه هذا، وإنى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول ﷺ فاسأله فيمن يكون هذا الأمر ؟ ، فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا أمرنا وأوصى بنا ؛ فقال على : والله إن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً » ! !

وعن الحسن البصرى قال : قال لى على بن أبى طالب لما قبض رسول الله ﷺ نظرنا فى أمرنا ، فوجدنا النبى ﷺ قدم أبا بكر فى الصلاة ، فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا » .

وعن قيس بن عبادة قال: قال لى «على بن أبى طالب » : إن رسول ﷺ مرض ليالى وأياما ينادى بالصلاة ، فيقول : مروا أبا بكر فليصل بالناس .. فلما قبض رسول الله ﷺ نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام ، وقوام الدين ، فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا ، فبايعنا أبا بكر»

وقد اختار الله سبحانه وتعالى للمسلمين ، وساق إليهم هـذا العزاء الجميل بمصابهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ وفقهم إلى البيعة لأبى بكر بالخلافة من بعده . .

ونذكر هذا الذى نذكره من يوم السقيفة ، وبيعة أبى بكر، لنذكر معه فضل عمر فى هذا اليوم ، وما بعد هذا اليوم ، إذ كان ـ رضى الله عنه ـ هو قطب هذا الحدث ، والمحرك له ، والعامل على سد كل ثغرة من الخلاف فيه .

لقد كان أبو بكر — رضى الله عنه — راغباً عن هذا الأمر زاهداً فيه ، ولولا أن عمر كان قائماً من ورائه ، يحثه على حمل ما حمل ، ويدفع عنه

كل ريح تهب عليه من المخالفين له ، ويحمل معه كل أمر ينوبه — لولا عمر وموقفه هذا لما استقام لأبى بكر أمر ، ولا تمت له بيعة ، ولوقع المسلمون فى أمر مريج ، ولكان لهم يوم كيوم الجمل ، أو يوم صفين !!

ولو أن عمر — رضى الله عنه — كان هو الذى قبل البيعة بالخلافة حين قال أبو بكر وهو يواجه الأنصار يوم السقيفة : « وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين — أى عمر أو أبا عبيدة — فبايعوا أيهما شئتم » — نقول : لو أن عمر قبل البيعة يومئذ لما كان يجد من نفسه تلك القوة التى واجه بها الذين ترددوا فى بيعة أبى بكر ، إذ يكون دفاعه حينئذ عن نفسه موضع تهمة ، أما دفاعه عن أبى بكر فلا يمكن أن يحمل على هذا المحمل.. ولهذا فان عمر أطلق يديه جميعاً للعمل وراء أبى بكر ، ومواجهة الممتنعين عن البيعة له بكل ما عرف عنه من قوة وصرامة .

قال ابن شهاب : «وغضب رجال من المهاجرين فى بيعة أبى بكر ، منهم على بن أبى طالب ، والزبير ، فدخلا بيت فاطمة — رضى الله عنها — معهما السلاح ، فجاءهما عمر بن الخطاب فى عصابة من المسلمين ، فأخذ أحدهم سيف الزبير فضرب به الحجر حتى كسره» . ويعلق ابن شهاب على كسر سيف الزبير فيقول : — وهذا محمول على تقدير صحته — أى صحة هذا الخبر — على تسكين نار الفتنة ، وإغماد سيفها ، لا على قصد إهانة الزبير [١] .

وهذا هو التعليل الذى يمكن أن يقبل عليه هذا الخبر على فرض صحته فان رجلا كالزبير بن العوام حوارى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وزوج عمته صفية ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وواحد من فرسان

---

(١) الرياض النضرة : جزء / ١ ص ٢١٨ .

العرب المعدودين — إن رجلا كهذا لايمكن أن يصبر على هذا الذى فعل . من كسر سيفه ، وأن يلقاه بالتسليم ، ولو كان فى ذلك قتله ، ولكنه حمل الأمر على المحمل الذى لايراد به إلا جمع كلمة المسلمين ، ووصل مابينهم من أواصر الأخوة فى دين الله ..

ومثل هذا يقال فيما يروى من أن عمر ذهب إلى بيت فاطمة — رضى الله عنها — وفيها « على » ، وجماعة من الذين كانوا على رأيه فى التوقف فى بيعة أبى بكر ، ثم أنذر القوم بإحراق الدار عليهم ، إن لم يخرجوا لبيعة أبى بكر ، والدخول فيما دخل فيه المسلمون .. فما كان عمر — رضى الله عنه — بالذى يجرؤ على اقتحام بيت بنت رسول الله ﷺ ، وتهديد من فيه بالحرق ، ولا كان « على » — كرم الله وجهه — ومن معه ، كطلحه والزبير ، ممن يقبلون هذا ، ولا ماهو دونه من عمر أو غيره ، لو لم يكن الأمر محمولا عندهم على محمل النصح لدين الله ، وجمع الكلمة بين صحابة رسول الله ، الذين هم وجه الاسلام ، وأئمة المسلمين .

وقد أحسن شاعر النيل ، حافظ إبراهيم ، رحمه الله فى تصوير هذا الموقف ، إذ يقول :

وقولة لعلى قالها عمر ... أكرم بسامعها أعظم بملقيها

حرّقت دارك لا أبقى عليك بها ... إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها

وما كان غير أبى حفص يفوه بها ... أمام فارس عدنان وحاميها

والحق أن النص على الخلافة من النبى ﷺ لم يكن وارداً فى شأن أحد من صحابته ، وإلا لكان ذلك من الدين بالضرورة ، وكان أمره مما لا ينبغى أن يخفى على جمهور المسلمين ، وإلا لم يقع البيان الذى أمر الله به

رسوله أن يبينه للناس ، وهذا اتهام للنبوة ، يخرج قائله من حظيرة الاسلام ، ويلحقه بأهل الكفر والالحاد ..

ثم إن النص على من يخلف رسول الله ﷺ أمر لا محصل له فى ذاته ولا ثمرة المسلمين منه ، تتعاقب فى أجيالهم المقبلة ..

لقد كان من الممكن أن يسمى الرسول عدة أشخاص يخلفونه من بعده ، واحداً بعد واحد . فيقول إذا أنا مت فليقم على أمر المسلمين فلان ، فإن هلك ففلان ، وإن هلك ففلان .. كما كان منه ﷺ فى غزوة (مؤتة) حين أقام على إمرة الجيش فيها زيد بن حارثه ، ثم قال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة ، وقد كان هذا من أنباء الغيب التى أوحاها الله تعالى إلى النبى ﷺ ، إذ أن الثلاثة قد أصيبوا على هذا الترتيب ، فقتلوا واحداً بعد واحد : زيد بن حارثة ، فجعفر بن أبى طالب ، فعبد الله بن رواحة ، وبهذا قام الثلاثة على إمرة الجيش ، وتحقق ما أمرهم به رسول الله ﷺ ، ولو أن هذا الأمر كان عن غير وحى سماوى لما وقع على تلك الصفة ، ولكان من الممكن أن يموت جعفر ، أو ابن رواحة قبل أن يجىء دورهما لإمرة الجيش ، فإنهما كانا يقاتلان مع المقاتلين ، ولم يكونا بمعزل عن المعركة . .

كان يمكن أن يكون من رسول الله ﷺ شىء كهذا فى النص على خلفائه من بعده ، وذلك بأن يسمى ـ وبوحى سماوى ـ جماعة من الصحابة ، يتولون القيام على أمر المسلمين من بعده ، واحداً بعد الآخر ـ كان يمكن أن يكون هذا ، ولكن ذلك يوقع الناس فى فتنة ، إذا كان معنى هذا أن الخليفة الثانى لا يموت ما دام الأول حيا ، وأن الثالث لا يموت إلا بعد أن يلى الثانى الخلافة ، ثم يموت . . وإذا كان هذا من الممكن فى الأحياء

الذين يشهدون الوصية ، فيسميهم الرسول ، ويعرفهم الصحابة . . أما الوصية بخلافة لأناس لم يولدوا بعد ، فهذا مالا يمكن أن يكون ، وإن كان فإنه يوقع الناس فى فتنة لا مخرج لهم منها ! !

ثم ماذا يكون بعد ذلك ، إن سلم الناس من الفتنة ، واستقام لهم الأمر مع من سماهم الرسول للخلافة على المسلمين من بعده من بين الأحياء ؟

ماذا يكون حين تنتهى تلك السلسلة ويصبح المسلمون فى مواجهة اختيار أميرهم بأنفسهم ؟ ألا يرجع بهم الأمر إلى ما كان عليه يوم وفاة الرسول ﷺ وقد تركهم دون أن ينص على من يلى الأمر عليهم من بعده ؟ بل إن موقف المسلمين بعد وفاة الرسول لاختيار أميرهم بأنفسهم أعدل وأوفق من موقفهم بعد انقطاع تلك السلسلة التى يتوهم أن الرسول كان يمكن أن ينظم فيها عدداً من الصحابة يتولون أمر المسلمين ، واحداً بعد واحد ، عن هؤلاء الذين سماهم !! وذلك لأن صحابة رسول الله ﷺ أرشد طريقاً ، وأقوم سبيلا فى تدبير أمورهم ، وفى ترميم بنيانهم الذى تصدع بوفاة النبى — صلوات الله وسلامه عليه — من الذين يجيئون بعدهم من التابعين ، ومن بعد التابعين !

وما يقال بأن النبى ﷺ قد نص على خلافة أبى بكر ، أو على من بعده — هو قول أملته العاطفة الذاتية من أشياع الصحابيين الجليلين رضوان الله عليهما — إذ لا تستبين لهذا النص حكمة ، لأنه سرعان ما يذهب أثره بعد موت الخليفة الموصى له ، ويواجه المسلمون الأمر بأنفسهم لاختيار الأمير عليهم من بينهم فى حال هم أقل قدرة فيها على حسن اختيار من يولونه أمرهم ، كما أشرنا من قبل .

وإذن فالأمر على أى وجه قلبته ، يجعل ترك الرسول — صلوات الله

وسلامه عليه — الأمر للمسلمين فى اختيار من يقوم على أمرهم من بعده — هذا الترك هو مما قضت به حكمة الرسول ، وما تقضى به مصلحة المسلمين التى هى بالمكان الأول من جهاده واجتهاده..

هذا ، ولو أنه كان هناك نص من رسول الله ﷺ على خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، لواجه به الأنصار يوم السقيفة ، ولما كان لأحد منهم أن ينطق بكلمة سوى القبول والتسليم !!

وكذلك الشأن فى على — كرم الله وجهه — فلو أن النبى ﷺ كان قد أوصى له بأن يخلفه على المسلمين من بعد وفاته ، لقام الأنصار فى وجه أبى بكر ولما أعطوه أيديهم مبايعين له بالخلافة ، بعد أن أقام الحجة عليهم بأن المهاجرين هم أولى بالخلافة منهم ، بل إن أبا بكر رضى الله عنه كان أول المنادين بالخلافة لعلى والبيعة له ، بل ولما وقف عمر هذا الموقف يوم السقيفة ولما أعطى أبى بكر يده للبيعة ، وكذلك كان الموقف مع صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ، وإلا كانوا جميعاً آثمين لخلافهم رسول الله ﷺ ، وهذا أبعد ما يكون ظناً بالصحابة رضوان الله عليهم .

ثم كيف يمكن أن يحتمل وقوع هذا التواطؤ على الخروج على أمر أمر به رسول الله ، وكيف يتنازعون الخلافة فى هذا الموقف الذى كان حملها ثقيلا على من يحملها ، وليس وراء حملها سلطان أو جاه من مال ومتاع ، كما حدث ذلك فى الخلافة الأموية والعباسية ؟ لقد كان الحرص على الخلافة بعد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — إنما حرص تمليه الغيرة على دين الله والنصح المؤمنين بالله ، فكيف يدخل على هذا الأمر تدليس أو خيانة تبلغ حد المحادة لله ورسوله من طالب الخلافة ؟ ذلك ما لا يقبله عقل عاقل أبداً .

ولكن الشيعة على عقيدة ثابتة لا يتحولون عليها — في القديم أو الحديث — بأن رسول الله ﷺ قد نص على خلافة على من بعده ، وأنه صلوات الله وسلامه عليه ، أراد أن يوثق ذلك في كتاب أراد أن يكتبه في مرض موته ، فعمل عمر بن الخطاب على ألا يتم ذلك ، حتى غضب رسول الله ﷺ ، وعدل عن كتابة هذا الكتاب .

وقد ورد خبر هذا الكتاب الذى يقال إن النبي أراد أن يكتبه عند وفاته — ورد في صحيحى البخارى ومسلم ، واتفق أصحاب الحديث عليه . قالوا : « لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة ، وفى البيت رجال فيهم عمر ، قال رسول الله ﷺ ائتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعدى ، فقال عمر : إن الوجع غلب على رسول الله ﷺ . عندنا القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف من في البيت واختصموا ، فلما أكثروا اللغط والاختلاف غضب رسول الله ﷺ ، فقال : قوموا ، إنه لا ينبغى لنبى أن يختلف عنده هكذا ، فقاموا ، فمات النبي ﷺ في ذلك اليوم ، فكان ابن عباس يقول : « إن الرزية كل الرزية ماحال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ (يعنى ما وقع من الاختلاف واللغط ، الأمر الذى عدل رسول الله عن كتابة ما أراد كتابته) ! !

ويذهب الشيعة إلى أن المراد بالكتاب الذى كان يريد النبي أن يكتبه ، هو استخلاف على من بعده ، على حين يذهب غيرهم إلى أن الذى كان يراد بالكتاب هو أبو بكر !

وقصة هذا الكتاب غير مقبولة من وجوه .

فأولا : أن هذا الكتاب لم يتم ، وهو كتاب فيه عصمة المؤمنين من

الضلال بعد رسول الله ﷺ ، كما ورد ذلك فى هذا الخبر . . وأمر كهذا فى شأنه وخطره، ما كان للنبى ﷺ أن يؤخره إلى اليوم الأخير من حياته ، وأن يجعله سرا يطويه فى صدره حتى إذا آن رحيله من هذه الدنيا أفصح به . . ثم إن عدم كتابة هذا الكتاب يعنى أن أمراً من أمر الدين لم يستكمل ، وأن النبى ﷺ أخلى مكانه من هذه الدنيا قبل أن يتم رسالته ، وهذا ما لا يقول به مؤمن يقرأ قول الله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . . فهذا خبر من الله سبحانه وتعالى بأن الإسلام قد تم تمامه ، وأن الرسول الكريم قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وحتى لقد استظهر بعض الصحابة من هذه الآية قرب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وقال قائلهم : لقد نعى إلينا ربنا رسول الله ؟

وثانياً : هذا القول بأن هذا الكتاب يعصم المسلمين من أن يضلوا ؟!! فأى كتاب هذا الذى يعصم المسلمين من الضلال ؟ وماذا بقى للقرآن الكريم؟ وماذا بقى لسنة رسول الله ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة استمع فيها المسلمون إلى أقوال رسول الله ﷺ ، وشاهدوا فيها أفعاله ؟ وهل عصم القرآن المسلمين من الضلال ؟ وهل كان للسنة النبوية — قولا وفعلا — أن تعصمهم من الضلال ؟ إن وجود القرآن والسنة — فى أيدى المسلمين دون التمسك بهما ، لا أثر لها ، إذ ليس فيها الوازع المادى الذى يقوم على الناس فيأخذ عليهم السبيل إلى الوقوع فى المآثم والخطايا !!

وقد جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أكتب لكم كتابا لا تضلون بعدى » دون دعوة إلى التمسك بهذا الكتاب ، حتى لكأن هذا الكتاب وحده يملك من القيمة الذاتية ما يمسك بكل إنسان ولا يدع

سبيلا إلى الإفلات منه . . فأى كتاب هذا ؟ وهذا أمر لم يكن للقرآن ولا للسنة ، حيث وقع كثير من المسلمين فى الضلال ، والكتاب والسنة موجودان ، ولم يوجد الوازع ! !

وثالثاً : ثم ماذا يكتب الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى هذا الكتاب غير ما نزل عليه من قرآن ، وبعد ما بين به قولا وعملا آيات هذا القرآن؟ ألم يقل الرسول الكريم:« تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتى » . . أفلا يكفى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله عاصما للمسلمين من الزيغ والضلال ؟ بلى ثم بلى !

رابعاً : أن الرسول ﷺ ـ شرط فى حديثه عن الكتاب والسنة ، وحمايتهما للمسلمين من الضلال ـ شرط التمسك بهما ، وجعل التمسك بهما شرطا لازماً فى قوله : « ما إن تمسكتم به » : . فإن لم يتمسكوا بهذا الميراث العظيم ـ من الكتاب والسنة ـ فى أى حال من أحوالهم ضلوا ، وإن تمسكوا بهذا الميراث العظيم ، رشدوا ، وسعدوا ، وبعدوا عن الضلال . .

إن قصة هذا الكتاب هى من المقولات التى ظهرت بعد موت « عمر » وتولية « عثمان » ، وقد تزايدت وكثرت بعد تولية على الخلافة، واختلاف المختلفين عليه . .

يقول ابن أبى الحديد ـ وهو معتزلى يميل إلى التشيع ـ « فلو كان هناك نص على أمير المؤمنين (على) أو على أبى بكر لاحتج به أبو بكر على الأنصار ، ولاحتج به أمير المؤمنين ـ أى على ـ على أبى بكر . . » وهذا أيضاً يدل على أن الخبر المروى فى صحيحى البخارى ومسلم فى أبى بكر غير صحيح وهو ما روى من قوله ﷺ لعائشة ـ رضى الله عنها ـ فى مرضه : « ادعى لى

أباك حتى أكتب لأبى بكر كتاباً ، فأنى أخاف أن يقول قائل ، أو يتمنى متمن، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر »[١] ومعنى « يقول قائل أو يتمنى متمن» هو منازعة أبى بكر فى الخلافة بعد رسول الله ﷺ ، فهذا الكتاب يقطع المنازعة ، ويسلم الجميع لأبى بكر بالخلافة !!

وإذن فعمر — رضى الله عنه — براء مما يتقول المتقولون عليه من أنه كان يعلم ما يريد رسول الله ﷺ من أمر الكتاب الذى قيل إنه أراد كتابته فى مرض موته ، وأنه كان يريد أن يوصى فيه بخلافة علىّ من بعده . . كما أنه براء من محاولة — صرف الأمر عن بنى هاشم ، آل رسول الله ﷺ ، لئلا يجمعوا بين النبوة والخلافة ، فيذهبوا بالفضل جميعاً ، الأمر الذى لا يبقى للعرب شيئاً معهم . .

وكيف يظن بعمر هذا ؟ وكيف يبيع دينه ليقيم أبا بكر خليفة على المسلمين ؟ أذلك ليقيمه أبو بكر خليفة من بعده كما يدعى ذلك المدعون ، حين أوصى أبو بكر لعمر بالخلافة من بعده ؟ وهل كان عمر على عهد من الله أو من رسول الله بأنه لن يموت إلا بعد أبى بكر ؟

أن الذى يظن بعمر ، بل ويعتقد فيه ، إنما هو وضعه مصلحة الإسلام والمسلمين فوق كل اعتبار ، وإنه إنما قدم أبا بكر لما له من مكانة فى قلوب المسلمين جميعاً ، فلم يكن فيه عنف عمر ولا صرامته ، ولم يكن معه سيف « على » الذى أطاح به رؤوس المشركين من قريش ووترهم به ، فلما أسلموا بقيت فى نفوس بعضهم آثار من البغض لعلى ، ولهذا الذى رآه رسول الله ﷺ — من محامل هذه النفوس من الكراهية لعلى ، قال — صلوات الله وسلامه فى على : « لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » فلم يكن لهذا

(١) شرح منهج البلاغة لابن أبى الحديد جـ ٦ ص ١٢ .

الحديث داعبة لو لم يكن الرسول الكريم ، قد رأى ـ بما أراه الله ـ شيئاً من هذا الكره لعلى عند أولئك الذين وترهم على فى آبائهم وأبنائهم من زعماء قريش ، حتى بعد أن أسلموا !! فهذا علىّ وموقف قريش بالذات منه . . فهل يكون والأمر كذلك من المصلحة له ، أو للمسلمين أن يلى الخلافة بعد رسول الله ﷺ ، وفى بعض القلوب ما فيها له من بغض وكراهية ؟ . .

وكذلك الشأن فى « عمر » وقد كان أشد الناس على الذين لا يراهم على الطريق السوى فى عهد رسول الله ، الأمر الذى يجعل خلافته بعد رسول الله ، منار جدل ، وخلاف ، وربما أدى ذلك إلى الفتنة . . فكان اختيار أبى بكر ـ وهو من هو فى وداعته ، ولينه ـ خيراً وبركة على المسلمين ، وقد كشفت الأيام منه على أنه أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ .

وأبو بكر إذن هو الرجل الذى كانت تدعو الحكمة والمصلحة إلى اختياره فى هذا الموقف ، خلفاً لرسول الله ، وهو الرجل الذى إذا اختير لا يثير نوازع عصبية ، ولا يحرك نارات دفينة فى صدور القرشيين . . وذلك ما كان يدعو إليه هذا الموقف الذى لا يحتمل أية بارقة من بوارق الخلاف والتنازع بين المسلمين بعد أن خلى رسول الله مكانه من بينهم ، ولحق بالرفيق الأعلى . . ثم إن أبا بكر رضى الله عنه كان من بين صحابة رسول الله ﷺ هو الذى ينادى بصاحب رسول الله ﷺ ، وكان إذا قيل صاحب رسول الله ، كان أبو بكر هو المعنى بهذا ، ورسول الله لم يزل حياً . .

ثم أيضاً كان أبو بكر من بين صحابة رسول الله هو الذى خلف رسول الله ﷺ أثناء مرضه فى إمامة المسلمين فى الصلاة ، وهى أهم أركان

الإسلام ، وإمامة المسلمين فيها كانت عملا دائماً لرسول الله ﷺ ، يتكرر خمس مرات فى اليوم . . وهذا مقام لم يقمه أحد من صحابة رسول الله ، مكان رسول الله ، وهو حى ، غير أبى بكر ! ففى الوقت الذى افتقد فيه المسلمون وجه رسول الله ﷺ فى الصلاة ، كان أبو بكر هو فى مقام الرسول ، بأمر من الرسول . .

وإذن فلا التفات بعد هذا لما يقال من أن عليا كرم الله وجهه قد تخلف عن بيعة أبى بكر ، وأراد أن ينازعه الأمر بعد أن تمت له البيعة ، فعلى كرم الله وجهه فى دينه وعلمه ، وبلائه فى الإسلام ــ أعظم من أن يقف هذا الموقف . . إنها مقولات وأخبار مبنية على أوهام ، قائمة على تأويلات فاسدة ، كان اليهود الذين دخلوا فى الإسلام ، ومنهم عبد الله بن سبأ هم الذين افتروها ، وألبسوها هذا الثوب الزائف الذى انطلى على ذوى النيات السليمة من المسلمين أولا ، ثم صار بعد هذا مذهباً تمذهب به كثير من المسلمين ، وكان هذا أول ثلمة فى الإسلام ، وأول فرقة فى الأمة الإسلامية .

ثم إن أبا بكر قد وصفه الله تعالى فى القرآن الكريم بهذا الوصف الذى جعله أحد اثنين أولهما رسول الله ﷺ ، إذ يقول سبحانه « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » — فإذا أخلى الرسول ﷺ مكانه لم يكن أحد من المسلمين أولى بأن يأخذ مكان الرسول من الرجل الثانى الذى نص القرآن الكريم عليه .

يقول بعض المفسرين فى هذه الآية : « إن الله تعالى قد لام الناس

جميعاً يوم هجرة رسول الله وصحبة أبى بكر له ، إذ خذله الناس ، ولم يكن معه إلا أبو بكر » .

فبهذا التقدير ، وبأكثر وأدق من هذا التقدير ، نظر عمر إلى منصب الخلافة بعد رسول الله ﷺ ، وإلى الرجل الذى هو أصلح صحابة رسول الله لهذا المنصب .. فكان أبو بكر هو رجل الموقف غير منازع .. به تسكن الفتنة ، وإليه ينقاد المهاجرون والأنصار ، لوداعته ، ولينه ، ولمكان بيته الذى يأخذ مكاناً وسطاً بين بيوتات قريش ، لا استعلاء فيه ، ولا تنازع على زعامة أو رياسة ..

من أجل هذا كان هذا الموقف الذى وقفه عمر يوم "سقيفة ، والبيعة لأبى بكر ، ثم الوقوف من وراء أبى بكر ، وقوف الحارس الأمين له .. كما سنرى ذلك فى المباحث التالية ..

الشيعة وموقفهم من عمر :

لهذا ، وقد كان لموقف عمر ـ رضى الله عنه ـ ودوره العظيم فى بيعة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ بالخلافة يوم السقيفة ، ثم ما كان منه بعد البيعة من الأخذ على أيدى المتخلفين والمتربصين ، ثم ما كان من قيامه إلى جانب أبى بكر ، سيفاً مسلولا حارساً ، ومستشاراً أميناً ناجحاً ـ كان لهذا ولكثير غيره من عمر فى مناصرة أبى بكر ، وشد أزره ـ أثر كبير فى التشنيع على عمر ، وإذاعة الأكاذيب من الموضوعات فى الحط من قدره ، وسوق التهم إلى ساحته الطهور ، ممن غالوا فى حب على — رضى الله عنه ـ والتشيع له ، وكانوا فى مغالاتهم تلك يذهبون فى رفع على إلى مقام الألوهية ،

على حين ينتقصون من مكانة عمر حتى ليخرجوه من دائرة الإسلام ، إلى الكفر .. فكفروا ، وألحدوا .. وهكذا شأن أهل الأهواء يركبون مراكب الضلال ، ويسبحون بها فى بحر متلاطم الأمواج ، تغشاهم الفتن من فوقهم ومن تحتهم ، حتى يكونوا من المغرقين .

لقد كان سب أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - عند هؤلاء الغلاة المتشيعين لعلى ، من القربات التعبدية التى يتقربون بها إلى الله ، حتى إنهم ليطلقون اسميهما الكريمين على الكلاب التى يقتنونها ، وهذا كله مما يفسد على المؤمن إيمانه إن لم يخرجه من الإيمان !!

يقول ابن الجوزى فى هذا :

« وغلو الرافضة [1] فى حب على — رضى الله عنه — حملهم على أن يضعوا أحاديث كثيرة فى فضائله ، أكثرها تشينه وتؤذيه ، منها أن الشمس غابت ، ففاتت على صلاة العصر ، فردت له الشمس [2] .. وهذا من حيث النقل موضوع ، لم يروه ثقة ، ومن حيث المعنى مرفوض ، فإن الوقت قد فات ، وعودها طلوع متجدد ، فلا يرد الوقت !! وكذلك وضعوا أن فاطمة رضى الله عنها اغتسلت ، ثم ماتت ، وأوصت أن يكتفى بذلك عن الغسل . وهذا من حيث النقل كذب ، ومن حيث المعنى سوء فهم ، لأن الغسل إنما هو عن حدث الموت ، فكيف يصح قبله ؟ ..

(١) هم الشيعة الذين طالبوا زيد بن على بن الحسين ، بالتبرى ممن خالف عليا فى إمامته وحجبها عنه ، فلما أبى عليهم ذلك رفضوا متابعته ، فسموا بالرافضة ، وهم أرأس فرق الشيعة .

(٢) وهذا الخبر يروى فى بعض كتب التفسير عن سليمان عليه السلام وذلك عند تفسيرهم لقوله تعالى : « إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها على » ويقولون إن عرضه للخيل قد شغله عن الصلاة و حتى غربت الشمس ، فقال ردوها على « أى الشمس ، فردت بعد غيابها ، وهذا من الإسرائيليات .

ثم يقول ابن الجوزى عن واحد من هؤلاء الغلاة من الشيعة : إن إسحق ابن محمد النخعى الأحمر ، كان يقول : إن علياً هو الله ــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ــ وكان يزعم أن علياً هو الله عز وجل وأنه يظهر فى كل وقت ، فهو الحسن فى وقت ، وهو الحسين فى وقت ، وهو الذى بعث محمداً ﷺ » (١)

ونسأل : أليس هذا هو الشرك الغليظ ، والكفر المبين؟ أليس هذا هو عين ما تقوله النصارى فى المسيح عيسى — عليه السلام ـ الذين يقول الله تعالى فيهم : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم(٢)) فهل قال النصارى فى المسيح أشنع من هذا القول الذى قاله المالكون فى على رضى الله عنه !

ويقول ابن الجوزى : «وقد اعتقدت جماعة من الرافضة ـ وهم رأس فرق الشيعة ـ أن أبا بكر وعمر ـ رضى الله عنهما كانا كافرين ، ارتدا بعد موت رسول الله ﷺ ! »

ولا رد على هذا الافتراء العظيم ، والكفر الصراح أبلغ من إنكار الشمس فى مطالعها . وحروب الردة التى تصدى لها أبو بكر ، وقطع رءوس الفتنة التى أطلت من جحورها بعد موت النبى ، يشهد بها التاريخ الإسلامى ، وغير الإسلامى . ولم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام من المستشرقين أن يلوك هذه الفرية العظيمة فى فمه أو يخطها بقلمه ، لأنهم لا يريدون أن يحكم عليهم بالسفه والجنون !؟

ويروى ابن الجوزى ، عن ابن عقيل قوله : «الظاهر أن من وضع مذهب

---

(١) تلبيس إبليس . لابن الجوزى ، وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى القرشى توفى سنة ٥٩٦ هـ (ص ٩٧) طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م

(٢) سورة المائدة الآية ١٩

الرافضة قصد الطعن فى أصل الدين، والنبوة ، وذلك أن الذى جاء به الرسول ﷺ أمر لم نشهده نحن ، وإنما نثق فى ذلك بنقل السلف ، وجودة نظر الناظرين إلى ذلك منهم ، فكأننا نظرنا — إذ نظر لنا — إلى من نثق بدينه وعقله ، فإذا قال قائل : إنهم — أى الصحابة — أول ما بدءوا به بعد موت النبى ، هو ظلم أهل بيته فى الخلافة ، وفى ميراث ابنته فى فاطمة ، وما هذا إلا لسوء اعتقاد فى المتوفى — وهو رسول الله ﷺ — فإن الاعتقادات الصحيحة — سيما فى الأنبياء ، توجب حفظ قوانينهم بعدهم ، وخاصة فى أهليهم وذريتهم ، فإذا قالت الرافضة :

« إن القوم — أى الصحابة — استحلوا هذا بعد النبى ، خابت آمالنا فى الشرع ، لأنه ليس بيننا وبين النبى إلا النقل عنهم ، والثقة بهم ، فإذا كان هذا محصول ما حصل بعد موته ﷺ ساء ظننا فى المنقول ، وزالت ثقتنا فيما عولنا عليه من اتباع ذوى العقول ، ولم نأمن أن يكون القوم لم يروا فيه ما يوجب اتباعه، فراعوه مدة الحياة ، وانقلبوا عن شريعته بعد الوفاة ولم يبق على دينه إلا الأقل من أهله .. وهذا من أعظم المحن على الشريعة[1] » .

ثم يذكر ابن الجوزى ، حادثة منع فاطمة رضى الله عنها من ميراثها من النبى ﷺ ، وقد جاءت إلى أبى بكر رضى الله عنه أول خلافته ، تطلب إليه أن يسلمها ميراثها من أبيها ، فذكر لها قول النبى ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » .. ولو وجد أبو بكر — رضى الله عنه — سبيلا لإعطائها ما ترك النبى ﷺ ، ما تردد فى هذا لحظة ، ولكنه وجد نفسه أمام هذا الحديث الصريح الصحيح من رسول الله فى الذى يتركه من بعده ، وهو أنه صدقة لا نورث !

ويروى ابن الجوزى — تعليقاً على هذا الخبر — تلك الحادثة الطريفة .

(١) تلبيس ابليس ، لابن الجوزى ص ٩٧ طبعة بيروت .

وهى أن السفاح ـ أول الخلفاء العباسيين ـ خطب يوماً ، فقام إليه رجل من آل « على » رضى الله عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا من أولاد على ، فخذ لى بحقى ممن ظلمنى ! قال ومن ظلمك ؟ قال : أنا من أولاد على ، والذى ظلمنى هو أبو بكر ، حين أخذ «فدك» [١] من فاطمة : قال السفاح : وهل دام على ظلمكم ؟ قال نعم ، قال . ومن قام بعده ؟ قال : عمر ، قال السفاح : ودام على ظلمكم ؟ قال : نعم ، قال السفاح ومن قام بعد عمر ؟ قال عثمان ! قال : ودام على ظلمكم ؟ قال : نعم ! قال السفاح : ومن قام بعده ؟ فجعل الرجل يلتفت كذا وكذا ينظر إلى مكان يهرب إليه » [٢] .

وذلك أن الذى قام بالأمر بعد عثمان ، هو على ـ رضى الله عنهما ـ فلو أنه كان يرى لفاطمة رضى الله عنها حقاً فى هذا الذى تركه النبى ؛ لرده إليها . وأمضى شريعة الله ، فى إرث الأبناء عن الآباء ، ولكنه ـ رضى الله عنه ـ رأى حديث رسول الله ﷺ قاضياً قاطعاً فى أن ما ترك النبى لا يورث ، وإنما هو صدقة .

ومع هذا ، فإن الشيعة فى جملتهم لا يزالون يشنعون على أبى بكر فى حجبه فاطمة عن ميراث أبيها ، ويرجعون ذلك إلى كراهية أبى بكر وعمر لآل بيت النبى ، وعلى وفاطمة !

ولو أن هؤلاء المتشيعين لعلى ، أنصفوا ـ وأنى لهم أن ينصفوا وقد أضلهم الهوى ـ لو أنهم أنصفوا لأدخلوا علياً ـ رضى الله عنه ـ فى هذه التهمة التى اتهموا بها أبا بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ ! فقد ولى الخلافة ولم يورث فاطمة من أبيها .

---

(١) فدك ، أرض بها عين ماء كانت للنبى صلى الله عليه وسلم

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ٩٨

الشيعة والخلافة :

ولا ننهى هذا الفصل دون أن نعرض رأى ابن خلدون فى موقف الشيعة من الخلافة ، وما نشأ من التنازع فيها حول من هو أولى بها ، حتى تفرقت الأمة الإسلامية فرقاً ، ما كان لأشد أعدائها أن يبلغوا منها ما بلغت هذه الفتنة ، التى جرها على المسلمين التعصب الأعمى ، الذى اختلط به الكيد للإسلام من أعداء الإسلام ، الذين أظهروا الإيمان واستبطنوا الكفر ، وكان كيدهم للإسلام أعظم الكيد ، إذ كانت الطعنات من أيد يأمن المسلمون جانبها !

يقول ابن خلدون :

«اعلم أن الشيعة ، لغة ، هم الصحب والأتباع ، ويطلق فى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف ، على أتباع علىّ وبنيه — رضى الله عنهم — ومذهبهم جميعاً — أى الشيعة — متفقين عليه ، أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز لنبى إغفاله ، ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر[1] وأن علياً — رضى الله عنه — هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه : بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ، ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه . أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة .

---

(١) وكيف ليبشر تكون له هذه العصمة إلا أن يكون نبياً أو رسولا ، يوحى إليه من ربه ؟

ثم يقول ابن خلدون :

« وتنقسم هذه النصوص عند الشيعة ، إلى جلىّ وخفى . .

فالجلى ، مثل قوله ﷺ : «من كنت مولاه ، فعلى مولاه» قالوا : ولم تطرد هذه الولاية إلا فى على ، ولهذا قال له عمر : « أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ».. ومنها قوله ﷺ :« أقضاكم على » ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله ، وهو المراد بأولى الأمر الواجب طاعتهم ، بقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» والمراد بالطاعة، الحكم والقضاء . . ومنها قوله ـ أى النبى ﷺ : « من يبايعنى على روحه وهو وصيي وولى هذا الأمر من بعدى »[1]

ونقول تعقيباً على هذه الأخبار التى تنسب إلى النبى ﷺ ، فى علىّ رضى الله عنه :

إن قوله — ﷺ — فى على : « من كنت مولاه فعلى مولاه » فإن هذه الولاية إن صح الحديث ، فإنما تعنى الحب لله ، حباً خالصاً ، وهذا التنويه بعلى من رسول الله ﷺ إنما كان كما أشرنا من قبل ، تعريضاً بالمنافقين الذين كانوا يكرهون علياً لكثرة ما عمل سيفه فى رقاب أهليهم الذى كانوا على الشرك . .

وأما قوله ﷺ : « أقضاكم على » فإن هذا الفضل وحده ليس هو كل مقومات الخلافة ، التى من مقوماتها السياسه ، ومداواه الأمور التى تعرض لولى الأمر ، والتى إذا لم تعالج بالحكمة والحسم استعصى منها بنيان

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٠ ـ طبعة كتاب التحرير القاهرة سنة ١٩٦٦ م

الدولة ، كما حدث فى فتنة أهل الردة ، فلم يكن القضاء عليها محتاجاً إلى القضاء أكثر من احتياجه إلى السياسة !

وأما قوله ﷺ : « من يبايعنى على روحه ، وهو وصيى ، وولى الأمر من بعدى » ـ فإنه حديث موضوع ، وللدلالة على وضعه أكثر من وجه :

فأولا : أن من يبايع على روحه ، إنما يبايع على الموت فى سبيل الله ومن بايع هذه البيعة ، فان تكون له وصاية فى هذه الدنيا ، ولا ولاية لأمر بعد النبى . .

وثانياً : إذا قيل إن هذه البيعة ، لا تعنى أكثر من التلفظ بها ، وأن المبايع مضمون له الحياة بعد النبى ؛ حتى يقوم بالأمر من بعده . . وإذن فليس فيها تضحية بالنفس ، وإذن فلا فضل للمبايع .

وثالثاً : لو كان هذا القول صادراً من النبى ﷺ فى مواجهة أصحابه ؛ فهل يعقل أن يضن عشرات ، بل مئات من أصحابه ببيعة النبى على أرواحهم ؟ وكيف وهم كانوا يتسابقون إلى الاستشهاد فى سبيل الله ، ويرجع من يرجع منهم بعد المعركة وهو يتحسر على نفسه إن لم يكن فى الشهداء ؟

ونكتفى بهذا القدر فى الرد على الذين تناولوا عمر ـ رضى الله عنه ـ بالفاحش من القول فيه ؛ أن كان عضداً لأبى بكر فى البيعة بالخلافة له يوم السقيفة ثم فى الوقوف إلى جانبه مدة خلافته ، موقف الديدبان الحارس له كما كان ذلك شأنه مع رسول الله ﷺ ، حباً للقائم بأمر الدين ، وحياطة للدين وأهله ، أداء لحق الله ورسوله والمؤمنين .

* * *

الفصل الخامس

مع أبي بكر

تأبى على عمر طبيعته أن يكون فى جماعة ، ثم هو يأخذ موقفاً سلبياً فيها - بحيث يخلى نفسه من حمل همومها ، وأخذ نصيبه من كل عارض يعرض لها .. فإذا حلا لبعض الناس من ذوى النفوس الصغيرة أن يكونوا فى مجتمعاتهم دمى تتحرك ، أو حيوانات همها أن تجد ما يملأ بطونها - فإن أصحاب الهمم العالية ، والعزائم القوية من الرجال ، لا يرضون فى المجتمع الذى يعيشون فيه إلا أن يكونوا دروعاً حصينة لمن يعيشون معهم ، يتلقون الضربات عنهم ، ويحملون أفدح الأثقال دونهم ، تماماً كما يفعل الآباء مع من يعيش فى كنفهم من صغار ، وكبار . إذا كان مكروهاً تعرضوا له دونهم ، ودفعوه بأنفسهم عنهم ، وإن كان خيراً آثروهم به ، واكتفوا بالقليل منه ، وهذا ما كان من الأنصار ، وموقفهم من المهاجرين ، ومواساتهم لهم بأموالهم ، وديارهم ، ولهذا ذكرهم الله تعالى فى مقام الحمد لهم ، والتنويه بهم ، فقال تعالى : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[1]

وقد وصف رسول الله ﷺ الأنصار ، بهذا الخلق الكريم ، خلق الرجال ، الذين أهلتهم نفوسهم الكبيرة ليكونوا نسوراً يحلقون فى السماء ، لا حشرات تدب على الأرض ، فيقول لهم صلوات الله وسلامه عليه

---

(١) سورة الحشر الآية ٩

« إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » وهذا المعنى قد خلعه على نفسه عنترة العبسى — الفارس الجاهلى المعروف ، وصاحب المعلقة المشهورة — إذ يقول مخاطباً محبوبته « عبلة » ، عارضاً عليها أكرم صورة للبطولة والرجولة :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك　　إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
يخبرك من شهد الوقيعة أننى　　أغشى الوغى وأعف عند المغنم

هكذا هم أبطال الرجال ، وسادة الأقوام .. وهكذا كانت حياة عمر فى الجاهلية والإسلام ، إذا عصفت بالمجتمع الذى يعيش فيه عاصفة تلقاها بكيانه كله ، كما يتلقى فارس القوم سيوف الأعداء ، ورماحهم ، لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه .

وكأنه المعنى بقول الشاعر :

رأيت عرابة الأوسى يسمو　　إلى الأمجاد منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد　　تلقاها عرابة باليمين

وقد رأينا كيف كان بلاء عمر فى الإسلام منذ أول يوم دخل فيه إلى أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى .. ثم رأينا كيف كان موقفه ، وقد نعى إلى المسلمين رسول الله ، ثم موقفه وقد كادت جماعة المسلمين تتمزق ، وتتفرق ، وتوشك أن تلتحم فى صراع تراق فيه الدماء ، وتزهق فيه النفوس ، فاستطاع أن يجمع كلمة المسلمين على أبى بكر ، وأن يسوى الحساب له مع الذين اختلفوا عليه ، وتخلفوا عن بيعته ، حتى وضعوا أيديهم فى يد أبى بكر ، وبايعوه بيعة رضى ورضوان .. وقد كان لعمر بعد هذا أن يفرغ لنفسه ، ويدع أبا بكر يستقل بحمل المسئولية أمام الله ،

وأمام جماعة المسلمين ، ولكن عمر تأبى عليه طبيعته إلا أن يكون إلى جوار أبى بكر ، يعينه ، ويحمل معه بعض ما حمل . . ثم هو من جهة أخرى يرى أنه هو الذى ألقى على أبى بكر هذا الحمل الثقيل ، وأن من الظلم لأبى بكر أن يتخلى عنه ، وألا يأخذ منه مكان الوزير الناصح له والجندى الحارس الساهر عليه .

حرب الردة :

وأول ما يواجه أبا بكر فى خلافته ، بعد أن تمت البيعة له ، واجتمع المهاجرون والأنصار جميعاً على الرضا عنه ، والولاء له ـ تلك الفتنة التى أثارها أدعياء النبوة بعد النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ واستجابة بعض القبائل لهم ، وارتداد كثير منهم عن الإسلام ، وامتناع كثير آخرين عن إخراج الزكاة ، وكان الذى تولى كبر هذه الفتنة ثلاثة نفر أدعوا النبوة ، وهم مسيلمة الكذاب باليمامة ، وكان قد ظهر أمره قبيل وفاة النبى ﷺ ، ثم طلحة بن خويلد فى بنى أسد ، ثم سجاح .

والذى كان يرصد الموقف فى تلك اللحظات الحرجة بعد وفاة النبى ﷺ كان يرى :

أولا : أن مجتمع المسلمين فى المدينة يخيم عليه جو ثقيل خانق من الحزن والأسى والوحشة ، لا يكاد يجد فيه المرء نفسه ، أو يعرف طريقه ، بعد هذا الفراغ الهائل الذى خلفه فيهم موت الرسول ﷺ .

ثانياً : فتن تموج وتضطرب وتصخب حول المدينة ، من أولئك الأعراب الجفاة الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم ، وقد رأوا

فى موت النبى ﷺ فرصة ينقضون فيها على المسلمين، ويستولون على ما فى المدينة من مال ومتاع .

ثالثاً : تلك القبائل التى ظهر فيها هؤلاء الأنبياء الكذبة ، فأفسدوا على الناس دينهم فى هذه القبائل التى لم يكن الإيمان قد استقر فى قلوبهم بعد.

رابعاً . جيش أسامه الذى كان رسول الله ﷺ قد أعده قبيل وفاته، وأمره بغزو أطراف الروم من جهة الجزيرة العربية .

وهنا تتجلى عظمة أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ ويظهر فضل الله تعالى على المسلمين بما وفقهم إليه من اختياره خليفة لرسول الله ﷺ ، وليكون هو الذى يواجه هذا الأمر العظيم بحكمة عقله وثبات جنانه ، ووثاقة إيمانه ، فيمسك بيديه القويتين عرا الدين وقد أوشكت أن تنحل ، ويتداعى هذا البناء الذى أقامه رسول الله ﷺ ، لدين الله ، كما يظهر إلى فضل هذا عمر، وصدق فراسته فى أبى بكر ، والعمل على اختياره خليفة المسلمين .

عمر وحروب الردة :

ومن عجب أن نجد عمر بن الخطاب فى هذا الموقف فى وضع غير ما اعتاد الناس أن يجدوه عليه ، حيث كان دائماً فى الجانب المتشدد بل المتطرف فى الشدة ، فى كل أمر وفى كل موقف يرى فيه جوراً على الإسلام، أو عدواناً عليه، فلا يقبل مهادنة أو موادعة. ولا يرضى بغير البتر والحسم.

فعلى حين نرى أبابكر ، اللين الهين الوديع ، يثور فى وجه الردة والمرتدين ثوران البركان ، ويزأر زئير الأسد، ويدوى دوى الرعد، ويتحول شخصه الضاوى النحيل إلى عملاق ضخم طوال ، يملأ ما بين الأرض والسماء،

ويطول بيديه كل أفق من آفاق الدولة الإسلامية ، ويتحرك إلى كل اتجاه تطل منه رأس الفتنة ، ويؤذن كل خارج على الدين بحرب لا هوادة فيها .. فيندب المسلمين لحرب القبائل المرتدة ، والمانعة للزكاة ، ويدعوهم للضرب على أيدى هؤلاء الأعراب الذين وطئوا حرم المدينة وكادوا يدخلونها ، ثم قبل هذا وذاك يعجل بإنفاذ جيش أسامة إلى غزو الروم ، كما أمره الرسول الكريم قبل وفاته .. وكان لا يزال مرابطاً على أطراف المدينة ، انتظاراً لما ينجلى عليه الموقف بعد وفاة رسول الله ﷺ .

نقول : على حين نرى أبا بكر ، يزأر هذا الزئير العاصف المدوى ، نرى عمر ، الذى كان من المتوقع أن يكون هو صاحب هذا الموقف ـ نراه يأخذ موقف المهادنة والموادعة ، يحاول أن يكسر من حدة أبى بكر ، ويخفف من ثورته ويلوى زمامه عن ركوب هذه الطرق المحفوفة بالمكاره ، والتى لا قبل للمسلمين بها ، وهم قلة فى وجه هذه الأعداد الكثيرة التى خرجت عليهم ، وأعدت العدة لحربهم .. فنى الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه « لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده ، وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبى بكر كيف تقاتل الناس ـ يقصد الذين منعوا الزكاة ـ وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ؟ » فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها » فقال عمر « فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

وعمر أيضاً ، قال « لما قبض رسول الله ﷺ ، وارتدت العرب وقالوا لا نؤدى زكاة ، فقال أبو بكر : والله لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه ، فقلت يا خليفة رسول الله : تألف الناس ، وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية ، وخوّار فى الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحى ، وتم الدين .. أوَ ينقض وأنا حى » ؟ .

وعن أبى هريرة أنه كان يقول: والذى لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عُبد الله ، ثم قال الثانية ثم قال الثالثة — أى قال هذا القول ثلاث مرات ـ فقيل له : مه يا أباهريرة ؟ ـ استفهاما وتعجباً ـ فقال : إن رسول الله ﷺ وجه أسامه بن زيد إلى الشام ، فلما نزل بذى حشب ـ موضع قريب من أطراف المدينة — وقبض رسول الله ﷺ ، وارتدت العرب حول المدينة — اجتمع عليه — أى على أبى بكر — أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا . يا أبا بكر : رد هؤلاء — أى جيش أسامه — أيتوجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب ؟ فقال : والذى لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج ، النبى ﷺ [١] ، ما رددت جيشاً جهزه رسول الله ، ولا حللت لواء عقده رسول الله » وفى رواية : « لو علمت أن السباع تجر برجلى إن لم أرده ما رددته عن وجهة وجهه رسول الله ﷺ » وأمر أسامه أن يمضى لوجهه ذلك « قال : فوجه أسامه ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا : لولا أن لهؤلاء قوة — أى

---

(١) يقصد أنه لو دخل المرتدون المدينة ، ومثلوا بأهلها ، وهتكوا ستر أمهات المؤمنين ، أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ما رد جيش أسامة ، الذى أمر رسول الله بأن يتوجه لغزو أطراف الشام ، وقد كان ذلك من أبى بكر إشراقة من إشراقات الالهام السماوى ، إذ عرف أن رسول الله لم يوجه هذا الجيش إلا وهو يرى ـ بما أراه الله ـ أنه عقق هذه الغاية التى ندبه رسول الله لها ، وأن هذا أمر سماوى لابدمن امتثاله مهما كانت الظروف والأحوال .

المسلمين ـ ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ؛ ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم» فلقى أسامة بجيشه الروم ، فهزموهم ، وقتلوهم ورجعوا سالمين ، فثبتوا على الإسلام ـ أى أن هولاء الذين كانوا يريدون الارتداد عن الإسلام ، ثبتوا على الإسلام بعد أن رأوا قوة المسلمين ، وانتصارهم على من لقيهم من الروم على أطراف الشام ، وكان هؤلاء الذين يريدون الردة عن الإسلام، ينتظرون غير هذا .

وروى أن أبا بكر أقبل على أسامة بن زيد ، وهو معسكر خارج المدينة ، وقال له : امض رحمك الله لوجهك الذى أمرك به النبى ﷺ ، ولا تقصر فى أمرك فان رأيت أن تأذن لعمر بن الخطاب — وكان عمر فى جيش أسامة — بالمقام عندى ، فانى أستأنس به ، وأستعين برأيه ، فقال أسامة : قد فعلت ذلك » .

ونسأل بعد هذا . كيف كان هذا الموقف من عمر فى مواجهة الفتن التى طافت على المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ ؟ وكيف كان عمر فى موقف كان يتطلب عمر بكل شدته وقوته وحزمه ؟

فما تأويل هذا ؟

ونقول والله أعلم : إن عمر رضى الله عنه كان لا يزال تحت تأثير الصدمة التى أصابته فى مثله الأعلى بموت رسول الله ، وما كان يعيش فيه من آمال رحاب ، ينتظر تحقيقها فى حياة رسول الله ﷺ ، مما فهم عليه قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » . وأصابه لذلك وهن ، وضعف ، كما يصيب اليتيم تركه أبواه !

وفوق هذا ، فإن عمر كان يرى ــ وهو فى ظل رسول الله ﷺ أنه فى أمان من الفتنة ، أو الزيغ أو الضلال ، وإنه إن ضل وجد الهدى ، وإن انحرف وجد اليد الرحيمة التى تقومه ، والطبيب الرحيم الذى يطب له .. أما وقد مات الرسول صلوات الله وسلامه عليه ــ فقد حرم عمر ــ كما حرم المسلمين ــ رعاية الوالد ، وهداية المرشد ، ونصح المربى .

ومن هنا كان عمر يخشى على نفسه الفتنة بعد رسول الله ، وأن ينحرف عن الطريق الذى أقامه الرسول عليه من غير أن يدرى . . ولهذا كان يتمنى أن لو ختم على عمله الذى عمله قبل أن يتوفى رسول الله وألا يضاف إليه شيء مما عمل بعده .

ففى البخارى ، عن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى قال ، قال لى عبيدالله ابن عمر : هل تدرى ما قال أبى لأبيك ؟ قلت لا .. قال : فإن أبى قال لأبيك أبى موسى : هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله ﷺ ، وهجرتنا معه وشهادتنا معه ــ أى حضورنا المشاهد معه ــ وعملنا كله بَرَدَ [١] علينا ، وأن كل ما عملناه بعده نجونا منه كفافا رأساً برأس [٢] ؟ فقال أبوك لأبى : «لا والله ، جاهدنا بعد رسول الله ﷺ ، وصلينا ، وصمنا ، وعملنا خيراً كثيراً ، وأسلم على يدنا بشر كثير ، وإنا لنرجو ذلك» قال أبى : «ولكنى والذى نفس عمر بيده لوددت أن ذلك بَرَدَ لنا وأن كل شيء عملناه بعده نجونا منه كفافا رأسا برأس» قلت إن أباك والله كان خيراً من أبى» .

---

(١) برد : أى ثبت واستقر على ما هو عليه لا نزاع عليه ، ولا ينتقص منه .

(٢) كفافا ، رأساً برأس : أى يكون خيره شره ، فلا علينا ، ولا لنا .

إن عمر القوى الواثق المطمئن وهو فى كنف رسول الله ﷺ ، فقد كثيراً من قوته وثقته ، واعتزازه برأيه وبنفسه .. إن عمر فى حاليه ـ قبل موت الرسول وبعد موته ـ أشبه بالصبى يتصرف فى شئون الحياة حسبما يشاء وعين والده ترقبه ، ثم بهذا الصبى وقد مات والده وأصبح أمره إلى نفسه إنه فى الحال الأولى ينطلق فى قوة وثقة واندفاع ، وهو على يقين بأن من ورائه من يأخذ بيده إذا سقط ، ويصحح أمره إذا أخطأ ، وهو فى الحال الأخرى يفكر ويقدر ، ويخطو خطوة ، ثم لا يخطو الثانية حتى يعيد النظر إلى ما بين يديه وما خلفه .. هكذا كان عمر بعد وفاة رسول الله ﷺ ، لا يلقى الأمور بقوة وصرامة ، كما كان يلقاها بين يدى النبى ﷺ .. إن الذى لا يحسن السباحة إذا وجد نفسه بين يدى من يحسن السباحة لم يخش أن يلقى بنفسه فى عباب الماء ، مقدراً أنه لن يترك هكذا يتخبط فى الماء حتى يغرق ، من غير أن تمتد يد إلى إنقاذه .. أما إذا لم يكن هنالك من يخف لنجدته فإنه لن يقدم حتى على وضع قدميه فى الماء !!

كان عمر مشحوناً بطاقة كبيرة من هذه الآمال الواسعة ؛ وكان ممتلئا إلى أقصى غاية بمشاعر الاعتزاز والقوة ، وهو مستند إلى رسول الله ، يرى الأرض التى يمشى عليها تطول السماء ، وتنال منها ما تشاء .. فلما فارق رسول الله ﷺ هذه الدنيا ، كاد بنيان عمر يتداعى وينهار .. وكان لابد من وقت يراجع فيه عمر نفسه ، ويقيم حسابه على هذا الواقع الذى هو فيه ..

ومن وجهة أخرى ، كان عمر ، حين واجه أحداث الردة ، خارجا من معركة قاسية رهيبة ، هى معركة الخلافة ، واختلاف المسلمين فيها ، بين المهاجرين والأنصار ، ثم بين المهاجرين أنفسهم . . وقد أنفق عمر فى هذه

المعركة ـ كل ما كان قد بقى فيه من قوة ، وحسبه أنه يواجه إخوانه ، وأحبابه الذين ترددوا فى بيعة أبى بكر ، هذه المواجهة التى تكاد تنقطع فيها علائق الأخوة ، وتحترق فى نارها مشاعر المودة ، وإنه ليس بالهين على نفس عمر أن يبلغ به الأمر إلى الحد الذى يحمله على دخول بيت فاطمة بنت رسول الله ومواجهتها ومواجهة على بن أبى طالب ، وطلحة والزبير وغيرهم من خيار صحابة رسول الله ﷺ ، وأقرب المقربين إليه . بهذه النذر المتهددة المتوعدة ! !

فإذا واجه عمر بعد هذا ما جاء من أخبار عن ردة المرتدين من قبائل العرب ، أو امتناع من امتنع منهم عن أداء الزكاة ـ واجه ذلك بنفس مؤرقة مجهدة من هذه المعركة ـ التى خاضها فى إقرار الخلافة لأبى بكر .

ومن جهة ثالثة ـ فإن عمر رضى الله عنه ـ كان يرى أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ، قد أعطى الموقف غايته من الحزم والقوة ، بحيث لم يبق هناك شىء يتسع لأى جديد يضاف إليه من حزم عمر ومن قوته . . إن عمر فى هذا الموقف يرى نفسه بكل مشخصاتها وصفاتها من الشدة والصرامة فى شخص أبى بكر . . وأين أبو بكر إذن ؟ إن الذى هنا هو عمر فى شخص أبى بكر .. وعمر لم يعتد أن يظهر فى شدته وصرامته إلا حيث يكون مع أبى بكر فى لينه ورفقه .. فتلتقى صرامة عمر وشدته باين أبى بكر ورفقه ، فيكون منهما معا مزيج ، هو وسط بين الشدة واللين ، والصرامة والرفق .. أما وأبو بكر قد لقى الأمر بما ليس وراءه مزيد لشدة أو صرامة ، فلا مكان لشدة عمر وصرامته ..

. . .

ـ فليأخذ عمر إذن موقف أبى بكر ، فى لينه ورفقه ، وليلاقى بهما شدة

عمر وصرامته فى أبى بكر .. وهكذا يتبادلان المواقف بينهما ، فإذا لبس أبو بكر شخصية عمر ، لبس عمر شخصية أبى بكر . فإذا اشتد أبو بكر لان عمر ، وإذا اشتد عمر كان أبو بكر على ماعرف منه من رفق ولين .. وبهذا استقامت سياسة الأمة الإسلامية فى خلافة أبى بكر على أعدل وجه ، حيث جمعت بين الشدة واللين ، وزاوجت بين اللين والشدة .

يقول عمر فى هذا بعد أن ولى الخلافة ، ورأى من إشفاق الناس وتخوفهم من شدته وصرامته : « بلغنى أن الناس قد هابوا شدتى وخافوا غلظتى ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف إذا صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق !

« قد كنت مع رسول الله ﷺ ، فكنت عبده ، وخادمه ، وكان ممن لا يبلغ أحد وصفه من اللين والرحمة ، وقد سماه الله تعالى بذلك ، ووهب له اسمين من أسمائه : « رؤوف رحيم »[1] .. فكنت سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ، حتى قبض رسول الله ﷺ وهو عنى راض ، والحمد لله ، وأنا أسعد بذلك ..

« ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان ممن لا ينكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى .. فلم أزل معه كذلك حتى قبض ، وهو عنى راض والحمد لله ، وأنا أسعد بذلك .. »[2] .

---

(١) يشير بذلك إلى قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (١٢٨ : التوبة)

(٢) الرياض النضرة : جزء ٢ ص ٥

لم يكن أذن من المستغرب ـ والأمر كذلك ـ أن يكون موقف عمر من حرب الردة على غير ما كان يتوقع منه ، جريا على ما اعتاد المسلمون منه ، من أخذ الجانب المتحفز المهاجم . .

إن أبا بكر — كما قلنا — قد اشتدّ ، وغلا ، وهاج ، وواجه عاصفة الردة بإعصار لا يبقى على شىء ، حتى ولو فنى فيه المسلمون جميعاً وأولهم أبو بكر ، فكان على عمر أن يخفف من حدة هذا الموقف ، وأن يلقى إعصار أبى بكر بهذه النسمة الهادئة الوادعة ، حتى يتبين الموقف على حقيقته ، حين ينظر إليه من جهتيه معا . .

ولو أن أبا بكر أبطأ قليلا ، ولم يبادر الأمر بهذا الموقف الذى وقفه ، لكان عمر هو الذى يهب بكل قوته ، يستصرخ المسلمين للقاء المرتدين ، ويتضرب فى وجه كل من يتردد أو يتخلف !!

ولكن عمر — رضى الله عنه — كان يرى أنه بين يدى أبى بكر رضى الله عنه ـ الذى رأى فيه من الصرامة والشدة ما لم يعهده فيه من قبل . . إذ كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يأخذ جانب اللين والرفق دائماً ، على حين كان عمر يأخذ جانب الشدة والصرامة فى كل موقف كان يعرض لرسول الله ﷺ . . وقد رأينا كيف كان موقف أبى بكر حين استشار النبى الكريم أصحابه فى أسرى المشركين يوم بدر ، وكيف كان موقف عمر . . فإن أبا بكر ، قال : يا رسول الله هم الأهل والعشير ، ولعل الله أن يشرح صدورهم للإسلام ، فاقبل الفدية منهم ، على حين كانت قولة عمر : «لا ، بل هم يا رسول الله ، أعداء الله ، فاضرب رقابهم بالسيف » ! !

وعلى هذا ، فإن عمر ، ما كان ينتظر من أبى بكر ، أن يقف هذه

الوقفة من المرتدين ، ويعلنها حرباً عليهم ، ولو كان وحده ، لايخرج معه أحد لقتالهم .. ومانحسب إلا أن عمر كان على هذا الرأى الذى رآه أبو بكر ، ولكنه وقد رأى أبا بكر هو الذى يدعو إلى القتال على تلك الصورة القاطعة ، وقع فى نفس عمر أن الأمر يمكن أن يكون من أبى بكر منبعثاً عن شعوره بتلك المسئولية التى يحملها من أمر الإسلام والمسلمين ، بعد أن أصبح خليفة لرسول الله ﷺ ، فرأى عمر بتلك المعارضة أن يتثبت أبو بكر من موقفه ، وأن يعد له العدة من رجال وسلاح ، وألا يندفع وراء الحماس الدينى ، الذى تمتلىء به نفسه . . فكان عمر بهذا أشبه بأبى بكر فى حياة رسول الله ﷺ ، يأخذ جانب اللين مع ولى الأمر ، حتى لاتجتمع القوة ، مع قوة السلطان ، مظاهرة له ، لأن السلطان فى ذاته قوة ، وصاحب السلطان محتاج إلى من يخفف من سلطانه ، لا من يغريه بالسلطان .

وبهذا التوازن بين شدة عمر حين يكون بين يدى من يسوس شدته ، ويقيم وجهها على أعدل طريق وأقومه ، وبين لينه حين يكون مع من يرى منه الشدة على من يمس حرمة الدين ـ بهذا التوازن كان عمر علماً منفرداً بين أعلام الرجال فى سيرته ، محكوماً أو حاكماً . .

وبهذا التوازن بين عمر وما عرف عنه من صرامة فى الحق ، وغيرة بالغة على ضبط موازينه ، وبين أبى بكر وما طبع عليه من الحلم والأناة والروية ، ومعالجة الأمور بالرفق واللين ـ بهذا التوازن بين شدة عمر ولين أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ أحكم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أمور المسلمين ، بعد رسول الله ﷺ ، ووقى الجماعة الإسلامية ما كان يمكن أن تتعرض له من عواصف الفتن بعد أن أخلى رسول الله مكانه من هذه الدنيا .

فلقد اختار الله لهذه الأمة ، وهيأ لها من أمرها رشداً ، بأن بويع لأبى بكر بالخلافة ، وبأن اتخذ أبو بكر عمر سندا له ووزيرا ، وذلك لما كان يرى من أن أمره لا يستقيم على الوجه الذى يريد إلا بموازرة عمر له ، ولهذا استأذن أبو بكر ، أسامة بن زيد ، قائد الجيش الذى كان النبى ﷺ قبيل وفاته قد أمر أسامة عليه لغزو أطراف الروم ، وكان عمر ، وكثير غيره من وجوه الصحابة تحت إمرة أسامة ـ فى أن يدع معه عمر إذا شاء ، ليستعين به . وينتفع برأيه ونصحه فيما يعرض للمسلمين من أمور ، ومايطرقهم من أحداث .

يقول ابن تيمية ـ رضى الله عنه ـ وهو يتحدث عن الولاية على الناس ، وعما يشترط فيمن يولى أمراً من أمور المسلمين ، من صفات تؤهله للقيام به على الوجه الأقرب إلى ما يكون من الحق والعدل والإحسان ـ يقول ابن تيمية فى هذا[١] :

« وينبغى أن يعرف الأصلح فى كل منصب ، فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة ، كما قال تعالى : «إن خير من استأجرت[١] القوى الأمين[٢]» وقال صاحب مصر ليوسف : « إنك اليوم لدينا مكين أمين »[٣] وقال تعالى فى صفة جبريل : « إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين »[٤] ..

---

(١) والحاكم الذى يلى أمراً من أمور الناس ـ أفراداً أو جماعات ـ هو أجير ، يستوفى ما يقوم بمعاشه منهم ، إذا كان قد حبس نفسه على العمل لهم ؛ فلا يتصرف فى أمورهم إلا بما يحقق مصلحتهم ، أشبه بالأجير الذى يستأجر لإنجاز عمل ، فلا أجر له إلا إذا أنجزه على الوجه المطلوب منه .

(٢) القصص : ٢٦ (٣) يوسف : ٥٤ (٤) التكوير : ١٩ ـ ٢١

ثم يقول ابن تيمية ـ رضى الله عنه ـ شارحاً القوة ومكانتها من الولاية

« والقوة فى كل ولاية بحسبها .. فالقوة فى إمارة الحرب ، ترجع إلى شجاعة القلب ، وإلى الخبرة بالحروب ، والمخادعة فيها ، فإن الحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتال من رمى وطعن وضرب وركوب ، وكر وفر ، ونحو ذلك كما قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » وقال ﷺ : « ارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا[1] ومن تعلم الرمى ثم نسيه فليس منا » وفى رواية : « فهى نعمة جحدها » (رواه مسلم) ..

ثم يمضى ابن تيمية ، قائلا فى بيان الوجوه التى تطلب فيها القوة :

« والقوة فى الحكم بين الناس ، ترجع إلى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام ..

« أما الأمانة فترجع إلى خشية الله ، وألا يشترى بآياته ثمنا قليلا ، وترك خشية الناس .. وهذه الخصال الثلاث ـ لتحقيق الأمانة ـ هى التى اتخذها الله تعالى على كل حاكم على الناس فى قوله تعالى : « ولا تخشوا

---

(١) المراد بالرمى هنا بالسهام ، على ما كان معهوداً فى عهد النبى .. ولقد نوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشأن الرمى ، وقدمه على ركوب الخيل ، لأنه أعمل فى النكاية بالعدو ، فكلما اشتد ساعد الرامى استطاع أن يبلغ بسهمه المدى الذى يصيب به العدو ، دون أن ينال منه العدو شيئاً ، إذا كان ساعد العدو أضعف من ساعده .. وقد نبه النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا السلاح من أسلحة الحرب ، وعده من أمضى الأسلحة .. وها نحن أولاء نشهد اليوم الصورة المتطورة للسهام فى القذائف المدفعية ، والصواريخ ونحوها ، حيث تتسابق الأمم فى الوصول إلى ما هو أبعد مدى ، مما ينال العدو .. وقد غفل المسلمون اليوم عن هذا ، فأصابهم العدو فى مقاتلهم بهذا السلاح المراصد لهم ! !

الناس واخشون ، ولاتشتروا بآياتى ثمناً قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[١] ، ولهذا قال النبى ﷺ : القضاة ثلاثة : قاضيان فى النار ، وقاض فى الجنة . . فرجل علم الحق وقضى بخلافه ، فهو فى النار ، ورجل قضى بالناس على جهل فهو فى النار[٢] ، ورجل علم الحق ، وقضى به ، فهو فى الجنة » . . والقاضى اسم لكل من قضى بين اثنين ، وحكم بينهما ، سواء كان خليفة أو سلطاناً ، أو نائباً أو والياً ، أو كان منصوباً ليقضى بالشرع ، أو نائباً له ، حتى من يحكم بين الصبيان فى الخطوط ، إذا تخايروا ، وهكذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ ، وهو ظاهر » ثم يقول ابن تيمية رضى الله عنه :

« واجتماع القوة والأمانة فى الناس قليل[٣] ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اللهم أشكو إليك جلد الفاجر — أى قوته — وعجز الثقة — أى الأمين » .

« فالواجب فى كل ولاية ، إقامة الأصلح لها بحسبها . . فإذا تعين رجلان — أى لاختبار واحد منهما — أحدهما أعظم أمانة ، والآخر أعظم قوة ، قدم أنفعهما لتلك الولاية ، وأقلهما ضررا فيها ، فيقدم فى إمارة الحروب الرجل القوى الشجاع ، وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز ، وإن كان أميناً ، كما سئل الإمام أحمد بن حنبل — عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو ، أحدهما قوى فاجر ، والآخر صالح ضعيف ،

---

(١) والثمن القليل : هو كل ما فى هذه الدنيا من مال ومتاع ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « قل متاع الدنيا قليل » .

(٢) لأنه — وهو جاهل — دخل فى أمر ليس هو أهلا له ، فهو بهذا خادع لنفسه ، غاش للناس ، مفسد لأمورهم .

(٣) أى فى أفراد الناس ، لا فى مجموعهم .

مع أيهما يُغزى ؟ فقال : أما الفاجر القوى ، فقوته للمسلمين ، وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف ، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين ، فيغزى مع القوى الفاجر . . وقد قال النبى – ﷺ – « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[1] » ! ! فإذا لم يكن فاجراً كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه فى الدين إذا لم يسد مسده ، ولهذا كان رسول الله ﷺ ، يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم ، وقال : « إن خالداً سيف سله الله على المشركين » مع أن خالداً أحياناً كان يعمل ما ينكره النبى ﷺ ، حتى إنه مرة رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل خالد » وذلك حين أرسله إلى جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة ، ولم يكن يجوز ذلك ، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة ، حتى وادام النبى ﷺ – أى دفع دية قتلاهم – وضمن أموالهم . . ومع هذا ، فمازال النبى – ﷺ – يقدمه فى إمارة الحرب ، لأنه كان أصلح فى هذا الباب من غيره ، وفعل خالد ما فعل بنوع تأويل ! ! وكان أبو ذر – رضى الله عنه – أصلح منه فى الأمانة والصدق ، ومع هذا ، فقد قال له النبى – ﷺ – : « إنى أراك ضعيفاً ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال يتيم » (رواه مسلم) . نهى أبا ذر عن الإمارة والولاية ، لأنه رآه ضعيفاً ، مع أنه قد روى : « ما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر » ... وهكذا أبو بكر – رضى الله عنه – مازال يستعمل خالداً فى حرب أهل الردة ، وفى فتوح العراق والشام ، وبدت منه هفوات ، كان له فيها تأويل ، وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى ، فلم يعزله من أجلها ، بل عتبه عليها ، لرجحان المصلحة على المفسدة فى بقائه ، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه . .

---

(١) يشير الرسول الكريم إلى مكان هذا الرجل فى الحرب ، لا فى السلم .

ثم يشرح ابن تيمية — رضى الله عنه — العلة فى هذا ، فيقول :

« لأن المتولى الكبير ، إذا كان خلقه يميل إلى اللين ، فينبغى أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة ، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة ، فينبغى أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين ، ليعتدل الأمر .. ولهذا كان أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - يؤثر استنابة خالد ، وكان عمر-رضى الله عنه - يؤثر عزل خالد ، واستنابة أبى عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنه - لأن خالداً كان شديداً كعمر بن الخطاب ، وأبا عبيدة كان ليناً كأبى بكر ، وكان الأصلح لكل منهما أن يولى من ولاه ، ليكون أمره معتدلا ، ويكون بذلك من خلفاء رسول الله - ﷺ - الذى هو معتدل ، حتى قال النبى ﷺ : « أنا نبى الرحمة ، نبى الملحمة » وقال : « أنا الضحوك القتال » وأمته وسط ؛ قال الله تعالى فيهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجداً ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا »[(١)] وقال تعالى : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ، ثم يعقب ابن تيمية -رضى الله عنه- على هذا بقوله :

« ولهذا لما تولى - الخلافة أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - صارا كاملين فى الولاية ، واعتدل منهما ما كان ينسبان فيه إلى أحد الطرفين فى حياة رسول الله ﷺ ، من لين أحدهما وشدة الآخر ، حتى قال فيهما - ﷺ « اقتدوا باللذين من بعده ، أبى بكر وعمر »[(٢)]

وإذن - مرة أخرى - فقد اختار الله للمسلمين ، إذ وفقهم إلى اختيار أبى بكر خليفة عليهم بعد رسول الله ﷺ ، وقد كان لعمر - رضى الله عنه - اليد القوية العاملة فى هذا الموقف ، فرضى الله تعالى عنه ، وأوسع له فى جناب رحمته ، ورضى الله عن أبى بكر ، وصحابة رسول الله ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

(١) الفتح الآية ٢٩ .

(٢) انظر السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، لابن تيمية - المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ . ص ٦ ومابعدها .

الباب الرابع
الخليفة .. والخلافة

الفصل الأول

أبو بكر والخليفة من بعده

كانت بيعة أبى بكر - كما كان يتردد على الأفواه بعدها وكما كان يقول عمر - كانت فلتة وقى الله شرها . . ولولا أن المسلمين كانوا يومها فى حال من الرهق الروحى ، والضعف النفسى ، بموت رسول الله ﷺ ، وماغشيهم من شرود عن النظر لما حولهم ، ولما تستقبلهم به الأيام بعد هذا الحدث الجلل - لولا هذا لما كان ذلك الأسلوب الذى بويع به أبو بكر ، بالذى يقيم له أمر الخلافة على ما استقامت عليه ، ولما سلم الأنصار للمهاجرين بأحقيتهم بالخلافة فى أول لقاء بهم ، وبكلمات قليلة من أبى بكر ألقى بها إليهم ، ولولا هذا أيضا لما سلم علىّ ، وقد كان فيما يرى ، وفيما يرى كثير من المهاجرين والأنصار - أنه الخليفة المنتظر بعدرسول الله ، والوارث له ، فى ظاهر الأمر ، وعلى ما كان مألوفاً فى الجاهلية ، من حصر الشرف فى بعض بيوت القبيلة ، يتوارثه السلف عن الخلف وخاصة فى بيوت قريش !!

نعم كانت بيعه أبى بكر فلتة وقى الله شرها . .

ولا شك أن أبا بكر - رضى الله عنه - لم تغب عنه هذه الحقيقة ، كما لم يغب عنه ما يكون من أمر المسلمين من بعده من خلاف وفرقة ، إذا هو لحق بربه من غير أن يقيم المسلمين على رأى يجتمعون عليه فى اختيار الخليفة قبل وفاته . .

ومما لا شك فيه كذلك أن خلافة أبى بكر كانت موضع حديث بين

المسلمين ، فأنه وإن كان المخالفون لأبى بكر قد سلموا بالأمر الواقع ، ورضوا به ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من مراجعة الأمر بينهم وبين أنفسهم ، ومن لقاء بعضهم بعضاً بالعتاب حيناً ، وباللوم حيناً . ثم بالفىء إلى الرضا فى غالب الأحيان . . وقليل هم أولئك الذين لم ينته أمرهم إلى الرضا بخلافة أبى بكر كبنى أمية . وخاصة بنى عبد شمس الذين تأخر إسلامهم ، فتأخر مكانهم فى المجتمع الإسلامى فى عهد النبوة ، وفى عهد الخلافة البكرية والعمرية . . وقد كانوا رءوساً فى الجاهلية . . فهم لهذا ينظرون إلى الإسلام نظرة الحدث الذى سلبهم هذا المكان الذى كان لهم . فالخلافة عندهم . والأمر كذلك ـ إذا لم تكن فيهم فإنهم على عداوة لها أياً كان هذا الخليفة .. فإذا رضوا رضوا على مضض ، كما أسلموا على كره . .

هذا ولم تكن هذه الأحاديث التى كانت تدور عاتبة أو لائمة ، يقصد بها مجرد العودة إلى الماضى الذى مضى ولن يعود ، بقدر ما كان يقصد بها الإعداد للمستقبل ، والتأهب للجولة القادمة فى اختيار الخليفة الذى يخلف أبا بكر . .

هذه أمور قد عرفها أبو بكر ، واستشعر صورها الخفية والظاهرة مدة أيام خلافته ولياليها . .

وإنه لمن الوفاء بحق الخلافة ، ومن أوجب واجبات الخليفة ، النصح للمسلمين وسد ذرائع الفتن التى تواجههم فى حياته أو بعد مماته . . وإنه لن تبرأ ذمة الخليفة من أداء الأمانة التى أؤتمن عليها حتى يطمئن إلى أنه سيترك الأمانة من بعده فى أيد أمينة ترعاها ، وتؤدى حق الله وحق المسلمين فيها . .

وقد نظر أبو بكر وأطال النظر ، وفكر وأكثر فى التفكير ، فيما

يمكن أن يكون منه من تدبير حتى يجنب المسلمين موقف الخلافة فيمن يختارونه من بعده خليفة عليهم . . وقد تنازعت أبا بكر هذه الخواطر : أيترك الأمر للمسلمين ، شورى بينهم ، يختارون الخليفة عليهم حسب ما يؤدى إليه رأيهم واجتهادهم . . فإن هم أحسنوا الاختيار فلأنفسهم ، وإن هم أساءوا فعليها ، وبذلك يخلى نفسه من مسئولية اختيار خليفة لا يدرى ماذا يفعل فى خلافته . . إنه إن يفعل هذا ، فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ ، وله فى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه علية ـ أسوة حسنة . إذ توفى رسول الله ـ ﷺ ، ولم يذكر للمسلمين اسم الخليفة من بعده ، وإن كان قد أشار ـ صلوت الله وسلامة عليه ـ إشارة ذات دلالة إلى أبى بكر حيث أقامه مقامه فى إمامة المسلمين فى الصلاة أيام مرضه ، إلى جانب إشارات ذات دلالة أيضاً أشار بها ـ صلوات الله وسلامه عليه ، إلى على كرم الله وجهه . . ثم ترك للمسلمين تأويل هذه الإشارات ، والأخذ بما يرجحون منها . . إن يفعل ذلك رسول الله ﷺ ، فقد فعل شيئاً مثله أو قريباً منه أبو بكر ، وذلك فيما كان من مكانة عمر عنده ، ومشاركته مشاركة فعالة ـ قولا وعملا ـ فى تصريف أمور المسلمين .. الأمر الذى يرى فيه المسلمون شواهد على أن عمر هو أولى الناس عنده بأن يكون الخليفة من بعده ، وقد رأوا منزلة عمر عنده ، والإستعانة به فى كل أمر ينوب المسلمين ؟

أفيترك المسلمين إذن ليأخذوا من مكانة عمر عنده دلالة على أنه الخليفة الذى يرشحه لهم ، ويدعوهم إلى بيعته من بعده ؟ ربما كان هذا رأياً وقف عنده أبو بكر فى مرحلة من مراحل تفكيره ، بل وربما كاد يقف عند هذا الرأى ، لا يتجاوزه .. ولكن بين الحين والحين كان يقع على أنباء لا تبشر بوحدة الرأى بين المسلمين فى اختيار من يخلفه ..

وبين الحين والحين كذلك ، كان يطلع عليه من ذكريات بيعته والخلاف الذى وقع قبلها وبعدها ، ما يبلبل خاطره ، ويزعج نفسه ..

ومن جهة أخرى ، فإنه إن يكن عمر عند أبى بكر ، هو أولى المسلمين بالخلافة من بعده ، فذلك عن رأى شخصى له ، قد يشاركه فيه كثير من المسلمين . . وليس يغنى عن أبى بكر فى هـذا المقام أنه وضع عمر تحت اختبار دقيق مدة خلافته ، وأنه وقع من نفسه بعد هـذا الاختبار موقع القبول والرضا ، فإن مسئولية الخلافة مسئولية جسيمة ، فكيف يستقل أبو بكر بدعوة إنسان إلى حملها ، أو كيف يحمل هو الناس على قبول إنسان بعينه ؟ إن ذلك يحمله تبعة ما قد يقع من هذا الخليفة من ظلم أو انحراف . . وماذا عليه لو أعفى نفسه من هذا كله ، وترك الأمر للمسلمين يقضون فيه بما يشاءون ؟ ..

كانت هذه الخواطر تتردد فى صدر أبى بكر ، ولكنه كان يمضى بها ، ويعيش معها ، دون أن يقضى برأى أو يقطع بحكم ، منتظراً ما تأتى به الأيام ، وما تلده من أحداث . . فقد يجىء إليه صحابة رسول الله ﷺ طالبين النظر فى أمر الخلافة من بعده ، فتهيأ له الفرصة التى يقول فيها رأيه كواحد منهم ، أو أن يبدو من عمر ، أو ينكشف له من حاله ما يجعله يغير رأيه فيه ، أو يزيده استمساكا به .. إلى غير ذلك مما يطير على جناحى الليل والنهار ، بما لم يقع فى الحسبان من غير وأحداث .

.. وتمضى الأيام بأبى بكر رضى الله عنه ، وتنتهى حروب الردة ، وتعود الجزيرة العربية كلها بيتاً للإسلام ، ووطناً أول للمسلمين ، وتنطلق الجيوش العربية صوب دولتى فارس والروم .. وتجىء بشائر النصر من

كل لواء عقده أبو بكر ووجه به إلى هاتين الدولتين اللتين كانتا تقتسمان العالم كله فيما بينهما ..

وهنا يشعر أبو بكر أنه قد أدى الأمانة ، وأن له أن يستبشر برضا الله تعالى ورسوله عنه ، وأنه فى حال يحب فيها لقاء الله ، وقد أحب الله تعالى لقاءه ، إذ أحب هو لقاء الله كما فى الحديث الشريف : «ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» .

ويمرض أبو بكر مرض الموت ، وتجيء الساعة التى كان ينتظرها ليقضى فيها بشأن الخلافة ، قضاء لا يشوبه - وهو فى تلك الحال - شىء من أمور الدنيا ، فهو قضاء خالص لله ، وفى سبيل الله .. ولا نحسب انتظار أبى بكر فى اختيار الخليفة من بعده إلى هذه اللحظة الحاسمة ، التى ينخلع فيها الإنسان عن الدنيا ، والتى كما يقول أبى بكر - يؤمن فيها الكافر ، وينزع العاصى - لا نحسب انتظاره إلى تلك اللحظة ، إلا ليخرج من سلطان أية عاطفة تعطفه على أحد فيما يحضره من أمر سياتى الله به عما قليل ..

ويقع اختيار أبى بكر على عمر ، ليكون خليفة على المسلمين من بعده ! .

.. ولو اطلع المسلمون على الغيب لحمدوا لأبى بكر هذه اليد البيضاء التى أولاهم إياها بهذا الاختيار الموفق ، ولقبلوا يدى أبى بكر ظهراً وبطناً ، ولعدوا هذا فتحا من فتوحاته الموفقة ، ولواجهوه وهو حى بهذه الرحمات والدعوات التى يبعثون بها إليه فى عالمه العلوى منذ فارق هذه الدنيا إلى اليوم ، وإلى ما بعد هذا اليوم ، إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين ، بعد أن انكشف لهم من عمر هـذا الإنسان الذى قل أن يجود عليهم الزمن بمثله ..

نقول : لو أطلع المسلمون على الغيب - وأبو بكر على فراش الموت يكتب وثيقة وصيته بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب - لما كان لأحد منهم أن يواجهه بكلمة لوم أو عتاب ، مما واجهوه به وهو على فراش الموت ، يدعوهم إلى البيعة لعمر بالخلافة من بعده ! !

ولكن أنى للناس أن يعلموا الغيب ، ويروا ماوراء ستره التي لا يعلمها إلا علام الغيوب ! وكادت تكون فتنة كتلك الفتنة التي أطلت برأسها بعد وفاة الرسول ، واختلاف المسلمين فيمن يخلف رسول الله ﷺ عليهم .

وصحيح أن خلافة أبي بكر بدأت ، وقد انعقد حولها كثير من الدخان والضباب ، ولكنها لم تلبث - بسيرة أبي بكر الرشيدة العادلة القائمة على طريق النبوة - أن أصبحت موضع رضا المسلمين جميعاً .. ولو أنه كان من الممكن أن يتجدد شباب أبي بكر ، ويدعى المسلمون إلى تجديد البيعة له ما تخلف واحد منهم عن بيعته !!

وصحيح أن اختيار المسلمين لأبي بكر بالخلافة — بعد أن سار فيهم سيرته تلك — قد أعطى إشارة ظاهرة بأن هذا الاختيار كان بوحي من رسول الله ﷺ حين أقامه مقامه في إمامة المسلمين في الصلاة وأن ذلك كان معجزة من معجزات النبي صلوات الله وسلامه عليه ..

وصحيح - بعد أن اختبر أبو بكر هذا الاختبار العظيم - أنه أولى المسلمين بأن يكون ثاني اثنين ، أولهما رسول الله ، وثانيهما أبو بكر .. الذي كانت خلافته امتداداً طبيعياً لحياة النبي ، ومقامه في المسلمين .

صحيح كل هذا . وقد كان من لوازم صحته أن يطمئن المسلمون إلى اختيار أبي بكر ، لعمر من بعده ، وتسليمهم بما اختار . .

. ولكنها النفوس البشرية ، تختلف فى نظرتها إلى الأمور ، وفى توقعها لمواردها وهى تنظر فى وجوه مصادرها ..

ولهذا كان من بعض صحابة رسول الله اعتراض على أبى بكر فى استخلاف عمر.. ولكن هذا الاعتراض قد سوى فى حينه ، وبايع المسلمون عمر بيعة عامة جامعة لم يتخلف عنها وجه من وجوه صحابة رسول الله . . وعلى رأسهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه . . ثم كان من سيرة عمر ، ما كان من سيرة أبى بكر ، إذ كان كلما مضت الأيام به ازدادت فى القلوب محبته ، وعظمت فى النفوس مكانته ، فما أن تقع عليه عين ، أو تسمع بذكره أذن إلا كان الحمد والثناء عليه ، وكانت الرحمة والرضوان لأبى بكر الذى اختاره خليفة على المسلمين من بعده . .

الفصل الثانى

وثيقة البيعة . . وما دار حولها

عن على - كرم الله وجهه - أنه قال : المتفرسون فى الناس أربعة ، امرأتان ورجلان ، فالمرأة الأولى صفيراء بنت شعيب لما تفرست فى موسى فقالت : «ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين» والرجل الأول الملك العزيز ، تفرس فى يوسف - وكانوا فيه من الزاهدين ، فقال لامرأته : « أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » والمرأة الثانية «خديجة» تفرست فى النبى ﷺ النبوة فقالت لعمها : قد شممت روحى روح محمد أنه نبى هذه الأمة مزوجنى منه . . والرجل الثانى أبو بكر الصديق ، لما حضرته الوفاة قال : إنى تفرست أن أجعل الأمر بعدى فى عمر ابن الخطاب ... »[1]

وروى ابن قتيبة الدينورى ، فى كتابه الإمامة والسياسة ، أن أبا بكر رضى الله عنه ، حين حضرته الوفاة ، دعا عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، فقال له : اكتب عهدى ، فكتب عثمان ، وأملى عليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . . هذا ما عهد به أبو بكر ابن قحافة ، آخر عهده فى الدنيا ، نازحاً عنها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، أنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن تروه عدل فيكم ، فذلك ظنى به ، ورجائى فيه ، وإن بدل وغير ، فالخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ثم ختم الكتاب ، ودفعه . . ودخل عليه المهاجرون

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد ، الجزء السادس عشر .

والأنصار حين بلغهم أنه استخلف عمر ، فقالوا : نراك استخلفت علينا عمر وقد عرفته ، وعلمت بوائقه[1] ، وأنت بين أظهرنا، فكيف إذا وليت عنا وأنت لاق الله عز وجل ، فسألك ، فما أنت قائل ؟ قال أبو بكر : « لئن سألني الله لأقولن استخلفت عليهم خيرهم فى نفسى ! ! . ثم أمر الناس أن تجتمع له ، فاجتمعوا ، فقال : أيها الناس قد حضرنى من قضاء الله ماترون ، وإنه لابد لكم من رجل يلى أمركم ، ويصلى بكم . ويقاتل عدوكم ، فيأمركم (أى يكون أميراً عليكم) فإن شئتم اجتمعتم فأتمرتم ، ثم وليتم عليكم من أردتم ، وإن شئتم اجتهدت لكم رأيى ، ووالله الذى لا إله إلا هو لا آلوكم فى نفسى خيراً . . ثم بكى ، وبكى الناس . . وقالوا : ياخليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا ، قال سأجتهد لكم رأيى ، واختار خيركم لكم إن شاء الله . . فخرجوا من عنده ، ثم أرسل إلى عمر ، فقال : ياعمر أحبك محب ، وأبغضك مبغض ، وقديماً يحب الشر ، ويبغض الخير ، فقال عمر : لا حاجة لى بها ، فقال أبو بكر ، لكن بها إليك حاجة ، والله ما حبوتك بها ، ولكن حبوتها بك . . ثم قال خذ هذا الكتاب ، واخرج به إلى الناس ، وأخبرهم أنه عهدى ، وسلهم عن سمعهم وطاعتهم[2] » فخرج عمر بالكتاب ، فقالوا سمعاً وطاعة .. فقال له رجل : ما فى الكتاب يا أبا حفص ؟ قال : لا أدرى ، ولكنى أول من سمع وأطاع ». فقال الرجل : لكنى والله أدرى ما فيه ! ! أمرته عام أول ، وأمرك هذا العام » ومن هذا الخبر يتبين أن أبا بكر رضى الله عنه كان إلى آخر يوم من حياته ، متخوفاً من أن يحمل تبعة اختيار الخليفة من بعده ، وأنه حتى

---

(١) البوائق : جمع بائقة : وهى الداهية والشر المستطير .

(٢) أى يسألهم هل هم سامعون ومطيعون لما فى هذا العهد ، الذى عهد به أبو بكر دون أن يعلموا ما فيه .

بعد أن كتب العهد باختيار عمر ، لم يعلنه فى الناس إعلاناً صريحاً ، بل استشعر به الناس استشعاراً ، فلما تكلموا إليه فى شأن عمر وما ينويه من استخلافه ، رد الأمر إليهم ، وجعل لهم الخيار بين أمرين : إما أن يختاروا هم الذى يولونه أميراً عليهم وبين أن يفوضوا إليه الأمر فى اختيار الأمير عليهم ، فلما اختاروا الأمر الثانى . أظهر العهد الذى كان قد كتبه ، ودعا الناس إلى السمع والطاعة لما فى هذا العهد الذى كتبه بتفويض منهم ، فكان منهم السمع والطاعة ، وقد صح ما توقعوه من أنه قد اختار عمر بن الخطاب خليفة من بعده ! !

وعن « محمد بن سعد » فى طبقاته ، أن جماعة من الصحابة دخلوا على أبى بكر حين عزم على استخلاف عمر ، فقال له قائلون منهم : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته ؟ فقال أبو بكر : أجلسونى .. أبالله تخوفونى ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم !! أقول اللهم إنى استخلفت عليهم خير أهلك . . أبلغ عنى ما قلت لك من وراءك . . ثم اضجع ! ! » .

وحق لأبى بكر أن يضجع ويستريح بعد أن ألقى هذا العبء عن كاهله إلى عمر ! !

وهكذا سوى أبو بكر حسابه مع الذين عارضوه ، أو اعترضوا عليه فى وصيته باختيار عمر خليفة على المسلمين . . قرت عينه ، وسكنت نفسه ، واستقبل الموت راضياً مطمئناً . وسرعان ما أسلم روحه ، وخرج من هذه الدنيا ، ليلقى ربه ، وليسعد ويهنأ بصحبة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه فى الرفيق الأعلى . . إنه صاحبه فى الدنيا وصاحبه ـ إن شاء الله ـ فى الآخرة . .

هذا ، وقد طعن الشيعة فيما طعنوا به على أبى بكر ، أنه اختار عمر للخلافة على المسلمين . احتجوا لهذا « بأن رسول الله ﷺ لم يوله عملا من أعماله ألبتة ، إلا ما ولاه يوم خيبر ، فرجع منهزماً ، وولاه الصدقة ، فلما شكاه العباس عزله » ! وقد تولى تفنيد هذا ، و الرد عليه . الفقيه العالم المعتزلى : « عبد الجبار » صاحب كتاب المغنى ، فقال :

« إن تركه عليه الصلاة والسلام أن يوليه — أى عمر — لايدل على أنه لا يصلح لذلك ، وتوليته إياه لايدل على صلاحيته للإمامة ، إن المصطفى ﷺ ولى خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، ولم يدل ذلك على صلاحيتهما للإمامة ، وكذلك تركه أن يولى لا يدل على أنه غير صالح ، بل المعتبر بالصفات التى تصلح للإمامة ، فإذا كملت صلح لذلك أولى من قبل أو لم يول . . وقد ثبت أن النبى ﷺ ترك أن يولى أمير المؤمنين — علياً — عليه السلام أموراً كثيرة ولم يوجب أنه لا يصلح لها . وثبت أن أمير المؤمنين — علياً — لم يول الحسين ابنه ولم يمنع ذلك من أن يصلح للإمامة . . . » .

وقد اعترض الشريف المرتضى — رحمه الله — على هذا الذى رد به « عبد الجبار » فقال : « قد علمنا بالعادة أن من ترشح لكبار الأمور لابد أن يدرج إليها بصغارها ، لأن من يريد بعض الملوك تأهيله للأمر لابد من أن ينبه عليه بكل قول وفعل يدل على ترشيحه لهذه المنزلة ، ويستكفيه من أموره ولاياته ما يعلم عنده أو يغلب على ظنه صلاحه لما يريده له . . وأن من يرى الملك مع حضوره وامتداد الزمان وتطاوله ، لا يستكفيه شيئاً من الولايات ، ومتى ولاه عزله ، وإنما يولى غيره ، ويستكفى سواه — لابد أن يغلب فى الظن أنه ليس من أهل الولاية ، وإن جوزنا أنه لم يوله لأسباب كثيرة . سوى أنه لا يصلح للولاية . . . » .

«فأما خالد وعمرو فإنما لم يصلحا للإمامة ، لفقد شروط الإمامة فيهما وإن كانا يصلحان لما ولياه من الإمارة . . .»

« فأما أمير المؤمنين « على » عليه السلام ، وإن لم يتول جميع أمور النبي ﷺ في حياته فقد تولى أكثرها وأعظمها ، وخلفه في المدينة ، وكان الأمير على الجيش المبعوث لخيبر ، وجرى الفتح على يديه ، بعد انهزام من انهزم منها ، وكان المؤدي عنه سورة براءة بعد عزل من عزل عنها[(١)] وارتجاعها منه ، إلى غير ذلك من عظيم الولايات والمقامات ، بما يطول شرحه ، ولو لم يكن إلا أنه لم يول عليه والياً قط لكفى ...

ثم يقول المرتضى :

« فأما اعتراض ـ أى «عبد الجبار» صاحب المغنى ـ بأن أمير المؤمنين عليه السلام لم يول الحسين ـ أى لم يوله عملا ـ فبعيد عن الصواب ، لأن أيام أمير المؤمنين عليه السلام لم تطل فيتمكن فيها من مراداته (جمع مراد وهو ما يريده الإنسان) وكانت على قصرها منقسمة بين قتال الأعداء ، لأنه عليه السلام لما بويع لم يلبث أن خرج عليه أهل البصرة فاحتاج إلى قتالهم ، ثم انكفأ من قتالهم إلى قتال أهل الشام ، وتعقب ذلك قتال أهل النهروان ـ أى الخوارج ـ ولم تستقر به الدار ، ولا امتد به الزمان . وهذا بخلاف أيام النبي صلى الله عليه وآله ، التي تطاولت وامتدت » ...

ويعقب « عبد الجبار » على الشريف المرتضي بقوله :

---

(١) لم يعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، فقد كان الأمير على الحج ولكن بعد أن مضى أبو بكر في طريقه إلى مكة .. نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات الأولى من سورة التوبة ، وفيها البراءة من المشركين ، وقطع ما بينهم وبين النبي من عهود . فقال صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يؤدي عني هذا إلا واحد من أهل بيتي » ...

« أما ما ادعاه ـ أى المرتضى ـ من عادة الملوك ، فالأمر بخلافه ، فإنا قد وقفنا على سير الأكاسرة وملوك الروم وغيرهم ، فما سمعنا أن أحداً منهم رشح ولده للملك بعده ، باستعماله على طرف من الأطراف ، ولا جيش من الجيوش ، وإنما كانوا يثقفونهم بالآداب والفروسية فى مقار ملكهم لاغير والحال فى ملوك الإسلام كذلك ، فقد سمعنا بالدولة الأموية ، ورأينا الدولة العباسية ، فلم نعرف الدولة التى ادعاها المرتضى ، وإنما قد يقع فى الأقل النادر شىء مما أشار إليه ، والأغلب الأكثر ، خلاف ذلك . . على أن أصحابنا ـ أى الجماعة ـ لايقولون إن عمر كان مرشحاً للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ليقال لهم : فلو كان قد رشحه للخلافة بعده لاستكفاه كثيراً من أموره ، وإنما عمر مرشح عندهم — أى عند الجماعة — فى أيام أبى بكر للخلافة بعد أبى بكر ، وقد كان أبو بكر استعمله على القضاء مدة خلافته ، بل كان هو الخليفة فى المعنى ، لأنه فوض إليه أكثر التدبير »[1] .

هذا وقد كان عمر ـ رضى الله عنه ـ أول من لقب بأمير المؤمنين ، بعد رسول الله ﷺ أما أبو بكر ، رضى الله عنه ، فلقبه خليفة رسول الله ، إذ كان أول من قام على المسلمين بعد الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وخلفه فى القيام عليهم .. أما اللقب بأمير المؤمنين الذى لقب به عمر رضى الله عنه ـ فقد اختلف فى أول تسميته به .

فعن محمد بن سعد ، فى طبقاته قال : « لما مات أبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ وكان يدعى خليفة رسول الله ، قيل لعمر : خليفة خليفة رسول الله فقال المسلمون : من جاء بعد عمر قيل له خليفة خليفة خليفة رسول الله ، فقيل اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة ، فيدعى به من بعده من الخلفاء ، فقال بعض

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ـ الجزء السابع عشر ص ١٦٨ ومابعدها .

أصحاب رسول الله ﷺ : نحن المؤمنون ، وعمر أميرنا ، فدعى عمر أميرالمؤمنين ، فهو أول من سمى بذلك » !

وروى المغيرة بن شعبة أنه نادى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لأول خلافته فقال : يا خليفة الله ، فقال عمر ذاك نبى الله داود [1] فقال : يا خليفة رسول الله ، فقال : ذاك صاحبكم المفقود [2] فقال : يا خليفة خليفة رسول الله ، فقال : ذاك أمر يطول ! فقال يا عمر : ! قال : لا تبخسنى مقامى شرفه : أنتم المؤمنون وأنا أميركم ! وهكذا سمى عمر أمير المؤمنين وصار ذلك لقباً لكل خليفة من بعده » .

* * *

(١) يشير عمر بهذا إلى قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله » (سورة ص الآية ٢٦) .

(٢) يعنى أبى بكر .

الفصل الثالث

عمر .. فى منصب الخلافة

المسئولية الجسيمة :

ولى عمر الخلافة ، فكان كأنما حمل الجبال كلها على ظهره !! ذلك أن الذين يقومون على أمر دولة من الدول ، أو جماعة من الجماعات ، هم بين رجلين : رجل يرى أن الدنيا فتحت أبوابها له ، وأن ما صار إليه من سلطان هو قوة سحرية فى يده ، ينال بها كل ما يشاء من طاعة الناس له، وامتلاك كل ما بأيديهم ، فيسخر الناس ، وما فى أيدى الناس لاسترضاء شهواته ونزواته ، فيركب بذلك كل صعب وذلول للتمكين لسلطانه ، ولو على أشلاء الناس ، ورجل رأى أنه أب كبير لهذه الدولة ، أو تلك الجماعة فهو مسئول عن كل فرد فيها ، لا يسوغ له طعام ولا يغمض له جفن ، وفى أفراد أبنائه جائع ، ولا يقر له مضجع ، وفى أبناء أسرته من يشكو أو يتألم وهيهات أن يكون فى هذا الجمع الكبير من لا يبيت جائعاً ، وهيهات فى هذه الدولة من لا يشكو ألمًا ظاهراً أو باطناً . . وأمر كهذا ، حين يحمله إنسان له هذه العواطف فى صدره ، هو أثقل مما تحمله الجبال . .

وعمر — رضى الله عنه — إذ يتولى أمر الأمة الإسلامية ، ويقوم على الخلافة عن خليفة رسول الله عليها ، يرى أنه راع لهذه الرعية الكبيرة الممتدة الأطراف فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأنه مسئول عن هذه الرعية ، كما يقول الرسول الكريم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير على الناس راع وهو مسئول عن رعيته . . والرجل راع

فى أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته »[١].

وإذا كان كل إنسان — فى شريعة الإسلام — راع وهو مسئول بين يدى الله عن رعيته ، وأن مما يرعاه الإنسان أول ما يرعاه ، هو نفسه وحراستها من وساوس الشيطان ، وأهواء النفس ، فإن القائم على أمر الأمة الإسلامية ، مسئول — مع هذا — عن كل ما يسأل عنه الناس جميعاً .. فهو مسئول عن نفسه ، مسئول عن ولده وأهل بيته ، مسئول عن أعوانه وحاشيته ، مسئول عن ولاته الذين تحت سلطانه ، مسئول عن الرعية كلها .. مسئول عن إقامة موازين العدل بين الناس جميعاً ، مسئول عن إقامة حدود الله المتعدين على حدود الله ، مسئول عن حماية دار الإسلام من أعداء الإسلام ، مسئول عن سياسة الدولة فى الحرب والسلم، فى الرخاء والشدة !

*

ذلك ما استشعره عمر ، وهو يتولى الخلافة بعد أبى بكر ، وجيوش المسلمين ملتحمة مع دولتى الروم فى الشام ، والفرس فى العراق ، وهما الدولتان اللتان كانتا تحكمان معظم العالم فى هذا الوقت !!

وقد بايع المسلمون عمر بالخلافة ، بين راض ومتكره ، ومطمئن إليه ومتخوف منه ، وجميعهم ينظرون إلى ما يكون من عمر فى يومه الجديد من أيام خلافته ، وهل يحمل الناس على سياسة العمرية المتوعرة التى عرفوها فيه ، من شدة وغلظة ، أم يحمله الناس على ما ألفوا من رحمة رسول الله ورأفته ، ومن لين أبى بكر ورقته !

---

(١) صحيح البخارى .

إنه لابد من صراع بين المسلمين ، وبين عمر ، حتى يغلبهم عمر فيحملهم على طبعه ، أو يغلبوه حتى يلين لين أبى بكر ، ويرق رقته ! هذا ما كان ينتظر المؤمنون تأويله فى الأيام الأولى لخلافة عمر !

يقول ابن قتيبة : « وهاب الناس عمر هيبة عظيمة ، حتى تركوا المجالس فى الأفنية ، وقالو انتظر ما رأى عمر ! ! »[١] إلى هذا الحد كانت نظرة الناس إلى عمر ، حتى لقد حسبوا أن عمر سيغير بهم أوضاع الحياة كلها ، ويحملهم على سياسة الصرامة والشدة ، التى عرفوه بها فى حياته مع رسول الله ﷺ ، ومع أبى بكر رضى الله عنه . . وفى الحق أن للناس عذرهم فى هذا ، فإن لعمر بدوات تفجأ الناس ، وتجىء على غير ما ألفوا وما اعتادوا . . وها هو ذا عمر رضى الله عنه يبدأ أول عمل فى خلافته ، فيدهش له الناس ويعجبون ، ويتسألون : ما هذا ؟ ولم هذا ، وكيف يحدث هذا ؟ ويجدون من عمر جوابا حاضراً ، يزيدهم عجباً ودهشاً ! !

صعد عمر المنبر لأول مرة بعد الخلافة ، فجلس حيث كان أبو بكر يضع قدميه ، وهو أول درجة على المنبر ، ووضع قدميه على الأرض ، وقال الناس له : لو جلست كما كان أبو بكر يجلس ؟ فقال : حسبى أن يكون مجلسى حيث كانت قدما أبى بكر ! ! وحار الناس فى تأويل هذا الموقف[٢] ! !

عمر يجلس هذا المجلس ، وينزل بنفسه هذا المنزل ، وهو الصارم العنيف ، وقد لبس ثوب الخلافة ؟ فأين القوة وأين الصرامة ؟ وهل قوة وصرامة بغير تعاظم واستعلاء ؟

---

(١) الامامة والسياسة « لابن قتيبة » .

(٢) لقد جلس أبو بكر فى أول خلافته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت قدما رسول الله . . وها هو ذا عمر ، ينزل درجة اخرى ، فيجلس حيث كانت قدما أبى بكر « فكيف يكون مجلس الخليفة بعد عمر ! وقد وضع قدميه على الأرض .

وكلا — أيها الناس — إن فى عمر صرامة ، وفى عمر شدة ، ولكنها ليست لحساب عمر ، وإنما هى خاصة لله ، ولحساب الحق خاصة ، وسترون أن عمر سوف يسوى حسابه على هذا الوجه لا يحيد عنه أبداً ، وأن ما سيكون منه من شدة وصرامة ، فلن يكون إلا لله سبحانه وتعالى لا لعمر ، وفى سبيل الله ، ولن يكون شىء منه أبداً لجانب عمر ، أو أهل عمر !!

وعمر الألمعى ، الفطن ، لا يغيب عنه هذا الإحساس الذى لبس الناس منه حين ولى الخلافة . . إنه على يقين من أنهم يحذرونه ، ويتوقعون شيئاً من جهته ، وإنه ليرى من نفسه ما يرون هم منه شدة وغلظة !! وها هوذا يجمع الناس إليه، ويتحدث إليهم بما فى نفوسهم منه ، ويكشف لهم عن منهجه معهم وسياسته فيهم . .

لقد صيّح فى الناس : « الصلاة جامعة » !! فجاءوا إليه ، ثم جلس على المنبر حيث كان يضع أبو بكر قدميه ، فلما تكامل جمعهم ، قام قائماً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « بلغنى أن الناس ، قد هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا . ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف إذا صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . . فقد كنت مع رسول الله ﷺ عبده وخادمه وكان ممن لا يبلغ صفته من اللين والرحمة ، وقد سماه الله بذلك ، ووهب له اسمين من أسمائه : (رءوف رحيم) فكنت سيفاً مسلولا ، حتى يغمدنى أو يدعنى ، فأمضى ، حتى قبض رسول الله ، وهو عنى راض ، والحمد لله . . وأنا أسعد بذلك . . ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى ، فأمضى . . فلم أزل معه كذلك حتى قبض ، وهو عنى راض ، وأنا أسعد بذلك !

ويمضى عمر ، فيقول :

« ثم إنى وليت أموركم أيها الناس - واعلموا أن هذه الشدة قد أضعفت - أى زادت أضعافاً - ولكنها إنما تكون على الظلم والتعدى على المسلمين . . أما أهل السلام والدين والفضل ، فأنا ألين منهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحدا يظلم أحداً ، أو يتعدى عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر ، حتى يذعن بالحق .

« ولكم على - أيها الناس - خصال أذكرها لكم ، فخذونى بها : لكم على ألا أخبأ شيئاً من خراجكم مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه . . ولكم على إذا وقع عندى ألا يخرج إلا بحقه ، ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ، وإذا رغبتم فى البعوث[١] ، فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم » . هذا هو دستور عمر ، وتلك سياسته فى الحكم . . لقد كشف عمر للناس عما فى أنفسهم له ، وكشف لهم عما فى نفسه لهم ... عرفهم وعرفوه ، فلم يعد الأمر بعد هذا فى مجال الحدس والظن . . إنه هو عمر فى شدته وصرامته ، ولكنها شدة وصرامة على الظالمين والضلال ، تتحول فى الوقت نفسه إلى حدب على المتقين ، الضعفاء . . إنه مؤدب العصاة وأبو العيال .. وتلك هى كلمات عمر ، القليلة فى أعدادها ، العظيمة فى مضمونها ، ومحتواها . .

ولكن ما أكثر الكلمات البراقة ، والوعود المعسولة ، وما أخف حملها على اللسان ، وأيسر صياغتها ونشرها فى الصحف ، ولكن ما أعظم ثقلها ، وأفدح مئونتها على من يلتزمون الوفاء بها ، ويؤدون الأمانة لها !!

---

(٢) أى فى السير إلى الجهاد ، عن رغبة وطواعية ، جهادا فى سبيل الله وابتغاء مرضاته.

وعمر - رضى الله عنه - يرى الكلمة عقداً بينه وبين الله ، وميثاقاً بينه وبين الناس ، وأن التحلل من هذا العقد ، أو النقض لهذا الميثاق ، هو خيانة لله وخيانة لعباد الله . . والله تعالى يقول : « يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون» (الأنفال : ٢٧)..

مؤدب العصاة وأبو العيال :

ذلك هو مفتاح شخصية عمر ، وتلك هى سياسته فى خلافته ، التى تعد آية من آيات الإسلام ، تتمثل فيها روعة هذا الدين ، وعظمته ، وما يبث فى النفوس المهيأة لاستقباله من نور ربانى لا يضل معه السالك ، المتجه إلى غايات الحق ، والخير ..

فعمر - رضى الله عنه - هو بحق مؤدب العصاة ، لم تأخذه بأحد رأفة فى دين الله ، كما لم تأخذه هوادة مع نفسه ، أو مع الناس .. فمن لم يؤدب نفسه - وهى أعتى العصاة - لم يكن له سبيل إلى تأديب العصاة من الناس . ولقد برزت فى عهد عمر ظاهرة جديدة ، هى « المال » الذى فاض على أيدى الناس ، وجاء فى صورة من الكثرة ، لم تكن تقع لهم فى مجال المنى ، ومسبح الأحلام !

كانت حياة العرب ، قبل الفتوحات الإسلامية ، مطبوعة بطابع القلة والحرمان فى مطالب الحياة ، لم تسمح لهم طبيعة الصحراء ، إلا بالقليل الذى يمسك الرمق أو يكاد . . فالعربى يتبلغ بالتمرة أو التمرتين ليومه ، ويجتزىء يومه بشربة من لبن ، أو مزقة من مرق ، وقل أن يقع فى يد أحدهم درهم أو دينار .. اللهم إلا فى نفر قليل من تجار مكة والمدينة !

فلما امتد ظل الإسلام ، وكثرت الفتوحات فى عهد عمر فشملت العراق والشام ، ومصر - تدفق المال والمتاع من كل شيء على الجزيرة العربية ، وعرف

الناس المال ، وما يتبع المال من متعة ورفه .. وكان عهد عمر هو مطلع هذه السيول المتدفقة من كل مكان ، بخيرات مصر ، والشام ، والعراق واليمن ، نصب بين يد عمر ، فيحولها إلى من حوله من حضر ومدر ، ويضعها حيث أمر الله أن توضع !!

والمال فتنة طاغية ، قلّ أن يسلم الناس من هذه الفتنة ، إلا من اعتصم بدين الله ، واستمسك بشريعته ، وقهر نفسه أن تتطلع إلى هذا المال وتفتتن به .

استقبل عمر هذه الظاهرة لأول خلافته ، واستقبلها المسلمون معه لأول عهدهم بها ، فكان لابد أن يظهر لهذه الظاهرة أثرها فى تفكير الناس ، وفى إحساسهم بالحياة ، وما وراء الحياة .. ونذكر هنا حادثة طريفة ، تدل على إحساس العربى ، بالمال ـ فى هذا الوقت واستكثاره للقليل منه الذى لا يعد شيئاً عند غير العربى فيمن حوله من الأمم !

روى أبو عبيدة صاحب كتاب « الأموال » أن رجلا من بنى « شيبان » أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله .. اكتب لى بابنة « بقيلة »[1] عظيم الحيرة ، فقال رسول الله ﷺ : يا فلان : أترجو أن يفتحها الله لنا ؟ قال : والذى بعثك بالحق ليفتحنها الله لنا . فكتب له النبى ﷺ ، بها فى أديم أحمر .. فلما غزاهم خالد بن الوليد ، بعد وفاة رسول الله ، وخرج معه ذلك الشيبانى ، وصالح خالد أهل الحيرة ، ولم يقاتلوا ، فجاء الشيبانى بكتاب رسول الله ﷺ إلى خالد .. فلما أخذه خالد ، قبله ، ثم قال : دونكها ـ أى ابنة « بقيلة » ـ فجاءه عظماء أهل الحيرة ، وقالوا يافلان : إنك كنت رأيت فلانة وهى شابة ، وإنها قد

(١) يريد أن يجعلها له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفىء الذى يناله المسلمون إذا فتحت الحيرة عنوة ، ولم تفتح صلحاً .. وقد فتحت الحيرة صلحاً فجعل خالد ابنته بقيلة من شروط الصلح .

كبرت ، وذهب عامة محاسنها ، فبعناها ـ أى بعها لنا ـ فقال : والله لا أبيعكموها إلا بحكمى ـ أى بالمال الذى أحكم به ـ تخافوا أن يحكم عليهم بما لا يطيقون ، فقالوا سلنا ما شئت ، فقال : لا والله لا أبيعكموها إلا بحكمى ، فلما أبى ، قال بعضهم لبعض : أعطوه ما احتكم .. فقالوا : فاحكم ، فقال : إنى أسألكم ألف درهم ! ! فقالوا : يافلان ـ يريدون أن يمكروا به ـ وأين تقع أموالنا من ألف درهم ؟ قال : فلا ، والله لا أنقصها عن ذلك درهما !! فأعطوه ألف درهم ، وانطلقوا بصاحبتهم ! !

فلما رجع الشيبانى إلى قومه ، قالوا له : ماصنعت ؟ قال : بعتها بحكمى قالوا : أحسنت ! ! فبم احتكمت ؟ قال : ألف درهم !! فأقبلوا يسبونه ويلومونه أن باعها لهم بهذا الثمن البخس .. فلما أكثروا عليه القول ، قال : تلومونى ، فو الله ما كنت أظن أن عدداً يذكر أكثر من ألف درهم !! »

هذا هو مبلغ أمانى العربى . وغاية آماله فيما يتمنى أو يأمل من مال، ولو فى عالم المنى والأحلام .. فكيف بهم وقد تدفقت إليهم هذه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ؟

ولقد رأينا فى أول خطبة خطبها عمر ، أنه عاهد الناس بقوله : « ولكم على إذا وقع هذا المال فى يدى ألا يخرج إلا بحقه » ..

وقد وفى عمر بهذا العهد أتم وفاء وأروعه .. فما خرج درهم من هذا المال الوفير من يده إلا فى حقه ، ولا آثر أحداً بشىء منه ، مهما كانت صلته به ، ومكانته من نفسه ..

وبدأ بنفسه ، فلم ير لها فى هذا المال حقاً فى مطعم طيب ، أولباس لين ، وإنما هو فى هذا ـ على المال كثرته ـ عند قوله ، حيث يقول المسلمين :

« إنما أنا وما لكم كوالى مال اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف » قيل له ـ وقد ضيق على نفسه ـ ماذلك بالمعروف يا أمير المؤمنين !! فقال : « لا تقوم البهيمة الأعرابية إلا بالقضم ، لا الخضم[1] !! » يريد أن يقول لهم : إنه ملتزم بحياة البداوة التى عاش عليها ، لا يتحول عنها ، فى مطعم أو ملبس ، لئلا تفسد طبيعة ، وينحرف طبعه ، ويتأثر بذلك خلقه ودينه . .

ومضى عمر فى خاصة نفسه ، على هذا الأسلوب الخشن فى طعامه ولباسه ، يأتدم بالزيت أو الخل ، ولا يجمع بينهما .. ويلبس الرداء فلا يخلعه ، حتى يتهتك ، وتتغير معالمه ، بما يضع عليه من رقع . .

روى عن ابن عمر ، قال : لبس عمر قميصاً جديداً ، ثم دعا بالشفرة ، ثم قال : مد يا بنى كم القميص ، وألزق يدك بأطراف أصابعى ثم اقطع ، قال فقطعت ما قال ، فصار كم القميص بعضه على بعض ، فقلت يا أبتى لو سويته بالمقص ؟ فقال : يا بنى دعه .. فهكذا رأيت رسول الله ﷺ فعل .. فمازال عليه حتى تقطع ، وربما كانت الخيوط تنثر على قدميه » .

ونسوق هنا ، ما ذكره ابن خلدون من حال العرب فى الجاهلية ، وما كانوا فيه من شظف العيش ، وقسوة الحياة ، يقول ابن خلدون :

« فقد كانوا ـ أى العرب قبل الإسلام ـ أبعد الأمم عن أحوال الدنيا وترفها ، لا من حيث دينهم الذى يدعو إلى الزهد فى النعيم ، ولكن من حيث بداوتهم ومواطنهم ، وما كانوا عليه من خشونة العيش ، وظلفه الذى ألفوه .. فلم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من مضر ، لما كانوا بالحجاز فى أرض غير ذات ضرع ولا زرع ، وكانوا ممنوعين من

(١) القضم : التناول بأطراف الفم . بما لا يشبع ، والخضم : التناول بالفم كله ، حيث الشبع والبشم !!

الأرياف[١] ، لبعدها واختصاصها عن وليها من ربيعة واليمن[٢] ، فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها .. لقد كانوا كثيراً ما يأكلون العقارب والخنافس ، ويفخرون بأكل العلهز ، وهو وبر الإبل ، يمهونه ـ أى يضربونه ـ بالحجارة فى الدم ، ويطبخونه ، وقريباً من هذا كانت قريش فى مطاعمهم ومساكنهم ..

ثم يقول ابن خلدون :

« حتى إذا اجتمعت عصبية العرب على الدين ، بما أكرمهم الله من نبوة محمد ﷺ زحفوا إلى أمم فارس والروم ، وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعد الصدق .. فابتزوا ملكهم ، واستباحوا دنياهم ، فزخرت بحار الرفه لديهم ، حتى كان الفارس الواحد يقسم له فى بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب ، أو نحوها ، فاستولوا من ذلك على ما لا يبلغه الحصر ، وهم مع ذلك على خشونة عيشهم . فكان « عمر » يرقع ثوبه بالجلد ، وكان « على » يقول : يا صفراء ، ويا بيضاء غرى غرى ، وكان أبو موسى الأشعرى ، يتجافى عن أكل الدجاج ، لأنه لم يعهدها العرب لقلتها يومئذ ! !

ثم ينقل ابن خلدون عن المسعودى ، ما كان فى أيدى بعض الصحابة رضى الله عنهم من مال :

«قال المسعودي : فى أيام «عثمان» اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار ، وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرها ، مائة ألف دينار ، وخلف إبلا وخيلا كثيرة .

(١) يقصد أطراف الجزيرة العربية ، مما يلى الشام ، والعراق ، اللذين كانا تحت حكم الروم والفرس ..

(٢) يقصد الغساسنة ، والمناذرة ـ من العرب ـ الذين أقامهم الروم والفرس على أطراف دولتيهما ، مما يلى الجزيرة العربية ، ليدعموا بهما العرب

« وبلغ الثمن الواحد من متروك « الزبير » بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس ، وألف أمة ، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك .

« وكان على مربط « عبد الرحمن بن عوف » ألف فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألف دينار .

« وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما يكسر بالفئوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع ، « وبنى الزبير » داره بالبصرة ، وكذلك بمصر ، والكوفة ، والإسكندرية .

« وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة ، وشيد داره بالمدينة ، وبناها بالجص والآجر والساج .

« وبنى سعد بن أبي وقاص » داره بالعقيق[1] ورفع سمكها ، وأوسع فضاءها ، وجعل على أعلاها شرفات ..

« وبنى المقداد بن الأسود » داره بالمدينة ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن » ..

ويعلق ابن خلدون على هذا الذي ذكره المسعودي عما كان بأيدي الصحابة من مال ، فيقول .

« فكانت مكاسب القوم كما تراه ، ولم يكن ذلك منعياً عليهم في دينهم ، إذ هي أموال حلال ، لأنها مغانم وفيوء ، ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف ، بل كانوا على قصد في أحوالهم » .

ونقول : إن هذه الدنيا التي أقبلت على المسلمين ، إنما كانت منذ عهد

---

(١) العقيق موضع بالحجاز .

« عمر » رضى الله عنه ، وأن أكثر ما كان من فتوحات الشام ، والعراق ومصر كان فى عهد عمر . .

فماذا كان موقف عمر من هـذه الدنيا المقبلة ، وماذا كانت سياسته إزاءها ؟ سنرى ! !

وروى عن مصعب بن سعيد قال : قالت أم المؤمنين حفصة بنت عمر يوماً لأبيها : يا أمير المؤمنين ، لولبست ثوباً هو ألين من ثوبك وأكلت طعاماً أطيب من طعامك ، فقد وسع الله عليك وعلى المسلمين فى الرزق وأكثر من الخير ! ! فقال لها : يا بنية إنى سأخاصمك[1] إلى نفسك : كيف رأيت عيش رسول الله ﷺ ؟ قالت : « كان والله يقيم الشهر لا يوقد فى بيته سراج ، ولا يغلى له قدر ! ولقد كانت له عباءة يجعلها فراشاً وغطاء ! » قال : فكيف كان عيش صاحبه — يعنى أبا بكر ؟ قالت : كان مثل ذلك قال : فما تقولين فى ثلاثة أصحاب .. مضى اثنان على طريقة واحدة وخالفهما الثالث ، أفيلحق بهما ؟ قالت : لا . . قال : فأنا ثالث ثلاثة . . أما والله لأشاركنهما فى مثل عيشهما الشديد ، لعلى أدرك عيشهما الرخى ! » .

وهكذا يأخذ عمر نفسه بهذا الأدب ، ويركب بها هذا المركب الخشن ، ليلحق بأبى بكر ، ثم برسول الله ﷺ .. إنه يطلب منزلة عند الله ، لا ينالها إلا من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، فزهد فى العاجل رغبة فى الآجل ، وأثر ما يبقى على ما يفنى ..

وهكذا كان عمر يرى أن ما يزهد فيه من متاع الدنيا شىء تافه قليل لا وزن له ، بجانب ما أعد الله تعالى للمحسنين من جنات فيها نعيم مقيم .. إنه — رضى الله عنه — لم تغره الدنيا ، ولم تخدعه خدعة الصبى عن اللبن ،

---

(١) أى أحاكمك إلى نفسك ..

بما يلمع من سرابها ، وما يترقرق من ماء كئوسها ، التى تذهب بالعقول وتثير الشهوات ..

رعايته لأسر المجاهدين :

وكان — رضى الله عنه — عيناً لا تنام على تفقد أحوال الرعية فى أى مكان من دولة الإسلام الممتدة على الأطراف ، شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، حتى لتكاد تشمل معظم المعمور من الأرض .. وهو فى هذا يولى عناية خاصة بالضعفاء من الصغار ، والشيوخ ، والأرامل ، ويخلف المجاهدين فى سبيل الله ، فى رعاية أهليهم ، والإقامة على رعاية مصالحهم ، وقضاء حوائجهم ، الأمر الذى يبعث الطمأنينة فى قلوب الذين يواجهون العدو فى ميدان القتال ، فلا يلتفتون وراءهم إلى أهل أو ولد ، وهم يعلمون أنهم فى كفالة من هو أحنى عليهم من الأب ، وأرعى من الزوج .

فكان — رضى الله عنه — إذا قدم رسول من بعض البعوث المجاهدة فى سبيل الله يتلقى منه بنفسه رسائل المجاهدين إلى أهليهم ، فيدور بها على البيوت ، ويقول لمن كانت لها رسالة من زوج ، أو أخ ، أو أب ، أو ابن: إن فلاناً يغزو فى سبيل الله ، وأنت فى بلد رسول الله ﷺ فإن كان عندك من يقرأ ، وإلا فاقتربى من الباب أقرأ لك.. فيقرأ لها . ثم يقول إن رسولنا سيخرج يوم كذا وكذا ، فاكتبى حتى نبعث بكتابك . . ثم يدور على البيوت ، بالقراطيس ، والدوىّ ، والأقلام ، فمن كتبت منهن أخذ كتابها ومن لم تكتب ، قال لها : اقتربى من الباب ، فأملى على ما تريدين . . ثم يجمع الرسائل ويبعث بها إلى أصحابها المجاهدين » ! !

هذه الرحمة الراحمة التى تسع كل كبير وصغير ، وتنال كل بعيد وقريب ، تتحول عند عمر إلى غلظة غليظة ، وقسوة قاسية ، فى حسابه لنفسه وأهله ،

إذ كان يرى فى ذلك ميلا به عن صراط الله المستقيم ، أو إخــــلالا — ولو قيد شعرة — عن ميزان الحق والعدل ، وقد أخذ العهد مع الله والرعية عليه .

إنه إذا كان يرى شيئاً من التسامح مع الناس فى خروجهم عن جادة الطريق وفى التجاوز عن الصغائر التى تقع منهم ، فإنه لا يرى شيئاً من التسامح مع نفسه وأهله ، ولاشيئاً من التجاوز مع نفسه وأهله ، لأنه يملك من نفسه وأهله ، ما لا يملك من الناس فيما يرى أن يحمل عليه نفسه وأهله من الطاعة والولاء المطلقين لله . .

روى الإمام الغزالى أن عمر — رضى الله عنه — حين ولى الخلافة ، طلق زوجة له كان يحبها ، خيفة أن تشير عليه بشفاعة فى باطل ، فيطيعها ، طلبا لرضاها .. وهذا — كما يقول الغزالى — من ترك مالا بأس به مخافة مما به بأس !

وليس هذا بالمستغرب من عمر ، الذى طلق الدنيا كلها مخافة أن تفتنه فأراح نفسه منها ، بقتل كل مطمع له فيها . .

وروى أن ابنة صغيرة له دخلت عليه ، وهو يقسم مال بيت المال على المسلمين ، فأخذت درهماً ، فنهض فى طلبها ، حتى سقطت ملحفته عن أحد منكبيه ، ودخلت الصبية البيت وهى تبكى ، وجعلت الدرهم فى فمها فأدخل أصبعه فأخرجه ، وطرحه على الخراج !! وقال : « يا أيها الناس . . ليس لعمر ، ولا لآل عمر إلا ما للمسلمين ، قريبهم وبعيدهم » !!

وروى أن أبا موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ كنس بيت المال ، فوجد درهماً فمر به صبى لعمر فأعطاه إياه ، فرآه عمر فى يده فسأله فقال : أعطانيه أبو موسى .. فقال : يا أبا موسى أما كان فى أهل المدينة بيت أهون عليك

من آل عمر ؟ أردت ألا يبقى من أمة محمد ﷺ أحد إلا طالبنا بمظلمة ؟! ورد الدرهم إلى بيت المال !

ومما يروى عنه ، وقد خرج إلى الشام ليعقد صلح فتحها ، وفتح بيت المقدس . . فلما أوشك أن يدخل حدود الشام ، اعترضت طريقه مخاضة ، فنزل عن ناقته ، وجعل خفيه على عاتقه ، وأخذ بزمامها نخاض بها المخاضة فقال له أبو عبيدة [١] ـ رضى الله عنه ـ يا أمير المؤمنين . . تفعل هذا ؟ ما يسرنى أن أهل الشام استشرفوك [٢] فقال عمر : أوه [٣] لو قال ذلك غيرك أبا عبيدة ، لجعلته نكالا للأمة ! ! إنا كنا أذل قوم [٤] فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا » .

إن عمر ـ رضى الله عنه ـ يرى العزة فيما اشتملت عليه النفوس وضمت عليه القلوب من إيمان بالله ، واعتزاز بعزته سبحانه . . أما تلك المظاهر من زخرف وزينة ، فهى قشور لا تغنى المتزين بها شيئاً .

وهذه النفس العزيزة التى لبست لباس التقوى صافياً ، لم تلتفت إلى مظاهر هذه الحياة ، ولم تأبه لشىء منها . فكان ـ رضى الله عنه ـ يتعاهد العميان ، والزمنى ، والعجائز ، والصبيان ليلا ، ويحمل إليهم الماء والحطب بنفسه ، فيقول له بعض من يراه : دعنى أحمل عنك ، فيقول له : «ومن يحمل عنى يوم القيامة ذنوبى ؟» .

« لقيه عروة بن الزبير مرة ، وهو يحمل قربة على عاتقه ، فقال له :

---

(١) أبو عبيدة ، هو الذى فتح الله على يديه بلاد الشام للمسلمين ، وكان من جنده ، خالد بن الوليد رضى الله عنهما .

(٢) أى اطلعوا عليك ، وأنت على تلك الحال .

(٣) أوه : كلمة تعجب واستنكار معاً .

(٤) يريد عمر بالذلة هنا ما كان عليه العرب من فقر ، وقلة فى السلاح والعتاد .. إنها وإن كانت ذلة فى المظهر ، إلا أن الجوهر عزيز كريم لا يذل .

يا أمير المؤمنين لا ينبغى لك هذا ، فقال له عمر: لما جاءتنى الوفود سامعين مطيعين ، دخلت نفسى نخوة ، فأردت إذلالها ، ومضى بالقربة إلى دار امرأة من الأنصار ، فلأ بها آنيتها !!

وكان - رضى الله عنه - إذا مر بمزبلة وقف عليها ، وقال لصحبه : « هذه دنياكم التى تحرصون عليها » !!

وشرب لبناً من إبل الصدقة خطأ ، فلما علم أدخل أصبعه فى فمه وتقيأ ، حتى كادت تذهب نفسه !!

ودخل على ابنه عبد الله وهو من هو علماً ، وتقى ، وزهداً ، فوجده يأكل لحماً مأدوماً بسمن ، فعلاه بالدرة ، وقال له : « لا أم لك .. يوماً خبزاً ولحماً ، ويوماً خبزاً وسمناً ، ويوماً خبزاً وملحاً ، ويوماً خبزاً قفارا .. أفهذا هو الاعتدال !!

ذلك شىء قليل ، وقطرة من بحر من زهد عمر وعزوفه عن كل ما فى الدنيا من مظاهر المتعة والمتاع منها ..

ولو أن عمر - رضى الله عنه - كان يسوس بذلك نفسه وحدها ، لكان ذلك أمراً محتملا .. فما أكثر الذين اعتزلوا الحياة ، وعاشوا فى ركن قصىّ منها ، لا يرون الناس ، ولا يراهم الناس حيث يجتزئون من دنياهم بشربة ماء ، أو كسرة خبز ..

ولكن عمر كان يقوم على سياسة دولة مترامية الأطراف ، ويمسك بيده مقاليد الأمور فيها ، فرداً فرداً ، وجماعة جماعة ، وقطراً قطراً .. والمال يجرى من بين يديه ، فيدخل كل بيت من بيوت المسلمين . ومفاتن الدنيا كلها معروضة عليه ، وحياة الأكاسرة والأباطرة مشهودة له .. ثم هو مع ذلك يكون على تلك الصورة الفريدة فى دنيا الناس ، فذلك هو الأمر الذى

لا يتصور أن يقع .. ولكنه وقع فعلا ؛ وكانت أحداثة ملء أسماع الناس وأبصارهم .. ثم لا تزال ملء سمع الزمن وبصره إلى ما شاء الله من عمر هذه الدنيا .

وإنه يحسب الإسلام شاهداً على أنه دين الله ؛ وأنه الرحمة التى أنزلها الله رحمة للناس جميعاً،أن يقوم من هذا الدين رجل كعمر ، وأن يكون من ثمراته الطيبة المباركة ، أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، الذين يرجح ميزان الواحد منهم بأهل الأرض جميعاً !

فهل تلد لنا الحياة من أبناء الإســـــلام شبيها بعمر ، أو أحد أصحاب عمر ؟

إن ذلك إن يكن فى عصرنا هذا ، كان دعوة مجددة للإسلام ، ويداً مؤيدة من عند الله ، لإقامة ماتهدم من صروح الإسلام ، فهل آن الأوان؟ ذلك ما نسأل الله له .. وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

وعمر – رضى الله عنه – لا تمر به الأمور – مهما صغرت – دون أن ينظر فيها ، ويستلهم العبرة منها ، ويجنى الثمر المرجو من ثمارها .

« روى أسلم قال : كنت مع عمر – رضى الله عنه – وهو يعس (١) بالمدينة ، إذ سمع امرأة تقول لابنتها : « قومى يا بنية إلى هذا اللبن » بعد المشرقين – أى الفجر الكاذب والفجر الصادق – فأمذقيه – أى أخلطيه بالماء ، فقالت البنت : أوما علمت من عزمة أمير المؤمنين بالأمس؟ قالت: وما هو ؟ قالت : إنه أمر منادياً ينادى ألا يشاب – أى يخلط – اللبن بالماء !! قالت : فإنك بموضع لا يراك فيه أمير المؤمنين ولا منادى أمير المؤمنين . قالت الفتاة : والله ما كنت أطيعه فى الملأ – أى على أعين الناس – وأعصيه فى الخلاء ؟ وعمر يسمع ذلك ، فقال : يا أسلم : اعرف

(١) أى يتفقد أحوال الناس ليلا ، ومنه العسس ، وهو جند الحراسة ليلا ، وهذا من قوله تعالى : « والليل إذا عسعس »

الباب ثم مضى فى عسه ، فلما أصبح قال يا أسلم : امض إلى الموضع فانظر من القائلة ، ومن المقول لها ، وهل لهما من بعل ؟ أى زوج . قال أسلم : فأتيت الموضع ، فنظرت ، فإذا الجارية أيم – أى يتيمة – وإذا المتكلمة بنت لها ، ليس لها رجل . فجئت فأخبرته ، فجمع عمر ولده وقال : هل يريد أحد منكم أن يتزوج فأزوجه امرأة ،فتاة صالحة .. ولو كان فى أبيكم حركة إلى النساء لم يسبقه أحد ، فقال عاصم ابنه : أنا ، فزوجها عاصماً،فولدت له بنتاً لقبتها أم عاصم ، هى أم عمر بن عبد العزيز » ! .

الفصل الرابع

عمر وسياسة المال

قد يخيل لمن يقف بنظره عند حياة « عمر » الخاصة ، وما أخذ به نفسه من التضييق على نفسه وأهله ، ومن المحاسبة على التمرة والنواة ـ قد يخيل له أنه شحيح بخيل ، حريص على المال ، ضنين به ، متهالك على جمعه ، واكتنازه ، وأن الذى يضيق على نفسه وأهله هذا الضيق ، لا يمكن أن يكون سخياً به على غيره ، جواداً به على الناس ، ذلك أن الشح طبيعة واحدة لا تتجزأ ، كما أن الجود طبيعة واحدة لا تختلف .

والحق أن عمر ليس بالشحيح ولا البخيل ، وإنما هو عربى أصيل ، ينزع منازع العرب فى الكرم والسخاء على أتم ما يكون الكرم والسخاء وأن هذا الحرمان الذى أخذ به عمر نفسه وأهله ، ليس عن بخل بالمال ، ولا حرص عليه ، وإنما كان ذلك الحرص منه لأمرين :

أولهما : أن هذا المال الذى بين يديه ليس ماله ، وإنما هو مال المسلمين جميعاً ، ولا يعدو أن يكون حارساً له ، أميناً عليه ، مستخلفاً لله تعالى فيه ، وأنه ليس له فى هذا المال إلا ما لكل مسلم منه . . فإذا جاوز ذلك وانفرد عن المسلمين بشىء منه ، عد نفسه خائناً للأمانة ، مضيعاً لما استخلفه الله تعالى فيه . . وعمر يقول فى هذا مخاطباً المسلمين فى أول خلافته : « إنما أنا ومالكم كوالى اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف » . . وهو يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وابتلوا اليتامى ، حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشداً ، فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا

تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف »[1] .. فهذا المال الذى أفاءه الله تعالى على المسلمين من الغنائم ، والذى امتلأ به بيت المال ، ليس مال الخليفة، يأخذ لنفسه منه ما يشاء ، ويعطى من يشاء ، ويحرم من يشاء .. وإنما هو مال المسلمين جميعاً ، لكل منهم ما لعمر فيه ، بل إن عمر ، لا يرى لنفسه هذا الحق الذى لكل فرد من أفراد المسلمين ، إلا إذا كان محتاجا ، فإن كان فى يده من ماله الخاص ما يكفيه ، فليس له حق فى هذا المال ، وأنه أشبه بالوصى على مال اليتيم ، إن استغنى ، استعفف ، وإن افتقر أكل بالمعروف. أى بما يسد حاجته من ضرورات الحياة دون كمالياتها ..

وثانياً : هذا الزهد فى المطعم والملبس ، الذى أخذ به عمر نفسه ، هو أدب يؤدب به نفسه ، ورياضة يروضها عليه ، ويسد به عليها أبواب الشهوات التى إذا دخلت منها عليه ، فإنها لا تقف عند حد أبداً ، ولا تشبع من كثير أبداً ، كما يقول الشاعر .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وكما يقول الآخر :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليـــل تقنع

إنها سياسة عمرية ، يسوس بها عمر نفسه ، أن تنزلق به إلى حيث لا يروى ظمأها من شهوات الدنيا أنهار العالم كله ..

وإن عمر ليجوع حتى لا ينسى الجياع ، ويحرم نفسه من طيبات الحياة حتى لا يغفل عن المحرومين من لقمة العيش ، ومقومات الحياة ..

ثم إن هذا الحرمان الذى أخذ به عمر نفسه ، وراضها عليه ليس عن

---

(١) النساء آية ٦ .

بلادة حس ، أو نزازة طبع . . فقد تعاف بعض النفوس — لجفاء طبع ، وكزازة نفس ، وسقم ذوق — قد تعاف الطيب من الطعام ، واللين من اللباس ، والهنيء من العيش . . ولكن عمر أصح الناس طبعاً ، وأرقهم حساً ، حتى لكان يقول لمن يجادلونه فى إقامته على هذا العيش الغليظ الخشن : « أترون أنى لا أعرف رقيق العيش ؟ إنه لباب البر ، بمجاج النحل [1] » .

دخل عليه عتبة بن فرقد فرآه يأكل خبزاً جافاً ، ويشرب لبناً حامضاً فقال : يا أمير المؤمنين لو أمرت أن يصنع لك طعام ألين من هذا ؟ فقال : يا ابن الفرقد : أترى أحداً من العرب أقدر على هذا منى ؟ فقال : ما أجد أقدر على هذا منك يا أمير المؤمنين .. فقال عمر : سمعت الله عير أقواماً فقال : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها » . .

ذلك تدبير عمر مع نفسه ، وسياسته لها مع داعى شهواتها التى إن لم يكظمها الإنسان كانت كالنار ، كلما ألقى فيها الحطب ازدادت لهباً وسعيراً ».. فكيف كان شأنه مع الناس ؟

هنا تتجلى خصائص عمر النفسية ، وتنكشف عبقريته ، ويبرز جوهر معدنه فى الرجال . .

وهنا يدخل عمر المعركة الحقيقية التى تختبر فيها معادن الرجال . إنها معركة الحياة فى أعنف صورها ، وأشد ما يعالجه الناس منها .. إنها معركة المال الذى تدور فى مداره الحياة ، وتسفك من أجله الدماء ، وتزهق فى سبيله الأرواح ، ويهلك فيه من هلك ، وما أكثر الهالكين فيه .

---

(١) مجاج النحل . ما يخرج من النحل من عسل

وإنه لمال غدق كثير ، يتدفق على قوم طال عهدهم بالحرمان ، الذى توارثوه أجيالا بعد أجيال . . قوم نبتوا فى الصحراء كما ينبت الشوك فى جدب الأرض ولفح السموم . . وها هى ذى الأرض تصوبها الغيوث ، وتهمى عليها مواطر السحاب ، فيتبدل شوكها جنات وارفة الظلال ، موفورة الثمار ، دانية القطوف . . إنه انقلاب شامل عام فى الحياة ، ، فهل يحدث هذا انقلاباً عاماً وشاملا فى النفوس ، وما دخل عليها من نور الله وما أضاء جوانبها من هدى الله ؟

وهل يتصادم هذا الذى عمر به الإسلام النفوس من الإيمان والتقوى ، مع ما زخرت به الحياة من مال ومتاع ؟ إنها منازعة بين الدنيا والآخرة فى كيان الإنسان ، وإنه لا يقدر على المصالحة بينهما إلا من آتاه الله إرادة نافذة ، وعزيمة صادقة ، وإيماناً وثيقاً ، حتى يستطيع أن يحفظ توازنه ، ويأخذ من هذه وتلك بالقدر الذى لا تجور فيه على جانب الروح ، أو حظ الجسد .

والدنيا كثيرة الزخارف ، كثيرة الأهواء ، حاضرة الشهوات التى تدعو إليها . . على حين أن الآخرة لا يبدو منها لدين طالبها إلا وعود بعيدة المدى ، لا ينال منها الإنسان شيئاً إلا بعد موته وبعثه .. فإذا لم يكن على إيمان وثيق بالله واليوم الآخر ، غامت وجوه هذه الوعود فى سحب الشهوات الماثلة بين يديه ، فأقبل عليها وغرق فيها . .

يقول رسول الله ﷺ : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب أخراه أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » ويقول صلوات الله وسلامه عليه فيما يرويه عن ربه جل وعلا : « يا دنيا من خدمك فاستخدميه ومن استخدمك فاخدميه » . . وقد آثر عمر الآخرة على الدنيا ، واستخدم الدنيا مطية له إلى الآخرة .

إن الذى يعيش طويلا فى الظلام ثم يفجؤه وهج النور ، تزوغ عيناه ويغشى بصره ، وتختلط عليه صور المرئيات ، فلا يتبين الجميل من القبيح ، ولا الصحيح من الزائف .

وهذا المال الكثير المتدفق من كل وجه على الحرمان الطويل ، وعلى الجدب المتصل ، يفعل فى النفوس ما يفعل وهج النور فى العيون الغارقة فى الظلام ، ستضطرب له نفوس ، وتزيغ به عقول ، وتنحرف منه ضمائر . . إنه فتنة مستيقظة لا تنام أبداً ، ولا يكاد يسلم منها إلا من عصم الله وعرف كيف يسبح إلى شاطىء النجاة من ألقت به السفينة فى هذا البحر اللجى المتلاطم الأمواج . . .

وعمر يعلم من المال وفتنته أكثر من هذا ، ويدرك أن السفينة التى يركبها عمر ويركبها معه المسلمون بهذا المال الوفير ، هم منها فى معرض فتنة ، فإن الأمواج عالية ، والريح عاصفة ، وليس للسفينة ولراكبيها نجاة إلا إذا تخففوا من أحمالهم ، وما معهم من متاع ، وإلا إذا كان على قيادتها ربان ماهر ، يعمل معه جند مهرة مخلصون ، حتى يقدر الله لهذه السفينة أن تبلغ مرفأ الأمن ، فتلقى مراسيها عليه . .

وقد كان عمر — رضى الله عنه — هو هذا الربان الذى أراده الله ليكون ربان هذه السفينة فى هذا الوقت الحرج ، وكان له من صحابة رسول الله ﷺ خير الجند ، وأعظم الأعوان . . .

ولو وجد عمر — رضى الله عنه — سبيلا إلى تحويل هذا المال المتدفق عليه إلى غير الجزيرة العربية وأهلها لفعل ، وللباعد بين أصحاب رسول الله وبين هذه الفتنة ، ولكنها سنة الحياة ، وتطور الزمن ، وتقلب الأحوال . . وإنه لهيهات لأحد أن يقف فى وجه هذا التحويل الجديد ، الذى وصل

العرب بغيرهم من أمم الثراء والغنى ، ووضع يد العرب على أمم الثراء والغنى .. هيهات هيهات ، ولو كان هذا الإنسان عمر .. تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

وإذن فلا سبيل لعمر ، إلا أن يوقظ لهذا الأمر كل مشاعره ، وينبه له كل حواسه ، ويعمل فيه كل دكائه ، وبأسه ليحرس الناس من هذه الفتنة ويدفع عنهم غوائلها .. فإن ذلك أمر إن ضيعه ضاع هو وضاع الناس معه ، وغرق وغرق الناس معه فى لجج الفتنة والهوى .. والمال وما وراءه مغريات وفتن ، يفقد معها المرء توازنه ، إذا هو لم يكن على قدر كبير من اليقظة والحذر ، والتنبه دائماً إلى أنه فى مواجهة خطر داهم من هذا الصديق الذى لا يؤمن جانبه ، والذى قد ينقلب عدواً ، مبيناً .. من أجل ذلك كان هذا الأدب الربانى الحكيم الذى تنزلت به آيات الله على رسول الله ﷺ ليلزم به نساءه ويقف بهن على حدوده إذا أردن الحياة معه على مألوف الحياة فى بيت النبى ، من الأخذ بأطراف العيش دون مجاوزة ما يمسك منه الحياة ..

وفى هذا يقول الله تعالى : « ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما »[1] .

وقد نزلت هذه الآيات المباركات من سورة الأحزاب على النبى الكريم بعد غزوة الأحزاب التى رد الله تعالى فيها المشركين وأحلافهم من اليهود خاسرين مدحورين ، وبعد أن أجلى المسلمون يهود بنى قريظة من المدينة وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان

(١) الاحزاب : ٢٨ ـ ٢٩ .

الله قوياً عزيزاً ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأرضاً لم تطؤوها ، وكان الله على كل شىء قديراً »[١].

ولقد دخل على بيوت المهاجرين والأنصار من مغانم بنى قريظة مال ومتاع كثير ، ظهرت آثاره فى كل بيت من بيوت المسلمين فى المدينة ، فأكل الجائع ، واكتسى العارى ، وافترش من لا فرش له ، وتغطى من لا غطاء عنده .

وهنا تتفتح عيون كانت مغمضة ، وتستيقظ شهوات كانت نائمة ، وتنفسح الآمال لمزيد من هذا الجديد الذى دخل بيوت المهاجرين والأنصار فيما تأتى به الأيام بعد !

وهنا تتنزل آيات الله تعالى على النبى الكريم ، ليمسك بأزواجه على ما هن فيه من الحياة التى كن عليها معه قبل هذه المغانم التى بدأت تدخل بيوت المهاجرين والأنصار ، إذ أمره ربه جل شأنه أن يخير نساءه بين أمرين : إما أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فلا ينظرن إلى شىء من تلك الحياة الجديدة . . وإما أن يذهبن لشأنهن مع تلك الحياة ، بعد أن يطلقهن الرسول ويمتعهن .. وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

ونلاحظ هنا أن هذا الأدب السماوى بالحياة الزاهدة فى متع الحياة ، إنما كان خاصاً بزوجات النبى ، وبالبيت النبوى الذى يضمهن .. أما سائر المؤمنين ونساؤهم ، فلا بأس من أن ينالوا من طيبات ما أحل الله ما يشاءون وأن يأكلوا طيباً ، ويلبسوا لينًا . . والله تعالى يقول : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة »[٢] . . فليس كل

(١) الاحزاب : ٢٥ ـ ٢٧ .

(٢) الاعراف : ٣٢ .

النفوس قادرة على أن ترتفع بالترفع عن مطالب النفس إلى هذا المستوى العالى الكريم الذى تستطيع نساء النبى التحليق فيه ..

ولقد اختار الله تعالى للمسلمين ، إذ جعل عمر رضى الله عنه ، هو الذى يواجه هذا الموقف مع ما فى كيانه من صلابة فى الحق ، وقوة على مواجهة العظائم من الأمور ، وقد انتقلت الحياة بالمسلمين هذه النقلة البعيدة المندفعة بهم إلى غايات لا يعلمها إلا الله ..

يقول أحد العارفين[1] واصفا هذا التحول فى حياة المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ : « لما قبض رسول الله ﷺ قام أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يسوق الخلق بقضيب من قوة نسيم النبوة ، فلما توفى أبو بكر تقدم عمر ـ رضى الله عنه ـ على سياسة الناس فأقام حدود الله بدرته[2] ولم يقدر عثمان رضى الله عنه على سياسة الناس بالدرة فأخرج السوط ، فلم يستقم له الأمر كما استقام لصاحبيه ، فلما استشهد لم يقدر على ـ رضى الله عنه ـ على شىء يسوس به الخلق غير السيف ، إذ رأى ذلك صوابا .

ثم يقول : « كان أبو بكر يشم نسيم الرسالة ، وكان عمر يشم نسيم النبوة ، وعثمان يشم نسيم الاصطفاء ، وعلى يشم نسيم المحبة .. فكان هجير[3] أبى بكر « لا إله إلا الله » . وهجير عمر : « الله أكبر » . وهجير عثمان : « سبحان الله » وهجير على : « الحمد لله » فكان أبو بكر لا يشهد فى الدارين غير الله ، فكان يقول : « لا إله إلا الله » وكان عمر يرى ما دون الله

---

(١) هو أبو العباس ، أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمى .

(٢) هى عصا قصيرة كان يمسكها عمر رضى الله عنه ، كما يمسك الراعى عصاه ليرد بها الشاردة من الغنم .

(٣) هجيرة بتشديد الجيم المكسورة أى كلمته اللازمة له الغالبة على أحواله ، يردده على لسانه فى أحوال شتى .

صغيراً فى جنب عظمة الله ، فيقول : « الله أكبر » وكان عثمان لا يرى التنزيه إلا لله ، إذ الكل قائم به ، غير معرى من النقصان ، والقائم بغيره معلول ، فكان يقول سبحان الله ، وكان على يرى نعمة الله فى الدفع والمنع ، والمحبوب والمكروه ، فيقول : « الحمد لله » .

ومعنى هذا أنه كلما بعد بالمسلمين الزمن بعهد النبوة ، تلونت بلون جديد ، واصطبغ الناس بهذا اللون ، فكانت سياسة الخلافة الراشدة بهم ، جارية على هذا المستوى الذى يكونون عليه ..

يقول الرسول الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » . ومعنى هذا أن للزمان طابعه الذى يطبع به الناس ، ويطبع به حكامهم الذين يقومون عليهم . . وفى الأثر : « كما تكونوا يولى عليكم » .

ويقول الإمام على كرم الله وجهه ، والحرب دائرة بينه وبين معاوية ، وقد سأله سائل : لم لا تسير بسيرة عمر ؟ فقال : كان عمر يحكم أمثالى ، وأما أنا فأحكم أمثالك » .. فكلما بعد الزمن بالمسلمين عن عهدهم بالنبى ، بعدوا شيئاً فشيئاً عن صوت الحق الذى يملأ أسماعهم ، وينفذ إلى كل ذرة فى كيانهم ..

والحق أن عمر ـ رضى الله عنه ـ ما كان له أن يضبط سياسة الدولة الإسلامية ، هذا الضبط المحكم ، ويقيم الناس فيها على هذا الوضع السليم المستقيم ، لو لم يكن فى الناس بقية من آثار النبوة ، ولم تكن النفوس مشرقة بنور الله .. إن لم يكن ذلك فى الجماعة الإسلامية كلها ، فهى فى عدد كبير من أهلها .. إذ ما زال كثير من صحابة رسول الله أحياء ، وما زال لهم فى الناس قدرهم وأمرهم .. فيهم الأسوة للمتأسى ، وفيهم الهدى لمن تحير أو اضطرب .

* * *

والمال . وطلاب المال :

ونعود إلى عمر — رضى الله عنه — وسياسة المالى ، وننظر فيما كان من تدبير عمر فى هذا ؟

فالمال فى ذاته ليس مشكلة ، إلا حين تتنازعه الأطماع ، وتتهالك عليه النفوس ، ويشتد الطلب له ، والصراع من أجله . . وإذن فهو ليس المـال وحده ، وإنما هو المال وطلاب المال ..

أما المال فقد صرف فيه عمر – رضى الله عنه – همه إلى أمرين منه : أن يجىء إليه بحق ، وأن يخرج من بين يديه بحق ..

ذلك هو الدستور الذى التزمه عمر وألزم به نفسه ، وفرضه على عماله، وراقبهم وحاسبهم عليه أدق مراقبة وأضبط حساب .

إنها كلمات قليلة .. ولـكن ثقلها مما تنوء به الجبال ، وتحقيقها أصعب مما تستقل به العصبة من أولى العزم من الرجال : أن يجىء المـال بحق ، وأن يخرج بحق .

ولـكن عمر – رضى الله عنه – حمل هذا العبء ، ونهض به وأتى فيه بما يمكن أن يكون من معجزات الزمن !! .

المال . . والطريق اليه :

لقد توفى رسول الله ﷺ ولم يكن للمسلمين بيت للمال ، إذ كان ما يأتى من الغنائم قليلا لا يكاد يجىء ، حتى يذهب إلى جهة استحقاقه ، لا يبيت منه شىء . . .

وكذلك كان الشأن فى خلافة أبى بكر — رضى الله عنه — إذ كانت فتوحات الشام والعراق لم تستكمل بعد ، ولم يكن الفتح قد اتجه إلى مصر .

فلما كانت خلافة عمر – رضى الله عنه – واتسعت الفتوح ، ومصرت

الأمصار ، تدفقت أموال الغنائم ، كما تدفقت أموال الخراج ، وأموال الجزية المضروبة على أهل الذمة . . وهذا المال كله إنما يصب فى المدينة ، حيث خليفة المسلمين . .

وهذا المال لابد أن تقوم يد أمينة على جمعه ، وهذا أمر يتطلب من الخليفة أن يتفقد أهل الورع والاستقامة والحزم جميعاً ، ليكونوا ولاة على الأمصار ، وحفظة لأمن الناس فيها من الخارج والداخل على السواء . .

ولم يكتف عمر بما أدته إليه فراسته فى اختيار عماله ، بل أقام عليهم منه عيناً حارسة لا تنام ، فإذا بلغه عن أحد منهم شيئاً لا يرضاه دعاه إليه وحاسبه حساباً عسيراً ، وقيأه ما أكله بغير حق . .

روى أبو عبيدة فى كتابه « الأموال » أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كتب إلى عماله أن يوافوه فى الموسم ـ أى موسم الحج ـ فوافوه فيه ، فقام فى الناس وبينهم عماله ، فقال : « أيها الناس إنى بعثت عمالى هؤلاء ولاة بالحق عليكم ، لم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم [1] ولا من دمائكم ، ولا من أموالكم . . فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم . . فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد . . فقال : يا أمير المؤمنين : عاملك هذا ـ وأشار إليه ـ ضربنى مائة سوط . فقال عمر : أتضربه ؟ ومائة سوط ؟ قم فاستقد منه [2] . .

فقام عمرو بن العاص ، فقال : يا أمير المؤمنين : إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم ، وكانت سنة يأخذ بها من بعدك . . فقال عمر : ألا

---

(١) أى ليضربوكم . .

(٢) استقد منه : أى اقتص منه ، والقود : القصاص . . ولاشك أن هذا الضرب من الوالى لم يكن لإقامة حد من حدود الله ، وإلا لما كان للقصاص من الوالى موضع ، وإنما كان ذلك للتأديب ، والتعزير ولا يجوز أن يبلغ التأديب والتعزير عقوبة الحد .

أقيده منه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه؟قم فاستقد منه . فقال عمرو : دعنا إذن فلنرضه ، فقال : دونكم فأرضوه ، فأرضوه بأن اشتريت منه بمئتى دينار .. كل سوط بدينارين » .

وحرص عمر على رعاية حق الناس فى أموالهم ، وألا يجور الولاة عليهم ، لا يقف عند محاسبة الولاة هذا الحساب العسير ، وعلى هذا الأسلوب العلنى الفاضح ، بل إنه كان يبعث العيون وراء عماله ، ليراقبوا أعمالهم ، ويتسمعوا إلى أقوال الناس عنهم ورأيهم فيهم . . فإذا وقع على أن عاملا من عماله استحدث ثروة ، أو تكثر فى مال ، صادر ماله ، أوشاطره فيه ، ولو كان من أقرب الناس إليه ، وآثرهم عنده !!

روى ابن سيرين قال :« لما قدم أبو هريرة من البحرين ، وكان واليا لعمر عليها ، فلما دخل على عمر قال له عمر : يا عدو الله ، وعدو كتابه : أسرقت مال الله ؟ فقال : لست بعدو الله ، ولا عدو كتابه ، ولكنى عدو من عاداهما ، ولم أسرق من مال الله . . قال عمر : فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : خيلى تناسلت ، وعطائى تلاحق ، وسهامى تلاحقت . . قال: فقبضها عمر منه . . وضمها إلى بيت المال » . .

هذه فعلة من فعلات عمر .

ومع من ؟ مع أبى هريرة الصحابى الجليل ، وخادم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكنه الحق . . وإنه لفوق أبى هريرة ، وفوق من فوق أبى هريرة .

وأى حق هذا ؟ أو يظن فى أبى هريرة خيانة لله ولرسوله ؟

إن عمر يعرف من هو أبو هريرة ، ويقدر صحبته لرسول الله ، وما نظن

أن أبا هريرة بموضع تهمة عند عمر فى دينه وأمانته ، ونزاهته واستقامته.. ولكن الذى نخاله هو أن عمر وقدرأى المال فى يد أبى هريرة يكثر ويزداد، خاف أن يفسد عليه المال صحبته لرسول الله ﷺ ويذهب به مذاهب من فتنوا بالمال ، وتعلقوا بالحياة الدنيا ، وهو الحريص على أن يستبقى أصحاب رسول الله على ما تركهم الرسول الكريم عليه من صفاء وطهر .. ولهذا أمسك بهم فى المدينة ، وأبى عليهم أن يخرجوا إلى الأمصار ، وأن يستقر بهم المقام فيها، حفاظاً عليهم ، وصناً بهم أن تمتد أبصارهم إلى ما يعرض لهم فيها من ألوان الحياة الصاخبة هناك ، وما خلف الأكاسرة والقياصرة من مظاهر الترف .

روى أن عمر ، بعث إلى أبى عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف درهم ، وأربعمائة دينار ، وقال للرسول الذى بعثه بالمال : انظر ما يصنع بها ، فجاءه الرسول فقال : قسمها أبو عبيدة فى الناس ولم يستبق منها شيئاً . . ثم أرسل إلى معاذ بن جبل بمثلها ، وقال للرسول مثل ما قال، فجاءه فقال : قسمها معاذ فى الناس ، إلا شيئاً قالت امرأته إنها تحتاج إليه ، فقال عمر: الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يفعل هذا .. أولئك هم صحابة رسول الله ﷺ فى عفتهم وزهدهم وورعهم ..

وذلك هو الظن فى أبى هريرة ، وذلك هو الرأى فى عمر ، الذى كان يحرص على أصحاب رسول الله أشد الحرص ، ويحول بينهم وبين أسباب الفتنة ودواعيها ، وليس سبب للفتنة أقوى من المال ، وليس ثمة داعية إليها أكثر من المال .

نقول هذا فى حادثة عمر مع أبى هريرة ، لأن عمر ـ رضى الله عنه ـ عاد ، فعرض على أبى هريرة أن يعمل والياً له ، ولو كان عند عمر ظن ،

أو شبهة ظن ، فى أمانة أبى هريرة ، وسلامة دينه ما اتجه أبداً إلى أن يوليه عملا ..

ولكن عمر عاد فعرض على أبى هريرة عملا يتولاه له !!

يحدث أبو هريرة بعد هذا الحادث . فيقول : ثم قال لى عمر بعد ذلك «ألا تعمل ؟ فقلت لا ! قال قد عمل من هو خير منك ، يوسف ! قلت: إن يوسف نبى ، ابن نبى ، ابن نبى ، وأنا ابن أميمة — أى جارية تصغير أمة — وأخشى اثنتين وثلاثا ! قال عمر : فهلا قلت خمسة ؟ قلت : أخشى أن أقول بغير علم ، وأحكم بغير علم ، وأخشى أن يضرب ظهرى ، ويشتم عرضى[1] وينزع مالى » .

وسواء أصحت هذه الرواية عن أبى هريرة أم لم تصح ، فإنها لا تستبعد من عمر — رضى الله عنه — ولعلها كانت منه امتحاناً لأبى هريرة ، يكشف به عمر عما كان قد وقع فى نفسه من أبى هريرة ، فإذا كانت بأبى هريرة رغبة فى العمل ، واشتغال بالولاية بعد أن صادر عمر أمواله ، فذلك دليل على أنه محب للمال ، مؤثر له ، حريص عليه ، وإن رفض الولاية ، وزهد فيها — وهو ما فعله أبو هريرة — كان ما فعله عمر معه هو حرص عليه من فتنة المال ، الذى أول ابتلاء به هو الحرص على جمعه .

وكذلك فعل عمر — رضى الله عنه — مع سعد بن أبى وقاص ، ثالث ثلاثة دخلوا فى الاسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وفارس الغزوات ، والمناضل عن رسول الله ﷺ يوم أحد ، والمفدى من رسول الله فى هذا اليوم بقوله : «ارم سعد ، فداك أبى وأمى » .. وقد كان مستجاب الدعوة ، لا يرد له من الله دعاء : ببركة دعاء رسول الله له .. فقد سأل سعد رسول الله

(١) المراد بالعرض هنا ، دين المرء ومروءته .. فاذا اتهم فيهما فكأنما اتهم فى عرضه !

ﷺ : أن يدعو له بأن يستجيب الله دعاءه ، فقال رسول الله : يا سعد إن الله لا يستجيب دعاء عبد حتى يطيب طعمته ، فقال يارسول الله : ادع الله لى أن يطيب طعمتى ، فإنى لا أقوى على ذلك إلا بدعائك ، فقال الرسول الكريم : « اللهم أطب طعمة سعد » . فكان لهذا مستجاب الدعوة .

هذا هو سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ ولقد شاطره عمر ماله، حين رأى فيه وفرة وكثرة تزيد عن حاجته .

وهذا مايؤيد رأينا فيما ذهبنا إليه فى موقف عمر من أبى هرير ، وأن مصادرته لماله لم يكن عن خيانة رآها فى أبى هريرة ، وإنما كان ذلك عن حرص منه على أصحاب رسول الله أن تغيرهم الدنيا الجديدة ، وأن تخرجهم من الحال التى تركهم عليها رسول الله ﷺ .

وإذا كان عمر ، قد صادر كل مال أبى هريرة على حين شاطر سعد ابن أبى وقاص ماله ولم يأخذه كله ، فلعل ذلك كان من عمر لأمرين :

أولهما: أن سعداً كان ذا مال قبل الإسلام وبعده لم يشغله ماله وجاهه عن أن يأخذ مكان الصدارة فى الاستجابة لدعوة الإسلام، فكان ثالث ثلاثة دخلوا فى دين الله .. على حين أن أبا هريرة لم يكن له شىء من هذا الذى كان لسعد .. أى أن أبا هريرة لم تكن له تجربة سابقة بالمال فلم يبتل به ، ولم يعرف موقفه منه ، بل إنه كان من فقراء المسلمين ، ومن أهل الصفة الذين نزلوا ضيوفاً على المسلمين فى مسجد رسول الله ، يتقاتون ما يأتيهم المسلمون به ، دون أن يكون لأحد منهم مأوى يؤويه . .

وثانيهما : أن سعداً كان فارساً من فرسان المسلمين ، وبطلا من أبطال الإسلام المعدودين ، وكان له فى الغنائم سهمان ، سهم له ، وسهم لفرسه . . أما أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ فكان ينال من الغنائم نصيبه مما جعله

الله تعالى للفقراء فيها ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل » . (التوبة : ٤١)

فمن أجل هذا كانت التفرقة بين أبى هريرة ، وبين سعدا فى صنيع عمر معهما ، وإنه لحقيق بعمر أن يفعل هـذا ، مستلهماً حصافته ، وزكانته ، وملهمات فراسته ..

ولقد تهدد « سعد بن أبى وقاص » عمر بأن يدعو ربه ، ليأخذ له بحقه منه ، فقال لعمر : لقد هممت . . فقال له عمر : أن تدعو الله على ؟ ـ وهو يعلم أنه مستجاب الدعوة ـ قال نعم . . فقال عمر : « إذن لا تجدنى بدعاء ربى شقياً » ، أى لن يشقينى الله بما يستجيب لك من دعاء على حيث إنى لم أفعل هذا إلا عن اجتهاد ، ونصح لله ولرسوله والمؤمنين .

إن عمر إمام يبصر أين تكون المصلحة لرعيته ، أفراداً وجماعات ، وإنه ليرى المصلحة لسعد فى أن يأخذه بما أخذه به . . فإن يكن قد أصاب فله أجران ، وإن يكن أخطأ فله أجر . . إنه إمام اجتهد رأيه ، وقاض فصل فى قضية بما أداه اجتهاده فيها ، وذلك كله بمعزل عن الهوى . . والمصلحة الخاصة .

ما دلالة هذا المصرف . وما تأويله ؟

قد يقول قائل : إن فى هذا حجراً على الحرية الشخصية ، وعدواناً على أموال الناس بغير حق ، إن كان ما فعله عمر مع هذين الصحابيين الجليلين لغير تهمة أو جريرة .. إن الشريعة الإسلامية إنما جاءت لتحفظ للناس حرمة دمائهم ، وأموالهم إلى ما تحفظ من حرمة الدين والعقل ، والنسب ، وقد

جعل الإسلام حرمة المال كحرمة الدم . فما لعمر يصادر مال هذا ، ويشاطر داك ماله لغير جريرة ؟

ونقول : إنه إن صدق هذا فى موازين حياتنا المعاصرة التى تتسم بسمة الانفصال المادى والنفسى بين الناس والناس ، أفراداً وجماعات ، أقارب وأبعدين ، فإن المجتمع الإسلامى الأول وإن يكن قد عرف للمال حرمته ، وقدر له قدره فى الحياة الدنيا ، فإنه من جهة أخرى لم ينظر إلى المال كغاية، وإنما كانت نظرته إليه قائمة على أنه وسيلة تقضى به حقوق ، وتؤدى به واجبات ، وإنه إن يكن ملكا خاصاً ، فإنه من جهة أخرى نفع عام وخاصة فى هذا المجتمع المثالى الذى لم تعرف الحياة مثيلا له ، فى التواد ، والتراحم فى ظل الأخوة الإسلامية العامة، التى تجعل من أعضاء هذا المجتمع جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر !

وعمر يرى أن مسئوليته مضاعفة فى هذا المجال الذى دخل فيه المال على المسلمين ، وامتلأت به أيدى صحابة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — .

وعمر حين فعل ما فعل مع الصحابيين الجليلين — أبى هريرة ، وسعد ابن أبى وقاص، إنما كان فى يقينه أن هذا المال إن كثر فى يد الصحابة — رضوان الله عليهم — عرضهم للفتنة ، وشغلهم جمعه وسياسته والنظر فيه، عما هو أليق بهم من الاستعلاء على مطالب الحياة ، والتخفف من مالها ومتاعها ، تاركين ذلك لغيرهم ممن لم يكن فى مقامهم العالى الذى أحلهم الله تعالى فيه ، وقد اختارهم صحبة لرسول الله . .

ولقد بدأ ذلك عمر بنفسه أولا ، وأمسك بها عن أن تتعلق بمتاع هذه الحياة الدنيا حتى يلحق بصاحبه رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه

وإن من حق إخوانه عليه أن يحفظهم بما حفظ به نفسه حتى يلحقوا برسول الله ، ويكونوا صحابة له فى الآخرة كما كانوا صحابة له فى الدنيا .. فكان الرأى عنده أن يبادر أصحاب رسول الله بهذه الوقاية من الداء قبل أن يقع الداء . .

* * *

ومن تدبير عمر فى تنقية المال الذى يجبى إليه ، من كل شائبة ظلم تشوبه إنه كان إذا جاءه المال من جهة من الجهات ، لا يقبله حتى يتأكد أنه قد جاء من طريق الحق والعدل . لا تتعلق به مظلمة لأحد . .

روى أبو يوسف — صاحب كتاب الخراج — « أن عمر كان يجبى إليه كل سنة من العراق مائة ألف ألف أوقية ، ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة ، وعشرة من أهل البصرة ، يشهدون أربع شهادات بالله على أنه طيب ما فيه ظلم مسلم أو معاهد »[1] .

وروى عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : « دعا عمر أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إذا لم تعينونى فمن يعيننى[2] قالوا : نحن نعينك ، فقال : يا أبا هريرة ائت البحرين وهجر هذا العام ، فذهبت فجئته آخر السنة بغرارتين فيهما خمسمائة ألف ، فقال : ما رأيت مالا مجتمعاً كهذا قط .. أفيه دعوة مظلوم ، أو مال يتيم أو أرملة ؟ فقلت لا ، والله بئس الرجل أنا ، إن ذهبت أنت بالمهنأ وذهبت أنا بالمؤنة » ..

إنه ليس بعد هذا التقصى فى التنقيب والبحث عن سلامة المصادر التى

---

(١) المعاهد ، هو من كان بينه وبين المسلمين عهد من أهل الذمة .

(٢) فى هذا إشارة إلى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتحرجون من العمل ولاة أو جباة ، خوفاً من تبعاتها بين يدى الله .

كان يرد منها المال إلى بيت المال - ليس بعد هذا شيء يمكن أن يضاف إلى تلك الصورة الدقيقة الجليلة لتحقق هذه السلامة وضمانها ، والتوقى من أن يدخل على هذا المال شيء من الظلم ، وفى هذا يتجلى أروع مظاهر لشريعة الحق والعدل ، شريعة الملة السمحة الغراء ..

* * *

وجوه التصرف فى هذا المال :

أما الأمر الثانى المتصل بالمال من حيث مخرجه فى وجوه الحق ، بعد أن جاء من وجوه الحق ، فإن عمر – رضى الله عنه – قد أتى فى هذا الباب بما يعد آية من آيات الله ، فيما يمكن أن يبلغه من يطلب الحق ، ويخلص له نيته ، وينجرد له من الهوى والشهوة ..

لقد تصرف عمر – رضى الله عنه – فى هذا المال الذى وقع ليده تصرفاً عبقرياً لن يلحقه فيه أحد .

إن أحدث الأساليب ، وأدق النظريات الاقتصادية فى هذا العصر ، والتى تعنى برسم السياسة المصرفية للدولة، لا يمكن أن ترتفع إلى هذا المستوى المحكم ، فى ضبط مصارف المال الذى تنفتقت عنه عبقرية عمر ، وألهمته إياه فطرته ، وهداه إليه دينه فى سياسة مصارف المال ، ووضع كل درهم منه موضعه الذى يسد به خللا ، أو يشبع به جائعاً ، أو يكسو به عارياً ، أو يجهز به غازياً ، أو يعد به جيشاً محارباً ، أو يقيم به ثغراً على طرف من أطراف دولة الإسلام ..

فهذا المال عند عمر — كما دلته على ذلك شريعة الإسلام — هو مال المسلمين جميعاً ، وليس له فى هذا المال سلطان المالك له، المتحكم فيه . . إنه

لن يستطيع — تحت سلطان هذا الإحساس ـ أن يمنع أحداً لأنه يريد أن يمنعه ، ولا أن يعطى أحداً لأنه يشتهى أن يعطيه ، وإنما هو خازن وحارس ، يؤدى الأمانة ، ويراعى الحقوق فى هذا المال الذى ائتمنه الله عليه ، واسترعاه له .

روى عن عمر — رضى الله عنه — أنه كان يقول : « ما مثلى ومثل هؤلاء — يشير إلى المسلمين — إلا كمثل قوم كانوا فى سفر ، فجمعوا منهم مالا فسلموه إلى واحد منهم ينفقه عليهم ، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم » ؟

ذلك هو إحساس عمر إزاء هذا المال الذى يجىء إليه من كل الوجوه التى ارتضاها الإسلام للمسلمين . . إن هذا المال هو مال المسلمين . . فهو منهم وإليهم ، وما عمر إلا واحد من المسلمين أرادوه ليكون أمير الركب فى مسيرة الحياة بهم . .

وكان عمر يقول عن هذا المال الذى يجىء إلى بيت المال : « والله الذى لا إله إلا هو ، ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه[1] ، وما أحد أحق به من أحد ، وما أنا فيه إلا كأحدكم » .

هذا هو المبدأ العام ، واللافتة الواضحة التى جعلها عمر على واجهة بيت المال ، حتى يراها الغادى والرائح ، فيعلم كل مسلم أن له فى هذا المال حقاً لا يملك أحد حجزه عنه ، ولو كان الخليفة فإن لم يصل إليه هذا الحق ، كان عليه أن يطالب به ، وكان على الجماعة الإسلامية أن تقف إلى جانبه ، وتعينه على أخذ حقه ، إن حجبه الخليفة عنه ، أو نازعه فيه .

---

(١) أى : . إذا أعطى المسلم حقه من هذا المال ، فلا فضل لأحد عليه ، لأنه إنما أخذ حقه ، وإن منع أحد منهم حقاً له ، لا يسقط [illegible] المنع .

ثم ننظر فى التطبيق العملى لهـــذا الدستور الذى أعلنه عمر على الناس فى سياسة مال بيت المال : « وإنه ما أحد أحق به من أحد ، وما عمر فى هذا المال إلا كواحد من آحاد المسلمين » .

روى أبو عبيدة صاحب كتاب « الأموال » أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية[1] فقال عمر : « أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أبىّ بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ ابن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال ، فليأتنى ، فإن الله تبارك وتعالى ، جعلنى له خازنا وقاسماً .. وإنى بادىء بأزواج النبى ﷺ فمعطيهن ، ثم المهاجرين الأولين ، ثم إنى بادىء ـ أى من المهاجرين ـ بأصحابى ، أخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا . . ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم .. » .

ثم عقب على ذلك مبيناً السبب الذى من أجله قدم فيه بعض المسلمين على بعض فقال : « من كان قد أبطأ عن الهجرة ، أبطأ عنه العطاء ، فلا يلومن أحد إلا مناخ راحلته !! » .

فقول عمر : « فلا يلومن أحد إلا مناخ راحلته » كناية عن أن الإبطاء عن الهجرة إنما كان بسبب تراخى الهمة ، حيث لم يتحرك الذين أبطئوا ، ولم يخفوا مع الذين سبقوهم ، فتركوا رواحل سفرهم فى مناخها !

وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يسوى فى قسمة الغنائم بين الناس ، [الص]غير والكبير ، الحر والمملوك ، والذكر والأنثى ، ومن سبق إلى الإسلام والهجرة ، ومن أبطأ فجاءه ناس من المسلمين فقالوا : يا خليفة رسول الله ..

(١) الجابية : [illegible] على مسيرة [illegible] من دمشق ، وفيها [illegible] عمر بعد فتح الشام مع الصحابة [illegible] في أمر الغنائم [illegible] واقعة اليرموك ، التي [illegible] فيها الروم [illegible] .

إنك قسمت هذا المال فسويت فيه بين الناس ، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق . . فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم ؟ ، فقال أبو بكر — رضى الله عنه — أما ما ذكرتم من السوابق والفضل والقدم ، فما أعرفنى بذلك ، وإنما ذلك شىء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة » أى أن المساواة فى هذا المتاع الدنيوى خير من المفاضلة . .

ولكن عمر — رضى الله عنه — مع حرصه الشديد على متابعة أبى بكر ، والتأسى به فى كل أثر من آثاره — لم ير هذا الرأى ، إذ لم يره موائماً مع نظرته إلى من أسلموا قبل الفتح ، ومن أسلموا بعده . . وإنه ما كان ليسوى فى نظرته إلى أبى سفيان مثلا ، ونظرته إلى بلال ! فأبو سفيان الذى قاد حرب الشرك على الإسلام فى بدر وأحد ، والأحزاب ، لا يمكن أن يقيمه عمر على ميزان واحد مع بلال ، أو عمار ، ممن رهقهم المشركون بالعذاب ، وأخذوهم بالبأساء والضراء سنين عدداً .

وهنا تبرز طبيعة عمر ، التى لا تعرف الهوادة واللين فى أى موقف وقفه فى جاهليته وفى إسلامه على السواء . لقد غلبته تلك الطبيعة على عاطفته فى التأسى بأبى بكر والسير على أثره !

فالشدة والصرامة هما اللتان تحكمان عمر فى هذا الموقف وتريانه الناس على منازلهم من الإسلام ، فأقرب الناس إلى الإسلام ، وأسرعهم استجابة له ، وأكثرهم بلاء أو ابتلاء فيه ، هو أولى الناس بهذا الخير العاجل ، الذى ساقه الإسلام إليهم وجاءهم من جهته . .

وأما الذين كانوا قد وقفوا من رسول الله ، ومن دعوته موقف العداوة ، أو الكيد ، أو التردد ، ثم جاءوا إلى الإسلام بعد هذا — طوعاً

أو كرهاً – حين ملأ نور الإسلام آفاق الأرض ، وقامت دولته الغالبة — فكأنهم هو دون مكان من سبقوهم ، وجاهدوا وهاجروا ، وصبروا ، وصابروا ، كل حسب دوره على هذا التقدير . . وفى هذا يقول عمر قولته المأثورة : « لا أجعل من قاتل رسول الله ، كمن قاتل معه » .

يريد عمر بهذا التدبير أن يرى الناس درساً عملياً ، يعيش بينهم فى مسيرة الحياة ، وفى السبق إلى الخير . . حيث ينبغى أن يكون لأهل السابقة فى كل موقف يمتحن فيه المسلمون ، المقام الأول فيما ينال المسلمون من هذه الدنيا : « وعند الله ثواب الدنيا والآخرة » .

وكذلك كان يفعل عمر – رضى الله عنه – فى غير المال .

كان إذا اجتمع الناس ببابه [1] واستأذنوا فى الدخول عليه ، أذن أولا لأهل السبق والبلاء منهم ، أياً كانت مكانتهم الاجتماعية فى الجاهلية ، فكان يأذن لبلال ، وأبى هريرة ، وعمار ، قبل أبى سفيان سيد سادات قريش فى الجاهلية وصاحب عيرها ونفيرها .

ويقول عمر إذ ذاك : « إنما الناس عندنا على منازلهم من الإسلام . . نقدم من قدمه الإسلام » . . وقد احتج أبو بكر – رضى الله تعالى عنه – على الأنصار ، بأولوية المهاجرين عليهم وحقهم بالخلافة على المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، فقال فى خطبته يوم السقيفة يخاطب الأنصار : « أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى الكتاب عليكم ، فقال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » (التوبة : ١٠٠) .

(١) أى باب بيته ، إذ لم يكن له مجلس خاص خارج بيته ، وإنما مجلسه المسجد ، حيث يجتمع المسلمون جميعاً . .

كيف قسم عمر الأموال ؟

ونعود إلى سياسة عمر فى مصارف المال ..

بدأ عمر فى قسمة أموال بيت المال فى المسلمين ، بدأ بأزواج رسول الله ﷺ ففرض لكل واحدة منهن اثنى عشر ألفاً ..

وفرض للعباس عم النبي اثنى عشر ألفاً ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف ، فقال له عبد الله : يا أبت لم زدته على ألفاً ؟ ما كان لأبيه من الفضل مالم يكن لأبى ، وما كان له مالم يكن لى .. فقال عمر : إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله من أبيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك . .

وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف ، خمسة آلاف ، وألحقهما بأبيهما ..

وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار : ألفين ألفين ..

وفرض لأهل مكة وبقية الناس ثمانمائة ، ثمانمائة .. وهكذا أنزل كل واحد منزلته من الإسلام ، ومكانته وقرابته من رسول الله ﷺ . وكان ذلك عن تسليم ورضى من المسلمين جميعاً ..

وقد وسع هذا المال كل محتاج ، فكان عمر لا ينام عن ذى حاجة ، كما سنرى ذلك فى مبحث « طلاب المال » بعد أن نفرغ من نظرة إلى السياسة التى كان ينتهجها عمر مع ولاته فى جباية الأموال ، وكيف كان يتخير لهذه المهمة رجالها ، ثم كيف كانت عينه لا تغفل عنهم ، مهما كان حسن رأيه فيهم .

* * *

الفصل الخامس

عمر ومحاسبة عماله

كان عمر – رضى الله عنه – يعانى شدة فى اختيار ولاة الأمصار ، وجباة الأموال ، لأنه كان يرى أنه مسئول عن كل ما يقع منهم من ظلم ، أو انحراف ، أو خيانة .. إنه كان يراهم بعض أعضائه التى يعمل بها ، كاليدين والعينين مثلا .. فإذا سرقت اليد كان الحساب لصاحبها ، وكان قطعها عقوبة له ، لا ليده .

وكان عمر – رضى الله عنه – مع حسن ظنه بصحابة رسول الله ﷺ الذين يوليهم عملا من أعمال الدولة ، يرى أن الحياة الجديدة التى يواجهها الولاة من الصحابة فى الأمصار تعرض لهم ألوانا من الفتن فى كل مظهر من مظاهر الحياة التى لم تكن مألوفة لهم فى الجزيرة العربية .. فالناس هناك غير الناس فى البيئة العربية، من حيث العادات والتقاليد والأخلاق، والحياة غير الحياة فى زخارفها ، ومتاعها ، وطعامها ، ولباسها ،ودورها وقصورها، إلى غير ذلك من تلك المفارقات البعيدة بين ساكن البادية ، وساكن المدينة، ذات الحضارة العريقة التى يجبى إليها ثمرات كل شىء !

هذا ما كان يخشاه عمر – رضى الله عنه – على ولاته ، وهم فى مواجهة هذه الفتن التى تطرقهم فى كل لحظة من [illegible]ات حياتهم فى الأمصار التى [illegible] قاموا عليها .. ومن هنا !

يطرأ عليهم من تغير فى لباسهم ، وطعامهم ، ومسكنهم ومركبهم .. إن الوالى فى نظر عمر كما هو فى مواقع الحياة أشبه بالعود ، ومن تحت ولايته أشبه بالظل لهذا العود ، فإذا استقام العود استقام ظله ، وإذا كان معوجاً كان ظله معوجاً .. وفى المثل : « متى يستقيم الظل والعود أعوج »؟

ولقد حرص عمر – رضى الله عنه – أشد الحرص ، وفكر أعمق التفكير فى اختيار الولاة والعمال على أمصار الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، لأنه كان يرى أن أى تفريط فى انتقاء الولاة ، وفى تخيرهم من بين من عرفوا بالثقة والنزاهة ، وحصافة الرأى ، ونقاء الضمير ، يفسد على الرعية أمرها ، ويأتى على كل صالحة فيها ، ويحيلها مرعى خصيباً للفساد . الذى لا يبقى ولا يذر شيئاً للحياة فيها .

وكان العبء ثقيلا على عمر – رضى الله عنه – لأنه لا يأمن فى كل حين أن يجد الرجل الذى يضع بين يديه هذه الأمانة العظيمة ، ويجىء على الصورة التى يريدها ، ثم إنه إن وجد هذا الرجل فى يومه ، لا يأمن ماذا يكون منه فى غده ، وللأيام ، والأحوال ، سلطانها على النفوس ، تنقلها من حال إلى حال ، وتعدل بها من طريق إلى طريق ..

وقد يهون الأمر ، ويخف عند من يرى أن مسئوليته أمام الله وأمام نفسه تقف به عند الحد الذى يمكن أن تحتمله طاقة البشر ، ولكن عمر – رضى الله عنه – كان يقسو على نفسه ، ويحملها فوق ما تحتمل النفس البشرية، إذ كان يرى أنه مسئول عن كل حدث يحدث فى الدولة الإسلامية، من صغير الأمور وكبيرها ، وإلا ما كان له أن يكون هو الرأس الذى يقوم على تدبير هذا الجسد الكبير ..

وقد كان مما يقوله عمر ـ رضى الله عنه ـ : « لومات جدى بطف[1] العراق لخشيت أن يطالب الله به عمر . » .. وكان من أقواله أيضاً : « لو أن بغلة عثرت بالعراق لخشيت أن يسألنى الله عنها » .

جدى يموت ؟ ! .. أو بغلة تعثر ؟ !

وأين ذلك ؟ فى أطراف العراق ؟ !

عمر يرى نفسه مسئولا عن هذا الجدى ، أو تلك البغلة !!

فكيف بظلم إنسان أو جماعة ؟ كيف بهلاك إنسان أو جماعة جوعاً ؟ وكيف بضياع أرامل وأيتام بمكان قريب أو بعيد منه ؟ وهل هذا مما يمكن أن يقوم به إنسان ، أو تحتمله طاقة الناس جميعاً ؟

وهل يمكن أن يحمل عمر كل هذا الحمل ، ويقدر على الوفاء به ؟ إن ذلك مستحيل مستحيل ! .

وعمر رضى الله عنه يعلم هذا من نفسه ، ويعلم ما يمكن أن يبلغه جهده منه ، وما تحتمله طاقته ؟

ولكنه رضى الله عنه إن يكن يعلم أن ذلك غير مقدور له فى مجال العمل والتنفيذ، فإنه لا أقل من أن يحمله فى مشاعره، ويقيمه فى وجدانه ، و ينزله منزل الحياة فى ضميره . . وحسبه أن يحقق من ذلك ما يرضى مشاعره ، ويغذى وجدانه ، ويريح ضميره ، بما يقدر عليه من إقامة ميزان العدل بين الناس !

وعمر رضى الله عنه قد كان دائماً عند قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يحمل هم » المسلمين ، فليس منهم » ! . بمعنى أن المسلم الذى لا يتألم

---

(١) طف الشىء أعلاه يريد به أبعد مكان فى العراق ، بالنسبة إلى المدينة ، مقر الخلافة .

لآلام المسلمين ، ولا يلتفت بقلبه إلى ما يسوؤهم ، ولا يعمل بيده على ما يرفع الضر عنهم : فليس من جماعة المسلمين ، حيث لا تجمعه جامعة بهم فى سراء أو ضراء ! فأين إذن أخوة الإسلام ؟ وأين إذن الصلة الجامعة بينهم فى دين الله ؟

إن عمر رضى الله عنه يرى أنه مسئول عن كل شىء فى هذا المجتمع الكبير الذى أقامه الله تعالى مقام الرئيس عليه، والرأس فيه ، والراعى له. إنه ضمير مثقل بهذه الالتزامات التى فرضها عمر على نفسه ، والتى أوجبها عليه دينه ، والتى أخذها على كل راع ، وألزمه الوفاء بها، والحساب عليها . يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالإمام الذى على الناس راع ، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والولد راع فى مال أبيه. وهو مسئول عن رعيته ، والعبد راع فى مال سيده ، وهو مسئول عن رعيته . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وخوف عمر رضى الله عنه من التقصير فى الوفاء بهذه المسئولية هو الذى كان يزعجه ، ويؤرقه ، ويصور له المظالم كلها قائمة على رأسه ، والمظلومين كلهم متعلقون به يوم القيامة فى معرض الحساب والجزاء يطالبون بما وقع عليهم من ظلم منه، أو من أحد ولاته !

هذا الخوف المتسلط على عمر هو الذى كان يطارده دائماً ويطرقه فى يقظته و منامه، فلم يدع له لحظة يجد فيها برد الطمأنينة والعافية . فكلما أحس بشىء من هذا طلع عليه هذا الخوف الرابض فى أعماقه ، فيفزع له ويضطرب، ويهب مذعوراً كأنما نهشته حية !!

ولقد نصح له ناصح يوماً حين رأى أثر الجهد والسهر بادياً عليه أن

يخلد إلى شيء من الراحة والنوم . فقال لهذا الناصح : وكيف بهذا ، إن أنا نمت النهار ضيعت حق الرعية وإن أنا نمت الليل ضيعت حق الله . فهل من هذا وذاك نوم ؟

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ـ قال : رأيت عمر بن الخطاب وقد أخذ تبنة[١] من الأرض فقال : ليتنى كنت هذه التبنة ، ليتنى لم أخلق ، ليت أم عمر لم تلد عمر ليتنى لم أك شيئاً ، ليتنى كنت نسياً منسياً !!

وليس عمر فى هذا بالذى ينكر نعمة الخلق ، ولا حكمة الخالق فيما خلق ، ولكنه كان يخشى حساب ربه ، وموقفه بين يدى خالقه ، وهو يقدم حسابه عن كل ما بين يديه مما استرعاه الله تعالى له ، من دين الله ، ومن عباد الله ، وإن طمعه فى رحمة الله لا ينسيه عذاب الله وما أعد للظالمين من عذاب ونكال فإذا ذكر قوله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء » ذكر معه قوله سبحانه : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم ، أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » .

إن مسئولية الإنسان إزاء نفسه وإن كانت مسئولية عظيمة جسيمة ، إلا أنها تكون أعظم وأجسم إذا كان معها مسئولية أخرى ، عن الأهل والولد ، فكيف بها إذا كانت ومعها مسئولية عن أمة بأسرها .

وقد يتخفف كثير من الناس من هذه المسئوليات ، بالتعلات الباطلة ، والأمانى الخادعة .. ولكن عمر رضى الله عنه ـ لم يكن بالرجل الذى ينخدع للأمانى ويتعلل بالأمانى . . وإنه كان « عقلانيا » دقيق الحساب ، لا يقبل فى هذا الموقف إلا ما يقبله عالم الرياضة مما تعطيه لغة الأرقام . إنه راع ، ومسئول عن هذه الرعية كلها . . فلا سبيل إذن إلى المغالطة فى هـذا . . فذلك قدره ، الذى لا مفر له منه ..

---

(١) التبنة : الشذلة من سنابل القمح أو غيره

ولو وجد عمر ـ رضى الله عنه ـ عذراً يخليه من تبعات الخلافة ، أو يخليه من الخلافة ذاتها ، لخلعها عن نفسه ، كما يخلع المرء الثوب الخلق .. ولكنه كان يرى أن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ قد رآه أصلح الناس لها ، وأقواهم على حملها ، وهو يظن فى نفسه أنه عند رأى أبى بكر فيه .. وفى تخليه عن حمل هذا العبء ـ على جسامته ـ نكوص عن المعركة ، وتخلف عن الجهاد ، وخيانة لله ولرسوله والمؤمنين . وما كان لعمر أن ينكص ، أو يتخلف ، أو يخون .. وقد كان يقول : « لو علمت أحداً أقوى على هذا الأمر منى ، لكان أن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أليه » .

* * *

اجتهد عمر غاية الاجتهاد فى اختيار الولاة ، وجباة الأموال ، وفرض عليهم رقابة صارمة ، وأخذ من قصر منهم أو انحرف، بالبأساء والضراء، فى غير رحمة أو مجاملة ، وقد رأينا ماصنع بالصحابيين الجليلين ـ أبى هريرة، وسعد بن أبى وقاص ـ وكيف صادر أموال الأول ، وشاطر الثانى ماله ، دون خيانة منهما ..

ولهذا خافه معظم الصحابة ، ورغبوا عن أن يتولوا له عملا ، لأنه مع هذا الحساب العسير لهم ، كان يضيق عليهم فى حياتهم ، ولا يسمح لأحد منهم أن يظهر فى مظهر الإمارة ، وأن يأخذ سمت الأمراء والحكام من العجم ، فى رواء المظهر ، واتخاذ الحجاب ، أولين الملابس والمآكل ، بل كان يفرض عليهم حياة لا تبعد كثيراً عن حياة سمت البادية الغليظة الخشنة ، التى كانوا عليها .. لأنه كان يرى فى التحول عن هذه الحياة ، والخروج منها ، لابد أن يتبعه تغير فى الجوهر ، وتحول عن المألوف المعتاد من الخلق والسلوك .

روى أن أبا عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ وقد رأى عمر يأخذ عماله بهذه السياسة الصارمة ـ قال لعمر : « دنست أصحاب رسول الله ﷺ ـ أى بتوليهم الأعمال ـ فقال له عمر : « يا أبا عبيدة .. إذا لم أستعن بأهل الدين على سلامة دينى فبمن أستعين ؟ فقال أبو عبيدة : أما إذ فعلت فأغنهم بالعمالة عن الخيانة » ـ أى إذا استعملتهم ، فأجزل لهم العطاء ، ووسع عليهم ، حتى لا يحتاجوا ، فينحرفوا ! وذلك لأن المال فى أيديهم ، والحياة ناضرة مزهرة من حولهم ، فإذا أخذهم عمر بهذا الحرمان القاسى ، لم يصبروا ، وتفلتوا من يده ، فكانوا بين هارب من الإمارة ، أو خائن لها .

روى أن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : « بعث إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فأتيته ، فقال : يا ابن عباس .. إن عامل «حمص» قد هلك ـ أى مات ـ وكان من أهل الخير ، وأهل الخير قليل[1] وقد رجوت أن تكون منهم .. فدعوتك لأستعملك عليها ، وفى نفسى شىء منك أخاله ، ولم أره منك ، وأنا أخشاه عليك . . فما رأيك ؟ قال : قلت : فإنى لا أرى أن أعمل لك عملا حتى تخبرنى بما فى نفسك . قال : وما تريد من ذلك ؟ قلت أريد إن كنت بريئاً من مثله ، عرفت أنى لست من أهله ، وإن كنت ممن أخشى على نفسى خشيت عليها مثل الذى خشيت على !! فما رأيتك ظننت شيئاً إلا جاء عليه الوحى !!

فقال يا ابن عباس إنى أطمح حالك[2] .. إنك لا تجدنى إلا قريب الجد ، وإنى خشيت عليك أن تأتى على النبى ـ الذى هو آت ، وأنت فى عملك ، فيقال لك هلم إلينا[3] ، ولا هلم إليكم دون غيركم .. إنى رأيت رسول

---

(١) إذا كان أهل الخير قليل فى صدر الاسلام ، فكيف بأهل الخير اليوم ، بهذا المقياس الذى يقيسهم عمر به الناس ؟

(٢) أى أرقب حالك ، وأدرسه متفرساً .

(٣) أى أقبل الينا لنظفر برضاك ، والقرب منك ، واللياذ بك ، الأمر الذى لا يكون من الناس مع غيركم أهل البيت ، وهذا مما قد يفتن الناس .

ﷺ استعمل الناس وتركك . . قال « ابن عباس » . والله لقد رأيت الذى رأيت ، ولم تراه فعل ؟ أى ـ لم فعل النبى ذلك ، فلم يول أحداً من أهل البيت؟ـ فقال عمر: والله ما أدرى أصرفكم عن العمل وأرفعكم عنه ـ وأنتم أهل لذلك، أم أنه خشى أن تعاونوا لمكانكم منه ، فيقع العتاب عليكم ولا بد من عتاب . . فقد فرغت لى ، وفرغت لك ! فما رأيك ؟ قلت : لا أرى أن أعمل لك ! قال : ولم ؟ قلت : لأنى إن عملت لك وفى نفسك ما فى نفسك لم أبرح قذاة فى عينك . . قال فأشر على ! ! قلت : أشير عليك أن تستعمل صحيحاً منك ، صحيحاً عليك » !! ـ أى هو على ثقة منك ، وأنت على ثقة منه !

فهذا ابن عباس ، على قرابته من رسول الله ﷺ ، وعلى مكانته بين المسلمين ، وعلى ما عرف عنه من علم وفقه ، والذى كان كما رآه عمر ، يقول له : « غص غواص » أى غص ياغواص : لتستخرج لنا من صدرك جواهر العلم والحكمة .. هذا ابن عباس ، وهذا علمه وفضله ومكانته ، تنازع عمر نفسه فى أن يوليه عملا لما يعرف من فضله ، ثم يحيك فى صدره شىء ، يظنه ولا يتحققه ، فيصارح ابن عباس به ، ويجمع رأيه إلى رأيه ، ثم يلتقى الرجلان على ما يرضيهما معاً : فيعتذر ابن عباس عن العمل ، ويقبل عمر عذره ، ثم يطلب إليه الرأى فيمن يوليه ، فيعطيه رأيه ونصحه خالصاً لله.

تحت أضواء هذا الفحص الدقيق الشامل ، كان يتخير عمر عمال الأمصار وجباه الأموال ، فإذا وقع اختياره على رجل ، فلا شك أن يكون هذا الرجل على أحسن ما يكون عليه الرجال ، من عقل ، ودين ، وخلق .. وحسبه أن ينجح فى امتحان يجريه له عمر ، ويضعه تحت أضواء فراسته ، ثم يفحصه فى أناة وحذر وارتياب ! ! إن مثل هذا الرجل الذى يجوز هذا الامتحان ، وينجح فيه ، هو قليل فى الرجال ، وليس من الميسور العثور على

من يخلفه ، إذا خلا مكانه بموت أو استشهاد .. ولهذا كان عمر حريصاً أشد الحرص على هؤلاء الولاة الذين تخيرهم للعمل معه .. يحوطهم بسياج من الرقابة والمناصحة ، والمراجعة ، حتى يظلوا على الحال التي اختارهم عليها ، ولا يغيرهم تغير الزمان والمكان ، فيعزلهم ، ويصعب عليه أن يجد من يرضاه ليحل محلهم .. كان مما يلتمسه عمر فى الوالى الذى يريده ، هو أن يكون قوياً ، وأميناً معاً .. يخشاه الناس ويحبونه فى آن واحد .. وكان ـ رضى الله عنه يقول .. «أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميرهم ، كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم ! » .. هذه هى صفات من يليق بمنصب الإمارة عند عمر .. هو رجل محبوب ومهاب فى كل حال ، وهذا محال أو شبه محال !!

وكان ـ رضى الله عنه ـ إذا صحت نيته على اختيار عامل ، بعد أن يمتحن جميع أحواله ـ ثم إذا بدت من هذا الرجل بادرة ، أمسك عمر عن تعيينه وصرف نفسه عن الرغبة فيه !

فقد روى أنه أراد أن يستعمل رجلا على عمل ، ولم يكن هذا الرجل يدرى ما أراد عمر له ، فجاء إلى عمر يعرض نفسه عليه ، ليوليه عملا ، فقال له : «كنا قد أردناك لذلك ، ولكنك إذ طلبته فاتت أهلا له ، لأن من طلب الولاية لم يقم عليها » . ومعنى هذا أن من يطلب الإمارة والولاية ، إنما يطلب لنفسه سلطاناً على الناس ، مستجيباً فى ذلك لشهوة الحكم والسلطان ، فلا يجد من الله ، ولا من الناس عوناً له ، لأنه إنما يعمل تحت حكم شهوة متسلطة عليه من نفسه . ومن كان هكذا فلن يرضى الله . ولا الناس عنه . لأنه لا يعمل بما يطلب به رضا الله ولا يحقق به مصلحة الناس . وإنما يعمل بما يرضى نفسه ، ويحقق مصلحته !!

وإلى هذا يشير الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بقوله لعبد الرحمن ابن سلمة . وقد طلب الإمارة : « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة ، أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها » . . وقال صلوات الله وسلامه عليه لقوم سألوه الإمارة : « إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه » وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر عن الإمارة : « إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » ! !

ومع هذا ، فإن عمر ـ رضى الله عنه ـ لم يكن ليبرىء ذمته من التبعة ، بحسن اختياره لعماله ، بل كان يرى أنه مسئول قبلهم فيما يقع منهم من ظلم أو تقصير .. إنه لا يرى الولاة إلا بعضاً منه ، وأن كل ما يكون منهم من إساءة أو إحسان ، راجع إليه . . وهو مسئول عنه ..

وفى هذا يقول : « أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل .. أكنت قضيت ما على ؟ قالوا نعم ، قال : لا ، حتى أنظر فى عمله ، أعمل بما أمرته أم لا ؟ » .

هذا عمر فى مقام الاختيار للولاة ، ثم مراقبتهم ، والنظر فيما يكون منهم . .

أما فى مقام المحاسبة ، والجزاء على ما يقع من الولاة من تقصير أو خروج عن السياسة التى رسمها عمر لهم من العمل بشريعة الله ـ فإن الأمر فيه يجرى على الأسلوب العمرى المتميز ، الذى عليه طابع شخصيته ، وعبقريته ..

فعمر مع حرصه الشديد على ألا يفلت من بين يديه مقصر من ولاته وعماله ، كان يرجو السلامة لهم ، ولا يشتهى تصيد التهم وإلصاقها بهم ، إظهاراً

سلطانه ، أو إشاعة لروح الخوف منه ، حتى لا يفكر أحد فى الخروج عليه ، كما هو الشأن عند كثير من أصحاب السلطان الذين ينكلون بالأبرياء ، ليكونوا عبرة للناس جميعاً : البرىء والمسىء ، ليرهبهم الناس ، وليكون من هذه الرهبة حارس لسلطانهم .. وفى هذا يقول الشاعر ناصحاً لأحد الولاة بهذه السياسة الظالمة الغشوم :

شدد العقاب على البرىء — وما جنى — حتى يكون لغيره تنكيلا

لم يكن موقف عمر فى محاسبة الولاة والجباة ، إلا تأديباً لمن انحرف منهم ، وإلا محاولة لإصلاح من يمكن إصلاحه ممن اختل ميزان العدل أو اضطرب فى يده ، فكان للولاة راعياً ناصحاً مؤدباً ، كما يفعل الأب الحصيف الرشيد مع أبنائه !

روى أبو يوسف — صاحب أبى حنيفة — أن عمر — رضى الله عنه — كان إذا استعمل رجلا أشهد عليه رهطاً من الأنصار وغيرهم ، واشترط عليه شروطاً منها : ألا يركب برذوناً ، ولا يلبس ثوباً رقيقاً ، ولا يأكل نقياً ولا يغلق باباً دون حوائج الناس ، ولا يتخذ حاجباً » !![1].

إن عمر — رضى الله عنه — يفرض هذه الشروط على ولاة يتولون شئون المسلمين فى الشام والعراق ومصر . . فى بلاد عمرت بألوان الحياة ، ولبست أثواباً زاهية من الحضارة ، لا يكاد يقل روعة وفتنة عما نشهده فى أرقى المدن فى حياتنا المعاصرة .. فالقصور عامرة بالأثاث والرياش وأدوات الذهب والفضة ، والأفنية حالية بالحدائق الوارفة بالظلال الطيبة الثمار ، الجارية الأنهار —

---

(١) البرذون الحمار المهيء للركوب ، بسرجه ولجامه ، والنقى من الخبز ، ما كان من دقيق منخول .

والطرقات تتزاحم فيها المراكب الفاخرة ، تجرها الجياد العتاق ، عليها زينتها الموشاة بالذهب والفضة .. تلك هي بعض مظاهر الحياه في الأمصار التي ولى عمر عليها ولاته ! فهل يستقيم الأمر لهؤلاء الولاة إذا هم أخذوا أنفسهم بهذا الذى رسمه الخليفة لهم من أسلوب هذه الحياة التي يحيونها على النهج الذى نهجه لهم عمر ؟

ألا يركب الوالى برذوناً ؟ والناس من رعيته يركبون الخيل المطهمة ، والمراكب الفاخرة التي تجرها الجياد ! وعلى سروج مكسوة بالحرير محلاة بالذهب والفضة ؟ ولا يلبس الوالى رقيقاً من الثياب .. والناس من رعيته يلبسون الديباج الموشى بالخيوط المجدولة بالذهب والفضة ؟

ألا يأكل الوالى نقياً ـ يعني ألا يتخذ خبزه من دقيق منخول ـ والناس من رعيته يجمعون عشرات الأصناف من لين الطعام وطيبه على موائدهم ؟ فأى نفس تحتمل هذا ، والحياة من حولها تطل عليها بما يزرى بكل ما فى يدها ويزهدها فيه ؟

إنه لو كان ذلك العيش في البادية ، لكان من الممكن احتماله والصبر عليه ، إذ هو الطابع الذى يطبع الحياة كلها هناك .. وحتى إن البادية نفسها لم يكن يحتمل بعض الناس فيها تلك الحياة المألوفة لها بعد أن فتحت عليها الشام والعراق ومصر ، وبعد أن نفذت إليها أخبار تلك الأمصار ، وحلت إليها كثير من أشيائها ، وعرفتها ألوان كثيرة من الترف والنعيم .

فكيف يلزم عمر ولاته هذه الحياة ؟ وهل كان يغيب عن فطانة عمر ، ما يعمله هذا التناقض بين الحياة التي يحياها الوالى ، وبين هذه الحياة الدائر دولابها في قوة من حوله ؟ وكيف فاته أن يظن أن ذلك مما يمكن أن يكون

من الولاة وهم فى وسطه هذه المظاهر من الحياة ، والتى إن أرادوا أن يعزلوا أنفسهم عنها ، دخلت هى عليهم من كل باب ؟

ولا نحسب أن عمر — رضى الله عنه — كان يغيب عنه شىء من هذا الحرج الذى يقع فيه عماله ، إذا هم أخذوا بهذا الأسلوب من الحياة ، الذى يعترض التيار العنيف الذى تجرى فيه الحياة . . لا نغيب عن عمر هذا ، وإنما أراد بذلك أن يكون الولاة هم القوة التى تعترض هذا التيار الزاحف ، وأن يعطوا لذلك كل ما عندهم من إيمان ، وصبر ، وجهاد ، فإن عجز أحدهم عن ذلك بعد أن يبلى بلاءه ، نظر عمر إليه نظرة الطبيب إلى المريض ، فإن وجد لدائه دواء نصح له به ورده إلى عمله ، وإن لم يجد له دواء خلعه من عمله ، وأقام غيره مكانه ، لعله يقدر على ما عجز عنه صاحبه !!

وقد نجح فى هذا الامتحان كثير من ولاة عمر ، كما أن كثيرين منهم لم ينجحوا ، ولم يحتملوا قسوة هذا الامتحان .

روى أبو يوسف فى كتابه « الخراج » أن عمر — رضى الله عنه — كان يمشى فى بعض طرق المدينة ، إذ هتف به رجل فقال : يا عمر . « أترى هذه الشروط[1] تنجيك من الله ، وعاملك « عياض بن غنم » على مصر ، قد لبس الرقيق ، واتخذ الحاجب ؟ » .

فدعا عمر : « محمد بن سلمة » وكان رسوله إلى عماله ، فبعث به إلى عياض وقال له : ائتنى به على الحال التى تجده عليها ، فأتاه محمد بن مسلمة ، فوجد على بابه حاجباً ، فدخل عليه ، فإذا عليه قميص رقيق ، فقال له : أجب أمير المؤمنين ،

---

(١) يشير إلى الشروط التى اشترطها عمر على عماله ، والتى أشرنا إليها منذ قليل .

فقال : دعنى أطرح على قبائى[١] فقال لا ، إلا على حالك هذه ! . فقدم به على عمر ، على حاله هذه !.!

تذكرنى هذه الواقعة ، بالحديث الشريف : « يبعث المرء على ما مات عليه » أى كما كان عليه فى الحال التى فارق فيها الحياة ، فالمرء يبعث يوم القيامة للحساب والجزاء على الصورة التى كان عليها عند موته ، فإن كان فى الصلاة بعث وهو يصلى ، وإن كان على شراب بعث وهو على شرابه هذا .. وهكذا .

وهذا « محمد بن مسلمة » رسول عمر بن الخطاب إلى الوالى عياض ، قد جاء به إلى عمر للحساب والجزاء على الحال التى وجده عليها . . . .

فماذا صنع عمر ؟

قالوا : « فلما رآه عمر ، قال له : انزع قميصك ، ودعا بمدرعة صوف[٢] ، وربضة[٣] من غنم وعصا وقال له : إلبس هذه المدرعة ، وخذ هذه العصا ، وارع هذه الغنم ، واشرب واسق من مر بك ، واحفظ الفضل علينا ! ! أسمعت ؟ قال : نعم والموت خير من هذا ! ! فجعل عمر يرددها عليه ! وهو يردد : الموت خير من هذا .. فقال له عمر : ولم تكره هذا ، وإنما سمى أبوك غنما لأنه كان يرعى الغنم ؟

وإذ استجاب الوالى لأمر الخليفة ، وتقبل الأمر الذى دعاه إليه ، رق له عمر ، ووجد أن ما صنعه عياض من لبس الرقيق وإقامة الحاجب على بابه ،

---

(١) القباء : كساء يشبه العباءة ، يلبس فوق الثوب .

(٢) قميص من الصوف له أكمام ، أشبه بالدرع ، يغطى الصدر والبطن ، أو الظهر إلى الركبتين ، ولا يغطى الذراعين .

(٣) الربضة : الجماعة من الغنم .

لم يكن بالجرم الذى لا يغتفر مع ظروف الحياة الضاغطة على الوالى فى مصر. ولهذا نراه يقول لعياض بعد أن لقنه هذا الدرس ، وعرضه لتلك التجربة القاسية ـ نراه يقول له : « أعندك خير ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين،قال : انزع ـ أى اخلع المدرعة ـ ورده إلى عمله ، فلم يكن عامل يشبهه » !

هذه صورة من صور عمال عمر ، وما كان يؤدبهم به ليخفف عنهم ما عرض لهم من عوارض الحياة الجديدة التى دخلت عليهم ! !

وصورة أخرى ، قريبة الشبه بالصورة السابقة ، وهى مع « ابن قرط » أمير حمص بالشام .

عن « عروة بن رويم » قال : بينا عمر يتصفح الناس فى موسم الحج ، يسألهم عن أمراء أجنادهم ، إذ مر بأهل حمص ، فقال كيف أنتم ، وكيف أميركم ؟ قالوا : خير أمير يا أمير المؤمنين إلا أنه بنى علية ـ أى مقصورة ـ يكون فيها ، فكتب عمر كتاباً ، وأرسل رسولا يحمل كتابه، وأمره فيه : « إذا جئت باب عليته فاجمع حطباً وأحرق باب عليته ، فلما قدم الرسول إلى حمص،جمع حطباً وأحرق باب العلية ، فدخل الناس على الأمير،وذكروا له أن هاهنا رجلا يحرق باب عليته .. فقال : دعوه ، فإنه رسول أمير المؤمنين!! ثم دخل عليه فناوله الكتاب ، فلم يضع الكتاب من يده حتى ركب متجهاً إلى المدينة ، فلما دخل على عمر . قال عمر : احبسوه عنى فى الشمس ثلاثة أيام،فحبس عنه ثلاثاً ، حتى إذا كان بعد ثلاث دعاه وقال : يا ابن قرط : الحقنى إلى الحرة ـ أى اتبعنى إلى هذا المكان،وهو خارج المدينة،وفيه إبل الصدقة ـ ومضى عمر إلى الحرة، فلما جاء «ابن قرط»ألقى عليه نمرة ـ أشبه بالفروة ـ وقال له : انزع ثيابك ، وابرز بهذه ، ثم ناوله الدلو ، وقال له : اسق هذه الإبل ، فلم يفرغ حتى لغب ـ أى تعب ـ فقال له عمر : يا ابن قرط:

متى كان عهدك بهذا ؟ ـ أى النضح بالدلو ـ قال : مليًا ـ أى منذ عهد قريب ـ قال عمر: فلهذا بنيت العلية وأشرفت بها على المسلمين ، والأرملة واليتيم ؟ ارجع إلى عملك ولا تعد !! » .

وهكذا يفيق الوالى بعد هـذا الكابوس المزعج الذى خرج به عن سلطانه، وألبسه ثوب الحياة البادية الجافية ورده إلى حرور الصحراء وزمهريها، ثم يصحو وإذا هو وبين يديه سلطانه الذى عاش مفارقًا له تحت وطأة هذه التجربة القاسية .. إنه لن يعود أبدًا إلى أى خطأ يسلبه ما عاد إلى يده بعد أن نزع منه .. ولا شك أن مثل هذه التجربة مع الوالى الذى لم يستقم على منهج عمر، وذلك بخلعه أولا ، ثم رده ثانيًا ـ من شأنها أن تضع بين يدى عمر واليًا محصنًا من أن يصاب مرة أخرى بعدوى الترف، والانغماس فى الحياة الجديدة وليس كذلك الوالى الذى يتقلد الولاية لأول مرة ، إنه فى معرض الغواية!! والانحراف ، لأنه لم يقع فيهما ولم يجرب ما ينجم عنهما . ولعمر ـ رضى الله عنه ـ كلمة حكيمة تقول : « من لم يعرف الشر جدير بأن يقع فيه »!! وليس معنى معرفة الشر أن يتجرع المرء كئوس الآثام والشرور ويعب منها ، ثم يبتلى بآثارها السيئة فيه ، وعندئذ يترك الشرور ويجانب الآثام ، فهذا عمل مردود من أكثر من وجه :

فأولا : أن ذلك جرم ، اقترفه الإنسان، وشر وقع فيه ، ولا يمكن أن يبرر هذا الجرم بأى وجه من وجوه التبرير ، حتى لو كان ذلك من أجل اكتشاف الآثار السيئة الناجمة عن اقتراف هذا المنكر ، ليكون المرء على علم به ، فيحذره . . إن هذا مخاطرة بالنفس ، وإلقاء بها فى التهلكة كمن يشرب السم ليختبر آثاره ، ويدرك خطره!!

وثانيًا : أنه ليس من الممكن فى جميع الأحوال أن يتخلص الذى

اجترأ على ارتكاب الخطيئة ، ومقارفة الإثم ، مما كان قد وقع فيه ، وأن يعود إلى شاطىء الأمن والسلامة ، بل إنه كثيراً ما تكون الخطوة الأولى في محيط الآثام ، موصولة بخطوات بعدها لا تنتهى حتى ينتهى العمر ! !

وإذن فليس المراد بقول عمر — رضى الله عنه — «من لم يعرف الشر جدير بأن يقع فيه» هو معرفته عن طريق التجربة العملية ، وإنما يكفى فى توقى الشر أن يرى المرء آثاره فى غيره ، فهذه المعرفة هى علم به وربما ينجم عنه ، وهذا من شأنه أن يرسم فى وعى الإنسان صورة كريهة له ، بحيث إذا رآه فر منه، فراره من المرض الخبيث !! وفى المثل : «حسبك من شر سماعه» . وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر يوماً يقع فيه

وفى موقف عمر من والى حمص هذا مما يكشف عن كثير من فطنة عمر، ومعرفته لآفات النفوس، وما يمكن أن تعالج به تلك الآفات .. فقد فعل عمر ما فعل بوالى حمص، من إلباسه مدرعة الصوف، ومن إقامته فى الشمس أياماً، ثم دعوته إلى أن ينضح بالدلو — كل هذا الذى فعله عمر بهذا الوالى، هو مما كان يعالجه الوالى فى حياته بالبادية، قبل أن يذهب إلى حمص، ويقوم والياً عليها . ويأخذ ببعض ما وجد من الحياة فيها . . فلقد نزع عمر من هذا الوالى الجلد الجديد الذى لبسه فى حياة حمص ، وأعاد إليه جلد البدوى الذى عاش فيه من قبل . . ثم أعاده إلى عمله . إنها عملية غسيل لنفس هذا الوالى مما دخل عليها من حياة الحضر، ليعود بها إلى حالها الأولى التى دخلت بها الإسلام، واصطبغت بصبغته، وفى هذا ما يقيم صاحبها على صهوة الأولى

من صحبة لرسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ والتأسى به وبالحياة التي كان يحياها .

ونعود بعد هذا الاستطراد، لنأخذ موقفنا بين يدى عمر ـ رضى الله عنه ـ وما كان يؤدب به عماله ، حين يكون من أحدهم ما لا يرضاه الخليفة ، سواء أكان ذلك فى صلة الوالى بمن تحت ولايته ، أو كان ذلك فى خاصة نفسه، أو ما يسوس له به فى دينه أو دنياه ! ونلتقى بصورة ثالثة لوالى من ولاة عمر ـ رضى الله عنه ـ وكيف أنه أتى من الزهد والورع، بأكثر مما كان يرجوه عمر فى أحسن ولاته وآثرهم عنده .

فهذا «عمير بن سعد» . كان والياً لعمر على «حمص» وقد مكث عاماً كاملا لا يصل شىء من أخباره إلى عمر، فكتب إليه عمر يستدعيه : « إذا أتاك كتابى هذا فأقبل . وأقبل وما جبيت من فىء المسلمين» . فأخذ «عمير» جرابه ووضع فيه زاده وقصعته وعلق إداوته[1] فى عنقه وأخذ عصاه . وسار من حمص إلى المدينة ماشياً لم يركب ظهراً، ولم يجعل فى رفقته أحداً .. فدخل على عمر، وقد شحب وجهه وتغير لونه وضمر جسمه ، وطال شعره، فجزع عمر لما رأى من عامله ، وقال له : أأجدبت البلاد ؟ قال : ما أجدبت ؟ فقال عمر : فما الذى أرى بك ؟ قال : ما ترى ؟ ألست صحيح البدن معافى ؟ ! قال : فأين الخراج ؟ قال : « حين جئت البلد ، جمعت صلحاءه فوليتهم جبايته فيئهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك شىء منه لأتيتك به ! ! فقال عمر : ألم تكن لك دابة تركبها ؟ قال : كلا . قال عمر : أما أحد تبرع لك بدابة ؟ قال : ما فعلوا وما سألتهم ؟ فقال عمر : جددوا لعمير ولايته ! فقال « عمير » : « إن ذلك لشىء مضى ، لا عملت لك بعدها ،

---

(١) هى مطهرة يضع فيها المرء أدواته

ولا عملت لأحد بعدك» ، واستأذن فى الانصراف إلى بيته . . فقال عمر فى نفسه : ما أراه إلا قد خاننا ، فبعث فى أثره رسولا ، وأعطاه مائة دينار وقال له : انطلق إلى عمير ، حتى تنزل ضيفاً عليه ، فإن رأيت أثر شىء فأقبل ، وإن رأيت حاله على ما رأيت منه فادفع إليه المائة دينار . فنزل به الرجل ثلاثة أيام ، وليس لعمير وزوجه إلا قرصة من شعير ، كانوا يخصون بها الضيف ويطوون بطونهم على الجوع حتى أجهدهم ذلك ، فأخرج الرجل الدنانير فدفعها إليه ، فصاح عمير : لا حاجة لى فيها ، فقالت له امرأته : خذها إن احتجت إليها ، وإلا ضعها مواضعها . . فقسمها عمير بين أبناء الشهداء . . ولما علم عمر بهذا استقدم عميراً ، وأمر له بوسق من طعام ، وثوبين ، فقال عمير : أما الطعام فلا حاجة لى فيه ، قد تركت بالمنزل صاعين من شعير ، وإلى أن آكل ذلك يكون قد جاء الله تعالى بالرزق . . وأما الثوبان ، فإن أم فلان عارية ، فأخذهما ، ورجع إلى منزله » !!

هذه صورة لا نطمع أن تتكرر فى الحياة ، وخاصة فى عصرنا هذا ، الذى وقع الناس فيه تحت سلطان المادة وعبادة المال ، حيث رق الدين ، وماتت الضمائر ، واختلت معايير الأخلاق ، فصار كل ذى سلطان همه أن يوجه كل سلطانه لذات نفسه بالتسلط على الناس وانتزاع ما فى أيديهم ليده، وتحول الرعاة إلى ذئاب يفترسون ما يرعون[1] !

وإذا كان لمثل هذا الوالى « عمير بن سعد » أن يذهب هذا المذهب فى ولايته، ويهزم فى نفسه كل دواعى الشهوة — إذا كان لمثل عمير بن سعد هذا أن يجد من دينه الذى تمكن من قلبه قوة يستعين بها على دفع تيارات الحياة المادية المندفعة من حوله — فإن له أيضاً من أمير المؤمنين عمر — رضى الله عنه —

(١) كان ذلك قبل عهد الرئيس المؤمن محمد أنور السادات، الذى خاف الله ، فأمن الناس

القدوة الصالحة ، والمثل الحى الواقع الذى يجعل مر العيش فى فمه حلواً ، ويجد خشونة الحياة لينة!!

فالناس على دين ملوكهم ، كما يقولون ، ولمثل صالح يراه الناس فى سلوك إنسان ، خير من ألف موعظة ، لا يرون أحداً عاملا بها ، وخاصة إذا كان الواعظ من أولى الأمر!!

ولا بد من وقفة هنا ، بين يدى هذا الموقف ، من كل من عمر ـــ رضى الله ـ ، وعامله على حمص « عمير بن سعد » ـ رضى الله عنه ـ فهذا الوالى ، قد ظل على ولاية حمص عاماً كاملا ، لم يبعث إلى الخليفة بشىء من الفىء أو الخراج ، الذى جاء إليه من ولايته ، وما لبيت مال المسلمين فيه من حق .. وحين سأله الخليفة : « أين الخراج » أجابه بقوله : « حين جئت البلد جمعت صلحاءه فوليتهم جباية فيئهم ، حتى إذا جمعوه ، وضعته مواضعه ، ولو نالك شىء لأتيتك به !! » .

وإذن فقد جمع « عمير » المال من حقه ، لم يقع فيه ظلم على أحد من الرعية التى تحت يده ، إذ قد اختار صلحاء أهل البلد ، فولاهم جمعه من المستحق عليهم .. فلما اجتمع له ما جمعوا وضعه مواضعه ، من مصالح الجند وما يلزمهم من نفقات وسلاح ، ومن إطعام الفقراء ، وإعالة اليتامى والأرامل .. إن الوالى هنا يقوم مقام الخليفة فى رعاية رعيته ، وسد حاجاتها .. المال الذى يجىء إليه ، هو من بيت مال المسلمين الذى يقوم عليه أمير المؤمنين !! وقد أنفق هذا المال فى وجوهه المشروعة ، ولم يبق منه شىء ..

هذه واحدة ؟

وأخرى ، هى تلك الحال التى جاء بها هذا الوالى على الخليفة ،

إذ قد جاء ماشياً على قدميه من حمص إلى المدينة ، يتزود هو وزوجه بالقليل القليل من الطعام ، ويلبسان الخشن من الثياب !!

ولقد أنكر عمر هذه الحال التى عليها واليه هذا ، وهو على بلد فيه الخصب والخير ، وكيف لا تكون له دابة يركبها ، وكيف لا يجد أحداً يعيره دابته ليقطع بها هذه الرحلة الطويلة الشاقة !! أهكذا يمكن أن يقع فى الحياة ، وفى بلد كبير كهذا البلد ، ومع الوالى الذى يحكمه ؟

ولم تشف نفس عمر تلك الإجابات التى أجابه الوالى بها للكشف عن هذا الأمر العجيب . فحدثت عمر نفسه أن فى الأمر شيئاً !! أفلا يجوز أن يكون هذا الوالى قد مثل هذا الدور ليرضى عمر عنه ، وهو يعلم ما يرضى عمر عن عماله ، فجاء إليه بتلك الصورة التى جاء بها ؟ قد يكون !

وهنا يعرض عليه عمر أن يعود إلى ولايته ، وقال : «جددوا لعمير ولايته» ! ولكن عميراً يأبى قبول العودة إلى الولاية مرة أخرى ؛ ويقول لعمر : « إن ذلك شيء قد مضى ، لاعملت لك بعدها ؛ ولا عملت لأحد بعدك » !

وهنا يقع فى نفس عمر شيء آخر .. ألا يحتمل أن يكون عمير ، قد جمع فى ولايته كثيراً من المال ؛ واحتجز الكثير منه لنفسه ، ثم يعتزل الولاية ليعيش بهذا المال ؛ كما يحلو له ؟ .. ذلك محتمل !

ويمضى عمر فى الكشف عن حال « عمير » ـ رضى الله عنه ـ فيقيم عليه من يتفقد أحواله ، ويرصد الحياة التى يحياها مع زوجته ، بعد أن نزع ثوب الولاية عنه .

وتكشف التجربة عن رجل مترفع عن متع الحياة ورفهها ، لا يأكل

إلا لقيمات من عيش الشعير ، بلا إدام . فإذا قدمت إليه المائة دينار التى حملها إليه رسول عمر ؛ قال لا حاجة لى فيها ، حتى إذا قالت له زوجته : خذها لما قد تحتاج إليه ؛ أخذها ؛ وفرقها فى أبناء الشهداء بالمدينة !!

ثم حين يستدعيه عمر ، ويأمر له بوسق من طعام ، وثوبين ، يأبى أن يأخذ هذا الوسق ، قائلا : فى بيتى صاعين من شعير ، وإلى أن آكل ذلك يكون قد جاء الله بالرزق .. أما الثوبان ، فقد ذكر أن أم فلان وربما تكون زوجته ـ عارية ، فأخذ الثوبين ، يكسوها بهما »!!

« إن الدين عند الله الإسلام » ـ فما أعظم هذا الدين الذى يتربى فى ظله أمثال عمر ، وعمير!!

إن عمر ، هو الصورة التى اكتملت فى الناس من رجالات الإسلام ، وإن عميراً صورة مصغرة من عمر لفظاً ومعنى ! وإن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب ، لما فى الإسلام من مبادىء الحق والعدل والإحسان ، التى تخرج شجرتها مثل هذا الثمرات « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ـ صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ... إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

فهذا عمر ، وذاك عمير ، على مائدة الإسلام ، أحدهما تمر والآخر عنب!

* * *

وسياسة عمر ـ رضى الله عنه ـ مع نفسه ، وقسوته عليها ، إنما كان يتوخى بها أن يكون قدوة للناس بما أخذ به نفسه ، حتى إذا قال قولا أو أمر أمراً ، وجد الأذن السامعة ، والإرادة المنفذة ، إذ كان هو أول من عمل بما قال ، وامتثل بما أمر .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا

ما لا تفعلون » .. فإن القول الذى لا ينتج فعلا ، ولا يحقق عملا من صاحبه ، هو شهادة على نفاق صاحبه !

ومع ما أخذ به عمر نفسه من الشدة والقسوة ، فإنه كان يعلم أن لكل نفس سعتها ، وأن ما يحتمله هو قد لا يحتمله كثير من الناس ، والله تعالى يقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . . كما أنه كان يعلم أن الظروف المتغيرة فى الزمان والمكان ، لها آثارها فى الناس ، فساكن الحضر لا يحتمل ما يحتمله ساكن البادية ، والذين لم يصحبوا رسول الله ﷺ صحبة ملازمة ، لا يبلغ بهم إيمانهم ما يبلغه إيمان الذين صحبوه ولازموه ، وتنسموا أنسام النبوة طويلا منه .

روى أن عمر - رضى الله عنه - حين قدم إلى الشام تلقاه معاوية ، وكان والياً عليها ، وقد اتخذ من مظاهر الملك وأبهته مالا عهد للعرب به ، وكان عمر يركب حماراً ، حين استقباله معاوية بموكبه العظيم ، ولما التقى معاوية بأمير المؤمنين ترجل وسلم بالخلافة فلم يرد عليه عمر ، ومضى فى طريقه على حماره ، ومعاوية يتبعه ماشياً حتى جهد ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين : أتعبت الرجل فهلا كلمته ، فالتفت عمر إلى معاوية وقال له : أإنك لصاحب هذا الموكب الذى أرى ؟ قال : نعم ، قال عمر : وتقول نعم !! مع شدة احتجابك ، ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؛ قال : نعم !! قال ونعم أيضاً !! ويحك .. ولم ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إننا ببلاد كثير فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد . استخف بنا الأعداء !! وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة [1] جرأة الرعية ، ثم أنا بعد عاملك ، فإن

---

(١) أى التبذل ، وهو عدم التستر و التحجب ، وهنا فى رأى معاوية مما يجرىء العامة عليه ، أو يفد إليه من الأعداء من يقتله !!

استنقصتنى نقصت ، وإن استزدتنى زدت ، وإن استوقفتنى وقفت ! ! فقال عمر — وهو يكشف عن دهاء معاوية — : « ماسألتك عن شيء إلا خرجت منه .. إن كنت صادقاً ، فذاك رأى لبيب ، وإن كنت كاذباً ، فتلك خدعة أريب .. لا آمرك ولا أنهاك » .

فهذا موقف يلتقى فيه الإيمان والفراسة . مع الدهاء والسياسة ، عمر فى هذا الجانب ، ومعاوية فى الجانب الآخر .. وقد رأى عمر أن السياسة هنا غالبة ، وأن ظروف الحياة ومتغيرات الزمان والمكان فى جانب الدهاء والسياسة ، فترك لمعاوية الأمر يسوسه بدهائه وكياسته ، ولن يضيع أمر فى يد هذا الداهية الكيس .

إن العثور على مثل معاوية قليل . . فهو وإن لم يكن فى دينه وتقواه على مستوى كثير من أصحاب رسول الله ، مثل أبى ذر ، وسلمان ، وعمير ابن سعد ، فإنه على أى صحابى مسته نفحة من صحبة رسول الله ﷺ ، ثم إنه كاتب من كتاب الوحى لرسول الله ، ثم إنه مع هذا عربى أصيل من بيت مجد وسؤدد ، يأبى الدنية . ولا يأتى إلا ما يليق بالكرام الأمجاد . ثم إنه — مع هذا كله — داهية من دهاة العرب ، وسياسى محنك ، يأخذ لكل أمر عدته ، فلا يبغته العدو ، ولا يدخل على ولايته ما يكيد به العدو للمسلمين .

ولقد كان عمر — رضى الله عنه — يشكو من أنه لا يجد الوالى الذى يجمع التقوى فى قلبه ، والحكمة فى عقله ، والكياسة والسياسة فى سياسته ، والحزم والحسم فى أموره .. ومن مأثور قول عمر فى هذا : « اللهم أشكو جلد الفاجر ، وعجز الثقة » وأكثر الناس من هذين الرجلين : قوى فاجر ، لا يخاف الله ، أو ضعيف تقى ، لا يقوم بأمر الناس .. والذى يجمع بين القوة والتقوى قليل ، فحيث كانت القوى والتقوى كان صاحبها أهلا للولاية

على الناس وإقامة أمورهم على العدل والإحسان . وفى هذا يقول الله تعالى: « إن خير من استأجرت القوى الأمين » ويقول سبحانه على لسان فرعون ليوسف : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » ويقول سبحانه عن جبريل : « إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين »

يقول ابن تيمية فى فضل القوة ومكانها فى إدارة شئون الجماعة :

« والقوة فى كل ولاية بحسبها . . فالقوة فى إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب ، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة ، فإن الحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتـال من رمى ، وطعن ، وضرب ، وكر وفر » .

« والقوة فى الحكم بين الناس ترجع إلى الأخذ بالعدل الذى دل عليه الـكتاب والسنة وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام » .

ثم يتحدث ابن تيمية ـ رضى الله عنه ـ عن الأمانة فيقول :

« والأمانة ترجع إلى خشية الله ، وألا يشترى بآياته ثمناً قليلا ، وترك خشية الناس .

« وهذه الخصلات الثلاث ـ القوة بشقيها والأمانة ـ هى التى اتخذها الله على كل من حكم الناس فى قوله تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون »

« ولهذا قال النبى ﷺ : « القضاة ثلاثة : قاضيان فى النار ، وقاض فى الجنة .. فرجل علم الحق فقضى بخلافه ، فهو فى النار ، ورجل قضى بين الناس على جهل ، فهو فى النار ، ورجل علم الحق فقضى به ، فهو فى الجنة »

« والقاضى اسم لـكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما ، سواء كان خليفة أو سلطاناً ، أو نائباً ، أو والياً ، أو كان منصوباً ـ من قبل ولى الأمر ـ ليقضى بالشرع .. » [1] .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ، ٧ ـ المطبعة الخيرية ١٣٢٢ هـ .

وإذن، فإن موقف عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ من معاوية ، وما أقام على نفسه من مظاهر الحياة، هو الموقف الحكيم الحازم، الذى يشتد حين يرى للشدة موضعاً ، ويلين حين يرى للين مكاناً، دون أن يضيع هذا أو ذاك حقاً من حقوق الله .

ونعود ، فنقرر أن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان يعانى شدة فى اختيار الولاة الذين يراهم أهلا للنيابة عنه ، فى حمل ما يحمل من أعباء الخلافة ، إذ كان الوالى قائداً فى الحرب ، وقاضياً ومنفذاً لما يقضى به فى السلم .

وقد ضن عمر ـ رضى الله عنه ـ بأصحاب رسول الله البارزين من أن يوليهم عملا ، بل أمسك بهم فى المدينة معه ، لأكثر من مقصد قصد إليه .

فأولا : أن يحفظهم من مخالطة الحياة فى الأمصار ، وما فيها من لين العيش ، ورونق الحضارة ، الأمر الذى ربما أثر فيهم ، وغير منهم ما تركهم عليه رسول الله ﷺ . وعمر ـ رضى الله عنه ـ ضنين بهم أن يخرجوا عن هذا الصراط المستقيم ، الذى تركهم عليه رسول الله ـ ﷺ .

وثانياً : أن يكونوا عوناً له فى الاجتهاد فى الأمور التى تعرض له ، وليس فيها حكم قاطع فى كتاب الله أو سنة رسوله .

ثالثاً : ألا يكونوا مصدر إغراء وفتنة للناس فى الأمصار ، وربما حملهم ذلك على الخلاف ، والتغرير بالمسلمين .

ورابعاً : ألا يكون وجودهم فى الأمصار داعية للناس إلى التسامح معهم ، وقبول ما لا يقبلونه من غيرهم، إذا كان لأحدهم زلة أو هفوة ..

لهذه الاعتبارات وغيرها أمسك عمر ـ رضى الله عنه ـ بالبارزين من أصحاب رسول الله ﷺ فى المدينة .

وكان فى هذا هو عمر الألمعى الحكيم الرشيد ، فإنه ما إن لحق عمر بربه وخلفه عثمان ـ رضى الله عنه ـ حتى خرج من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الأمصار ، وكان لهذا أثره الكبير فى تلك الفرقة التى حدثت

بين جماعة المسلمين ، وما نشأ عنها من حروب بين أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وطلحة والزبير - رضى الله عنهما - وبين على - كرم الله وجهه - ثم بين على ومعاوية ثم بين على والخوارج . . وكان من هذا كله ما فتح على المسلمين باب فرقة وفتنة توقفت معها فتوحات الإسلام ، ثم كان ما طمع فيه الأعداء من أمة الإسلام ، والتى لا زالت آثارها باقية إلى اليوم .

لقد رضى عمر - رضى الله عنه - أن يولى من لا يرضاه كل الرضا فى دينه ، وإن رضيه فى حكمته ، وسياسته . . فقد رضى أن يولى المغيرة بن شعبة ، وهو عند عمر غير مؤتمن على دينه ، وذلك لما يعرف من دهائه ، وحسن احتياله ! !

فقد روى أن أهل الكوفة قدموا على عمر - رضى الله عنه - يشكون إليه واليهم ، سعد بن أبى وقاص ، فقال عمر : « أيها الناس . . من يعذرنى من أهل الكوفة ؟ إن وليت عليهم التقى ضعفوه ، وإن وليت عليهم القوى فجروه » وكان المغيرة بن شعبة حاضراً يسمع ، فقال : يا أمير المؤمنين : إن التقى الضعيف ، له تقاه وعليك ضعفه ، وإن القوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره ، فقال عمر : صدقت . أنت القوى الفاجر ، فاخرج إليهم » ! ! فولاه الكوفة .

***

وعمر - رضى الله عنه - يعجب بالرجل الحصيف الفطن ، القوى الضابط لما تحت يده ، مما يتولاه من أمور المسلمين ، وإن كان فيه مغمز عند عمر .

وهذا عمرو بن العاص ، داهية من دهاة العرب ، يقف من عمر مجادلا

محاجاً ، بل ومتحدياً ، ثم يرى عمر الإمساك به والياً على مصر ، إذ كان أهلاً لهذه الولاية ، ثم هو الذى كان قد أشار على عمر بفتحها . فولاه عمر أمر هذا الفتح ، ففتحها . .

كتب عمر – رضى الله عنه – إلى عمرو – ، وهو على ولاية مصر :

« أما بعد ، فقد بلغنى أنه ظهر لك مال من إبل وغنم ، وخدم وغلمان ، ولم يكن لك قبله مال ، ولا ذلك من رزقك – أى عطائك – فأنى لك هذا ؟ ولقد كان لى من السابقين الأولين من هو خير منك ، ولكنى استعملتك لغنائك ، أى لكفاءتك – فإذا كان عملك لك وعلينا ، فبم نؤثرك على أنفسنا ؟ فاكتب إلى من أين مالك ؟ وعجل ، والسلام » فكتب إليه عمرو : « قرأت كتاب أمير المؤمنين ، ولقد صدق ! ! فأما ما ذكره من مالى ، فإنى قدمت بلدة الأسعار فيها رخيصة ، والغزو فيها كثير ، فجعلت فضول ما حصل لى من ذلك ، فيما ذكره أمير المؤمنين ، ولو كانت خيانتك لنا حلالا ما خناك حيث ائتمنتنا ، فأقصر عنا ، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن العمل لك ، وأما من كان لك من السابقين الأولين ، فهلا استعملتهم ، فوالله ما دققت لك باباً » ! !

ومع هذا فقد ظل عمرو على ولاية مصر ، وإن كان عمر يرى فيه ما لا يرضى عنه ، لأنه رجل فذ فى بابه ! !

* * *

الفصل السادس

عمر وطلاب المال

ونعنى بطلاب المال أصحاب الحقوق من المسلمين ، فى بيت المال ، مما يجىء إليه من غنائم ، وخراج ، وجزية ، وزكاة ..

وقد رأينا عمر — فيما مضى من مباحث الكتاب — أنه أعلن على الملأ أنه ليس إلا خازناً لبيت المال ، وأنه فى هذا كالوصى على مال اليتيم ، إن استغنى عف ، وإن افتقر أكل بالمعروف ، وأن هذا المال هو مال المسلمين ، والمسلمين . ليس لأحد فيه حق ليس لغيره .

وقد أشرنا فى مواقف مختلفة إلى الأسلوب الذى انتهجه عمر فى حراسة هذا المال ، وفى مراقبته اليقظى التى لا تنام للجباة ، والعمال الذين يقومون على جمعه ، وما اتبعه فى محاسبتهم ، وبث العيون لمراقبتهم .

وذكرنا أنه كان قد أمر الولاة إذا عادوا إلى المدينة ألا يدخلوها ليلا ، حتى يراهم الناس على الحال التى جاءوا بها ، وما حملوا من مال ومتاع .. بل إنه كان يأخذ الولاة بما عرف فى هذا العصر من تتبع أصحاب السلطة إذا ظهر عليهم فى حياتهم من الثراء ومظاهره ما لم يكن لهم من قبل ، والذى يعرف بالقانون المعروف « من أين لك هذا ؟ » .

روى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حين رأى أبا سفيان ، قد رجع من الشام ، بعد زيارة ابنه معاوية ، وقع فى نفسه أن أبا سفيان لن يعود من الشام إلا مزوداً من معاوية ، بمال ومتاع ، وحين التقى أبو سفيان

بعمر فى مجلسه ، تناول عمر الخاتم الذى فى يد أبى سفيان ، وبعث به مع رسول إلى هند إمرأة أبى سفيان يطلب إليها باسم أبى سفيان أن تبعث إليه بالخرجين اللذين جاء بهما من الشام ، فلما جاء بهما إلى عمر ، وجد فيهما عشرة آلاف درهم ، فأخذها وضمها إلى بيت المال » مكتفياً بهذا ، حتى يعلم الناس أن عين عمر لا تنام ، وأنه لا يدع أحداً — أياً كان مكانه — أن يأخذ ما ليس له .

وقد كانت سياسة أبى بكر — رضى الله عنه — فى قسمة المال أن يسوى فيه بين المسلمين . من قبل الهجرة وبعدها ، ومن قبل الفتح وبعده .. أما سياسة عمر ، فهى أن يجعل لأهل السابقة والبلاء فى الإسلام فضلا، ويقول : « لا أسوى بين مع قاتل مع رسول الله ، وبين من قاتل رسول الله .. »

فلما اجتمع له أول مال كثير دعا الناس إليه، وخطبهم قائلا : « والله الذى لا إله إلا هو ما أحد إلا وله فى هذا المال حق ، أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق فيه من أحد ، وما أنا فيه إلا كأحدكم .. ولكنا على منازلنا[1] من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا[2] من رسول الله ﷺ .. فالرجل وتلاده فى الإسلام[3] والرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام .. والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال قبل أن يحمر وجهه »[4].

ونقول إن عمر — رضى الله عنه — إنما اختص أهل السبق ، والبلاء ،

(١) على منازلنا من كتاب الله ، أى على قربنا من كتاب الله ، وعملنا به ، وبلائنا فى الدفاع عنه .

(٢) قسمنا من رسول الله ، أى حظنا من حبه والولاء له ، والدفاع دونه .

(٣) أى سابقته فى الإسلام ، تقدمه على غيره فى الاستجابة لدعوة الله .

(٤) كناية عن السؤال ، وما يعرو وجه السائل من حمرة الحياء .

والمكانة من رسول الله ﷺ بمنصب أكبر من هـذا المال ، لا يرضى منهم نفوساً راغبة فى المال طامعة فيه ، فإن أصحاب رسول الله كانوا فوق أن ينظروا إلى هذا المتاع الزائل ، بعد أن أشرف بهم رسول الله ﷺ على رضوان الله ، وأراهم منازلهم فى جنات النعيم .. إن الدنيا كلها لا تزن عند أحـدهم شيئاً مما يملأ نفوسهم من إيمان ، وما تفيض به مشاعرهم من رضى الله ورضوانه .

فهذه أم المؤمنين ، زينب بنت جحش – رضى الله عنها – يبعث إليها عمر – رضى الله عنه – باثنى عشر ألفاً ، المفروضة لها من بيت المال ، على نحو ما فرض عمر لأزواج النبى — صلوات الله وسلامه عليه — فكيف استقبلت أم المؤمنين هذا المال ، الذى لم تعرف له وجهاً من قبل ؟

يقول أبو يوسف صاحب كتاب الخراج :

« حين وصل إليها هذا المال ، قالت : غفر الله لأمير المؤمنين ، لقد كان فى صويحباتى من هى أقوى على قسمة هذا المال كله ، فأمرت به فصب ، وغطته بثوب ، ثم قالت لبعض من عندها : أدخلى يدك لآل فلان ، وآل فلان ، فلم تزل تعطى لآل فلان ، وآل فلان ، حتى قالت لها التى كانت تدخل يدها : لا أراك تذكريننى ، ولى عليك حق ؟ فقالت لها : لك ما تحت الثوب ، فإذا هو خمسة وثمانون درهما . . ثم رفعت يدها ، فقالت : اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا أبداً . . فكانت — رضى الله عنها — أول أزواج النبى لحوقاً به » ،

أرأيت إذن كيف كانت نظرتها إلى المال ، وتصرفها فيه . . إنها ما كانت تظن أن هـذا المال الذى بعث به أمير المؤمنين إليها ، هو لها ،

وإنما أرادها أن تقسمه فى الناس ، فما علمت أنه المفروض لها ، فعلت به ما فعلت .

وكذلك كان فعل أزواج النبى كلهن بما فرض عمر لهن . . إنهن لا يردن أن يغيرن شيئاً من حياتهن مع رسول الله ﷺ وأن يمضين على ما كن عليه فى حياته من الاكتفاء بكسرة العيش ، وشربة الماء ، وأن يأخذن أنفسهن بما أنزل الله فيهن على لسان رسوله : « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » . . وقد أردن الله ورسوله والدار الآخرة ، وتركن هذه الدنيا لأهل الدنيا !! .

هذه واحدة من زوجات النبى – ﷺ – بل ربما كانت أجمل نسائه ، وأكثرهن إحساساً بالحياة ، لما يبعث الجمال فى نفس المرأة من إدلال بهذا الجمال ، وترض له بالتنعيم والتزين ، ولكنها تدفع بكلتا يديها هذه الدنيا المقبلة ، وتردها رداً عنيفاً ، وكأنها كانت فى حلم مزعج من هذا المال ، الذى يحاول انتزاعها من عالمها العلوى الذى تعيش فيه مع ذكريات النبوة وأضوائها التى يكسوها منها سناها الوضىء ، بل لقد تمنت على الله أن يحين أجلها قبل أن تطل عليها هذه الفتنة مرة أخرى ، وقد استجاب الله تعالى لها ، فماتت قبل أن يحول الحول ، ويأتى إليها عطاؤها . .

نقول : إن عمر – رضى الله عنه – لم يرد أن يترضى بهذا المال أهل السابقة والبلاء فى الإسلام ، حين فضلهم على غيرهم ، وأجزل لهم العطاء منه ، ولكنه أراد بهذا أن يرى المسلمين أن أهل السبق والبلاء جديرون بأن ترفع منازلهم فى الدنيا على غيرهم ، ممن ليس لهم مثل سبقهم وبلائهم ، كما رفع

الله تعالى منازلهم عنده .. والله تعالى يقول : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ،أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى » . . فكيف بالمسلمين الذين لم ينفقوا ولم يقاتلوا ؟

* * *

وإذا كان كثير من المسلمين قد استقبلوا هذا المال الذى طلع عليهم من كل وجه ، حذرين منه ، صائنين به ، خائفين من فتنته ، فعزلوا أنفسهم عنه ، وصرفوا وجوههم دونه ـ فإن كثيراً من المسلمين أيضاً ، قد استغواهم هـذا المال ، فتحركت فى نفوسهم الشهوة إليه ، وتلمظت فيهم الرغبات الدنيوية التى كان الإسـلام قد كظمها ، فنازع بعضهم بعضاً فيه ، وجاء بعضهم إلى عمر يستزيده منه ، وتعلق بعضهم بالولاة والجباة ، يطلبون الحظوة عندهم ، وينالون المزيد من المال الذى فى أيديهم .

إنها النفس البشرية الأمارة بالسوء ، لا يصبر على نوازعها ، ولا يقدر على كظم أهوائها ، إلا أولو العزم من الناس ، الذين سكب الإيمان السكينة فى قلوبهم ، فلم يطمئنوا بالحياة الدنيا ، ولم يرضوا بها مستقراً ومقاماً .

لهذا كانت من عمر تلك الوقفات الرائعة التى سجلها التاريخ له ، فى كبح جماح تلك النفوس التى خالطها حب الدنيا ، واستغواها متاع هذه الحياة ، فعرف عمر ـ رضى الله عنه ـ كيف يكفكف من غربها ، ويصلح المعوج منها ، ويضرب بقوة على أيدى الضالين الغواة .

. وقد رأينا فيما مضى من فصول الكتاب ، أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قد بدأ بنفسه وأهله ، وأنه قد لبس ثوب الخلافة سداه الدنيا ، ولحمته الدين ، فكانت خلافته للدين والدنيا معاً . . وكان الدين هو ملاك الدنيا ، والسلطان القائم عليها . فما جار منها على شىء من الدين عزله ، ودمدم عليه . .

ولا بأس ، ونحن بين يدى عمر ، وطلاب المال ، أن نعرض هنا نماذج أخرى غير التى عرضناها ، من محاسبة عمر لنفسه وأهله مع المال الذى بين يديه ، لنشهد منه — عن قرب — أن محاسبته لطلاب المال لم تكن إلا امتداداً لبعض محاسبته لنفسه وأهله ، وأن ما أخذهم به من شدة ، هو قليل قليل لما أخذ به نفسه وأهله من شدة ، هى فى الواقع تأديب للنفس ، ورياضة لها ، حتى لا يجمح بها الهوى ، فتسقط ، وتهوى بصاحبها فى مهاوى الهالكين . . فهو — رضى الله عنه — إذ كان يتوخى بذلك السلامة لنفسه ولأهله ، فإنه حريص على سلامة كل مسلم ، واستنقاذ لمن يتعرض للهلاك من المسلمين .

عن محمد بن على ، عن مولى لعثمان بن عفان ، قال : بينا أنا مع عثمان فى مال له فى العالية[١] ، فى يوم صائف ، إذ رأى رجلا يسوق بكرين ، وعلى الأرض مثل الفراش[٢] من الحر ! فقال عثمان : ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يبرد[٣] ، ثم يروح ؟ ثم دنا الرجل ، فقال عثمان : انظر من هذا ؟ فنظرت ، فقلت أرى رجلا معمما يسوق بكرين ، ثم دنا الرجل ، فقال عثمان : انظر ، فنظرت ، فإذا هو عمر بن الخطاب ، فقلت : هذا أمير المؤمنين . فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب ، فإذا لفح السموم ، فأعاد رأسه ، حتى إذا حاذاه قال : ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : بكران من إبل الصدقة تخلفا ، وقد مضى الرعاة بإبل الصدقة فأردت أن ألحقهما بالحمى[٤] ، وخشيت أن يضيعا ، فيسألنى الله عنهما . فقال عثمان : يا أمير المؤمنين : هلم إلى الماء والظل

(١) العالية : موضع خارج المدينة ، تروح فيه الابل

(٢) أى أن ما يبرق على الحصا والرمال من وهج الشمس : وما يخرج من الحجارة والحصا من الحرور يشبه الفراش المتطاير .

(٣) أى يقبل وقت الظهيرة إلى أن تخف وطأة الحر .

(٤) مكان حماه الخليفة عمر . ظاهر المدينة ليكون مراحاً الإبل الصدقة .

ونكفيك ! فقال عمر : عد إلى ظلك . فقال عثمان : عندنا من يكفيك . فقال عمر : عد إلى ظلك : ومضى . . فقال عثمان : من أراد أن ينظر إلى القوى الأمين ، فلينظر إلى هذا ، وأشار إلى عمر » .

وكان — رضى الله عنه — أبا العيال ، كما يقول عن نفسه .. فكان يمشى إلى المغيبات ـ أى اللائى غاب عنهن أزواجهن فى الغزو ـ فيسلم على أبوابهن .. ثم يقول : ألكن حاجة ؟ هل آذاكن أحد . أتردن أن أشترى لكن شيئاً من السوق ؟ فإنى أكره أن تخدعن فى البيع والشراء ! وكن يرسلن معه جواريهن ، فيدخل السوق : وإن وراءه من جوارى الناس وغلمانهم ما لا يحصى ، فيشترى لهم حوائجهم ! .

وإذا كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يحاسب على الدرهم والدانق ، فما ذلك إلا ليقيم للولاة مثلا حياً يريهم منه أن التفريط فى القليل يجر إلى التفريط فى الكثير ، وإذا كان تفريط المرء فى حق نفسه شيئاً عظيما ، فإنه فى حق غيره أعظم ، وهو فى حق الكثير أشنع من حق القليل . . فكيف إذا كان هذا الكثير أمة ؟ ثم كيف إذا كانت هذه الأمة ممتدة الأطراف مقسمة الأرجاء ، كالأمة الإسلامية ؟

إنها مسئولية عظيمة ، وأمانة ثقيلة ، لمن عرف قدر الأمانة ، وأيقن بأنه محاسب عليها ، مجرى بما حفظ أو ضيع منها ..

والأمانة عند عمر ـ رضى الله عنه ـ ليست فى هذا المحتوى الهزيل ، الذى يفهمه منها معظم الناس ، ويتعاطونه من معناها ، عطاء وأخذاً . . إن الأمانة عند عمر ، سلطان قائم على الضمير ، لا ينام ولا ينيم ، تجتمع إليه نزعات النفس ، وخلجات الفؤاد ، فلا يجرى منها

شيء إلا إذا سلك مسلك الحق والعدل ، وحل بالمكان الذى يرتضيه الحق والعدل .

وكان حساب الرجال عنده مقدراً بهذا الحساب ، ومقاماً على هذا الاعتبار فى مفهوم الأمانة عنده ، بهذا المعنى المحيط الشامل ! !

نلمح هذا من عمر ، فى نظره إلى أبى عبيدة بن الجراح ، وتقديره له ، وتقديمه على غيره ، وذلك لأنه سمع رسول الله ﷺ يقول فى أبى عبيدة : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . . وليس بعد قول رسول الله ﷺ فى أبى عبيدة قول يقال . . فأبو عبيدة كامل الأمانة ، وعمر يزين الناس بهذا الميزان . . ومن ثم كان أبو عبيدة أرجح الناس جميعاً عند عمر ! !

روى الجاحظ فى كتابه : « البيان والتبيين » أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مر بأناس يتمنون ، فلما رأوه سكتوا ! فقال : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا نتمنى ! فقال تمنوا ، وأنا أتمنى معكم ! فقالوا : فتمن أنت ؟ قال : أتمنى رجالا ملء هذا البيت مثل أبى عبيدة بن الجراح ، وسالم مولى أبى حذيفة » ! !

وقد عرفنا من هو أبو عبيدة ، وقول رسول الله ﷺ فيه ، وأنه أحد ثلاثة شهدوا بيعة السقيفة ، هو وأبو بكر ، وعمر ، وقد أشار أبو بكر بأن يتولى الخلافة أحد الرجلين : أبو عبيدة ، أو عمر . . وفوق ذلك فهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

أما سالم مولى أبى حذيفة ، فقد كان من كبار صحابة رسول الله ﷺ ومن السابقين الأولين ، وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبى بكر ، وقد شهد غزوات الرسول ، واستشهد فى حرب مسيلمة ثم هو فوق هذا كله أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وقد روى أن عمر حين طعن ، سألوه أن يعهد بالخلافة من بعده لمن يراه ، فقال : « لا أتحمل أمركم حياً وميتاً » فلما راجعوه فى ذلك ، قال : « لو كان أبو عبيدة بن الجراح ، أو سالم مولى أبى حذيفة حيين ، لاستخلفت أحدهما » .

ذلك هو مكان الأمانة عند عمر ، وتلك هى منزلة أهل الأمانة عنده ؟

وإنه ليس مثل المال فى امتحان الناس ، وما عندهم من أمانة ، وما فى نفوسهم من عفة وتقى ، وما فى قلوبهم من إيمان بالله ، ومراقبة له ، ومن قدرة على امتلاك هوى النفس ، وما تدعو إليه من شهوات !

وعمر – رضى الله عنه – لا يغيب شىء من هذا عن فطانته ونفاذ بصيرته ، فقد كان يعلم عن يقين أنه من هذا المال الذى يساق إليه من آفاق الأرض ، فى وجه فتنة ، تحتاج إلى شدة وحزم ، مع لباقة وكياسة ، حتى يكتب له الله تعالى النجاة منها ، والسلامة للناس من غوائلها . .

روى عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : « لما جىء إلى عمر بأخماس فارس ، قال : والله لا يجنها[1] سقف دون السماء ، حتى أقسمها بين الناس ، فأمر بها فوضعت بين صفى المسجد ، وأمر عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله ابن أرقم فباتا عليها . . ثم غدا رضى الله عنه ، فدعا الناس إليه ، ثم أمر بالجلابيب فكشفت عنها ، فنظر إلى شىء لم تر عيناه مثله ، من الجواهر ، واللؤلؤ ، والذهب والفضة . . فبكى . . فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين .. هذا موقف من مواقف الشكر ، فما يبكيك . قال : أجل .. ولكن الله لم يعط قوماً من هذا إلا ألقى بينهم العداوة والبغضاء » !!

---

(١) أى لا يسترها .

وقد يقول قائل إن هذا ليس من السياسة الحكيمة ، حيث يفرغ كل ما فى بيت المال على الناس ، ولا تستبقى منه شيئاً لحاجات الدولة ، وما يطرقها من أحداث . وهل يمكن أن تقوم الدولة بغير مال ، بل ومال كثير ، تحتفظ به فى خزائنها ؟

ونقول : إن عمر - رضى الله عنه — لا يغيب عنه شىء من ذلك ، وكيف وهو الذى دون الدواوين ، ومصر الأمصار ، وكان من أولى الدواوين التى أنشأها ديوان الجند ؛ وأعطيات الجند ..

ولكن الذى كان من عمر فى هذا الموقف ؛ إزاء خمس المال الذى جىء به إليه من فارس عند فتحها ، إنما هو أنه أول مال كثير يفيئه الله تعالى على المسلمين ، فأراد عمر — رضى الله عنه — أن يرى المسلمين هذا الخير الذى جاء إليهم من جهة دينهم ، وأن يدخل هذا المال كل بيت . وتنال منه كل يد ..

ثم إن المسلمين ما أقاموا الجيوش ، ولا جندوا الجنود التى فتحوا بها فارس والروم ومصر ، بمال كانت تضمه خزانة الدولة ، إذ لم يكن للدولة خزانة ولا مال ، ولكن قامت هذه الجيوش للجهاد فى سبيل الله ، حسبة لله ، وابتغاء مرضاة الله ..

وإذن فليكن هذا الطريق — طريق الجهاد — مفتوحاً للمسلمين ، فلا ينظر المجاهد إلى مال يؤجر به ليحارب فى سبيل الله .. إن الجندى المأجور لا يقوم فى الحرب مقام الجندى المحتسب ، ولا ببعض ما يقوم به .. وشتان بين بكاء الثكلى ، وبكاء الأجيرة !!

ثم إن عمر — بعد هذا ؛ وبعد أن فاض المال فى أيدى المسلمين — أعد بيتاً للمال ، وملأ هذا البيت بما جاءه من الفىء والخراج ، وأعده

للإنفاق منه على شئون الدولة ، وحاجات المحتاجين ، وقام على هذا المال حارساً أميناً لا ينفق منه درهما إلا فيما شرع الله ، وأحل الله .

أول خلاف بارز حول المال :

وقد واجه عمر أول خلاف حول المال كاد يتحول إلى فتنة عامة .. وذلك فيما كان بين الجنود وأمراء الجنود من جهة وعمر بن الخطاب من جهة أخرى ، فى قسمة الفيء ، وما للمسلمين المجاهدين من نصيب فيه .

فكتاب الله تعالى يقول فى أمر هذه الغنائم : « واعلموا أنما غنمتم من شيء ، فأن لله خمسه وللرسول ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. » .

وهذا القول الكريم صريح فى أن للمجاهدين كل ما وقع فى أيديهم من مغانم ، بعد إخراج الخمس منها « لله » الذى وضعه سبحانه ليد الرسول ، ينفق منه على نفسه وعلى ذوى قرابته ، ثم على الفقراء والمساكين ، وابن السبيل . .

فلا شبهة إذن فى أن للجنود ، وأمراء الجنود أربعة أخماس ما يغنمون فى الحرب .

فكيف إذن وقع الخلاف بين عمر ، وبين المجاهدين فيما وقع لهم من غنائم ؟

أيريد عمر أن ينتقص شيئاً من هذا القدر الذى قدره الله تعالى لهم ، ليوجهه وجهة أخرى نحو مرفق من مرافق المسلمين ؟ إنه محال أن يفعل عمر شيئاً من هذا ، إلا أن يكون عن رضى تام من المجاهدين ، فيكون هذا منهم تبرعاً محموداً ، وحسنة مقبولة ! أما أن يفعل ذلك عمر عن

(١) الأنفال الآية ٤١ .

رأى رآه ، فهذا ما لا يكون من مسلم أبداً ، فكيف يقدم عمر على شيء من هذا ؟

إذن كيف وقع هذا الخلاف بين عمر ، وبين المجاهدين ، فيما غنموا ؟

المغانم التى كانت تقع لأيدى المجاهدين كثيرة متعددة الأنواع : أموال ، وسلاح ، وأمتعة ، وأسرى ، وديار ، ومدن ، وأرض زراعية ، وما على الأرض من زروع وعمال ، وما فى المدن من عمال وصناع ، وسكان ودور . إن كل هذا مما يعد جميعاً — فى ظاهره — من غنائم المسلمين . .

وهنا يقع الخلاف ، حيث يكون للنظر والاجتهاد مجال !

فالأشياء المنقولة من أموال وأمتعة ونحوها ، هى بلا نزاع من نصيب المجاهدين . أى أن لهم فيها أربعة أخماس ما غنموا . . يأخذ كل منهم نصيبه منها ، وهى المفهوم الظاهر لكلمة « مغانم » لأنها فى متناول أيدى المجاهدين من جهة ، ولأنها منقولة قابلة للانتفاع الفورى بها . كالأطعمة والملابس والأمتعة ونحوها من جهة أخرى .. وقد تركها عمر — رضى الله عنه — للمجاهدين يقتسمونها بينهم ..

أما الأرض الزراعية ، والناس الذين يعملون فيها ، والمدن والسكان الذين يعمرونها ، فإن الأمر فيها مختلف ، ومن هنا كان الاجتهاد ، وكانت وجهات النظر المتعدده فيها !

فعمر — رضى الله عنه — يرى أن الأراضى الزراعية ، وعمالها ، والمدن وسكانها ، هى أصل هذا المال والمتاع ، فإذا انقطع هذا الأصل انقطع الثمر الذى يجىء منه .. بمعنى أنه لو قسمت الأراضى الزراعية والمدن ، بما عليها من سكان وعمال — لو قسمت بين الفاتحين لم يتبق لمن يأتى من بعدهم شيء . ولم يكن لبيت المال مورد ينفق منه على الجيوش والحصون ، والثغور وغيرها ، مما يحمى الدولة ، ويبقى على سلامتها ..

والفاتحون ، كانوا يرون غيرهذا الذى رآه عمر ، ويعدون كل البلاد التى يفتحونها غنيمة لهم بكل ما فيها ومن فيها .. وقد طال الجدل والحوار ، بين عمر — رضى الله عنه — وبين المخالفين له فى هذا الرأى الذى رآه ..

وكان أشد المخالفين لعمر : بلال بن رباح . والزبير بن العوام .. وعمر — رضى الله عنه — يرى بفطنته أن أمر المسلمين لا يمكن أن يستقيم إلا على هذا الرأى الذى رآه . وأنه إذا قسمت الأرض ، والدور بين المجاهدين ، انقطعت المادة الكبيرة ، وانقطع المورد العظيم الذى يمول منه بيت المال .. ولكن لم يكن بين يدى عمر نص قرآنى ، أو حديث نبوى ، أو سابقة من الخليفة قبله ، يقيم من أى منها حجته على مخالفيه !!

وبقى عمر أياماً على رأيه ، والمخالفون له على رأيهم ، حتى فتح الله على عمر بما يقيم به حجته على مخالفيه ، وذلك مما وجد فى كتاب الله .. فطلع على هؤلاء المخالفين ، فقال لهم : إنى وجدت فى كتاب الله حكماً وحجة فيما أفاء الله على المؤمنين من فىء !!

فقالوا : هذا كتاب الله بين أيدينا ، فدلنا على ما وجدت فيه .. فقال : اسمعوا .. وتلا عليهم قوله تعالى :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله . إن الله شديد العقاب .. للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان

بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم[1] » ثم أخذ عمر — رضى الله عنه — يبين لمخالفيه ما فهمه من هذه الآيات ، فقال :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » وهؤلاء هم المهاجرون الأولون !!

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وهؤلاء هم الأنصار . .

« والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » .

وهؤلاء هم ولد آدم ، الأحمر ، والأسود . . فقد أشرك الله من بعدهم — أى من بعد المهاجرين والأنصار — كل المسلمين فى هذا الفىء إلى يوم القيامة . .

ثم قال عمر — رضى الله عنه — بعد هذا البيان البين ، والفهم الملهم لآيات الله — فكيف أقسمه بينكم وأدع من يأتى بعدكم بغير قسم » ؟

نعم ، كيف لا يكون للمسلمين الذين لم يشهدوا فتوحات الإسلام لهذه الأمصار — نصيب فى هذا الفىء ، وقد ذهب المجاهدون الأولون به أصلا وفرعاً ؟

إن عمر — رضى الله عنه — وقد وجد نصاً فى كتاب الله ، قد طابق

---

(١) الحشر من ٦ — ١٠

الرأى الذى كان يراه حدساً وإلهاماً ـ لم يعد به ثمة حاجة إلى أن يجادل ويحاور ، ليقنع مخالفيه ، إنه ـ وقد استبان له وجه الحق فيما طلع عليه من نور آيات الله ـ لم يعد أمامه إلا أن يمضى رأيه ، وينفذ حكمه . .

ومع هذا ، فقد ظل بلال ومن معه على رأيهم وخلافهم ، لا يزالون يقولون لأمير المؤمنين : أقسم لنا ما فتحناه بسيوفنا . . فلما أكثروا عليه قال : اللهم اكفنى بلالا وأصحابه ، بما شئت !! فلم يحل الحول حتى مات بلال والذين كانوا على رأيه ، وذلك فى وباء عمواس[1] .

ومضى عمر ـ رضى الله عنه ـ على رأيه ، فحبس الأرض وأهلها على المسلمين جميعاً ، وفرض على الأرض الخراج ، وعلى أهلها الجزية ، على الرءوس . .

يقول أبو يوسف ـ فى كتابه « الخراج » ـ والذى رأى عمر ـ رضى الله عنه ـ من الامتناع عن قسمة الأرضين بين من افتتحها عندما عرفه الله تعالى مما فى كتابه من بيان ذلك توفيقاً منه سبحانه ، فيما صنع ، وفيه كان الخير لجميع المسلمين ، لأن ذلك لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الأعطيات والأرزاق ، لم تشحن الثغور ، ولم تقو الجيوش على السير . .

ومن جهة أخرى ، فإن عمر ـ رضى الله عنه ـ رأى بنظره الثاقب ، أن معظم الأمصار التى كان يمكن أن تطولها يد المسلمين قد تم فتحها ، وأنه لابد من وقفة يقفها المسلمون عند هذا الذى تم لهم فتحه ، ليقوموا على إدارته ، وعلى التمكين لشريعة الإسلام فيه ، قبل أن يتسع الأمر عليهم ، ويعجز جنود المسلمين عن ضبط الأمور فى هذه الأمصار .

وهكذا استطاع عمر ـ رضى الله عنه ـ بحصافته وبعد نظره ، وشدته وحزمه ، وبالمثل الذى أراه للناس من نفسه فى عدله ، وزهده ـ استطاع

---

(١) عمواس : بلدة فى فلسطين حدث فيها وباء الطاعون المعروف فى عهد عمر .

أن يقود السفينة فى هذا الجو العاصف المضطرب ، وأن يمسك المجتمع الإسلامى ـ ومجتمع الصحابة بخاصة ـ من أن يتخبط فى ضلالات الفتنة ، التى أقبلت على الناس فى صورة براقة معجبة من بريق الذهب والفضة ..

وإنه ما كاد عمر يخلى مكانه من هذه الدنيا ، حتى اضطرب الناس ، وماج بعضهم فى بعض ، ولبستهم الفتنة ، فتنة المال ، وما وراء المال من جاه وسلطان . حتى كان من ذلك تلك الأحداث التى انتهت بمقتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ ثم الحروب التى وقعت بين المسلمين فى خلافة على ـ كرم الله وجهه ـ وماذهب فى تلك الحروب من أرواح الألوف من المسلمين ..

روى عن أبى عبيدة بن الجراح ، أنه كان يقول : « إن مات عمر رق الإسلام ، وما أحب أن يكون لى ما تطلع عليه الشمس أو تغرب ، وأن أبقى بعد عمر ! .. قيل له : ولم ؟ قال : سترون ما أقول إن بقيتم .. إن ولى بعده وال فأخذهم بما كان يأخذهم به عمر ، لم يطيعوه ، وإن ضعف عنه قتلوه » .

ولقد صدقت نظرة أبى عبيدة ، إذ قتل عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بعد سنوات من خلافته . ثم تلاحقت الفتن بعد ذلك ، فكانت موقعة الجمل بين على من جهة ، وعائشة وطلحة والزبير من جهة .. ثم حرب صفين بين على ومعاوية ، ثم فتنة الخوارج .. وهكذا .. ظلت الفتن تتتابع على الأمة الإسلامية ، فلم تجتمع تحت راية واحدة بعد مقتل عثمان رضى الله عنه .

والحق أن عمر ـ رضى الله عنه ـ استطاع بحوله ، وحيلته ، وكياسته ، وقوة عزائمه ، أن يحمل الناس مدة خلافته على الطريق الذى كانوا عليه فى عهد النبوة ، وفى خلافة أبى بكر .. فلقد وقف عمر كالجبل الراسخ فى وجه الزمن ، وما يحمل من تقلبات الأيام ، وتحول الأحوال ..

إن المجتمع الإسلامى فى عهد الرسول ، وفى معظم خلافة أبى بكر ، لم يكن قد ابتلى بهذه الدنيا العريضة التى زحفت بمفاتنها ومغرياتها على المسلمين . . وعمر هو الذى شهد هذه التجربة ، وابتلى بها ، وأبى أن يخضع لحكمها ، أو يسمح لأحد من عماله ، أو ممن حوله ، أن يستجيبوا لها ، وأن يسبحوا فى بحرها اللجى المتلاطم الأمواج !

* * *

ونعود مرة أخرى إلى مشكلة المال بين يدى عمر ، فنقول :

امتلأ بيت المال بالوارد إليه من مشارق الأرض ، ومغاربها . . من الشام ، والعراق ، ومصر ، واليمن ، والبحرين . . وقد رأينا كيف ابتدأ عمر بأزواج النبى ﷺ ، ثم بالمهاجرين والأنصار ، ثم سائر الناس ، وفرض لكل حسب مكانه فى الإسلام وبلائه فيه .

ثم دون الدواوين ، ورسم أعطيات الجند ، وما تحتاج إليه القوة المحاربة من سلاح وعتاد .. ثم رصد ما فضل من بيت المال لحاجة المحتاجين ممن فاته الفرض ، ولم يذكر فيمن ذكر فى الديوان ، أو لمن نزل به مكروه ، أو كربه دين ، وغير هذا مما يعرض للناس من حاجة .

جاء بلال إلى عمر ، حين قدم إلى الشام ، وعنده أمراء الأجناد ، فقال : يا عمر ، فقال عمر : هذا عمر !! فقال بلال : إنك بين هؤلاء[1] وبين الله ، فليس بينك وبين الله أحد ، فانظر من بين يديك ، ومن عن يمينك ، ومن عن شمالك ، فإن هؤلاء الذين جاءوك[2] إن يأكلون إلا لحوم الطير[3]

فقال عمر : صدقت ، لا أقوم من مجلسى هذا ، حتى تكفلوا لكل رجل من المسلمين بمدى بر ، وحظهما من الخل والزيت ! فقالوا ـ أى

(١) يشير إلى عامة الناس ، وهم الرعية .
(٢) يقصد الأمراء ، الولاة ، والجباة .
(٣) يشير إلى أنهم منعمون ، يأكلون لحم الطير ، تجافيا عن أكل لحوم الإبل والضأن .

الولاة ، نتكفل لك يا أمير المؤمنين ذلك ، هو علينا .. قد أكثر الله من الخير وأوسع ، قال : فنعم إذن ! !

لقد سلط عمر على جوارحه ضميراً لا ينام ولا ينيم ؛ يعس بالليل ، يتسمع أخبار الناس ، ويكشف عن أحوالهم ، فإذا سمع مستغيثاً أغاثه ، وإذا رأى مكروباً أعانه وحمل عنه ..

ولعمر فى هذا الباب مواقف خالدة ، يبيض لها وجه الإنسانية كلها ، ويشرق بها وجه الإسلام على الدنيا جميعاً !

وفى سيرته — رضى الله عنه — مواقف خالدة ، وأحداث غريبة ، لا يكاد يصدقها الناس ، لأنها تقوم على غير مثال ، ولا تساندها الحياة بنظائرها على يد غيره من الولاة والحكام ، فتبدو هذه الوقائع العمرية ، وكأنها أسطورة أبدعها الخيال ، لا حقائق جرت على يد عمر بين سمع الدنيا وبصرها ..

على أن الذى يعيش مع عمر فى سيرته ، ويتبين الملامح البارزة من شخصيته ، يرى أن هذه الوقائع هى بعض من عمر ، تتصل به اتصال الثمرة بشجرتها ..

* * *

لما رجع عمر من الشام إلى المدينة ، انفرد عن الناس ليتعرف أخبارهم ، فمر بعجوز فى خبائها ، فقصدها ، فقالت : يا هذا .. ما فعل عمر ؟ قال : هو ذا أقبل من الشام .. قالت : لاجزاه الله عنى خيراً ! قال : ويحك ، ولم ؟ قالت : والله ما نالنى من عطائه منذ ولى إلى يومنا هذا دينار أو درهم ؟ قال : ويحك وما يدرى عمر حالك وأنت بهذا الموضع ؟ فقالت : سبحان الله .. ماظننت أحداً يلى على الناس ، وهو لا يدرى ما بين مشرقها

ومغربها !! فأقبل عمر يبكى ، وهو يقول : وا عمراه ، وا خصومتاه ؟ كل واحد أفقه منك يا عمر !!

ثم قال لها : بم تبيعيننى ظلامتك منه ، فإنى أرحمه من النار ، قالت : لا تهزأ بنا رحمك الله : قال لها عمر : ليس بهزء ما أقول لك .. فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً .. فبينا هو كذلك ، إذ أقبل على بن أبى طالب ، وابن مسعود ، فقالا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فوضعت المرأة رأسها على يدها ، وقالت : واسوأتاه .. شتمت أمير المؤمنين فى وجهه .. فقال لها عمر : لا عليك يرحمك الله » !

ولكن هل انتهى هذا المشهد عند هذا ؟

وكلا . . فهذا عمر يطلب قطعة من الجلد ، يكتب فيها شيئاً فلم يجد !.

ولم قطعة الجلد هذه ؟ وماذا تكتب فيها يا ابن الخطاب ؟

إنه يقتطع قطعة من فروة كان يلبسها .

ثم ماذا ؟

إنه يكتب ! وقد كتب أروع وثيقة عرفتها الإنسانية ، فى تصوير أرق المشاعر ، وأنبل العواطف !

اقرأ ما كتب عمر وقل الحمد لله ، الذى أنبت من رياض الإسلام مثل هذه الشجرة الطيبة المباركة ، وقل اللهم ارض عن عمر !

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها ، منذ ولى إلى يومنا هذا ، بخمسة وعشرين ديناراً ، فما تدعى عند وقوفى فى المحشر بين يدى الله عز وجل ، فعمر منه برىء . شهد على ذلك على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود » .. ثم دفع الكتاب إلى على ، وقال : « إذا تقدمتك

فاجعلها فى كفنى » ! . هكذا كان عمر فى هذه الدنيا .. إنه على طريقه إلى الله تعالى ، وإنه ليعد نفسه للقاء الله ، ليوم الحساب !

* * *

ومشهد آخر !

قدم على المدينة رفقة من التجار ، فنزلوا المصلى ، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك نحرسهم الليلة من السرق ؟ . فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبى ، فتوجه نحوه ، فقال لأمه : اتقى الله ، وأحسنى إلى صبيك ! ثم عاد إلى مكانه ، فسمع مثل ذلك ، وقال لها ما قال أولا . فلما كان آخر الليل سمع بكاءه ، فجاء إلى أمه ، ثم قال : ويحك إنى لأراك أم سوء ! فقالت : يا عبد الله أبرمتنى[1] منذ الليلة . . إنى أحمله على الفطام فيأبى ، فقال لها : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم[2] . قال فكم له — أى من العمر — قالت : كذا وكذا شهراً ، قال : لا تعجليه . ثم صلى الفجر ، وما يستبين الناس[3] ، ثم غلبه البكاء . . فلما سلم ، قال : يا بؤساً عمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر منادياً ينادى : ألا تعجلوا صبيانكم على الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود يولد فى الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق » .

* * *

ومشهد ثالث . .

روى زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب ،

---

(١) البرم : الملال والضجر ، تقول لقد أكثرت على حتى أضجرتنى

(٢) أى لا يجعل فرضاً من بيت المال إلا لمن فطم ، أما من لا يزال رضيعاً ، فان غذاءه من ثدى أمه .

(٣) أى لا يتحقق من رؤية الناس ، لأن نور الصبح لم يسفر بعد !

وهو يطوف بالليل ، فنظر إلى نار شرقى حرة المدينة ، فقال : إن هؤلاء الركب لم ينزلوا ها هنا إلا الليلة ، ثم أهوى نحوهم ، فسرت معه ، حتى دنونا ، فسمعنا تضاغى الصبيان و بكاءهم[1] . فقال : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، هل ندنو منكم ؟ واحتبسنا قليلا ، فقالت امرأة منهم : ادنوا بسلام ، فأقبلنا حتى وقفنا عليها فقال : ما يبكى هؤلاء الصبيان ؟ قالت : الجوع ، قال : فما هذا القدر على النار ؟ قالت : ماء أعللهم به . قال : انتظرينى ، فإنى بالغك إن شاء الله ! ثم خرج يهرول وأنا معه حتى جئنا إلى دار الدقيق ، فجاء إلى عدل منها ، فطأطأ ظهره ، ثم قال : احمله على ظهرى يا أسلم ! فقلت : أنا أحمله عنك ! فنظر إلى وقال : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ لا أبالك ! قلت لا . . قال : فاحمله على ظهرى إذن ، ففعلت ، وخرج به يدلج[2] وأنا معه حتى ألقاه عند المرأة . . ثم قال لى : ذر على ذرور الدقيق ، لا يتعرد وأنا أخرز[3] ، ثم أخذ المسواط يخرز به ، ثم جعل ينفخ تحت البرمة — أى القدر — وأنا أنظر إلى الدخان يخرج من خلل لحيته ، ويقول : لا تعجل حتى ينضج ، ثم قال : ألق على من الشحم ، فإن القتار يوجع البطن !

« ثم أنزل القدر ، وقال للمرأة : لا تعجلى ، لا تعطيهم طعاماً حاراً ، وأنا أسطح لك ، فجعل يسطح بالمسواط ، ويبرد طعامهم ، حتى إذا شبعوا ترك عندها الفضل — أى الزيادة — ثم قال لها . ائتى أمير المؤمنين غداً ، فإنك عسى أن تجدينى قريباً منه ، فأشفع لك بخير ، وهى تقول : من أنت

---

(١) تضاغى الصبيان : صياحهم من الجوع .
(٢) الإدلاج : السير أول الليل . .
(٣) الخزيرة : العصيدة ، ويتعرد : ينعقد .

يرحمك الله ، وتدعو له وتقول : أنت أولى بالخلافة من أمير المؤمنين ».
فيقول لها : قولى خيراً يرحمك الله ، ولا يزيد على هذا . ثم انصرف ، حتى
إذا كان قريباً جلس فأقعى[1] ، وجعل يسمع طويلا حتى سمع التضاحك منها
ومن الصبيان ، وأنا أقول : يا أمير المؤمنين ، قد فرغت من هذه ، ولك
شغل فى غيرها ، وهو يقول : لا تكلمنى ، حتى إذا هدأ حسهم ، قام
فتمطى وقال : ويحك ! إنى سمعت الجوع أسهرهم فأحببت ألا أبرح حتى
أسمع الشبع أنامهم » !.

فيالله لهذه العظمة التى ملأت بها هذا القلب الكبير لهذا الإنسان العظيم !
فاللهم نفحة من نفحات فضلك وإحسانك تسكب بها الحب ، والحنان ،
فى قلوب عبادك المؤمنين ، ليتواصوا فيما بينهم بالبر والرحمة ، حتى يعود
لدولة الإسلام مجدها الغابر ، وسلطانها الذى ذهب به الشره والأنانية !

* * *

علم عمر — رضى الله عنه — أن عمرو بن العاص ، عامله على مصر ،
قد كثر ماله الخاص بين يديه . فكتب إليه كتاباً يقول فيه : « أما بعد
فقد بلغنى أنه قد ظهر لك مال ، من إبل ، وغنم ، وخدم ، وغلمان ،
ولم يكن لك قبله مال ، ولا ذلك من رزقك — أى من عطائك المفروض
لك — فأنى لك هذا ؟ ولقد كان لى من السابقين الأولين من هو خير
منك ، ولكنى استعملتك لغنائك ، فإذا كان عملك لك وعلينا[2] ، فبم
نؤثرك على أنفسنا ؟ فاكتب إلى من أين مالك ، وعجل ، والسلام .. »

فكتب إليه عمرو ، يقول :
« قرأت كتاب أمير المؤمنين ، ولقد صدق .. فأما ما ذكره من مالى ،

---

(١) أقعى : جلس على مؤخرته .
(٢) أى لك غنمه وثمراته ، وعلينا غرمه وحسابه بين يدى الله .

فإنى قدمت بلدة ، الأسعار فيها رخيصة ، والغزو فيها كثير، فجعلت فضول ما حصل لى من ذلك فيما ذكره أمير المؤمنين . . والله يا أمير المؤمنين ، لو كانت خيانتنا لك حلالا ما خناك حيث ائتمنتنا ، فأقصر عنا عتابك — أى خفف عنا لومك — فإن لنا أحسابا إذا رجعنا إليها أغنتنا عن العمل لك .. وأما ما كان عندك من السابقين الأولين ، فهلا استعملتهم ، فوالله ما دققنا لك بابا » !!

لقد كشف عمرو بن العاص فى كتابه هذا إلى عمر عن الوجوه التى جاءه منه هذا المال الذى كثر بين يديه .. فالأسعار فى مصر رخيصة، وعطاؤه المفروض له يزيد عن نفقته ، ثم هناك الغزو ، وما يجيئه من نصيبه فى المغانم، وقد جمع هذا إلى ذلك ، فكان له منه هذا الذى اقتناه من إبل وغنم ، وخدم ، وغلمان !

وفى كتاب ابن العاص إدلال بنفسه ، وأنه لو لم يكن أهلا للولاية ما ولاه عمر ، ولا طلبه ليتولى له العمل على مصر ، فإنه لم يدق باب عمر ، طالباً منه أن يوليه .. وعمر — رضى الله عنه — يعلم هذا ، فإنه يقول فى كتابه لعمرو : « ولكنى استعملتك لغنائك » أى لحزمك ، وضبطك ، ومقدرتك وإن كان فى صحابة رسول الله ﷺ ، من هو أتقى من عمرو . . ولكن التقوى وحدها لا تنفع فى سياسة الرعية ، إلا إذا اجتمع معها الحزم ، والضبط والحنكة .. ولهذا كان عمر يقول : « إلى الله أشكو جلد الفاجر ، وعجز الثقة » !!

ولكن هل انتهى الأمر بين عمر وعمرو عند هذا الحد ؟

لقد كتب عمر إلى ابن العاص ، يقول له :

« أما بعد ، فإنى لست من تسطيرك ، وتشقيقك الكلام فى شىء[1] !!

إنكم ـ معشر الأمراء ـ أكلتم الأموال ، وأخلدتم إلى الأعذار[2] .. فإنكم إنما تأكلون النار ، وتورثون العار ، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليشاطرك على مافى يدك ، والسلام !! » .

فماذا كان من محمد بن مسلمة ، مع عمرو ؟

« لما قدم محمد بن مسلمة على عمرو ، اتخذ له عمرو طعاماً وقدمه إليه ، فأبى أن يأكل منه ، فقال له عمرو : مالك لا تأكل طعامنا ؟ قال : إنك عملت لى طعاماً هو تقدمة للشر ، ولو كنت عملت لى طعام الضيف لأكلته ، فأبعد عنى طعامك ، وأحضر لى مالك . فلما كان الغد أحضر عمرو ماله ، فجعل محمد بن مسلمة يأخذ شطراً ، ويعطى عمرو شطراً

« فلما رأى عمرو ما حاز ابن مسلمة من المال ، قال : يامحمد . أقول ؟ قال : قل ما تشاء !! قال : لعن الله يوماً كنت فيه عاملا لابن الخطاب !! والله لقد رأيته ، ورأيت أباه ، وإن على كل واحد منهما عباءة قطوانية مؤتزراً بها ما تبلغ مأبض[3] ركبتيه ، وعلى عنق كل واحد منهما حزمة من حطب . . وإن العاص بن وائل ، لفى مزارات الديباج . . فقال محمد : إيها ياعمرو . فعمر والله خير منك ، وأما أبوك وأبوه ففى النار ، فوالله لولا مادخلت فيه من الإسلام لألفيت معتلفاً شاة يسرك غزرها ، ويسوؤك بكؤها ..[4] قال عمر : صدقت فاكتم على ، قال : أفعل »

---

(١) أى أن عمر لا يغتر بتزويق الكلام ، واصطياد الحجج !

(٢) أى استندتم إلى إقامة الأعذار !

(٣) المأبض : ما تحت الفخذ ، وهو باطن الركبة..

(٤) كناية عن العوز والحاجة ، والغزر كثرة اللبن ، والبكء قلته .

إنها كلمة ينفس بها عمرو عن نفسه ، وما دخل عليه من ضيق بوضعه تحت هذه المحاسبة التى أخرجته عن شطر ماله ، وإنها لبقية من جاهلية عند ابن العاص . . لقد ذهب الإسلام بالفخر بالأحساب والأنساب ، وأصبح الإسلام هو النسب لكل مسلم ، وإنه بقدر قرب المسلم من الإسلام تكون نسبته إليه ، واعتزازه به

ولقد كان عمر – رضى الله عنه – يذكر نفسه دائماً ، ويذكر المسلمين ، بما كان عليه فى جاهليته من فقر وحاجة ، وأن هذا السلطان الذى بين يديه إنما هو من فضل الله عليه ، وأن الإسلام هو الذى كساه هذا الثوب العزيز الكريم ، الذى لبسه من داخل كيانه . . أما ظاهره فهو القميص المرقع ، والطعام الخشن ، والنوم على الأرض ، بلا فراش أو غطاء .

يقول عمر – رضى الله عنه – وقد لبس ثوب الخلافة : « لقد رأيتنى مرة وأختاً لى ، نرعى على أبوينا ناضحاً لنا وقد ألبستنا أمنا نقبتها[1] وزودتنا بيمنتيها من الهبيد[2] ، فنخرج بناضحنا ، فإذا طلعت الشمس ألقيت النقبة إلى أختى وخرجت أسعى عريان ، فنرجع إلى أمنا ، وقد جعلت لنا لفيتة[3] من ذلك الهبيد ، فياخصباه »

فهل كان عمر يرى عزاً فى غير الإسلام ؟ إنه الثوب الذى إذا لبسه إنسان وأعطاه حقه ، استصغر كل ما فى الدنيا من مال وجاه ، وسلطان .

* * *

كان عمر — رضى الله عنه — يرى للناس حقوقاً معلقة فى عنقه وأنه

---

(١) النقبة : خرقة كالسروال .
(٢) الناضح الجمل يسقى عليه ، والهبيد : حب الحنظل .
(٣) أى حساء

ان يبرأ منها إلا إذا أداها إليهم ، وأنه لا يأمن أن يجور عليهم الولاة ، وألا يعطوهم النصفة من أنفسهم ، أو من غيرهم من أهل الزلفى ، والقرابة من الوالى.. وهذا ما كان يؤرقه ، ويقض مضجعه ، فكان كلما ذكر شيئاً من هذا قام كالملسوع ، يصرخ فى أعماقه ، ويذرف الدمع دماً من قلبه .

وكان — رضى الله عنه — يقول : لئن عشت إن شاء الله ، لأسيرن فى الرعية حولا ، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقتطع دونى . . أما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى !! أسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة ـ العراق ـ فأقيم بها شهرين . . ثم أسير إلى مصر ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة ، فأقيم بها شهرين . . والله لنعم الحول هذا !! » .

ولكن الأحوال لم تهيىء لعمر تحقيق هذه الأمنية العزيزة عنده ..

فماذا كنا نرى من عمر فى رحلته تلك لو قدرت له ؟

لا شك أننا كنا سنشهد سجلا حافلا من روائع عمر ، وما يقيمه من دعائم العدل ، وما يعالج به المشكلات ، مما يكون مثلا فريداً يحتذيه الراشدون من الحكام إلى اليوم ، وما بعد اليوم !!

ومع ما كان يأخذ به عمر ـ رضى الله عنه ـ الناس من مساواة مطلقة ، فإنه كان يرى أن لوجوه الناس ، وأهل المكانة فيهم ، حقاً ، يجب أن يرعى ، حيث لا بد أن يكون فى الناس أعلام يتأسى بهم الناس ، ويتخذون منهم مثلا تنزع بهم هممهم إليها ، وبهذا تدب الحركة والحياة فى المجتمع ، ولو كان الناس على حال سواء ، لكانوا أشبه بالبركة الراكدة . . وفى الحديث الشريف : « الناس بخير ما تباينوا ، فإذا تساووا هلكوا » .

كتب عمر - رضى الله عنه ، إلى أبى موسى الأشعرى كتاباً يقول له فيه : « إنه لم يزل للناس وجوه من الأمر .. فأكرم من قبلك من وجوه الناس ، وبحسب المسلم الضعيف من بين القوم أن ينصف فى الحكم وفى القسم » .

ومعنى إكرام وجوه الناس فى رأى عمر ، هو أن يوضع الرجل المناسب ، فى المكان المناسب .. فمن كان أهلا للحرب ولاه قيادة الجند ، ومن كان أهلا للأمانة ولاه جباية الخراج ومن كان أهلا للعدل ولاه القضاء ، وهكذا .. فإنه لو جرت الأمور على غير هذا لانتكست أحوال المسلمين ، إذ فيهم الضعيف العاجز ، وفيهم البليد الخامل ، وفيهم الشره الطامع .. وحسب هؤلاء أن ينصفوا ، فلا يجار عليهم فى حق وفى هذا سلامة لهم ، وسلامة للناس من سوء تصرفاتهم ..

أما من عرفوا بالمكان والشرف فى أقوامهم ، فإن عمر - رضى الله عنه - كان ينزلهم المنزل اللائق بهم ، ما دام يرى فيهم خيراً ، ولا يجد لهذه المكانة داعية تحملهم على التكبر والتعالى على الناس .. فإذا رأى من أحدهم ، أو استشعر منه شيئاً من هذا أوقفه عند حده ، وأراه غير ما يظن من نفسه ..

كان - رضى الله عنه - قاعداً والدرة معه ، والناس حوله ، إذ أقبل الجارود العامرى ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ، ومن حوله ، وسمعها الجارود ، فلما دنا من عمر خفقه بالدرة .. فقال الجارود مالى ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويلك ! سمعتها[1] ؟ قال : وسمعتها

---

(١) أى أسمعت ما قال الرجل من أنك سيد ربيعة ، وعرفت أنى ما خفقتك بالدرة إلا لأذهب أثر هذه الكلمة من نفوس الذين سمعوها !

فه(1) ؟ قال : حشيت أن تخالط القوم ، ويقال هذا أميرنا فأحببت أن أطأطىء منك !!

وهكذا يخلى عمر — رضى الله عنه — من الناس هذا الشعور الذى قد يدخل عليهم من مكانة هذا الرجل وأمثاله فى قومه ، فيستسلموا لهم ، ويدينون بالولاء لثوب هذه الإمارة التى يخلعونها عليهم !! إنه لا إمارة لأحد على أحد ، إلا ما كانت من مكانته التى فى القلوب ، لماله من آثار محمودة فى الإسلام .. إنها حينئذ تكون إمارة تطلبه ، ولا يطلبها ، وتسكن فى كيانه ، ولا يشعر بها .. وفى هذا يقول عمر — رضى الله عنه — : « الأمير من إذا كان فى الناس كان أميراً ، وليس بأمير » !

ومع هذا فقد كان لعمر فى الناس هيبة ليست مصطنعة ولا متكلفة ، وليست واردة عليه من ثوب الخلافة الذى لبسه .. وإنما هيبته هى التى جعلها الله تعالى له فى قلوب الناس وعيونهم .. يهابونه على القرب والبعد على السواء .. وقد كان عمر يرى هذا من نفسه ، ويحاول جاهداً أن يتعرى من تلك الهيبة .

يروى ابن الجوزى فى كتابه : « سيرة عمر بن الخطاب » — فيقول :

« عن القاسم بن محمد ، قال : بينا عمر — رضوان الله عليه — ذات يوم يمشى ، وخلفه عدة من أصحاب رسول الله ﷺ إذ بدا له أن يلتفت فالتفت ، فلم يبق منهم أحد إلا وحبل ركبتيه ساقط !! قال فأرسل عمر عينيه فبكى ، ثم قال : اللهم تعلم أنى منك أشد فراراً منهم منى » .

« وعن أسلم أن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف — رحمه الله — فقالوا له : كلم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فإنه والله قد أخشانا حتى

(1) أى فماذا تريد ؟

والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا . فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر ، فكان جواب عمر له : والله لقد لنت للناس ، حتى خشيت الله في اللين ولقد اشتددت عليهم حتى خفت الله في ذلك .. وأيم الله لأنا أشد منهم فرقاً مني » .

« وعن عمر بن مرة ، قال : لقي رجل من قريش عمر ـ رضوان الله عليه ـ فقال : لن لنا ، فقد ملأت قلوبنا مهابة ! فقال أفي ذلك ظلم ؟ قال لا .. فقال : فزادني الله في صدوركم مهابة » ! .

وهذه المهابة التي يسأل عمر الله أن يزيده منها في الصدور ، هي لازمة من لوازم الحاكم القائم بأمر الناس ، إذا هو أقام ميزان العدل بينهم ، فكانت مهابته من جلال هذا الحق الذي يقيم عليه أموره كلها .. وإنه إن تسقط هيبة الحاكم من المحكومين ، فإنه ينفرط عقد الجماعة ، وتعصف بهم عواصف الاستخفاف بالوازع .. وشتان بين الخوف الذي يملأ قلوب الرعية من جور الحاكم وبطشه ، وظلمه ، وجبروته ، وبين الخشية والمهابة التي يتوج بها الحاكم من عدله ، وتقواه !

ويروي بن الجوزي هذه الحادثة من هيبة عمر ـ رضي الله عنه ـ فيقول :

« عن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال : بلغ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن امرأة يتحدث عندها الرجال فأرسل إليها ، وكان عمر رجلا مهيباً . فلما جاء الرسول ، قالت : ياويلها ، مالها ولعمر ؟ فخرجت ، فضربها المخاض ، فمرت بنسوة فعرفن الذي بها ، فقدمت بغلام ، فصاح صيحة ثم طفا ـ أي مات ـ فبلغ ذلك لعمر ـ رضي الله عنه ـ فجمع المهاجرين والأنصار ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ فاستشارهم وفي آخر القوم رجل ، فاستشارهم عمر ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنما كنت

مؤدباً ، وإنما أنت راع. فقال ماتقول يا فلان ؟ فقال : أقول إن كان القوم تابعوك على هواك ، فوالله ما نصحوا لك ، وإن يكونوا اجتهدوا آراءهم فوالله لقد أخطأ رأيهم ، يا أمير المؤمنين أما وديته ؟ — أى دفعت دية هذا الولد الذى مات ؟ — فقال عمر : فعزمت عليك لما قمت فقسمتها على قومك[1] .. قال فقيل للحسن : من الرجل ؟ قال على بن أبى طالب » .

وهكذا كان عمر — رضى الله عنه — فى هيبته التى خلعها الله تعالى عليه ، والتى ملأت قلوب المسلمين مهابة له ، وإكباراً وحباً .. فكما كانت محبته تملأ القلوب ، كان حبه وإكباره ، يملأ القلوب ..

* * *

(١) قوله : فقسمتها على قومك ـ أى أشركتهم فى دفع الدية .

الفصل السابع

١ ـ عام الرمادة :

فى السنة الثامنة عشرة للهجرة ، وقعت الجزيرة العربية فى محنة من الجدب الذى لم تعهد له مثيلا ، حيث أمسكت السماء عن المطر هذا العام ، فلم تتحلب من ضرعها قطرة ماء ، حتى اسود وجه الأرض ، واحترق كل نبات على وجهها . . وكان من هذا أن عاش الناس والحيوان فى وجه مهلكة ، إن لم يتداركهم الله تعالى برحمته ، وقد سمى هذا العام عام الرمادة ، إذ كان وجه الأرض يسفى رمالا محترقة كأنها بقايا النار من الرماد .

وقد كان عمر — رضى الله عنه — رحمة من رحمة الله على الناس فى هذا الظرف العصيب ، الذى كان الناس فيه يأكلون الميتة ، ويحفرون أنفاق اليرابيع ، والجردان ، ليخرجوا ما فيها ويأكلوه .

وإذا كان أهل المدينة أحسن حالا من أهل البادية المنقطعين عن الأمصار ، وما يحمل إلى المدينة منها ـ فقد كانت عينا عمر ـ رضى الله عنه ـ على أهل البادية عيناً ساهرة لا تنام ، وكان قلبه قلباً مضطرباً لا يهدأ .

وقد استصرخ عمر ولاة الأمصار ، أن يبعثوا إليه بالمؤن ، حتى يمسك بها على الناس أنفاس الحياة . . ولكنه ـ مع هذا ـ ظل واقفاً على قدميه ، لا يهدأ ولا ينام ، يتحرك هنا وهناك ، كأنه الملسوع !

ولقد تغير لون عمر ، وعلته سفعة شديدة . . ومع هذا فقد أبى أن يطعم نفسه شيئاً ينال به شبعاً . وقد آلى على نفسه ، فقال : « لا آكل سمناً ولا سميناً » وقد اتخذ قدحاً فيه فرض ، فكان يطوف على القصاع ، فيغمز القدح ، فإن لم تبلغ الثريدة الفرض ، قال : انظر ماذا يفعل بصاحب الطعام[1] ؟ » !

عن عياض بن خليفة ، قال : رأيت عمر عام الرمادة ، وهو أسود اللون ، فقيل له ـ أى لعياض ـ بم ذاك ؟ قال : كان رجلا عربياً ـ يعنى عمر ـ يأكل السمن واللبن ، فلما أمحل الناس حرمهما حتى يحيوا[2] ، فأكل الزيت ، فغير لونه ، وجاع فأكثر الجوع فغير لونه » .

وكانت بطنه ـ رضى الله عنه ـ تقرقر من الجوع ، وسوء الطعام ، فينقر على بطنه بإصبعه ، ويقول : تقرقرين ؟ ! إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس !

وكان ـ رضى الله عنه ـ يحمل الطعام ، ويذهب به إلى الأرامل واليتامى ، يطعمهم ، ومن لم يأته عمر أرسل إليه بالدقيق والتمر إلى منزله ، وكان يتضرع إلى الله ويقول : « اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدى . اللهم لا تهلكنا بالسنين ، وارفع عنا البلاء » .

وكان يقول عام الرمادة : « لقد هممت أن أجعل مع أهل كل بيت من المسلمين مثلهم ، فإن الإنسان لا يهلك على نصف شبعة ! » .

« روى عن نافع ، مولى آل الزبير ، قال : سمعت أبا هريرة يقول :

---

(١) أى أنه ـ رضى الله عنه ـ لا يدع القائم على الطعام دون أن يوقع به الجزاء إذ رأى أن الذى يوزع الطعام على الآكلين قد أنقص شيئاً من هذا القدر الذى قدره عمر بالقدح الذى كان يقيس به .

(٢) أى ينزل بهم الحيا وهو المطر .

رحم الله ابن حنتمة ــ أى عمر ــ لقد رأيته عام الرمادة ، وإنه ليحمل على ظهره جرابين ، وعكة زيت فى يده ، وإنه ليعتقب[1] هو وأسلم ، فلما رآنى قال: من أين يا أبا هريرة ؟ قلت قريباً ، فأخذت أعقبه ، فحملنا ، حتى انتهينا إلى ضرار[2] ، فإذا حرم ــ أى جماعة ــ من نحو عشرين بيتاً من محارب ــ اسم قبيلة ــ فقال لهم عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا : الجهد ! وأخرجوا لنا جلداً لميتة مشوياً ، كانوا يأكلونه ، ورمة العظام مسحوقة كانوا يستفونها ، فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم برز ، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا ، ثم أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبعرة فحملهم عليها ، ثم أنزلهم الجبانة بالمدينة ، ثم كساهم ، وكان يختلف إليهم ، وإلى غيرهم ، حتى كفى الله ذلك » .

وقد انجلت هذه المحنة ، وذلك باستسقاء عمر ــ رضى الله عنه ــ فقد خرج بالناس ، والأرامل ، والأطفال ، والحيوان ، إلى ظاهر المدينة ، وقدم العباس ــ عم النبى ﷺ ــ ، وهناك وقف بين يدى الله يدعو ، ولا يزيد فى دعائه على الاستغفار ، فلما انتهى من ذلك ، قال له قائل: يا أمير المؤمنين إنك لم تستسق ــ أى لم تطلب من الله السقيا ــ وما زدت على أن استغفرت فقال : « لقد استسقيت بمجاديح السماء » . أى بما ينزل به المطر من السماء ، وهو الاستغفار . يشير عمر بهذا إلى قوله تعالى : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ .

ثم ما لبثت السماء أن أرسلت المطر مدراراً ، فأحيا به الله الأرض بعد موتها ، وخرج أهل الجزيرة من هذه المحنة !

* * *

(١) يعتقب أى يحمل هذا مسافة ، وذاك مسافة ، وعكة الزيت ، هى القدر .

(٢) موضع خارج المدينة .

٢ — طاعون عمواس .

كان الوباء إذا نزل فى الزمن الماضى بمكان من الأرض ، أتى على كل ما فيه ، من أناس ، إذ لم يكن هناك ما يقى الناس منه ، مما هو معروف الآن ، من عزل المرضى ، ووقاية الأصحاء من العدوى .

وما عرف الوباء فى الجزيرة العربية ، لنقاء هوائها ، واتساع أرجائها ، وغدو الشمس ورواحها على كل مكان فيها .

وفى إحدى خرجات عمر ـ رضى الله عنه ـ إلى الشام ، لقيه ببعض الطريق ، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام !

فقال عمر لابن عباس : ادع لى المهاجرين ، فدعاهم ، فسألهم الرأى فى هذا الموقف ، فاختلفوا عليه ، فقال بعضهم : خرجت لأمر ، ولا نرى أن ترجع عنه . وقال بعضهم : إن معك بقية الناس من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ! فقال عمر عندئذ : ارتفعوا عنى . . ثم قال لابن عباس : ادع لى الأنصار ، فدعاهم ، فاختلفوا عليه اختلاف المهاجرين . فقال لابن عباس : ادع لى من كان من مشيخة قريش ، من مهاجرة الفتح ، فدعاهم ، فقالوا بأجمعهم : نرى أن ترجع بالناس ، ولا تقدمهم على هذا الوباء . فنادى عمر فى الناس : إنى مصبح على ظهر[1] ، فأصبحوا عليه » .

أراد عمر بهذا النداء أن يتهيأ الناس للسفر فى صباح الغد . ولكن لا يدرون إلى أين يكون المسير ؟ أيمضون فى طريقهم إلى الشام التى جاءوا قاصدين دخولها ؟ أم يعودون من حيث أتوا إلى المدينة .

---

(١) كناية عن الرجوع إلى المدينة .

إنها فرصة يفكر فيها عمر ، ويأخذ بالرأى الذى يرجح عنده ، بعد أن وقع هذا الخلاف فى الرأى !

فلما أصبح عمر ، ركب بعيره ، وكان الناس قد ركبوا مراكبهم ، وتهيئوا للسفر .. وانتظروا ليروا إلى أين تكون وجهة عمر بهم ! ولا يتكلم عمر ، ويولى وجه بعيره شطر المدينة ، وإذا بأبى عبيدة ابن الجراح ، يعترض طريقه ، ويقول له : أفراراً من قدر الله تعالى؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم ، نفر من قدر الله إلى قدر الله !! أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان[1] : إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة . أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله » ؟

هذا هو منطق عمر فى معالجة هذا الأمر العارض ، وهو ما دله عليه عقله ، وحدسه ، إذ لم يجد فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسول الله ما يدله على المخرج من هذا المأزق !! إن عليه فى تلك الحال أن يجتهد رأيه ، وأن يزن الأمر ويقدره ، ثم يأخذ بما يراه أوفق وأصلح !

ولا يكاد يتحرك موكب عمر نحو المدينة ، وهو فى موقف الرأى والمناصحة مع أبى عبيدة ، حتى يطلع على عمر من نور السنة النبوية ، ما يثلج صدره ، ويملأ قلبه طمأنينة ورضى .

فها هو ذا عبد الرحمن بن عوف — وكان غائباً فى بعض شأنه — يجىء إلى موكب عمر ، فيجد هذا الخلاف الذى يمسك عمر وأبو عبيدة ، كل بطرف منه . فيقول ابن عوف : إن عندى من هذا علماً !! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم به — أى بالطاعون — بأرض فلا

(١) العدوة : جانب الوادى . والعدوتان : جانباه .

تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .
فحمد عمر ، الله عز وجل . وانصرف راشداً سالماً إلى المدينة ، هو وأصحابه » .

لم يأخذ عمر برأى أبى عبيدة بن الجراح ـ مع مكانة هذا الصحابى الجليل ، ومع ما قال النبى الكريم فيه : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » . وما كان يراه عمر من أن لو كان أبو عبيدة حياً لولاه الخلافة من بعده ـ لأن أبا عبيدة كان مجتهداً فيما رأى من دخول عمر الشام ، مع ما كان قد ظهر فيها من الوباء ، لأنه يعد الفرار من هذا البلاء ، فراراً من قدر الله ، وعمر له اجتهاده فى هذا الأمر أيضاً ، إذ لم يكن هناك نص من الكتاب أو السنة ، يتقيد به عمر أو أبو عبيدة . واجتهاد أبو عبيدة لا يلغى اجتهاد عمر ، كما أن اجتهاد عمر لا يصادر اجتهاد أبى عبيدة ، أو غيره من المسلمين .

والذى أدى إليه اجتهاد عمر هو ألا يقدم بالمسلمين على هذا البلاء ، وألا يلقى بهم إلى التهلكة ، وإن فرارا من وجه هذا البلاء ليس فراراً من قدر الله ، فهو إن فر من قدر الله ، كان فراره إلى قدر الله أيضاً . . فقدر الله محيط بالإنسان فى كل حال من أحواله ، وفى كل عمل من أعماله .. وبما أن الإنسان عقلا وإرادة ، فإنه مطلوب منه أن يعمل عقله وإرادته ، وهو لا ينتهى إلا إلى ما قدره الله تعالى له .

وقد جاء الحديث الشريف موافقاً لاجتهاد عمر ، كما جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم موافقة لرأيه واجتهاده .

٣ — الجدل فى كتاب الله :

نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين . فكانت آياته وكلماته مفهومة

عند كل عربى ، إذ لم يخرج القرآن الكريم فى كلماته ، وفى أساليب مخاطباته على مألوف العرب فى أساليب تخاطبهم ، وتعاملهم بهذه اللغة التى نزل القرآن الكريم بها .

ولهذا لم يسأل الصحابة ، ولا غيرهم من المسلمين ، أو المشركين رسول الله ﷺ عن معنى كلمة أو آية من آيات الكتاب الكريم ، استفساراً ، أو استنكاراً ، حتى فى تلك الحروف المقطعة التى بدئت بها بعض سور القرآن الكريم ، مثل : ألم ، المر ، المص ، حم ، إلى آخر هذه الحروف التى استفتحت بها بعض الصور — لم يسأل المسلمون أو المشركون رسول الله عنها ، لأن ذلك كان معهوداً فى مخاطباتهم ، حيث كانوا يبتدئون كلامهم أحياناً بمثل هذه المقاطع : ألا ، أما وهى لا تعنى عندهم إلا تنبيهاً للسامع ولفتاً له إلى ما يرد عليه من كلام بعد هذا له شأنه وله خطره !

ذلك ما كان عليه المسلمون الأولون فى عهد النبى ﷺ وفى عهد أبى بكر — رضى الله عنه — إذ كان المحيط الذى يتحرك فيه القرآن الكريم محيطاً عربياً خالصاً ، لا تشوبه عجمة مما شابه بعد ذلك ، حين دخل العرب بلاد الفرس والروم

فلما امتد الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية ، ودخل غير العرب فى دين الله ، فى خلافة عمر ، واختلط العرب بغيرهم من الأعاجم ، اختلفت أنظار الناس إلى القرآن ، ودخلوا بمفاهيم جديدة إلى آياته وكلماته ، ثم امتد هذا إلى قضايا كثيرة متشعبة ، فى أصول العقيدة ، ومقررات الشريعة ، ووقع الصدام العقلى بين المسلمين حول المفهوم الذى تعطيه الآيات القرآنية ، ودخل علم الكلام فى هذا الصراع ، فتولدت الفرق المتعددة من فرق المعتزلة والخوارج ،

والشيعة . . كل فرقة ترجع إلى القرآن ، وتقيم لها المفهوم الذى ترتضيه بما تؤول من آيات الله .

وقد كان هناك خلاف فى عهد رسول الله ﷺ ، ولكنه كان خلافاً حول القراءات بين حفظة القرآن . . ومع هذا فقد نهى الرسول الكريم عن أن يكون بين المسلمين خلاف فى هذا ، فقد سمع ﷺ جماعة يختلفون فى هذا حتى علت أصواتهم ، فخرج عليهم مغضباً ، وقال : « اقرءوا القرآن ما ألتفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فيه فقوموا » وقال ﷺ : « إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب » ـ أى التوراة والإنجيل .

فلما كانت خلافة عمر ، وما صحبها من اتساع الفتوحات الإسلامية ، ودخول أمم غير عربية فى الإسلام، بدأت طلائع هذا الخلاف ـ لا فى قراءة القرآن ، ولكن فى معانيه ـ بدأت تظهر وجرت على ألسنة بعض الناس تساؤلات عن معنى هذه الآية أو تلك ، أو عن معنى هذه الكلمة من تلك الآية أو هذه .

وعمر — رضى الله عنه — يرقب هذه الظاهرة ويرصدها ، ويحاول بكل قوته أن يقضى عليها فى مهدها . . ولو استطاع أن يمسك بكل لسان يتحرك بمثل هذه الأسئلة التى تتوارد على كلمات الله وآياته من أولئك الخارجين على ما مضى من موقف المسلمين بين يدى آيات الله والوقوف على تلاوته ـ لو استطاع ذلك لفعل ، ولكن أنى له ذلك والدولة قد ترامت أطرافها ، وتعددت أجناسها ؟

ومع هذا فإن عمر — رضى الله عنه — لا تخونه عبقريته فى أى وقت ، ولا يعطى يده مستسلماً لأية مشكلة .

فقد وقف مرة يخطب الناس ، فتلا فى خطبته قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا

فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخـــلا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبا ﴾(١) .

فلما بلغ قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » توقف قليلا ، ثم قال : هذه الفاكهة قد عرفناها،فما الأب ؟ ثم عاد يرد على نفسه لائما عاتباً ، والناس يسمعون : « ما هذا التكلف يا عمر » ؟ .

إن عمر – رضى الله عنه – ما تلا هـذه الآيات إلا ليقف عند تلك الكلمة التى تبدو غريبة ، وهى «الأب» والتى قد يسأل بعض الناس عنها، فسأل هو عنها نفسه ، ثم عاد فأمسك عن السؤال ، ووضع نفسه موضع اللوم لهذا التكلف بسؤاله عن «الأب» .

وهل كان عمر يجهل حقاً معنى «الأب» ؟ لا نظن ، وهو العربى الذى جاءت كلمات القرآن بلسانه وبلسان قومه !

وإنما سأل هذا السؤال ثم رد نفسه ولامها عليه،ليكون فى ذلك مزدجر لمن يتكلفون مثل هذا التكلف ، ويسألون مثل هذا السؤال! إنه يرى الناس من هذا أن يعرض المسلم عن مثل هذه الأسئلة التى تعرض له حول كلمة من كلمات الله ، أو آية من آياته وحسبه أن يتلو الآية الكريمة وأن يأخذ منها ما يتفق له من فهم لها ، دون أن يغوص فى أعماقها ، ويفتت وحـــدتها ، ويقطع أوصالها .

وهب إنساناً لم يفهم معنى لفظة من ألفاظ القرآن الكريم – كما رأينا عمر وقد وضع نفسه موضع من لا يفهم كلمة «الأب» – فماذا على هذا الإنسان إذا لم يفهم معنى هذه اللفظة أو تلك ، فهما محدداً ، وبين يدى هذه اللفظة

(١) عبس : ٢٤ — ٣١ .

ومن خلفها من كلمات الله ، ما يلقى أضواء كاشفة عليها ، تجعل منها درة في هذا العقد النظيم ؟ .

* * *

ولكن هل وقف عمر — رضى الله عنه — عند هذا ؟ وكلا ، فإنه — رضى الله عنه — تتبع هؤلاء المتكلفين الذين يعرضون القرآن الكريم لمثل هذه التساؤلات ، التى إن شغل بها المسلم نفسه صرفته عن العمل بآيات الله ، وما تدعو إليه من خير ، للعاملين بها فى الدنيا والآخرة جميعاً .

لم يقف عمر عند هذا الدرس البليغ الذى عرض فيه نفسه على رءوس الأشهاد هذا العرض الذى سرعان ما رد نفسه عنه ، وأقامها على الطريق الذى يرضاه الله ورسوله . من المتصلين بكتاب الله من المؤمنين ، فكان إذا وقع ليده واحد من هؤلاء المجادلين فى آيات الله أمسك به ، وأدبه أدباً ، فيه عبرة زاجرة ، لكل من سلك مسلك هذا الإنسان المجادل فى آيات الله .

ولننظر فى هذا الحدث ، وموقف عمر منه ، ففيه عبرة ، وفيه مزدجر ، للمتكلفين المجادلين فى آيات الله :

« جاء رجل إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال له : إن ضبيعاً التميمى ، لقينا يا أمير المؤمنين ، فجعل يسألنا عن تفسير حروف من القرآن ، فقال عمر : « اللهم أمكنى منه ، فبينا عمر يوماً جالس يغذى الناس ، إذ جاءه ضبيع ، هذا ، وعليه ثياب وعمامة ، فتقدم فأكل ، حتى إذا فرغ ، قال : يا أمير المؤمنين : ما معنى قوله تعالى : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا » ؟ فقال عمر : ويحك ! أهو أنت ؟ فقام إليه عمر ، فحسر عن ذراعيه ، فلم يزل يجلده ، حتى سقطت عمامته فإذا له ضفيرتان ، فقال عمر : والذى نفس

عمر بيده ، لو وجدتك محلوقاً لضربت رأسك[١] !! .. ثم أمر به عمر فجعل فى بيت — أى سجن — فكان يخرجه كل يوم فيضربه مائة ، فإذا برأ أخرجه فضربه مائة أخرى .. ثم حمله على قتب[٢] ؛ وسيره إلى البصرة ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى يأمره أن يحرم على الناس مجالسته ، وأن يقوم فى الناس خطيباً ، ثم يقول : إن ضبيعاً قد ابتغى العلم فأخطأه .. فلم يزل ضيعاً وضيعاً فى قومه ، وعند الناس ، حتى هلك ، وقد كان من قبل من سادات قومه » !! .

وفى هذه الحادثة أكثر من دلالة :

فأولا : أن المسلمين أنكروا على صبيع هذا الذى كان منه من سؤال عن تفسير حروف — أى كلمات — من القرآن الكريم ، وعدوا ذلك شيئاً غريباً لم يألفوه ، ولهذا شكوه إلى عمر حين رأوه يسأل عن أشياء فى القرآن الكريم ، فجاءهم فى هذا بأمر لم يكن لهم عهد به .

وثانياً : أن عمر — رضى الله عنه — لم يأخذ ضبيعاً بحد معروف من الحدود التى أوجبتها الشريعة .. وإنما ذهب به مذهباً لم تحدد له الشريعة حداً ، تخرج به عن الحدود المعروفة ، لأن جنايته خارجة عن المعروف للمسلمين ، فجمع عمر فى تأديبه بين الضرب والسجن .

وهكذا سد عمر هذا الباب من أبواب الفتنة على المسلمين!!

ولكن هل ظل هذا الباب مغلقاً ؟

إنه ما كاد عمر يمضى إلى مثواه ، ويلحق بربه ، حتى انفتح هذا

---

(١) إشارة إلى أن عمر لو وجده محلوقاً ، لعرف من ذلك أنه مجلود فى حد من حدود الله ، إذ كان من المتبع ان المجلود يحلق شعره قبل أن يحد ! .. ومعنى هذا أنه من أهل التهم والريب . ومعنى قول عمر : « لضربت رأسك » أى قتلتك ، حيث يعده من المحاربين لله والساعين فى الأرض فساداً ، لتكرار جرائمه .

(٢) أى ركوبه من غير شىء للراكب عليها ، إلا الخشب .

الباب على مصرعيه ، وفتحت إلى جانبيه أبواب وأبواب كانت منها هذه المواليد المشئومة، لتلك الفرق المارقة، التي ظهرت بين جماعة المسلمين ، وأدارت رءوسهم ، وفرقت وحدتهم !

وأقرب شاهد لهذا ، ما كان من نافع بن الأزرق ، وهو من رءوس الخوارج الذين أطلوا برءوسهم في خلافة على ـ كرم الله وجهه !

فقد جاء نافع بن الأزرق هذا إلى ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ يسأله عن معنى كلمات من القرآن الكريم ويجيبه ابن عباس عن معنى كل كلمة، فلا يرضى ابن الأزرق عن هذا ، حتى يطلب شاهداً من استعمالات العرب لهذه الكلمات ، فيقول : وهل تعرف العرب هذا ؟ فيقول ابن عباس : نعم ألم تسمع قول الشاعر ؟ ويأتى ابن عباس ببيت الشعر الحامل لهذا المعنى .

وهكذا يمضى ابن عباس يجيب نافعاً عما يسأل عنه ، ويقيم له الشواهد من الشعر العربى ، حتى جاوز ذلك مئات الكلمات ، ومئات الأبيات من الشعر [1] .

وسواء صحت هذه الرواية التي تروى عن نافع بن الأزرق وما جرى بينه وبين ابن عباس ، أو لم تصح ، فإنه يمثل حالا كانت واقعة بعد موت عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وأن الخرق قد اتسع ، بحيث لم يعد في الإمكان سده ، فكان على أمثال ابن عباس ألا يقفوا موقف العجز أمام هؤلاء المجادلين في آيات الله ، كما كان ذلك فيما وقع بعد هذا من مقولات المعتزلة التي تصدى أهل السنة للرد عليهم بمثل منطقهم .

* * *

(١) من أراد أن يطلع على هذا ، فلينظر ذلك في كتاب « الإتقان في علوم القرآن » للسيوطى !

ويحسن أن نأتى هنا بمقطع من هــذا الموقف الذى كان من نافع بن الأزرق مع ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ لنرى أن نافعاً لم يكن طالب علم أو باحثاً عن حق ، وإنما كان متهماً للقرآن ، وأنه قد اختلط فيه اللسان العربى بغيره من لسان أهل الـكتاب وغيرهم ، وهذا يعنى عند ابن الأزرق أن القرآن ليس من عند الله ، وإنما هو مما أخذه محمد ﷺ من الرهبان والـكهان . كما قال المشركون من قبل ، مما ذكره الله تعالى على لسانهم فى قوله جل شأنه : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ وقد رد الله تعالى عليهم هذا الافتراء بقوله سبحانه : ﴿ فقد جاءوا ظلماً وزوراً ﴾ [١].

عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد عن أبيه قال : بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الـكعبة ، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، إذ قال نافع بن الأزرق ، لنجدة بن عويمر ـ وهما من الخوارج ـ قم بنا إلى هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن ـ أى ابن عباس ـ بما لا علم له به ، فقاما إليه ، فقالا : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ، وتأتينا بمصادقه من كلام العرب ، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين .. فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لـكما .

فقال نافع : أخبرنى عن قول الله تعالى : « عن اليمين والشمال عزين » فما العزون ؟ قال ابن عباس : العزون : الحلق [٢] من الرفاق .. قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال ابن عباس :

---

(١) سورة الفرقان : ٤ .

(٢) المعارج : ٣٧

(٣) جمع حلقة ، وهى الجماعة من الناس يتحلقون ، أى يجلسون على هيئة الحلقة .

نعم : أما سمعت عبيد بن الأبرص[١] ، وهو يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا .

قال . أخبرنى عن قوله تعالى : « وابتغوا إليه الوسيلة »[٢] قال ابن عباس : الوسيلة الحاجة ، قال .وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ، أما سمعت عنترة وهو يقول :

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلى وتخضبى

قال نافع . فأخبرنى عن قوله تعالى : « شرعة ومنهاجاً » ؟[٣] فقال ابن عباس : الشرعة : الدين ، والمنهاج : الطريق . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال ابن عباس : نعم ، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وهو يقول :

لقد نطق المأمون[٤] بالصدق والهدى

وبين الإسلام ديناً ومنهجاً

قال : أخبرنى عن قوله تعالى « إذا أثمر وينعه »[٥] فقال ابن عباس : ينعه ؟ نضجه وبلاغه . . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم : أما سمعت قول الشاعر :

إذا ما مشت بين النساء تأودت

كما اهتز غصن ناعم النبت يانع

---

(١) شاعر جاهلى .

(٢) سورة المائدة ٣٨

(٣) سورة المائدة ٤٨

(٤) المأمون : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى ائتمنه الله تعالى على تبليغ رسالته الناس .

(٥) سوره الأنعام ٩٩

قال : فأخبرني عن قوله تعالى : « قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً »[1] .

قال ابن عباس : الريش : المال .. قال وهل تعرف العرب ذلك .
قال : نعم ، أما سمعت الشاعر يقول :

فرشني بخير طالما قد بريتني
وخير الموالى من يريش ولا يبرى

وهكذا استمر ابن الأزرق . يسأل ، وابن عباس - رضى الله عنه - يجيب ، مستشهداً على ذلك بالشعر العربى ، الذى هو ديوان العرب ، فسأل عن معنى قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد »[2] وعن معنى قوله سبحانه : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار »[3] وعن قوله جل شأنه : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة »[4] .. ثم مضى ابن الأزرق يسأل ويسأل ؛ وابن عباس - رضى الله عنه يجيب ويجيب ؛ حتى فرغ ابن الأزرق مما عنده .. ثم خرج هو وصاحبه نجدة بن عويمر .

وظاهر من هذا ، أن ابن الأزرق ، قد أعد هذه المسائل من قبل ، وأعد نفسه لسؤال ابن عباس رضى الله عنه - عنها وهو فى مسجد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه . حيث يمتلىء المسجد بالمسلمين . وظاهر أيضاً أن ابن الأزرق لم يكن يغيب عنه معنى الكلمات التى سأل عنها ابن عباس ، ولكنه أراد أن يفتح باباً للجدل والمراء فى كتاب الله ، حتى يتسع مجال الجدل والمراء بين المسلمين ، على هذا النحو الذى ذهب إليه الخوارج ، ثم المعتزلة ، ثم أصحاب البدع والأهواء .

---

(١) سورة الأعراف ٢٥
(٢) سورة البلد ٤
(٣) سورة النور ٤٣
(٤) سورة النحل ٧٢

وإذن فقد كان موقف عمر ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ من صبيغ ، وما أخذه به من نكال ، هو عمل حكيم ، لو التزمه المسلمون لما فتحت عليهم أبواب الفتن التى مزقت وحدة الأمة الإسلامية ؛ وجعلتها شيعاً وأحزاباً ، يكفر بعضها بعضاً ، ويقاتل بعضها بعضاً .. فرحم الله ابن الخطاب ، وأكرم نزله فى جنات النعيم .

* * *

رابعا ـ المؤلفة قلوبهم :

فى أول الإسلام ، والمسلمون لم تجتمع لهم القوة الرادعة ، ولم يكن الإسلام قد دخل قلوب كثير من الداخلين فيه ، دخولا متمكناً ، وخاصة أولئك الذين كان لهم فى الجاهلية سلطان وجاه بين الناس فأسلموا وفى قلوبهم شىء من هذا الدين الذى سوى بين السادة والعبيد ، وجعل التقوى ميزاناً للناس — فى هذا الحال ، كان لابد أن يتألف الإسلام هؤلاء الرؤساء ، وأن يمسك بهم على الإسلام ، وأن يدخله إلى قلوبهم ، بعد أن نطقت به ألسنتهم ، وذلك بما يريهم الإسلام من ثمراته العاجلة فى الدنيا . ولهذا فرض الله تعالى فى الزكاة التى تجىء إلى بيت مال المسلمين ، نصيباً من هذا لأولئك الذين كانت لهم الجاهلية سطوة فسلبها الإسلام منهم .. وفى هذا يقول الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم[1] » .. ولذلك أعطى رسول الله ﷺ من غنائم هوازن ما تألف به قلوب ذوى الجاه والسلطان فى الجاهلية ، حتى لا يروا أن الإسلام قد أذلهم ، وذلك إلى أن يتمكن الإيمان فى قلوبهم .

---

(١) التوبة : ٦٠

يقول ابن تيمية ، فى كتابه : « السياسة الشرعية » : « وكان النبى — ﷺ — يعطى المؤلفة قلوبهم من الفىء ونحوه ، وهم السادة المطاعون فى عشائرهم ، فقد أعطى ﷺ الأقرع بن حابس ، سيد بنى تميم ، وعيينة ابن حصن ، سيد بنى فزاره ، وزيد الخير[1] الطائى ، سيد بنى نبهان ، وعلقمة ابن علاثة العامرى ، سيد بنى كلاب كما أعطى ما تألف به بعض سادات قريش من الطلقاء[2] مثل صفوان بن أمية . وعكرمة بن أبى جهل .. وأبى سفيان بن حرب . وسهل بن عمرو . والحارث بن هشام وغيرهم » .

وفى الصحيحين . عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — قال : « بعث على — كرم الله وجهه — وهو باليمن بذهيبة[3] فى تربتها ، إلى رسول الله ﷺ ، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس الحنظلى ، وعيينه بن حصن الفزارى ، وعلقمة بن علاثة العامرى ، وزيد الخير الطائى ، قال ، فغضبت قريش والأنصار ، وقالوا : يعطى صناديد نجد ويدعنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنى إنما فعلت ذلك لتألفهم » ..

وعن رافع بن خديج — رضى الله عنه — قال : أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، والأقرع بن حابس ، كل واحد منهم مائة من الإبل ، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك ، فقال عباس ابن مرداس يخاطب رسول الله ﷺ :

---

(١) هو المعروف بزيد الخيل ، الفارس الشاعر المشهور ، وقد سماه النبى صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، حين جاء مسلماً .

(٢) وهم أهل مكة من قريش الذين أسلموا بعد فتح مكة ، ووقعوا فى يد النبى ، فعفا عنهم ، وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

(٣) وهى التراب المختلط به عروق من الذهب ، « التبر » .

أتجعل نهبي[1] ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن يخفض اليوم لا يرفع !

قال : فأتم له رسول الله ﷺ مائة » (رواه مسلم) .

يقول ابن تيمية – رضي الله عنه – : والمؤلفة قلوبهم نوعان : كافر ومسلم ، فالكافر إما أن يرجى بعطيته منفعة ، كإسلامه ، أو دفع مضرته ، إذا لم يندفع إلا بذلك .. والمسلم المطاع في قوم – إما أن يرجى بعطيته المنفعة أيضاً كحسن إسلامه ، أو إسلام نظيره ، أو جباية المال – أي تحصيله من قبيلته – ممن لا يعطيه إلا لخوف ، أو لنكاية في العدو ، أو لكف ضرره عن المسلمين ، إذا لم ينكف إلا بذلك ..

ثم يقول ابن تيمية : « وهذا النوع من العطاء – أي المؤلفة قلوبهم – وإن كان ظاهره إعطاء الرؤساء وترك الضعفاء ، كما يفعل الملوك – فالأعمال بالنيات .. فإذا كان القصد بذلك مصلحة الدين وأهله ، كان من جنس عطاء النبي ﷺ وخلفائه ، وإن كان المقصود به العلو في الأرض والفساد ، كان من جنس عطاء فرعون ! » ..

ذلك هو ميزان التأليف للقلوب بالمال في شريعة الإسلام ، حين يكون المال هو الدواء لبعض النفوس الجامحة ، التي يرى ولي الأمر في جذبها إلى الإسلام قوة للمسلمين ، بوقوفهم مع المسلمين ، أو كف أيديهم عنهم – فإذا لم يكن هذا أو ذاك ، فلا محل لوضع هذا المال في غير هذا الموضع !

وقد كان عمر – رضي الله عنه – أول من كشف عن هذا التدبير كشفاً صريحاً

---

(١) نهبي أي عطائي ، والعبيد اسم فرسه ، وسمى عطاءه نهباً جرياً على ما كان في الجاهلية من إطلاق كلمة النهب على ما يقع في اليد من مال لغيره !

واضحاً . . فقطع عن أولئك الذين كان يتألفهم الإسلام ما كانوا يطمعون فيه ، من دوام هذا الوضع لهم فى الجماعة الإسلامية ، وما علموا أن هذا دواء وقتى ، يؤخذ منه عند الحاجة ، وبالقدر المناسب لكل حالة . .

جاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس . . وهما ممن تألفهما رسول الله ﷺ — جاءا إلى أبى بكر رضى الله عنه ، فقالا : يا خليفة رسول الله . . إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة ، فإن رأيت أن تقطعناها ، لعلنا نحرثها أو نزرعها ! ! ولعل الله ينفع بها بعد اليوم ! !

فقال أبو بكر لمن حوله من المسلمين : ما ترون ؟ قالوا لا بأس . . فكتب لهما بها كتاباً ، وأشهد فيه شهوداً ، وعمر ما كان حاضراً . . فانطلقا إليه ليشهد فى الكتاب ، فوجداه يهنأ بعيراً[1] ، فقالا : إن خليفة رسول الله ﷺ كتب لنا هذا الكتاب ، وجئناك لتشهد على ما فيه . . أفتقرؤه ، أم نقرؤه عليك ؟ قال : أعلى هذه الحال التى تريان[2] ؟ إن شئتما فاقرآه ، وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ ! ! قالا ، بل نقرؤه عليك . فلما سمع ما فيه ، أخذه منهما ، ثم تفل فيه فمحاه !! فتذمرا ، وقالا مقالة سيئة !

فقال لهما : إن رسول الله ﷺ ، كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل ، وإن الله تعالى قد أعز الإسلام ، فاذهبا فاجهدا جهدكما ، لا رعى الله عليكما إن رعيتما[3] » .

فذهبا إلى أبى بكر — رضى الله عنه — وهما يتذمران ، وقالا : والله ما ندرى . أنت أمير أو عمر ؟ فقال : بل هو ، لو شاء ، كان ! !

---

(١) أى يدهنه بالقطران ، ليداويه من داء الجرب .

(٢) أى كيف أقرأ وأنتما تريان ما أنا فيه من معالجة البعير بالقطران ؟

(٣) أى اعملا ما تقدران عليه من كيد للاسلام ، ولا رعاكما الله إن رعيتما للاسلام عهداً ! فهيا أريانى كيدكما !

ثم جاء عمر ، وهو مغضب ، حتى وقف على أبى بكر ، فقال : أخبرنى عن هذه الأرض التى أقطعتها هذين الرجلين . . أهى لك خاصة ، أم بين المسلمين عامة ؟ فقال : بل هى بين المسلمين عامة ؟ قال : فما حملك على أن تخص بها هذين الرجلين دون جماعة المسلمين ؟ قال : استشرت الذين حولى ، فأشاروا بذلك ! قال : أفكل المسلمين أوسعتهم مشورة ورضى ؟ فقال أبو بكر : فلقد كنت قلت لك أنت أقوى على هذا الأمر منى . لكنك غلبتنى ! ! » وموقف عمر فى هذه الواقعة يكشف عن أمور :

أولا : أنه مع علمه بأن الخير فى هذه الأرض السبخة الجرداء ، أن تستصلح ، وتزرع ، بمن يقدر على إصلاحها وزرعها ، فهى أرض لا ينتفع بها أحد ، وفى الصحراء متسع لا حدود له ، لمن يعمل مثل هذا . وهذا ما جعل أبا بكر - رضى الله عنه ، والمسلمين الذين أشاروا عليه ، يقبل بإقطاع هذه الأرض لهذين الزعيمين - إن عمر مع علمه بهذا لم ير أن يقتطع الخليفة هذه الأرض لهذين الزعيمين ، حتى لا يحمل هذا على أنه اختصاص لهما بهذا الأمر ، ولو كان ذلك لغيرهما من عامة المسلمين ما توقف عمر !

وثانياً : أن عمر - وهو يرى هذا - يرى من جهة أخرى . أن فى هذا تطاولا من هذين الرجلين على قبيلتهما ، وعلى من حولهما من القبائل ، حيث يشعر الناس أن لهما مكانة وسلطاناً فى الجماعة الإسلامية ليس لغيرهما ، وقد ذهب الإسلام بهذا الذى كان سائداً فى الجاهلية !

ولهذا كان من عمر هذه الوقفة التى وقفها فى وجههما ، ليقطع بها ما يدور فى خاطرهما من أنهما يملكان من الجاه والسلطان ما لا يملكه

غيرهما من عامة المسلمين ، فلقنهما عمر هذا الدرس ، وعراهما من هذا السلطان ، وأنزلهما وعامة الناس على سواء !

ولا شك أن هذا تدبير حكيم من ابن الخطاب . إذ قضى به على أثر من آثار الجاهلية ، ونزع به ما كان قد لبس بعض الأفراد فيها من زعامة على الناس ، بحكم القوة والغلب ، وإن فوت ذلك إصلاح أرض لا ينتفع بها ، فتصبح ذات نفع خاص ، وعام ، في تلك المواطن القاحلة الجرداء ، لأن ذلك وإن كان فيه خير ، فإن فيه شراً أكثر من هذا الخير ، ودفع الشر مقدم على جلب الخير .

فما أخطأ أبو بكر — رضي الله عنه — فيما صنع ، ولقد أصاب عمر — رضي الله عنه — فيما رأى . . وإن كانت نظرة أبي بكر قائمة على الواقع ، على حين كانت نظرة عمر على ما يتوقع ! ! وهذه فعلة من فعلات عمر — رضي الله عنه — وهذا موقف من مواقفه الحكيمة التي أمسك فيها بشريعة الله ، يقيمها على ميزان الحق والعدل ، الذي هو عند عمر فوق كل شيء ، وقبل كل شيء ، لا تأخذه فيه رأفة في دين الله ، ولا يخشى فيه من أحد لومة لائم . . فرحم الله عمر رحمة واسعة ، فقد ابيض به وجه الإسلام ، وأقام من دين الله شاهداً عياناً يشهد بأنه الدين الحق ، الذي يعلو بمن استمسك به إلى هذا المستوى الإنساني العظيم ، الذي بلغه عمر بإيمانه وتقواه .

* * *

الباب الخامس

عمر وحدود الله

الفصل الأول

حدود الله

فى كل شريعة سماوية ، أو وضعية ، مقررات وأحكام ، لضبط السلوك الإنسانى ، ولحماية المجتمع من طغيان بعضه ، على بعض، وإنه ـ لكى تؤدى الشريعة ـ سماوية أو وضعية ـ رسالتها ، وتترك فى الناس آثارها ، لا بد من أن تقيم فى الناس زاجراً يزجرهم ، إذ هم خرجوا عن مقرراتها ، وجاوزوا حدودها ، ولم يلتزموا بأحكامها . . والله تعالى يقول : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾[1] ويقول سبحانه : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[2] .

والشرائع السماوية ، هى من وضع الخالق سبحانه وتعالى ، الذى يعلم من خلقه ما لا يعلمون من أنفسهم ، فإذا وضع لهم سبحانه قانوناً يسيرون عليه ، كان هذا القانون هو الحارس لسلامتهم ، والدواء لعلة من يعتل منهم ، والإصلاح لفساد ما يفسد من فطرتهم .

وإنه لكى يكون لهذا القانون فاعلية ، فقد رصد الله تعالى للخارجين عليه ، عقوبتين :

عقوبة دنيوية ، يقوم على تنفيذها المجتمع ، وما يقوم فى هذا المجتمع من حراس على هذا القانون ، وحماة له ، يأخذون على أيدى المعتدين على حرماته ،

---

(1) الحج : ٤١

(٢) البقرة : ٢٥١

والخارجين على ناموسه ، وهـذا ما يسمى بالسلطان الذى يراه الناس ، ويرى الناس .

وعقوبة أخروية ، يتولاها الله تعالى يوم الفصل بين عباده ، فيجزى كلا بما عمل . . وهذا هو الوازع السماوى ، الذى لا يشعر به إلا المؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، وكلا الوازعين ، وازع السلطان ، ووازع القرآن ، يكمل الآخر : فإنه إذا أفلت الخارجون عن القانون من يد المجتمع ، ولم تنلهم سلطاته القائمة عليهم ، فلم ينالوا العقاب الذى يستحقونه ، فإنهم لن يفلتوا من عقاب الله ، الذى أحاط بكل شىء علماً ، ولم يخرجوا أبداً من سلطانه القائم على كل شىء !

ومن هنا كان المؤمن بالله بين وازعين ، وازع الإيمان بالله ، وسلطان الله القائم عليه ، ووازع السلطان الدنيوى . . وإنه لا بد من الوازعين معاً ، حتى يستقيم للناس أمرهم فى هذه الحياة الدنيا . . وذلك أن وازع الدين ، أو سلطان الضمير الذى يقيمه الدين ، كثيراً ما يذهل عنه الإنسان ، لأنه غير مرئى له ، لا يخشاه إلا أهل الإيمان الحق والتقوى . . ولهذا كان وازع السلطان الدنيوى ، هو الذى يمسك بهؤلاء الذين لا يخشون الله . . وفى هذا يقول عثمان بن عفان – رضى الله عنه – « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » . . فإذا اجتمع الوازعان ، وازع القرآن ، ووازع السلطان الذى ينفذ أحكام قانون الله ، صلح أمر الناس ، وأظلهم جناح الأمن والسلامة ، وإلا فلا أمن ولا أمان للناس إلا فى ظل هذين الوازعين . .

***

وقد رسمت الشريعة الإسلامية للحياة الإنسانية حدوداً ، يتحرك الناس فى مجالاتها ، ويتقلبون فى محيطها ، فى سعة ويسر ، لا حرج معه . . فمن خرج

على هذه الحدود ، عد معتدياً ، وجب زجره ، وتأديبه ، وأخذه بالعقوبة التى رصدتها الشريعة للذنب الذى اقترفه .

واختصت الشريعة الإسلامية فى هذا ، بأنها تقوم على الاعتدال ، سواء فى تخطيط الحدود ، وتحديد معالمها ، أو فى تقدير العقوبة المناسبة لها ..

فهى — من جهة — شريعة سماحة ويسر ، رفعت عن المسلمين الحرج ، ووسعت عليهم فى كثير من الأمور التى كانوا قد أخذوا بها أنفسهم فى الجاهلية ، وفرضوا تحريمها عليهم ، كالسائبة والوصيلة والحام ، وهى إبل لها أوضاع خاصة عندهم ، كانوا يهبونها لآلهتهم ، فلا ينالون من ألبانها ، ولا يحملون عليها ، ولا يأكلون لحومها . . كذلك حرم الإسلام عليهم ما أخذوا به أنفسهم من الطواف بالبيت عراة ، تأثماً من أن يطوفوا بالبيت الحرام بالملابس التى عصوا الله فيها . . كما رفع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه .. وفى هذا ما فيه من رحمة واسعة ونعمة سابغة ! كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم »[1] .

ومن جهة أخرى ، فإن أحكام التأديب التى أوجبتها الشريعة لأخذ الجناة بها ، جاءت مقدرة على ميزان الحكمة والعدل ، لم يقصد بها الشارع النكاية بالإنسان ، أو التنكيل به ، وإنما هى دواء يراد به الإصلاح

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٦ .

للمذنب ، والخير للمجتمع الذى يعيش فيه ، وإن كان هذا الدواء مراً .. فقد يحتاج المريض لشفائه ، إلى أن يبتر منه عضو لتسلم بقية الأعضاء !! فكيف بأحكم الحاكمين رب العالمين ، وما يضع من دواء ؟ إن هذا الدواء فيه الشفاء لأى داء يعرض للإنسان فى أفراده أوجماعاته .. والله تعالى يقول: « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين »[1] .. ويقول سبحانه : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[2] .

فالعقوبة فى الشريعة الإسلامية تستهدف ثلاثة أمور : إصلاح الجانى ، وإرضاء المجنى عليه ، وزجر الآخرين الذين قد تحدثهم أنفسهم بالجريمة ..

فالذنب من حيث هو ذنب ، فيه إفساد لطبيعة المذنب ، وإخراجه من عالم الإنسان السوى ، وفى عقاب المذنب إصلاح له ، وتوجيه سديد سليم لسلوكه المعوج !! والمجنى عليه مغيظ محنق ، لا يفثأ غيظه ، ولا يشفى غليله إلا أن ينتقم من الجانى ، وإلا أن يبالغ فى الانتقـــام ، ويتحول من مقتص إلى معتد ..

وفى قيام الشريعة بهذا الأمر — أمر القصاص — إرضاء عادل للمجنى عليهم ، وتسكين لثائرة غضبهم ، فى غير ظلم أوعدوان ، إلى ما فى هذا من إصلاح الجانى ، وزجر غيره .

ولا يدع الإسلام عملية العقوبات الواقعة فى الحدود والقصاص تمر دون أن يتخذ منها درساً يتعظ به الناس ، ويكون لهم منه مزدجر .. ولهذا جعلت الشريعة من متممات العقوبة أن تقع على ملأ من الناس ، وأن يشهدها طائفة من المؤمنين ، وفى ذلك تشنيع على الجريمة من جهة ، وصرخة مدوية

(١) سورة الاسراء : ٨٢ .

(٢) سورة الملك : ١٤ .

فى التحذير منها .. وفى هذا يقول الله تعالى « الزانية والزانى ، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »[١] .

* * *

تلك إشارة موجزة إلى طبيعة العقوبات المفروضة فى الشريعة الإسلامية، لأهل الجرائم ، وإلى القصد المرجو منها فى إصلاح الفرد والجماعة .. ثم لننظر بعد هذا إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ وموقفه الرائع العظيم ، من القيام على حدود الله ، وإقامة العقاب الذى فرضته الشريعة لكل من خرج على حد منها ..

وعمر ـ رضى الله عنه ـ إذ يواجه الجريمة فى المجتمع الإسلامى ، فإنما يواجهها و بين يديه دستور كامل ، وبيان واضح ، قد رسم حدوده القرآن الكريم ، وشرحته السنة النبوية قولا وعملا ، وطبقه الرسول الكريم ، وأمضاه أبو بكر بعده على هدى من الكتاب والسنة ، بمشهد من عمر ، ومن صحابة رسول الله أجمعين ..

ومع هذا البيان الواضح على الحدود وأحكامها ، فإن الأمر عند التطبيق يحتاج إلى بصيرة نافذة ، وإلى حكمة بالغة ، لا لمعرفة الدواء ، وإنما لتشخيص الداء .. فكل جناية معروف حدها ، والعقوبة المقرورة لها . ولكن تكييف الجناية وتحديد مكانها من الجانى ، والتعرف على الظروف المحيطة به ، هو الذى تتفاوت فيه الأنظار ، وتختلف عليه الآراء ، وهو الذى لا يقع موقع الحق منه إلا أولو الفطنة والذكاء ، والحكمة ، ممن يجلسون مجلس الحكومة والقضاء !

---

(١) سورة النور : ٢ .

ولعمر — رضى الله عنه — رسالة فى القضاء تكشف عن أهليته الكاملة لولاية القضاء، والفصل بين الناس، والوصول إلى موطن الحق فيما يقضى فيه، وذلك لما اشتملت عليه تلك الرسالة من نفاذ بصيرة، ودقة نظر، وحكمة رأى..

لقد ضمت هذه الرسالة، المستقاة من ينابيع الشريعة السمحة، على مبادىء هى اليوم شعارات القضاء فى أرفع منازله، وأكرم صوره وأكملها. وإن أى قاض لا يتحلى بهذه الشعارات، ولا يأخذ نفسه بها، لا يحقق عدلا أبداً، وإن أية ساحة من ساحات القضاء تتعرى من تلك الشعارات، لن يستقيم فيها ميزان العدل بين الناس بحال أبداً..

كتب عمر — رضى الله عنه — إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه القضاء رسالة طويلة جاء فيها:

« أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك بحجة، وأنفذ الحق إذا وضح، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له.

« آس بين الناس فى وجهك.. ومجلسك، وعدلك، حتى لا ييأس الضعيف من عدالك، ولا يطمع الشريف فى حيفك.

« البينة على من ادعى واليمين على من أنكر..

« والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالا..

« والفهم الفهم فيما يختلج فى صدرك، مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة..

« وإياك والقلق والضجر والتأذى بالناس، والتنكر للخصوم فى مواطن الحق..

« ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق ، قديم ، والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل » .

* * *

هذا بعض من رسالة عمر . ودستوره فى القضاء ، وكل فقرة من فقراتها دعامة راسخة من دعامات القضاء . استوحاها عمر من دينه ، واستملاها من حصافته وعبقريته ، فجاءت على هذه الصورة المشرقة.. من الدقة ، والإحكام ، والعمق ، والشمول . .

وتعليمات عمر ، ووصاياه إلى ولاته الذين يجلسون مجلس القضاء ، تحمل دائماً هذا الطابع العمرى : الذى يضمن لمجلس القضاء تحقيق العدالة على مستوى رفيع ، يحفظ لميزانها استقامته ، ويمسك به أن يميل أو يضطرب ..

كتب عمر إلى أبى عبيدة بن الجراح ـ وهو بالشام ـ كتاباً يقول فيه :

« أما بعد ، فقد كتبت إليك بكتاب لم آلك ونفسى خيراً .. الزم أربع خلال يسلم لك دينك ، وتحظ بأفضل حظيك[1] . .

« إذا حضر الخصمان فعليك بالبينات العدول[2] ، والأيمان القاطعة .

« ثم أدن الضعيف ، حتى يبسط لسانه ويجترىء قلبه . .

« وتعاهد الغريب ، فإنه إذا طال حبسه ـ أى طال الوقت به قبل الفصل فى خصومته ـ ترك حاجته ، وانصرف إلى أهله[3] ، وإنما ضيع حقه من لم يرفق به . .

« واحرص على الصلح ما لم يستبن لك القضاء » ..

* * *

(١) وهو حظ الآخرة . .

(٢) البينات العدول : هم الشهود ، لأن بهم يتبين حق المدعى ، كما يقول عمر : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » .

(٣) يريد ألا يطول انتظار الغريب انتظاراً للفصل فى خصومته ، حيث أن الانتظار والإقامة فى بلد غريب عن بلده يحمله مشقة كبيرة .

ولا شك أن الذى يقرأ توجيهات عمر ووصاياه فى القضاء ، ويمعن النظر فيها ، يدرك أن فى كيان هذا الرجل حاسة قضائية ، من نوع فريد ، تحس مواطن الحق ، وتضبط موازينه ضبطاً محكماً ، فلا يفلت مجرم بجريمته ، ولا يضل صاحب حق عن حقه !

إن للحق سلطاناً قوياً فى كيان عمر ، وذلك السلطان هو الذى أيقظ مشاعر عمر كلهـا ، وأعطاه هذه القـدرة على اكتشاف الطريق المؤدية إلى الحق .

ومن هنا كانت عين عمر باحثة دائماً عن الرجال الذين يصلحون لمنصب القضاء ، فإذا لمحت عينه واحداً منهم ، أمسك به ، وشديده عليه ، وأقامه فى هذا المنصب الخطير الجليل ، الذى لا ينتظم حال مجتمع إلا بانتظامه .. ومن هنا قيل : « العدل أساس الملك » .

* * *

ومن المبادئ التى أرساها عمر فى القضاء ، عدم الأخذ بإقرار المقهور الواقع تحت يد مسلطة عليه ـ بالضرب ، أو التهديد فى النفس أو المال ، أو الأهل ، وفى هذا يقول عمر : « ليس الرجل بالمأمون على نفسه إذا أجعته أو أخفته ، أو حبسته ، أن يقر على نفسه ؟ » فالرجل الواقع تحت هذا القهر من الجوع ، أو الخوف ، أو الحبس أو الضرب ، ليس بالمأمون على نفسه ، فقد يقر على نفسه بجناية لم يجنها ، تحت ضربات السياط ، المسلطة عليه . . فيقر بإقراره على نفسه بما لم يكن منـه ، فراراً من هذا العذاب الواقع ، إلى العذاب المتوقع ، وإن كان أشد وأعتى .

فأين من هذا ما يعامل به الناس من عذاب ونكال فى كثير من بلاد العالم ، وفى هذا العصر ـ عصر المدنية والحضارة ـ لأخذ إقرارهم على أنفسهم تحت سياط العذاب .. !

ولقد شهدت مصر فى فترة من فتراتها المعاصرة ، من هذا القهر ، من رأى كثير من المقبوض عليهم أن يقر على نفسه بجريمة القتل ، دون أن تقع منه ، ثم يظهر المدعى قتله أنه حى بين الأحياء! وما ذلك إلا لترفع عنه يد الزبانية ، فى لحظته تلك ، التى يعانى فيها ويلات العذاب ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون ، ولو كان الموت!

* * *

ومن فراسة عمر - رضى الله عنه - فى اختياره للقضاة ، ما يروى من توليته لشريح ، قضاء الكوفة ، وذلك أن عمر ساوم رجلا على شراء فرس له ، فركبه عمر ، وأجراه ليجربه قبل أن يشتريه ، فعطب الفرس ، بأن كسرت رجله ، فأراد عمر أن يرده إلى صاحبه على الحال التى هو عليها .. فأبى الرجل ، فقال له عمر : اجعل بينى وبينك حكماً ، فاختار الرجل شريحاً ، فتحاكما إليه ، فقال شريح بعد أن سمع وقائع الحادثة : يا أمير المؤمنين : خذ ما ابتعت ، أورده كما أخذت ؟ فقال عمر معجباً ومؤيداً : وهل القضاء إلا هكذا !! ثم أقام شريحاً على قضاء الكوفة ، فظل قاضياً عليها نحو ستين عاماً !!

* * *

ومما يروى فى هذا أن امرأة جاءت إلى عمر - رضى الله عنه - شاكية زوجها إليه ، فقالت : يا أمير المؤمنين .. إن زوجى يقوم الليل ، ويصوم النهار !! فقال لها عمر : زاده الله توفيقاً ! فانصرفت المرأة ، فقال أحد الصحابة : يا أمير المؤمنين .. إن هذه المرأة تريد أن تشكو زوجها إليك ، وأنه منصرف إلى العبادة ليله ونهاره . ولا يؤدى حق الزوجية لها .. فدعا عمر بالمرأة وزوجها . وقال لهذا الصحابى : اقض بينهما : فقال ، يا أمير المؤمنين .. له أن يتعبد ثلاثة أيام . ويخصص اليوم الرابع لزوجته ،

فقال له عمر : على أى شىء بنيت قضاءك ؟ قال: إن الله تعالى قد أحل للرجل أن يتزوج أربع نساء ، ولو أن هذا الرجل استعمل حقه ، لما كان لها إلا يوم واحد كل أربعة أيام .. فله أن يتعبد لله ثلاثة أيام خالصة لا يشغل فيها بزوجته . ولها اليوم الرابع ، يؤدى فيه لها حقها .. فقال له عمر : نعم ما قضيت !

ولا نحسب أن عمر — رضى الله عنه — لم يفهم قول المرأة عن زوجها وكثرة عبادته ، وأنها تشكو انصرافه عنها بالعبادة . ولكنه لم ير فى العبادة ما ينقص من الرجل ، ولم يغفل حق المرأة على زوجها . ولكنه آثر عبادة الله على حقها . ولعلها تناسى زوجها .. فلما روجع عمر فى هذا قبل المراجعة !

وكان عمر — رضى الله عنه — لا يرى فى مجلس قضائه أن ينفرد بالرأى فى الفصل بين المتخاصمين ، بل كان يستشير أصحابه ، ويأخذ بما يراه موافقاً ، للحق أو أقرب إلى الحق .

فإذا استبان له وجه الحق لم يتحول عنه ، ولو زلزلت الأرض زلزالها.. إنه من قوة الحق لا يبالى أى شىء يعرض له ، ولا يفكر فى العاقبة التى تجىء من وراء ما يمضيه من حكم ، فإن الحق لا يجىء من ورائه إلا الخير دائماً ، وإن حفت به المكاره . ففى الحديث الشريف : « حفت النار بالشهوات ، وحفت الجنة بالمكاره » !

روى أن جبلة بن الأيهم ، وهو من ملوك الغساسنة ، من آل جفنة ، لما أسلم هو وقومه ، وفد على عمر — رضى الله عنه — فى نحو خمسمائة من وجوه قومه ، فى مراكبهم الفاخرة ، وملابسهم الزاهية المعجبة ، ففرح بهم عمر ، وأنزلهم منزلا كريماً عنده .. لأنهم قوة جديدة تضاف إلى الإسلام ، فضلا عن أن يتبعهم كثير من خاصة الناس وعامتهم .

وحدث أن خرج جبلة يطوف بالبيت الحرام ، فوطىء إزاره رجل من بنى فزارة ، فلطم جبلة الفزارى ، وحطم أنفه . فاستعدى الفزارى عمر على جبلة . فقال عمر لجبلة : إما أن ترضى الفزارى ، وإما أن أقتص منك ! فقال جبلة ، وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ أنا ملك وهو سوقه ، وهل يقتص سوقة من ملك ؟ فقال عمر : إن الإسلام قد سوى بينكما ، وليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى ! قال جبلة : قد ظننت يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية ؟ قال عمر : فذاك إن يكن فبإيمانك وتقواك ، وما تعمل من صالح فى الإسلام ! وإنك بما تبلغ من ذلك تكون عزتك ! فإن لم ترض الرجل اقتصصت منك ! قال : إذن أتنصر ؟ فقال عمر : إن تنصرت ضربت عنقك[1] ، لأنك قد أسلمت ، وخروجك من الإسلام يحل قتلك ! فقال جبلة إذن فدعنى الليلة أتدبر أمرى ، فأذن لى بالإنصراف ، فأذن له عمر !

فلما جن الليل ، وهدأ الناس ، تحمل جبلة بأهله إلى الشام ، ثم فر إلى القسطنطينية ، وعرض نفسه على هرقل ملك الروم ، وأعلن نصرانيته هو وقومه » ! .

* * *

هذا الموقف الذى وقفه عمر - رضى الله عنه - من جبلة هذا المدل بسلطانه ، المتهالك على الاحتفاظ به مهما تلطخ به من دنس وقذر ، الداخل فى الإسلام ، الذى فتح الأمصار ، وأزال ملك الأكاسرة والقياصرة ، لا لأنه نظر فى الإسلام ، وعرف وجه الحق والخير فيه ، فآمن بالله ،

---

(١) لأنه يعتبر مرتداً ، وحكم المرتد القتل .

واستجاب لدعوة الله . وإنما نظر إلى ما أفاء الله على المسلمين من خير فى ظل الإسلام ، فأراد أن يكون له فى دولة الإسلام دولة ، بعد دولته التى ذهب الإسلام بها ـ نقول إن هذا الموقف يلخص شخصية عمر أدق تلخيص وأصدقه .. إن الإسلام حق منزل من عند الله ، وجنود الإسلام هم جنود الله ، لن يغلبوا أبداً ما داموا على الولاء لله ، والدفاع عن دينه ، وعن الحق الذى نزل به . والله تعالى يقول : « وإن جندنا لهم الغالبون » .

فما كان اعتزاز الإسلام أبداً بالرجال وما فى أيديهم من مال وجاه وسلطان ، وإنما اعتز الإسلام ويعتز دائماً بالرجال وما فى قلوبهم من إيمان . . وإن رجلا كبلال الحبشى ، أوصهيب الرومى ، أو سلمان الفارسى ، لهو أثقل فى ميزان الإسلام من أمة ليس فيها مثل واحد من هؤلاء ، صدق إيمان ، وإخلاص نية ، على احتمال الأذى فى سبيل الله !

فما يوزن الناس فى الإسلام بميزان المال والجاه والسلطان ، وإنما يوزنون بميزان الإيمان ، وما أشرقت منه أضواؤه عليهم ، وما شع فى كيانهم من آيات الحق التى جاء بها دين الله !

وصرامة عمر ، وشدته فى الضرب على أيدى الجناة ، والخارجين على حدود الله ، لا تخلى قلبه من الرحمة والعطف ، وذلك فيما لا يجوز على حق ، ولا ينتقص من عدل ، لأنه لا يقيم حدود الله تشفياً ، وإشباعاً لشهوة انتقام لنفسه ، وإنما يقيم تلك الحدود تطهيراً للجناة ، وإصلاحاً لأمرهم ، ورحمة من الله بهم !

* * *

قدم على عمر ـ رضى الله عنه ـ أحد بنى ثور ، فقال له عمر : « هل

من مغربة خبر[1] ؟ — أى خبر غريب — فقال الرجل : نعم . أخذنا رجلا من العرب ، كفر بعد إسلامه ، فقدمناه ، فضربنا عنقه !! » فقال عمر : « فهلا أدخلتموه جوف بيت ، فألقيتم إليه كل يوم لقيمات ، ثلاثة أيام ، لعله يتوب ، أو يراجع ؟ » ثم قال : « اللهم لم أشهد ، ولم آمر ، ولم أرض إذ بلغنى » !

إن عمر هنا أمام قضية خرج فيها مسلم عن دينه ، وجاهر بالكفر . . إنها أغلظ جريمة . ومع هذا ، فإن عمر لم ير إلا أن يأخذ هذا المجرم بسماحة الإسلام ، وأن يعطى الرجل الفرصة ليراجع نفسه ، ويرجع إلى دين الله . . فقد يكون الرجل واقعاً فى تلك الحال الذى أعلن فيها كفره ، تحت ظروف نفسية ، أو عقلية حملته على هذه المعالنة بالكفر ، وإلا فإنه لو كان قد كفر عن إرادة حرة ، واعتقاد قلبى ، لأمسك ذلك فى ضميره ، ولم يصرح به ، لأن العقيدة أساسها الضمير ، لا اللسان . . فمجاهرته بالكفر فى هذه الحال ، لا بد أن تكون ناتجة عن ظرف خاص ، بحيث لو ترك فترة مدتها ثلاثة أيام لكان من الممكن أن يخرج من هذا الظرف المحيط به — نفسياً أو عقلياً — ويعود إلى طبيعته ، ويرجع إلى دين الله ! . وهذا غير موقف عمر من جبلة بين الأيهم ، الذى هدده بالقتل ، بعد أن هدد هو عمر بالارتداد عن الإسلام ، وقد خيره عمر بين اقتصاص الفزارى منه ، وبين قتله ، إن هو ارتد عن الإسلام .

* * *

روى الليث بن سعد ، قال : « أتى عمر ، بفتى أمرد ، وجد قتيلا ، ملقى على وجهه فى الطريق ، فسأل عن أمره واجتهد ، فلم يقف له على خبر ،

---

(١) أى هل عندك من خبر غريب يحدث فى جهتكم ؟ !

فشق ذلك عليه ، فكان يدعو ويقول : اللهم أظفرني بقاتله ، حتى إذا كان على رأس الحول أو قريباً من ذلك ، وجد طفل مولود ملقى في موضع ذلك القتيل ، فأتى به إلى عمر . . فقال : ظفرت بدم ذلك القتيل إن شاء الله تعالى !

« فدفع بالطفل إلى امرأة ، وقال لها : قومي بشأنه ، وخذي منا نفقته ، وانظري من يأخذه منك . فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها ، فأعلميني مكانها . فلما شب الصبي جاءت جارية ، فقالت للمرأة : إن سيدتي بعثتني لتبعثي إليها بهذا الصبي ، فترة ، ثم ترده إليك ، قالت نعم ، اذهبي به إليها ، وأنا معك ، فذهبت بالصبي ، حتى دخلت على امرأة شابة ، فأخذت الصبي ، فجعلت تقبله وتفديه ، وتضمه إليها ، وإذا هي بنت شيخ من الأنصار ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت المرأة ، وأخبرت عمر .

فاشتمل عمر على سيفه ، وأقبل إلى منزلها ، فوجد أباها متكئاً على الباب ، فقال له عمر : ما الذي تعلم من حال ابنتك ؟ قال : أعرف الناس بحق الله ، وحق أبيها ، مع حسن صلاتها وصيامها ، والقيام بدينها .. فقال عمر : فإني أحب أن أدخل إليها ، وأزيدها رغبة في الخير .. فدخل الشيخ ، ثم خرج ، فقال : ادخل يا أمير المؤمنين . .

. . « فدخل عمر ، وأمر أن يخرج كل من في الدار إلا أباها . . ثم سألها عن الصبي ، فلجلجت ، فقال لها : لتصدقيني ، ثم انتضى السيف . . فقالت : على رسلك يا أمير المؤمنين ، فوالله لأصدقنك ! !

« إن عجوزاً كانت تدخل علي فاتخذتها أماً ، وكانت تقوم على أمري بما تقوم به الوالدة ، وأنا لها بمنزلة البنت ، فمكثت كذلك حيناً .. ثم قالت : إنه قد عرض لي سفر ، ولي بنت أتخوف عليها بعدي الضيعة ، وأنا أحب

أن أضمها إليك حتى أرجع من سفرى . ثم عمدت إلى ابن لها أمرد فهيأته، وزينته كما تزين المرأة ، وأنتنى به . ولا أشك أنه جارية . فكان يرى منى ما ترى المرأة من المرأة . فاغتفلنى يوماً . وأنا نائمة . فما شعرت به حتى علانى وخالطنى . فمددت يدى إلى شفرة كانت عندى فقتلته . ثم أمرت به فألقى حيث رأيت . فاشتملت منه على هذا الصبى . فلما وضعته ألقيته فى موضع أبيه . هذا والله خبرهما على ما أعلمتك !!

«فقال عمر ، صدقت.. بارك الله فيك، ثم أوصاها ، ووعظها ، وخرج».

« فلما سأله أبوها : كيف وجدتها ؟ قال : خير فتاة ، بارك الله لك فيها ، فارعها ، وأكرمها !! » .

هذه وقفة من وقفات عمر الرائعة فى جلاء الحق ، وفى وضعه الموضع المناسب له ، ببصيرة نافذة ، وفهم ملهم ، فلقد عزل عنه شدته وصرامته ، إذ لا محل لهما فى مثل هذا الموقف . الذى ترى فيه الفتاة مظلومة لا ظالمة ، ومعتدى عليها غير معتدية !!

* * *

وروى أيضاً ، أنه جيء لعمر — رضى الله عنه — بشارب خمر ، فقال له : لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة ، فبعث به إلى مطيع بن الأسود العدوى وقال له : إذا أصبحت غداً فاضرب به الحد . فجاء عمر وهو يضربه ضرباً شديداً ، فقال له عمر : قتلت الرجل!! كم ضربته ؟ قال ستين ، قال : أنقص عنه عشرين » . أى أن الستين سوطاً فى شدتها تعدل الثمانين، التى هى حد شارب الخمر!!

وهنا نرى عمر يلقى هذه الجريمة بشدته وصرامته ، فيبعث بالرجل إلى من يقيم الحد عليه ، ويتخير لذلك رجلا قوياً صارماً « اشتهر بالجلد العنيف» الذى يكاد يجاوز الحد .

ويراجع عمر نفسه ، ويرى أنه قد اشتد فى الحكم على هذا الشارب ، فيغدو إليه وهو يجلد وإذ يرى جالده قد أخذه بهذا الضرب الشديد ، قال له : قتلت الرجل !! ثم يسأله: كم ضربته ؟ فلما علم أنه ضربه ستين جلدة ، أمره أن يكف ، ولا يجلده العشرين الباقية ، ويجعل الستين فى مقام الثمانين التى هى حد الشارب !!

* * *

ويسأل عمر عن حد الأمة التى تزنى ، فيقول : « إن الأمة قد ألقت فروة رأسها من وراء الدار » .

ويعنى عمر ـ رضى الله عنه ـ بهذا ، أن الأمة قد ألقت القناع ، وتركت الحجاب ، وخرجت إلى حيث لا يمكنها أن تمتنع عن الفجور . . وإذن فلا حد عليها ! .

والقرآن الكريم يؤيد عمر ـ رضى الله عنه فى هذا ، فقد ذكر القرآن الكريم ، حد الأمة إذا تزوجت ، وأحصنت بالزواج ، حيث يقول سبحانه : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ، فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب[1] » .

فالأمة إذا أحصنت بالزواج ، ثم زنت ، فحدها أن تجلد خمسين جلدة ، وهو نصف الحد الذى تحد به الحرة المحصنة بحريتها . . فالحرة محصنة من حيث هى حرة ، فإذا تزوجت أحصنت إحصانا آخر بالزواج . . ومن هنا

---

(١) النساء : ٢٥

فرقت الشريعة الإسلامية بين الحرة المتزوجة ، والحرة غير المتزوجة ، فأوجبت رجم الأولى ، على حين جعلت حد الأخرى أن تجلد مائة جلدة !

أما الأمة ، فلا تعد محصنة إلا بالزواج ، وإحصانها بالزواج ، ليس إحصاناً كاملا لما معها من امتهان الرق الذى لا تزال فى قيده حتى بعد الزواج .. ومن هنا كانت حكمة الشريعة فى ملاحظتها وتقديرها لهذه الحال من الأمة ، فكان أقصى حد لها هو أن تجلد خمسين جلدة إذا كانت متزوجة . . ولا حد عليها إذا زنت ، وهى أمة لم تتزوج !

* * *

وروى أنه جاء رجل إلى عمر — رضى الله عنه — فقال : يا أمير المؤمنين : إن لى بنتاً وأريتها[1] فى الجاهلية ، فاستخرجناها قبل أن تموت ، فأدركت الإسلام ، فأسلمت ، ثم قارفت حداً من حدود الله ، فأخذت الشفرة لتذبح نفسها ، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها . فداويناها حتى برئت ، وتابت توبة حسنة ، وقد خطبها قوم : أفأخبرهم بالذى كان من شأنها ؟ فقال عمر — رضى الله عنه — أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ! أنكحها نكاح العفيفة السليمة ! » .

وعمر قد وقف بالفتاة عند حكم الشريعة . لأنها وقد اقترفت جريمة الزنا . فإنه لم يشهد عليها أربعة شهداء . ولم تقر هى بالزنا . وبغير هذا لا يقام الحد على الزناة . وقد ندمت الفتاة فيما بينها وبين نفسها . فعمدت .

(١) أى دسها فى التراب ، على عادة بعض أهل الجاهلية فى وأد البنات ، كما يقوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب » ؟

إلى الانتحار ، وقد أخطأت إذ ظنت أن ذلك يكفر ذنبها ، بل هو ذنب إلى ذنب ! .

هذا هو عمر – رضى الله عنه – يجمع بين الشدة والرحمة .. فيشتد حين لا يجد للرحمة موضعاً ، ويرحم حين يجد للرحمة مكاناً .. ثم هو مع هذا حصيف حكيم ، يقطع فيصيب الحز ، ويضع الهناء مواضع النقب[1] .

جاء رجل إلى عمر – رضى الله عنه – يطلب القود من رجل كسر عظماً له ، فأبى عمر أن يقتص له ، فقال الرجل : فكاسر عظمى إذن كالأرقم ؛ إن يقتل ينقم ، وإن يترك يلقم ، فقال : عمر : « هو كالأرقم » !

وقد يبدو من هذا أن عمر – رضى الله عنه – لم ينصف الرجل ، ولم يقتص له ممن كسر عظمه . . ولكن الأمر على غير هذا ، فإن عمر لم ير القصاص فى كسر العظم ؛ لأنه إن كسر عظم الجانى لم يأمن أن يفضى ذلك إلى موته ، فيكون قتل نفساً بغير نفس ، وإنما الذى رآه عمر هنا ، هو الدية ، لا القصاص .. وهذا ما يقضى به الحق !

* * *

وعمر حين يجلس مجلس القضاء ، تلازمه صفتاه البارزتان فيه : الشدة والعدل . .

فهو صارم شديد الصرامة على المنحرفين ، والخارجين على حدود الله ، لا تأخذه فيهم شفقة ولا مرحمة .

غير أن هذه الشدة الصارمة تحرسها عدالة قاهرة غالبة :

---

(١) الهناء : القطران الذى يطلى به البعير من الجرب ، والنقب : موضع الجرب وأثره .

فشدة عمر ، وعدله يأتلفان ، ويمتزجان فى نفسه ، فإذا رأيت شدته ، قلت : عدل صارم ، وإذا رأيت عدله ، قلت : شدة عادلة . .

وبين شدة عمر وعدله حاجز من الخوف يضرب بجناحيه جانب الشدة إن اشتد ، وجانب العدل إن عدل ، فلا يبيت أبداً على طمأنينة ورضى !

إن دخل عدله على شدته ، حسب أنه لان وقصر فى حقوق الله ، ولم يأخذ المجرم بما يستحق من عقوبة وزجر .

وإن دخلت شدته على عدله ، خيل إليه أنه جار وظلم ، وتعدى الحد الواجب فى العقوبة والزجر !

وإنه دائماً فى هذا القلق النفسى الذى لا يدع لضميره لحظة من هدوء واستقرار . . فكلما أمضى أمراً على وجه من هذين الوجهين ، امتلأت نفسه خوفاً من أن يكون قد فرط أو أفرط ، فلا ينزاح هذا الهم عن نفسه إلا أن يفزع إلى الله تعالى بالبكاء والاستغفار !

روى أن عثمان بن عفان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص تحدثوا إلى عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر فى هيبته وشدته ، وأن ذلك ربما يمنع طالب الحاجة من حاجته . . فجاءه عبد الرحمن بن عوف فكلمه فى ذلك ، فكان جواب عمر :

« والله لقد لنت للناس حتى خشيت الله فى اللين ، واشتددت حتى خشيت الله فى الشدة ! ! فأين المخرج ؟ أين المخرج ! ! وقام يجر رداءه ويبكى ! !

وهل مخرج غير هذا الذى أنت فيه ـــ يا ابن الخطاب ـــ من خوف

وخشية ومراقبة لله ، على كل حال من أحوالك ، وفى كل تصرف من تصرفاتك ؟ إنه السمو النفسى لا يرضى لك إلا أن تكون فى هذه اليقظة الدائمة ، لا تغفل أبداً حتى تلحق بصاحبيك : النبى الكريم ، وأبى بكر الصديق ! ! وفى المثل : « من يخطب الحسناء لم يغلها المهر » ولقد طلبت عظيماً ، فادفع المهر غالياً ، من سهر طويل ، وعمل دائب ، وجهاد متصل ، حتى تلحق بصاحبيك !

* * *

الفصل الثانى

الحدود وآل عمر

بهذا الإحساس كان عمر يقيم الحدود . . حيث يقوم عليه من نفسه شعوران : العدل والرحمة . .

فإذا كان الحد واقعاً فى محيط آل عمر ، كان العـدل الذى لم تخالطه الرحمة أبداً . . فلا يدخل على عدله شيئاً من الرحمة ، حذراً من أن يكون فى هذه الرحمة مايجور على العدل، الذى يريدأن يجريه خالصاً على نفسه وأهله . . حيث لا يتعلق بشدته وقسوته حق لأحد عنده . . فإن اشتد فإنما يشتد على نفسه ، وعلى من هم بعض نفسه من أهله ! !

هنا نرى عمر صورة مجسدة للقسوة والغلظة . . إنه سيف ماض يضرب فى غير مرحمة! ، ولننظر ونر :

* * *

كان عبد الرحمن بن عمر ، ممن كان مع عمرو بن العاص فى مصر ، فأصاب يوماً شراباً فسكر . .

وندع عمرو بن العاص ، يذكر لنا هذه الحادثة ، وموقفه وموقف عمر ابن الخطاب منها :

يقول عمرو بن العاص ، وقد ذكر عمر بن الخطاب ، فترحم عليه : « والله ما رأيت أحداً أتقى منه ، ولا أعمل بالحق منه ، لا يبالى على من وقع الحق ، من ولد أو والد . . إنى لفى منزلى بمصر ضحى ، إذ أتانى آت ،

وقال : قدم عبد الله ، وعبد الرحمن ابنا عمر غازيين .. فقلت : أين نزلا؟ قال : في موضع كذا ، وكان عمر قد كتب إلى : إياك وأن يقدم عليك أحد من أهل بيتى ، فتجيزه أو تحبوه بأمر لا تصنعه مع غيره ، فأفعل بك ما أنت أهله ! فضقت ذرعاً بقدومهما ، ولا أستطيع أن أهدى لهما ، ولا أن آتيهما فى منزلهما ، خوفاً من أبيهما !!

قال عمرو : فوالله إنى لعلى ما أنا عليه ، وإذا قائل يقول : هذا عبدالرحمن بن عمر بالباب وأبوسروعة يستأذنان عليك ، فقلت : يدخلان! فدخلا ، وهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حد الله ، فإنا أصبنا الليلة شراباً فسكرنا ، فزبرتهما ، وطردتهما ، وقلت : ابن أمير المؤمنين ، وآخر معه من أهل بدر !! فقال عبد الرحمن : إن لم تفعل أخبرت أبى إذا قدمت عليه .. فعلمت أنى إن لم أقم عليهما الحد غضب عمر ، وعزلنى .. فنحن على ما نحن عليه ، إذ دخل عبدالله بن عمر ، فقمت إليه ورحبت به ، وأردت أن أجلسه فى صدر مجلسى ، فأبى على وقال : إن أبى نهانى أن أدخل عليك إلا إذا لم أجد من الدخول بداً ، وإنى لم أجد من الدخول عليك بداً .. إن أخى لا يحلق على رءوس الناس أبداً [1] .. فأما الضرب فاصنع ما بدا لك.. فأخرجتهما إلى صحن الدار وضربتهما الحد .. ودخل عبد الله بن عمر بأخيه إلى بيت الدار فحلق رأسه ، وحلق أبا سروعة . .

قال عمرو : فوالله ما كتبت إلى عمر بحرف ، وإذا كتابه قد ورد ، وفيه :

« من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى العاصى بن العاص . .

---

(١) أى لا يحلق رأسه علنا عند إقامة الحد عليه ، وحلق الرأس كان من تمام إقامة الحد

عجبت لك يا ابن العاصي ، وجرأتك على ومخالفتك عهدى .

«أما إنى خالفت فيك أصحاب بدر ، ومن هو خير منك واخترتك»[1]»

ثم يقول عمر فى كتابه : « تضرب عبد الرحمن بن عمر داخل بيتك ، وتحلق رأسه فى داخل بيتك ، وإنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين .. ولكنك قلت : هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفت ألا هوادة عندى فى حق يجب لله عز وجل .. فإذا جاءك كتابى هذا ، فابعث به فى عباءة على قتب[2] حتى يعرف سوء ماصنع !

قال عمرو : فبعثت به كما قال أبوه ، وأقرأت أخاه عبد الله كتاب أبيهما ، وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه ، وأخبرته أنى ضربته فى صحن الدار ، وحلفت بالله الذى لا يحلف بأعظم منه ، أنه الموضع الذى أقيم فيه الحدود على المسلم والذمى .. وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر !!

ثم يكمل القصة « أسلم » مولى عمر بن الخطاب » فيقول :

« قدم عبد الله بأخيه عبد الرحمن على أبيهما فى عباءة ، وهو لا يقدر على المشى من مركبه الذى ركبه .. فلما رآه عمر ، قال : يا عبد الرحمن .. فعلت وفعلت ؟! السياط السياط !!

فكلمه عبد الرحمن بن عوف ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أقيم عليه الحد مرة ، فلم يلتفت إليه وزبره — أى دفعه — فأخذته السياط ، وجعل يصيح : أنا مريض ، وأنت والله قاتلى ، فلم يرق له حتى استوفى الحد ، وحبسه ، ثم مرض شهراً ومات !! » .

وهذه الحادثة فى غنى عن كل تعليق ..

---

(١) يريد أنه اختاره لولاية مصر .

(٢) أى على ما يكون على ظهر البعير من خشب ، دون حشية .

فقد كانت جناية عبد الرحمن بن عمر ، مثل جناية صاحبه سروعة . .
وقد جلدهما عمرو بن العاص .. وقد ترك عمر أبا سروعة ، مكتفياً بما جلده به ابن العاص .

أما ابنه عبد الرحمن ، فقد رأى فيه أن الأمر ليس مسألة حد وكفى .. وإنما هو كيف يقدم ابن عمر على شرب الخمر؟ إن ذلك مما يهون على الناس شربها ؟ ! !

ومن هنا كانت تلك العقوبة التي أنزلها عمر بابنه ، هي من حق الوالد على ولده في تربيته ، وإقامته على الطريق الذي يريده أبوه .. وهو في هذا التأديب يرى ما يراه صالحا لتحقيق ما يريد !

***

هذه فعلة من فعلات عمر بولد من أولاده ..

وفعلة أخرى من فعلاته ، ومع ولد من أولاده أيضاً ..

عن مجاهد — رضي الله عنه — قال :

« تذاكرنا الناس في مجلس ابن عباس ، فأخذوا في فضل أبي بكر ، ثم في فضل عمر ، فلما سمع ابن عباس ذكر عمر ، بكى بكاء شديداً ، ثم قال : رحم الله رجلا قرأ القرآن ، وعمل بما فيه ، وأقام حدود الله كما أمر ، لا تأخذه في الله لومة لائم .. لقد رأيت عمر ، وقد أقام الحد على ولده ، فقتله فيه ..

ثم جعل ابن عباس — رضي الله عنه — يذكر وقائع هذا الحادث ، فيقول :

« كنت ذات يوم في المسجد ، وعمر جالس والناس حوله ، إذ أقبلت

جارية فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . . فقال : وعليك السلام ورحمة الله .. ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، خذ ولدك هذا منى !! فقال عمر: إنى لا أعرفك ، فبكت الجارية وقالت : يا أميرالمؤمنين ، إن لم يكن ولدك من ظهرك ، فهو ولد ولدك ! فقال : أى أولادى ؟ قالت : أبو شحمة ؟ فقال : أبحلال أم بحرام ؟ قالت : من قبلى فبحلال ، ومن جهته فبحرام ! قال عمر : وكيف ذاك ؟ اتق الله ولا تقولى إلا حقاً !!

« قالت يا أمير المؤمنين كنت مارة فى بعض الأيام ، إذ مررت بحائط لبنى النجار ، إذ أتى ولدك أبو شحمة يتمايل سكراً ، وكان قد شرب عند نسيكة اليهودى ، ثم راودنى عن نفسى وجرنى إلى الحائط ، ونال منى ما ينال الرجل من المرأة ، وقد أغمى على ، فكتمت أمرى عن عمى وجيرانى حتى أحسست بالولادة ، فخرجت إلى موضع كذا ووضعت هذا الغلام وهممت بقتله ، ثم ندمت على ذلك ، فاحكم بحكم الله بينى وبينه !!

« فأمر عمر منادياً ، فأقبل الناس يهرعون إلى المسجد ، ثم قام عمر فقال : لا تتفرقوا حتى آتيكم ، ثم خرج ، فقال يا ابن عباس أسرع معى . فلم يزل حتى أتى منزله ، فقرع الباب وقال : ها هنا ولدى أبو شحمة ؟ فقيل له إنه على الطعام ، فدخل عليه . وقال : كل يا بنى . فيوشك أن يكون هذا آخر زادك !.

ثم جعل عمر يسأله عن الحادثة ، وهو يجيب : نعم لقد فعلت ، وأنا تائب نادم !

فلم يستمع إليه عمر ، وقبض على يده ، ولببه ، وجره إلى المسجد . فقال : يا أبى لا تفضحنى ، وخذ السيف واقطعنى إرباً إربا . .

فقال عمر : أما سمعت قول الله تعالى : « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . . ثم جاء به عمر إلى المسجد بين يدى أصحاب رسول الله ، وقال عمر : صدقت المرأة ، وأقر أبو شحمة بما قالت ! !

ثم ها هو ذا عمر ، يأمر أحد الأقوياء الأشداء بجلد ولده ، ويأمره بأن ينزع عنه ثيابه ، فيفعل بعد تردد ، وتأخذ السياط الغلام فيصرخ ، ويقول : ياأبت ارحمنى ، وعمر يقول ربك يرحمك !! وإنما أفعل ذلك كى يرحمك ويرحمنى ، وما زالت السياط تنهال على الغلام حتى بلغت سبعين سوطاً ، سقط بعدها الغلام مغشياً عليه ، وهو يقول : يا أبت أسقنى شربة ، فيقول عمر : يابنى .. إن كان ربك يطهرك فيسقيك محمد ﷺ شربة لاتظمأ بعدها أبداً . . يا غلام اضربه ، ويستمر الضرب حتى بلغ الثمانين سوطاً ، فقال الابن : يا أبت السلام عليك ، ويقول عمر : وعليك السلام .. ياغلام اضربه ، فلما بلغ التسعين انقطع كلامه ، فقال من شهده : يا أمير المؤمنين : انظر كم بقى فأخره إلى وقت آخر ، فقال عمر : لما لم يؤخر المعصية لا تؤخر العقوبة .. ياغلام تمم الحد . وسقط الابن بين يدى أبيه ميتاً .. فقال عمر : يا بنى محص الله عنك الخطأ .. ثم وضع رأسه فى حجره ، وجعل يبكى ، وضج الناس بالبكاء ! » .

هذا هو عمر ، بين العدل والرحمة !

إنه أب عطوف رحيم ، يفيض قلبه حناناً ورقة لولده .. شأن كل أب مع أبنائه . .

وإنه وال مسئول أمام الله رب العالمين ، أن يرعى العدل ، ويقيم الحد .

ولقد أعطى الله حقه ، فأقام الحد على أتم وجه ، وجلده مائة جلدة ،

هى حد الزانى غير المحصن ، والغلام لم يكن قد تزوج بعد . وأعطى الأبوة حقها ، فبكى إشفاقاً ورحمة . .

ولو كان الجانى غير ابن عمر ، لما أقام عمر الحد عليه على تلك الصورة التى تذهب بحياة المجلود ، وإلا فما الفرق إذن بين الجلد والرجم ؟ وبين غير المحصن والمحصن ؟

وإذا كان الله تعالى قال فى رجم الزانى والزانية : « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ».. فإنه ليس من الرأفة إذا لم يجلد الضعيف الواهى ، بالقوة والشدة التى يجلد بها الفتى القوى ؟ ثم إنه إذا خشى التلف على المجلود ، خفف عنه الضرب وإن لم ينقص العدد ؟

وقد قلنا من قبل إن لعمر مع نفسه وولده وخاصة أهله ، شأناً لا يكون منه مع غيرهم من سائر الناس ، فى الأخذ بالشدة والصرامة .. إنه مع نفسه وولده وأهله حذر أشد الحذر ، إنه لا يقبل أن ينظر فى شبهة تدرأ الحد ، ولو كانت الشبهة دانية قريبة . . فالسلامة عنده لدينه أن يحتاط كل الاحتياط وأن يأخذ بما لا شبهة فيه ، وإن كان فى ذلك الموت المحقق . . فالموت هين فى سبيل الحق والعدل ، والحياة رخيصة فى جانب مرضاة الله ، والطمع فى لقائه بنفس برئت من ذنوبها ، وطهرت من آثامها ..

أما حين يكون الحد متجهاً إلى غير ولد عمر وأهله ، فإنه يستحضر لذلك كل ما عنده من ذكائه وفراسته وفطنته ، فينقلب الأمر على وجوهه كلها ، ويقابل بين الأدلة والقرائن ، فإذا استبان له الحق أمضى ، وإن وجد شبهة تمهل وتروى ، وراجع أصحابه ، فإن ظلت الشبهة قائمة درأ الحد بالشبهة عملا بقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

عن ابن سبرة ـ رضي الله عنه ـ قال : « بينا نحن بمنى مع عمر ـ رضى الله عنه ـ وإذا امرأة ضخمة على حمار تبكى ، وقد كاد الناس يقتلونها من الزحمة عليها ، وهم يقولون لها : زنيت .. زنيت !! فلما انتهوا بها إلى عمر قال : ما شأنك ؟ إن المرأة ربما استكرهت !! فقالت : كنت امرأة ثقيلة الرأس[1] فصليت ثم نمت ، فوالله ما أيقظنى إلا رجل قد علانى ، ثم نظرت إليه مقعياً[2] ما أدرى من هو من خلق الله !! فقال عمر: لو قتلت هذه لخشيت على الأخشبين النار[3] !! » .

فالشدة فى عمر ، هى الشدة فى إقامة ميزان الحق والعدل .. والرحمة فى عمر ، إنما هى رحمة لا تنتقص العدل ، ولا تجور على الحق .. فإذا لم يكن ثمة عدوان على حد من حدود الله ، أو اعتداء على حق من حقوق العباد ، فعمر ـ رضى الله عنه ـ رحمة تتمشى فى الناس ، وحنان يرف على الوجود ، ونسمة عطرة تنعش النفوس ، وتشرح الصدور ..

فرحم الله ابن الخطاب ، وألحقه بصاحبيه ، الرسول الكريم ، وأبى بكر الصديق !

* * *

(١) كناية عن أنها ثقيلة النوم .   (٢) أى جالسا القرفصاء .
(٣) الأخشبان : جبلان مطلان على مكة ، وهما أبو قبيس والأحمر ، وفى هذا كناية عن عذاب الله العام الشامل الذى يأتى على كل شىء لو قتل هذه المرأة .

الفصل الثالث

اجتهاد عمر فيما لا حدّ فيه

إذا كانت الشريعة الإسلامية قد بينت الجرائم التى أوجبت فيها الحد على مرتكبيها ، بعد التحقيق من مقارفتهم لها عن عمد ، من غير قهر ، أو خطأ أو نسيان ، وذلك فى الزنا ، والسرقة ، والقتل والحرابة والقذف وشرب الخمر - إذا كانت الشريعة الإسلامية قد بينت هذه الأنواع من الجرائم ، فإن هناك جرائم كثيرة تركت الشريعة للناس أن يعالجوها بتدبيرهم ، وأن يأخذوا مقترفيها بالعقاب المناسب لها ، ولهم ، وذلك قياساً على تلك الجرائم التى بينت الشريعة حدها .

ويبدو وجه الحكمة فى هذا فى أكثر من جانب :

فأولا : أنه لا يمكن حصر جميع المنكرات - صغيرها وكبيرها - التى تظهر فى حياة المجتمعات ، فى جميع الأزمان ، والأمكنة ، حيث تلد الحياة فى كل زمان ومكان مواليد مشئومة من المنكرات ، مختلفة الأشكال ، والألوان ، ليس من الحكمة أن يكشف للناس عنها قبل أن تظهر فيهم ، لأن فى ذلك إغراء لهم بالتعرف عليها ، واختبارها ، إرضاء لغريزة حب الاستطلاع الكامنة فى الإنسان ..

وثانياً : ترك مجال للناس يعملون فيه عقولهم ، ويعالجون به الأدواء التى تعرض لهم ، وبين أيديهم الدليل الهادى من كتاب الله وسنة رسول الله ... فلا تتعطل بذلك مدركاتهم ، ولا يحجر على اجتهادهم ، فيما يلقون

به مشكلات الحياة التى تعرض لهم ..

ومن هنا ، كان من الحكمة أن تدع الشريعة الإسلامية للناس معالجة هذه الجرائم العارضة ، التى هى فى حقيقتها فرع من فروع تلك الجنايات التى بينتها الشريعة ، وبينت العقوبة المناسبة لكل منها ..

يقول ابن تيمية — فى كتابه : « السياسة الشرعية » — : « وأما المعاصى التى ليس فيها حد مقدر ولا كفارة .. كالذى يقبل الصبى ، والمرأة الأجنبية ، أو يباشر بلا جماع ، أو يأكل ما لا يحل كالدم والميتة ، أو يقذف الناس بغير الزنا ، أو يسرق من غير حرز[1] ، أو يسرق شيئاً يسيراً[2] ، أو يخون أمانته ، كولاة أموال بيت المال ، أو الوقوف (أى الوقف) أو مال اليتيم ، ونحو ذلك إذا خانوا فيها ، وكالوكلاء والشركاء ، إذا خانوا ، أو يغش فى معاملته ، كالذين يغشون فى الأطعمة والثياب ، ونحو ذلك ، أو يطفف المكيال والميزان ، أو يشهد الزور ، أو يلقن شهادة الزور ، أو يرتشى فى حكمه ، أو يحكم بغير ما أنزل الله ، أو يعتدى على رعيته ، أو يتعزى بعزاء الجاهلية ، أو يلبى دعوة الجاهلية إلى غير ذلك من أنواع المحرمات — فهؤلاء يعاقبون تعزيراً وتنكيلا وتأديباً بقدر ما يراه الوالى ، على حسب كثرة ذلك الذنب فى الناس وقلته ، فإذا كان كثيراً زاد فى العقوبة[3] بخلاف ما إذا كان قليلا .. وكذلك

---

(١) أى يسرق مالا تركه صاحبه من غير حراسة ، أو حفظ له فى بيت أو نحوه .. فالسارق لهذا المال يعزر ، ولا تقطع يده .

(٢) اقدر هذا اليسير بما لا يزيد على ربع دينار ، فالسارق هنا لا تقطع يده ، وإنما يعزر بما يراه ولى الأمر مناسباً ..

(٣) كما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم جلد فى الخمر أربعين ، وكذلك فعل أبو بكر .. أما عمر ، فقد زاد جلد الشارب إلى ثمانين جلدة ، ملاحظاً هذا الاعتبار .

على حسب للذنب ، فإذا كان من المدمنين على الفجور زيد فى عقوبته ، بخلاف المقل من ذلك ، وكذلك على حسب كبر الذنب وصغره ، فيعاقب الوالى من يتعرض لنساء الناس وأولادهم ، ما لا يعاقبه من لم يتعرض إلا لامرأة واحدة أو صبى واحد . . » .

ما هو حد التعذير ؟

ويعنى ابن تيمية ، فى بيان حد التعزير ، وصوره المختلفة ، فيقول :

« وليس لأقل التعزير حد ، بل هو بكل ما فيه إيلام الإنسان ، من قول وفعل ، وترك فعل ، فقد يعزر الرجل بوعظه ، وتوبيخه ، والإغلاظ له .. وقد يعزر بهجره ، وترك السلام عليه حتى يتوب ، إذا كان ذلك هو المصلحة ، كما هجر النبى ﷺ وأصحابه الثلاثة الذين خلفوا . . وقد يعزر بعزله عن ولايته ، كما كان النبى ﷺ وأصحابه ، يعزرون بذلك . . وقد يعزر بترك استخدامه فى جند المسلمين ، كالجندى المقاتل إذا فر عن الزحف ، فإن الفرار من الزحف ، من الكبائر . . . وكذلك قد يعزر بالحبس ، وقد يعزر بالضرب . . وقد يعزر بتسويد وجهه وإركابه على دابة مقلوباً .

« كما روى عن عمر – رضى الله عنه – أنه أمر بذلك فى شاهد الزور ، فإن الكاذب سود الوجه [1] ، فسود وجهه ، وقلب الحديث ، فقلب ركوبه . .

« أما أعلاه — أى أعلا حد التعزير — فقد قيل : لا يزاد فيه على عشرة أسواط .. وقال كثير من العلماء لا يبلغ به الحد [2] .. ثم هم – أى هؤلاء العلماء – على قولين : منهم من يقول : لا يبلغ به أدنى الحدود ،

(١) أى وجه من شهد عليه زوراً ، حيث أخزاه وفضحه

(٢) أى الحد المفروض للجريمة .. فلا يجلد مائة جلدة من قبل أجنبية مثلا .

فلا يبلغ بالحر أدنى حدود الحر ، وهى الأربعون أو الثمانون — فى شرب الخمر — ولا يبلغ بالعبد أدنى حدود العبد ، وهى العشرون أو الأربعون. وقيل بل لا يبلغ بكل منهما حد العبد ، ومنهم من يقول : لا يبلغ بكل ذنب حد جنسه ، وإن زاد على حد جنس آخر ، فلا يبلغ بالسارق من غير حرز ، قطع اليد ، وإن ضرب أكثر من حد القاذف ، ولا يبلغ بمن فعل ما دون الزنا حد الزانى ، وإن زاد على حد القاذف . . كما روى عن عمر — رضى الله عنه — أن رجلا نقش على خاتمه ، وأخذ بذلك من بيت المال ، فضربه مائة ، ثم ضربه فى اليوم الثانى مائة ، ثم ضربه فى اليوم الثالث مائة ضربة »(١) .

* * *

وقد واجه عمر ـ رضى الله عنه ـ مجتمعاً مفتوحاً على شعوب ومجتمعات دخلت فى الإسلام ، أو احتكت به ، ومعها عاداتها وتقليدها ، وأساليبها فى الحياة ، فدخل على المسلمين من هذا ما لم يكن لهم به عهد به فى حياة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وفى خلافة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وكما كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يمسك حياته الخاصة على ألا يغير منها شيئاً مما كانت عليه فى حياة الرسول الكريم ، وفى خلافة أبى بكر ، فإنه أراد أن يمسك المجتمع الإسلامى كله ، على ما كان عليه فى تلك الفترة الوضيئة المشرقة . .

ولا شك أن أمراً كهذا ، هو تكليف للنفس بما لا يطاق ، فإن للزمن دورته التى لا تتوقف ، ولا يمكن لأية قوة فى الأرض أن توقفها . . ومع

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص٥٣ ـ ٥٤ ـ الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية ١٣٢٢هـ

هذا فإن عمر — رضى الله عنه — وقف فى الميدان لم يتزحزح عن موضعه ، وإن كانت أرض الميدان تتحرك ، وتضطرب تحت قدميه ، حتى وقع شهيداً فى الميدان !!

رأى عمر أناساً يتبعون أبى بن كعب ، فرفع عليه الدرة ـ تعزيراً له ـ فقال : ياأمير المؤمنين اتق الله !! فقال عمر : «فما هذه الجموع خلفك ياابن كعب ؟ أما علمت أنها فتنة للمتبوع ، مذلة للتابع !! » . .

ولم يكن لأبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ ذنب فى هذا ، ولم يكن هو الذى دعا تلك الجموع إلى اتباعه ، وإنما كان قارئاً لكتاب الله ، حافظاً له ، قد اختصه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — بأن يقرأ عليه القرآن بأمر من الله تعالى ، فرأى المسلمون يومئذ أن يأخذوا القرآن الكريم ، عن هذا الصحابى الجليل الذى اختصه الله تعالى بما اختصه به من فضل ، فالتفوا حوله ، واجتمعوا عليه ..

ولم يغب هذا عن عمر ـ رضى الله عنه ـ ولكنه كان يرى هذا مدخلا من مداخل الفتنة للناس ، لأبى ـ رضى الله عنه ـ ولمن يحذو حذوه !! فكان أن نبه أبياً إلى هذا ، حتى يأخذ حذره من هذه الفتنة الخفية !!

* * *

وذات ليلة كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يعس فى المدينة ، إذ سمع امرأة من سطح ، وهى تنشد :

تطاول هذا الليل وازور جانبه ... وليس إلى جنبى خليل ألاعبه

فوالله ، لولا الله تخشى عواقبه ... لزعزع من هذا السرير جوانبه

مخافة ربى والحياء تصدنى ... وأكرم بعلى أن تنال مراكبه

وكان زوج المرأة غازياً فى سبيل الله ، وقد طالت عيبته عنها . . فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ماذا صنعت يا عمر بنساء المدينة ؟

ثم جاء فضرب على ابنته أم المؤمنين حفصة بابها ، فقالت له : ماجاء بك فى هذه الساعة؟ قال: ؟ أخبريني . . كم تصبر المرأة المغيبة عن بعلها ؟ قالت : أقصاه أربعة أشهر ! !

فلما أصبح كتب إلى أمرائه فى جميع النواحى : «ألا تجمر[1] البعوث، وألا يغيب رجل عن أهله أكثر من أربعة أشهر !!

* * *

ولما أراد عمر — رضى الله عنه — أن يدون الدواوين . قيل له : إن ها هنا رجلا من الأحبار نصرانياً ، له بصر بالديوان ، لو اتخذته كاتباً ؟ فقال : لقد اتخذت إذن بطانة من دون الله ! ! يشير بهذا إلى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر »[2] .

* * *

هـــذه أمور قد تبدو عند بعض الناس هينة ، ولـكنها فى نظر عمر خروق فى ثوب الإسلام وأن هذه الخروق إذا تركت ولم تسد على صغرها ، اتسعت ، حتى تذهب بالثوب كله ..

* * *

يروى أن عمر ـ رضى الله عنه ـ استعمل رجلا على اليمن ، فوفد إليه . وعليه حلة مشهرة[3] ، وهو مرجل دهين[4] فقال له : أهكذا بعثناك ؟ ثم ،

---

(١) أى تحبس فى الغزو . .

(٢) سورة آل عمران : ١١٨

(٣) أى ملفتة للنظر لحسنها . .

(٤) أى مرسل شعر الرأس مدهونة . . .

أمر بالحلة فنزعت عنه ، وألبس جبة صوف ! ! ثم سأل عن ولايته ، فلم يذكروا إلا خيراً ، فرده إلى عمله.. ثم وفد إليه بعدذلك ، فإذا هو أشعث مغبر ، عليه أطلاس ـ أى ثياب مغبرة وسخة ـ فقال له عمر : « ولا كل هذا ! ! إن عاملنا ليس بالشعث ولا العافى ـ الذى يطلق لحيته ـ كلوا ، واشربوا ، وادهنوا .. إنكم لتعلمون الذى أكره من أمركم ..»

• • •

عمر ونصر بن حجاج :

وقد عاب بعض السفهاء على عمر ـ رضى الله عنه ـ ما كان منه لنصر ابن حجاج ، وقالوا : إن هذا مصادرة للحرية الشخصية وتدخل من الحاكم فى الشئون الخاصة للمحكومين ! !

والحادثة كما ترويها كتب التاريخ ، أن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان يعس ليلا فى بعض طرق المدينة ، حتى انتهى إلى باب متجاف ـ أى لم يغلق تماماً ـ وإذا امرأة تغنى نسوة ، وتقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج ! !

فقال عمر : أما ماعشت فلا ! ـ أى لا سبيل لك إلى هذا أو ذاك ما دام عمر حياً ! !

فلما أصبح ، دعا نصر بن حجاج ، فإذا هو من أصبح الناس وجهاً ، وأصبحهم وأملحهم حسناً ، فأمر أن يطم شعره [1] فبرزت جبهته فازداد حسناً . فقال له عمر : اذهب فاعتم ، فبدت وفرته [2] فأمر بحلقها ، فازداد

(١) أى يجمع ويقص ..

(٢) الوفرة : ما سال على الأذنين من الشعر ..

حسنها ، فقال له عمر : فتنت نساء المدينة يا ابن حجاج ، لا تجاورنى فى بلدة أنا مقيم بها .. ثم سيره إلى البصرة !!

قيل : ولما كان نصر بن حجاج بالبصرة ، دس فى البريد إلى المدينة بكتاب إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ وفيه :

« لعبد الله عمر أمير المؤمنين .. من نصر بن حجاج ، سلام عليك .. أما بعد يا أمير المؤمنين :

لعمرى لئن سيرتنى أو حرمتنى ... لما نلت من عرضى عليك حرام

أإن غنت الذلفاء يوما بمنية ... وبعض أمانى النساء غرام ،

ظننت بى الظن الذى ليس بعده ... بقاء ، فمالى فى الندى كلام

وأصبحت منفياً على غير ريبة ... وقد كان لى بالمكتين[1] مقام

سيمنعنى مما تظن تكرمى ... وآباء صدق سالفون كرام

ويمنعها مما تمنت صلاتها ... وحال لها فى دينها وصيام

فهاتان حالانا ، فهل أنت راجع ... فقد جب منى كاهل وسنام[2]

فلما قرأ عمر كتاب نصر ، قال : أما ولى ولاية ، فلا ، وأقطعه أرضاً بالبصرة وداراً ..

وقيل : إن أم نصر بن حجاج قد اشتدت عليها غيبة ولدها ، فتعرضت لعمر بين الأذان والإقامة ، فقعدت له على الطريق ، فلما خرج يريد الصلاة هتفت به وقالت : يا أمير المؤمنين .. والله لأجاثينك[3] غداً بين يدى الله عز وجل ، ولأخاصمنك إليه .. يبيت عاصم ، وعبد الله ـ ولدا عمر ـ إلى

---

(١) هما مكة والمدينة ، مثنى على تغليب مكة على المدينة .

(٢) كناية عن حاله من الضعف ، وما فعلت الغربة به .

(٣) الجثو : الجلوس على الركبتين فى موقف الخصومة . حيث يشتد الجدل ويطول ، ويكل الخصمان من الوقوف ، فيجلسان ويجثوان على الركب .

جانبيك ، وبيني وبين ابني الفيافي والقفار ، والمفاوز والجبال ؟ فقال عمر : من هذه ؟ فقيل : هذه أم نصر بن حجاج . فقال : يا أم نصر : إن عاصماً وعبد الله لم تهتف بهما العواتق[1] من وراء الخدور ! !

هذا ، وقد نسج من خيوط هذه الحادثة كثير من الأحاديث والأخبار شعراً ونثراً ، وذلك لأنها تعد من أبكار الأحداث التي لم يسبقها مايماثلها، حيث تصبح حديث الناس ، وما يفيضون من خواطرهم عليها ..

وإذا كان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قد صنع مع نصر بن حجاج هذا الذي صنعه معه . فذلك مما تقضي به الحكمة في علاج هذه الفتنة التي أطلت برأسها في المدينة ، حيث كان جمال هذا العربي وشبابه المتدفق حيوية وحسناً ، مما يلفت الحرائر إليه ، ويغريهن به على تعففهن ، واتقاء الله في دينهن .. ولكن مع طول الزمن في مواجهة هذه الفتنة ، قد تضعف بعض النفوس ، وتنحل بعض العزائم ، فيقع المحذور !

إن سد الذرائع شريعة من شريعة الإسلام . فالخمر مثلا ، وإن كان الحرام واقعاً على شربها أصلا ، فإنه قد وقعت الحرمة على كل ما يؤدي إلى شربها .. فحرمت لذاتها ، ولذلك وجب إتلافها ، وكسر آنيتها ، كما حرم عصرها ، وحرم تقديمها لشاربها . وحرم حضور مجلس شربها .. وكل هذا ليس حراماً في أصله ، ولكنه إذ كان ذريعة مؤدية إلى أصل الحرام وهو الشرب ، فقد ألحق بهذا الأصل ، عملا بالقاعدة الشرعية : ما أدى إلى حرام فهو حرام !

وما فعله عمر — رضي الله عنه — مع نصر بن حجاج — لا يعدو

---

(١) الحرائر ذوات الحسب من النساء . والعواتق جمع عتيقة ، من العتق وهو الكرم .

فى حقيقة ما كان يجب أن يفعله مع الخمر ، وتحريم دخولها إلى دار الإسلام ، فإذا دخلت وجب عليه إتلافها . .

وعمر — رضى الله عنه — لم يتلف نصر بن حجاج ، وما كان له أن يتلفه . لأنه لم يقترف ذنباً ، ولم يدع حرة إلى أن تغرم به ، وتتوله فى حبه ، فكان أن حوله عمر من المدينة إلى البصرة ، وضمن له حياة أمن واستقرار فيها ، إذ أقطعه أرضاً وداراً بها . .

وقد يقول قائل : لماذا لم يلحق عمر نصر بن حجاج بجيوش المجاهدين ، فيكون ذلك اتقاء من أن يفتن أو يفتن من جهة ، ثم تعرضه لثواب المجاهدين عند الله من جهة أخرى ؟

ونقول : إن عمر - رضى الله عنه - لم يكن ليغفل عن هذا ، ولكنه لم يفعله - فيما نظن - لأمور منها :

أولا : أن الجهاد فى الإسلام أصله التطوع ، وليس الإجبار ، وخاصة فى هذا الوقت الذى تم فيه فتح الشام ، والعراق ، ومصر ، ولم يكن المسلمون فى وجه هجوم عليهم من العدو . . وإنما يكون للمجاهد ثوابه كاملا عند الله ، إذا خرج بدافع من إيمانه ، للدفاع عن دين الله ، والاستشهاد فى سبيل الله . .

وثانياً : لو بعث عمر — رضى الله عنه — بنصر بن حجاج إلى الجهاد ، وألحقه بجيش المجاهدين لبدا ذلك وكأنه عقوبة يعاقب بها . . وهذا لاشك انتقاص من قدر الجهاد ، الذى لا ينتظم فى ركبه إلا الصفوة المتخيرة من المؤمنين . . أما أن يلحق به أصحاب التهم ، أو الريب كعقوبة لهم ، فهذا — كما قلنا — إزراء بالجهاد ، واستخفاف به وبالمجاهدين .

وثالثاً : كان عمر - رضى الله عنه - قد جعل للمجاهدين أمداً

لا يغيبون فيه عن أهليهم في موقع جهادهم. وهو أربعة أشهر.. فكيف يكون الموقف مع نصر بن حجاج ، لو أنه ألحق بجيش المجاهدين ، ثم عاد إلى المدينة بعد أربعة أشهر ؟ ألا تعود الفتنة به من جديد كما كانت ، بل وأكثر مما كانت ؟

ورابعاً : أن مدينة الرسول لها حرمتها وجلالها ، بحيث يجب أن تظل أرضها طاهرة ، وسماؤها صافية من كل غبار ، أو دخان ، ولو كان قليلا.. الأمر الذى إن كان فى غيرها ، وغير مكة من بلاد المسلمين ، كان أخف.. وقعاً .. ولهذا كان أن حول عمر نصر بن حجاج ، وما أثير حوله من غبار ودخان إلى البصرة التى هيهات أن تخلو من مثل هذا الغبار والدخان !

وعلى هذا ، فإن الذى كان من صنيع عمر ـ رضى الله عنه ـ مع نصر ابن حجاج ، هو الأسلوب الحكيم ، والدواء الناجح لهذا الداء العارض .

* * *

الباب السادس
عمر ومطاعن الطاعنين عليه

لاتخلو حياة عظيم فى أى مظهر من مظاهر العظمة والنبوغ ، دون أن تسلم من الغمز والتجريح ، أو من الاستخفاف والاستسخاف ، ذلك أن الحسد داء يشيع فى الناس ، والصعود إلى القمم يغرى الذين تحت السطح برجم الصاعدين بالحصا ، وبالقذف بالألسنة . . هكذا الناس ، وهكذا مقام العظماء فيهم ، ابتداء من أعلى قمة يقوم عليها الأنبياء والمرسلون ، إلى مادونها مما يرتقى سلمه الراشدون ، والمصلحون ، والنابهون من أرباب العلوم والفنون..

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالكل أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها   حسداً وبغضاً ، إنه لدميم

فكيف إذا كان العظيم يضم فى كيانه أشتاتاً من العظمة الموزعة فى كثير من العظماء ؟ ثم كيف إذا كان هذا العظيم حاكما فى الناس ، قائماً على أمرهم ، مدبراً لشئون سلمهم وحربهم ، مسئولا عن طعامهم وكسائهم ، موكلا بأمنهم وحفظهم ؟ إنه إن أرضى فريقاً ، فهيهات أن يرضى كل فريق ، وإن أرضى فى جانب ، فلن يحقق الرضا لجميع الجوانب . .

يقول ابن أبى الحديد فى الجزء الثالث عشر ، من شرح نهج البلاغة :
« واعلم أن من تصدى للعيب وجده ، ومن قصرت همته على الطعن على الناس انفتحت له أبواب كثيرة » .

وعمر ــ رضى الله عنه ــ قام على سياسة دولة مترامية الأطراف ، قد

ثم قيامهما على دين ، ولم يكن قد استقر لها نظام سياسى ، أو اجتماعى ، أو اقتصادى .. فكان عليه أن يقيم هذه الأنظمة ، وأن يقعد قواعدها ، مستهدياً فى هذا بكتاب الله ، وسنة رسول الله ، مستلهماً ما يوحيه إليه دينه ، فى كل لبنة يضعها لإقامة صرح هذه الأنظمة الجديدة ..

ثم إنه ليس يضير عمر ، ولا ينتقص من منزلته العالية الشامخة القائمة على قمة عظماء الرجال — أن يخطىء ، فهو بشر غير معصوم من جهة ، ثم هو مجتهد ، متحر للحق من جهة أخرى ، يخطىء ، ويصيب ، وهو فى كلا الحالين مأجور .. إن أخطأ فله أجر على اجتهاده ، وإن أصاب فله أجران : أجر على اجتهاده ، وأجر على إصابته !

والذى يلاحظ هنا ، أن ما يعاب على عمر — رضى الله عنه — إنما كان من جهة الشيعة ، حيث يرون أن علياً — رضى الله عنه — هو أولى المسلمين بالخلافة بعد رسول الله — ﷺ — وأن عمر ، هو الذى كان له الدور الأول فى صرفها عن آل البيت . .

وها نحن أولاء ، نعرض أهم تلك المآخذ ، التى كان لبعض الناس قول فيها . . نعرضها أولا مع مقولات أصحابها ، ثم نعرض ما ورد من ردود عليها ، ثم نعرض رأينا فى القضية كلها ، من جانبى المختصين فيها .

* * *

الفصل الأول

موقف عمر من خلافة علي

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم : دون أن يبايع المسلمين على خليفة يخلفه عليهم من بعده . . هذه حقيقة يعلمها المسلمون جميعاً ، لم تغب عن أحد منهم . . والشاهد على هذا :

أولا : ما كان من عمر - رضي الله عنه - من إنكار موت النبي ﷺ ، حين جاء خبر موته ، من بيت عائشة - رضي الله عنها - الذي كان على فراش المرض فيه ، حيث كان صحابة رسول الله مجتمعين حول الدار . . وعندها قام عمر - رضي الله عنه - شاهراً سيفه ، مهدداً من يقول إن رسول الله - ﷺ - قد مات ، وهو يقول : إن الرسول قد ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى إلى ربه ، وغاب عن بني إسرائيل أربعين ليلة . وإنه - ﷺ - عائد ، وسيقطع أيدي رجال قالوا إنه قد مات ! !

وما كان عمر - رضي الله عنه - ينكر أن يموت الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لأنه بشر ، وكل الناس سيموتون ، وقد مات رسل الله ، وإنه لابد أن يموت رسول الله .

وإنما الذي أنكره عمر - رضي الله عنه - هو موت رسول الله ﷺ من غير أن يتحقق قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . . ولذلك نفى عمر خبر موته - ﷺ - لأنه حمل

الآية على أنها خبر فى حال حياة النبى ، حتى قال له أبو بكر — رضى الله عنه — إن الله وعده بذلك وسيفعله . . ثم إن عمر — رضى الله عنه — كان يقدر أنه لا يموت الرسول الكريم ، حتى يقيم على المسلمين من يخلفهم من بعده ، حتى لا يقع الاضطراب ، والاختلاف بينهم ..

وثانياً : أن من الشواهد القوية الواضحة على أن الرسول ﷺ لم يشر إلى الشخص الذى يخلفه من بعده على أمور المسلمين — هو ما كان من اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، ليختاروا من بينهم من يتولى الأمر بعد رسول الله ، ذلك ورسول الله ﷺ لم يدفن بعد .. فلو أنه كان هناك شخص أوصى الرسول له بالخلافة من بعده ، لما دعا الأنصار إلى مثل هذا الاجتماع ، ولما اجتمع إليهم المهاجرون ينازعونهم الأمر ، ويرون أنهم أحق به من الأنصار ، حتى تم الأمر بإقامة أبى بكر خليفة على المسلمين !!

فالمقطوع به إذن هو أن رسول — ﷺ — لم يوص لشخص معين بالخلافة على المسلمين من بعده . . ومع هذا ، فإن الشيعة يقولون إن الرسول ﷺ ، قد أوصى لعلى كرم الله وجهه بالخلافة من بعده ، ويأتون على هذا بشواهد من أقوال الرسول الكريم ، كقوله لعلى ، وقد خلفه على أهله فى غزوة تبوك ، فقال له على : يارسول الله ، قد يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض إنك إنما خلفتنى استثقالا لى ، فقال له ﷺ : « أما ترضى أن تخلفنى فى أهلى ؟ أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى؟ » .. وكذلك قوله ﷺ ، عند غدير خم على مشهد من الصحابة : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه » .

وإذا صح هذان الخبران وأمثالهما ، فإن ذلك لا يعنى إلا أن يكون

تنويها بفضل على ، كما نوه ﷺ بكثير من صحابته ، أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وأبي عبيدة ، وأبي ذر ، وغيرهم ، كقوله ﷺ : « وزنت بأمتى فرجحت ، ووزن أبو بكر بها فرجح ، ووزن بها عمر ، فرجح ، ثم رجح ثم رجح » .

ومعنى هـذا أن الرسول ﷺ وزن بأمته ، وفيها أبو بكر ، وعمر ، فرجح ، ووزن بها أبو بكر ، وفيها عمر فرجح ، ووزن بها عمر وليس فيها أبو بكر فرجح ، ثم رجح ، ثم رجح .

وكقوله ﷺ : « قد كان فى الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن يكن فى أمتى محدثون ، فإن عمر منهم » (١)

فهذه الصفات التى وصف الرسول الكريم بها بعض أصحابه ، ليس فيها دلالة قاطعة لأحد بأن يقوم على خلافة المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، فكل ذى صفة أو أكثر من هذه الصفات صالح لأن يتولى الخلافة ، وللمسلمين أن يختاروا من يرونه لسياسة أمورهم ..

يقول ابن أبى الحديد شارحاً رأيه فى توجيه مثل هـذه الأخبار التى رويت فى فضل على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – والتى فهم منها الشيعة أنها نص فى خلافة على بعد رسول الله ﷺ – يقول ابن أبى الحديد : سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبى زيد (٢) ، وقد قرأت عليه هذه الأخبار ، فقلت له : ما أراها إلا تكاد تكون دالة على النص ، ولكنى أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نص رسول الله ﷺ وآله ، على شخص

---

(١) والمحدث : بالدال المشددة المفتوحة ، هو من يلهم الحديث بما يلقى فى روعه من الملك (بفتح اللام) .

(٢) من فقهاء الشيعة .

بعينه ، كما استبعدنا من الصحابة ردنصه على الكعبة وشهر رمضان وغيرهما من معالم الدين ..

فقال [1] لى رحمه الله : أبيت إلا ميلا إلى المعتزلة ، ثم قال لى : إن القوم - أى الصحابة - لم يكونوا يذهبون فى الخلافة إلى أنها من معالم الدين ، ولكنهم كانوا يجرونها مجرى الأمور الدنيوية ، ويذهبون لهذا ، مثل تأمير الأمراء ، وتدبير الحروب ، وسياسة الرعية ، وما كانوا يبالون فى هذا من مخالفة نصوصه ﷺ وآله ، إذا رأوا المصلحة فى غيرها .. ألا تراه - أى النبى ﷺ - كيف نص على إخراج أبى بكر وعمر فى جيش أسامة ، ولم يخرجا لما رأيا أن فى مقامهما مصلحة للدولة ، وللملة ، وحفظاً للبيضة ، ودفعاً للفتنة ، وكان ﷺ يخالف وهو حى فى أمثال ذلك ، فلا ينكره ، ولا يرى به بأساً !! ألا ترى أنه نزل فى غزوة بدر منزلا على أن يحارب قريشاً فيه ، فخالفته الأنصار ، وقالت له : ليس الرأى فى نزولك هذا المنزل ، فاتركه ، انزل فى منزل كذا ، فرجع إلى آرائهم .. وهو - ﷺ - الذى قال للأنصار عام قدم إلى المدينة : «لا تؤبروا النخل» (أى لا تلقحوه) فعملوا على قوله ، فحالت نخلهم فى تلك السنة ولم تثمر ، حتى قال لهم : «أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وأنا أعرف بأمر دينكم» .. وهو - ﷺ - الذى أخذ الفداء من أسارى بدر ، فخالفه عمر ، فرجع إلى تصويب رأيه ، بعد أن فات الأمر ، وخلص الأسرى ، ورجعوا إلى مكة !! وهو صلى الله عليه وسلم وآله - الذى أراد أن يصالح الأحزاب على ثلث تمر المدينة ليرجعوا عنه ، فأبى سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، فخالفاه ، فرجع إلى قولهما ....

---

(١) يشير إلى النقيب الشيعى .

ثم يقول النقيب :

« وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص ، لما رأوا المصلحة فى ذلك ، كإسقاطهم سهم ذوى القربى ، وإسقاط سهم المؤلفة قلوبهم .. وهذان الأمران أدخل فى باب الدين منهما فى باب الدنيا ، وقد عملوا بآرائهم أموراً لم يكن لها ذكر فى الكتاب والسنة ، كحد الخمر ، فإنهم عملوه اجتهاداً ، ولم يحد رسول الله ﷺ وآله ، شاربى الخمر ، وقد شربها الجم الغفير فى زمانه بعد نزول آية التحريم [1] .. وقد أوصاهم فى مرض موته ؛ أن أخرجوا نصارى نجران من جزيرة العرب فلم يخرجوهم ، حتى مضى صدر من خلافة عمر ، وعملوا فى أيام أبى بكر فى ذلك باستصلاحهم وهم ـ أى الصحابة ـ الذين هدموا المسجد بالمدينة ، وحولوا المقام بمكة ، وعملوا بمقتضى ما يغلب على ظنونهم من المصلحة ، ولم يقفوا على موارد النصوص ، حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد ، فرجح كثير منهم القياس على النص ، حتى استحالت الشريعة ، وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة !!

ثم يقول النقيب :

« وأكثر مايعملون ـ أى الصحابة ـ بآرائهم فيما يجرى مجرى الولايات ، والتأمير ، والتدبير ، وتقرير قواعد الدولة ، وما كانوا يقفون مع نصوص الرسول ﷺ وآله وتدبيراته ، إذا رأوا المصلحة فى خلافها ، كأنهم كانوا يقيدون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظاً ، وكأنهم كانوا يفهمون من قرائن أحواله ، وتقدير ذلك القيد : « افعلوا كذا إن رأيتم فيه مصلحة » !!

---

(١) الثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلد فى الخمر أربعين جلدة .

ويمضى النقيب قائلا :

«وأما مخالفتهم له ـ أى للرسول ـ ﷺ ـ فيما هو محض الشرع والدين وليس يتعلق بأمور الدنيا وتدبيراتها ، فإنه يقل جداً .

نحو أن يقول : « الوضوء شرط فى الصلاة » فيجمعوا على رد ذلك ، ويجيزوا الصلاة من غير وضوء ، أو يقول : «صوم شهر رمضان واجب» فيطبقوا على مخالفة ذلك ، ويجعلوا شوال عوضاً عنه ـــ فإنه بعيد ، إذ لا غرض لهم فيه ، ولا يقدرون على إظهار مصلحة عثروا عليها ، خفيت عنه ﷺ وآله » .

ثم يخلص النقيب من هذا إلى موقف الصحابة من على كرم الله وجهه ، فيقول :

« والقوم الذين كان قد غلب على ظنونهم أن العرب لا تطيع علياً عليه السـلام ، فبعضها للحسد عليه ، وبعضها للوتر والثأر ، وبعضها لاستحداثهم سنه ، وبعضها لاستطالته عليهم ورفعه عنهم ، وبعضها كراهة اجتماع النبوة والخلافة فى بيت واحد ، وبعضها للخوف من شدة وطأته وشدته فى دين الله ، وبعضها خوفاً لرجاء تداول قبائل العرب الخلافة إذا لم يقتصر بها على بيت مخصوص عليه ، فيكون رجاء كل حى لوصولهم إليها ثابتاً مستمراً ، وبعضها ببغضه لبغضهم من قرابته لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وهم المنافقون من الناس ، ومن فى قلوبهم مرض وزيغ من أمر النبوة ـ فأصفق [1] الكل إصفاقاً واحداً على صرف الأمر عنه إلى غيره ، وقال رؤساؤهم [2] : إنا خفنا الفتنة ، وعلمنا أن العرب لا تطيعه ـ أى علياً ـ

---

(١) أى أجمع .

(٢) يعنون رؤساء الصحابة ، وعلى رأسهم فى هذا الموقف عمر ـ رضى الله عنه ـ .

ولا تتركه ، وتأولوا عند أنفسهم النص ، ولا ينكرون النص ، وقالوا : إنه النص ، ولكن الحاضر ، يرى ما لا يرى الغائب ، والغائب قد يترك لأجل المصلحة الكلية ، وأعانهم على ذلك مسارعة الأنصار إلى ادعائهم الأمر ، وإخراجهم سعد بن عبادة ، من بيته وهو مريض ، لينصبوه خليفة — فيما زعموا — واختلط الناس ، وكثر الخبط ، وكادت الفتنة تشتعل نارها ، فوثب رؤساء المهاجرين فبايعوا أبا بكر ، وكانت فلتة[1] ، كما قال قائلهم ، وزعموا أنهم أطفئوا بها نائرة الأنصار ...

ثم يمضى النقيب قائلا :

«وسكت الناس على الإنكار — أى إنكار الافتيات على على ّ- كرم الله وجهه - فإنهم كانوا متفرقين ، فنهم من هو مبغض شانىء لعلى عليه السلام ، فالذى تم من صرف الأمر عنه ، هو قرة عينه ، وبرد فؤاده ، ومنهم ذو الدين وصحة اليقين ، إلا أنه لما رأى كبراء الصحابة قد اتفقوا على صرف الأمر عنه — أى عن على — ظن أنهم إنما فعلوا ذلك لنص سمعوه من رسول الله ﷺ وآله ، ينسخ - أى هذا النص - ما قد كان سمعه من النص على أمير المؤمنين عليه السلام ، لا سيما ما رواه أبو بكر من قول النبى ﷺ وآله : « الأئمة من قريش » - فإن كثيراً من الناس توهموا أنه ناسخ للأصل الخاص ، وأن معنى الخبر أنكم مباحون فى نصب إمام من قريش ، من أى بطن كان ، فإنه يكون إماماً . . وأكد أيضاً رفض النص الخاص ما سمعوه من قول النبى ﷺ وآله : « ما رآه المؤمنون حسناً ، فهو عند الله حسن » وقوله ﷺ : « سألت الله ألا يجمع أمتى على ضلال ، فأعطانيها » فأحسنوا الظن بعاقدى البيعة ...

---

(١) أى كانت بيعة أبى بكر فلتة ، أى نادرة وقعت على غير توقع لوقوعها .

ثم يبين النقيب موقف عمر فى هذا الأمر ، فيقول :

« ومما جرأ عمر على بيعة أبى بكر ، والعدول عن على – مع ما كان يسمعه من الرسول ﷺ فى أمره – أنه – أى عمر – أنكر مراراً على الرسول – ﷺ – أموراً اعتمدها ، فلم ينكر عليه الرسول إنكاره ، بل رجع فى كثير منها إليه ، وأشار عليه بأمور كثيرة نزل فيها القرآن بموافقته ، فأطمعه ذلك فى الإقدام على اعتماد كثير من الأمور التى كان يرى فيها المصلحة ، مما هى خلاف النص ...

« ولو لم يكن إلا إنكاره – أى عمر – قول رسول الله ﷺ وآله فى مرضه : « ائتونى بدواة وكتف أكتب لكم مالا تضلون بعدى !! » وقوله – أى عمر – ما قال ، وسكوت رسول الله ﷺ وآله عنه .. وأعجب الأشياء أنه – أى عمر – قال ذلك اليوم : « حسبنا كتاب الله » فافترق الحاضرون من المسلمين فى الدار ، فبعضهم يقول : القول ماقال رسول الله ، وبعضهم يقول القول ماقال عمر ، فقال رسول الله ﷺ ، وقد كثر اللغط ، وعلت الأصوات : « قوموا عنى ، فما ينبغى لنبى أن يكون عنده هذا التنازع » . فهل بقى للنبوة مزية أو فضل ، إذا كان هذا الاختلاف قد وقع بين القولين ، رجح المسلمون بينهما ، فرجح قوم هذا ، وقوم هذا ؟ أفليس ذلك دالا على أن القوم سووا بينه – أى الرسول الكريم – وبين عمر ، وجعلوا القولين مسألة خلاف ، ذهب كل فريق إلى نصرة واحد منهما ، كما يختلف اثنان من عرض المسلمين فى بعض الأحكام ، فينصر قوم هذا ، وينصر آخرون ذاك ؟ فمن بلغت قوته وهمته هذا – يقصد عمر – كيف ينكر منه أنه يبايع أبا بكر لمصلحة رآها ، ويعدل عن النص ؟ ...

وينهي النقيب حديثه بقوله :

« على أن الرجل – أي عمر – ما أهمل أمر نفسه ، بل أعد أعذاراً وأجوبة .. وذلك لأنه قال لقوم عرضوا له بحديث النص – أي النص على خلافة علي – فقال : إن رسول الله ﷺ رجع عن ذلك بإقامته أبا بكر في الصلاة مقامه ، وأوهمهم أن ذلك جار مجرى النص عليه – أي مع أبي بكر – بالخلافة ، وقال – أي عمر – يوم السقيفة : « أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله ﷺ في الصلاة ؟ ثم قال لأبي بكر ، وقد عرض عليه البيعة : أنت صاحب رسول الله ﷺ في المواطن كلها ، شدتها ورخائها ، رضيك لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا ؟ » .

« ثم عاب – أي عمر – علياً بخطبته بنت أبي جهل ، فأوهم أن رسول الله ﷺ وآله ، كرهه لذلك ، ووجد عليه ، وأرضاه – أي أرضى عمر بن عمرو بن العاص فروى له حديثاً افتعله واختلقه على رسول الله ، قال عمرو سمعته يقول : « إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين » فجعلوا ذلك كالناسخ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كنت مولاه فعلي مولاه » . !!

* * *

ويعلق ابن أبي الحديد ، على هذا الذي رواه عن النقيب أبي جعفر ، بقوله :

« وقد ذكرت في هذا الفصل خلاصة ما حفظته عن النقيب أبي جعفر ، ولم يكن إمامي المذهب[1] ولا كان يبرأ من السلف ، ولا يرتضي قول

(١) أي من إمامية الشيعة الذين يقولون بإمامة علي ، وذريته من بعده ، ولا يتولون أبا بكر وعمر . –

المسرفين من الشيعة ، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بينى وبينه . على أن العلوى لو كان كرامياً [1] لا بد أن يكون عنده نوع من ميل وتعصب على الصحابة وإن قل » .

* * *

وقد حرصنا على نقل هذا الرأى لواحد من أئمة الشيعة المعتدلين ، الذين لا يبرءون من الصحابة ، ولا يقولون ببطلان خلافة أبى بكر وعمر .. وذلك لنرى أن عمر — رضى الله عنه — هو عند الشيعة عموماً ، صاحب الموقف الأول فى إقامة أبى بكر — رضى الله عنه — خليفة لرسول الله ﷺ ، وأنه بهذا هو الذى قطع الطريق على علىّ — كرم الله وجهه — وحجب الخلافة عنه بعد وفاة الرسول — ﷺ — وأهدر النص الذى جعل فيه الرسول الكريم الخلافة لعلى من بعده !

تلك أهم التهم التى يتهم بها الشيعة عمر — رضى الله عنه — وأنه عمد إلى نص من نصوص السنة النبوية ، فأبطله .

ونقول فى إيجاز : إنه لو كان رسول الله — ﷺ ، أراد أن يقضى فى أمر الخلافة من بعده لأعلن ذلك صراحة ، قولا وعملا ، ولما ترك هذا الأمر خافياً على أحد من المسلمين ، خاصتهم وعامتهم ، حتى لا يدع مجالا لخلاف بين المسلمين فى أمر يتعلق به ضبط مسيرة الحياة بهم ، بعد أن يخلى الرسول الكريم مكانه من بينهم.. هذا من جهة .. ومن جهة أخرى ، فإن الحكمة كانت تقضى بألا ينص الرسول الكريم على الخليفة من بعده فيجتمع عليه المسلمون جميعاً ، وإلا لكان ذلك قاضياً بأن ينص الرسول ﷺ على

---

(١) الكرامية طائفة من طوائف الشيعة ، ومنهم النقيب أبى جعفر :

خلفاء المسلمين واحداً ، واحداً إلى ماشاء الله .. وهذا أمر غير ممكن لاتحتمله الحياة . فالنص على الخليفة التى يخلف الرسول لامفعولية له بعد موت هذا الخليفة .. وإذن يعود الأمر إلى الإطلاق ، إذ لا نص على الخليفة من بعد هذا الخليفة .. فكان الإطلاق من أول الأمر ، هو عين الحكمة ، وهو مافعله الرسول الكريم ، فترك الأمر المسلمين يتولونه بأنفسهم ، كلما ذهب حاكم اختاروا حاكما .. «سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ».

* * *

الفصل الثانى

مخالفة كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومما يأخذه الشيعة على عمر - رضى الله عنه - أنه أحدث كثيراً من الأمور المتصلة بالدين ، مخالفاً فى هذا سنة رسول الله ﷺ . صادراً فى هذا عن رأيه ، دون وقوف عند ماقرره الشارع الحكيم من قول الرسول الكريم أو فعله ، أو تقريره .

(أولا) إبطال زواج المتعة ، ومتعة الحج :

ويقول الشيعة فى هذا : إنه كان هناك متعتان ، فى عهد رسول الله ﷺ ، هما متعة النكاح ، بمعنى أن يتزوج المسلم بالمرأة زواجاً موقوتاً ، أى محدد الأجل ، ولو ليوم أو بعض يوم ، ثم يخلى سبيلها ..

أما المتعة بالحج : فهى التحلل من الإحرام ، بعد الطواف والسعى ، حتى قبيل يوم عرفة .. وقد كان ذلك مما فعله النبى ﷺ فى حجة مع أصحابه ، رضوان الله عليهم ..

ويقول الشيعة ، إن عمر أبطل هاتين المتعتين ، ويروون عنه قوله : «متعتان كانتا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا أنهى عنهما ، وأعاقب عليهما » .

ويقولون : إن عمر فى هذا القول أضاف النهى إلى نفسه ، ولو كان الرسول - ﷺ - نهى عنهما لأضاف النهى إليه ، فكان آكد وأولى ،

وذلك بأن كان يقول : فهى عنهما رسول الله أو نسخهما ، وأنا من بعده أنهى عنهما ، وأعاقب عليهما ..

هذا من حيث دلالة الصورة اللفظية لقول عمر : « وأنا أنهى عنهما ، وأعاقب عليهما » حيث أضاف النهى إليه ، كما أضاف العقاب إليه أيضاً ..

وقد رد « ابن أبى الحديد » فى شرح نهج البلاغة على هذه الشبهة من ظاهر كلام عمر ـ رضى الله عنه ـ بقوله :

« لا شبهة أن الظاهر من كلام عمر إضافة النهى إلى نفسه ، لكننا يجب علينا أن نترك ظاهر اللفظ ، إذا علمنا من قائله ما يوجب صرف اللفظ عن الظاهر ، كما يعتمده كل أحد فى القرائن المقترنة بالألفاظ .. والمعلوم من حال عمر أنه لم يكن يدعى أنه ناسخ لشريعة رسول الله ـ ﷺ ـ . وأنه كان متديناً بالإسلام ، وتابعا للرسول الذى جاء به ، فوجب أن يعتمد كلامه على أنه أراد أن المتعتين كانتا ، ثم حرمتا ـ أى فى عهد رسول الله ﷺ ـ ثم هو يعاقب الآن من فعلهما »..

أما قاضى القضاة « ابن عبد الجبار » فيقول فى كتابه « الشافى » :

« إنه ـ أى عمر ـ إنما عنى بقوله : «وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما» كراهته لذلك ، وتشدده فيه ، من حيث نهى رسول الله ﷺ عنهما ، بعد أن كانتا فى أيامه ، منبهاً ـ أى عمر ـ بذلك على حصول النسخ فيهما وتغير الحكم ، لأنا نعلم أن عمر كان متبعاً للرسول ، متديناً بالإسلام ، فلا يجوز أن نحمل قوله على خلاف ما تواتر من حاله .. وقد حكى عن أبى على : أن ذلك القول من عمر بمنزلة أن يقول : « إنى أعاقب من صلى إلى بيت المقدس — وذلك بعد أن نسخت الصلاة إليه ، وتوجه المسلمون إلى البيت

الحرام — وإن كان قد صلى إلى بيت المقدس ، فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم » .

هذا من حيث الصورة اللفظية لكلمة عمر ـ رضى الله عنه ـ من حيث ما يفهم من ظاهرها ، أنه هو الذى ينهى عن المتعتين ، ويعاقب عليهما ، منشئاً بذلك حكما جديداً فى الشريعة من عنده . . وقد ظهر أن حمل هذا اللفظ على ظاهره ممتنع ، لا يكون من مسلم يدين بالإسلام ، فضلا عن خليفة من خلفاء المسلمين . وفضلا عن عمر بالذات ، الذى كان يمثل فى حياته منذ أسلم ، الصورة الكاملة للإسلام ، بعد رسول الله ـ ﷺ ، وبعد خليفة رسول الله أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ .

أما من حيث الحل والحرمة فى المتعتين ، فيقال : إن هذا الأمر من عمر ـ رضى الله عنه ـ كان على مشهد من صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ وقد أقره عليه المسلمون جميعاً ، لم ينكره عليه أحد ، ولم يراجعه فيه أحد ، وما كان لأحد من صحابة رسول الله ، يرى فى هذا خلافاً لسنة رسول الله ﷺ ثم يسكت فى هذا الموقف وإلا كان آثماً ، وقد روجع عمر فى كثير من المواقف والأحوال ، فيذكر إذا كان قد نسى ، وينبه إذا كان قد أخطأ فيأخذ بما ذكر به ، ويفيء إلى ما نبه إليه ، حتى إنه ليقول للمرأة التى راجعته ، وهو ينهى عن المغالاة فى المهور فتقول له يا عمر : وأين تذهب عن قوله تعالى : «وآتيتم إحداهن قنطاراً ، فلاتأخذوا منه شيئاً» ـ فما أن تتلو المرأة هذه الآية ، حتى يمسك عمر عن قوله هذا ، ويقول : «كل الناس أعلم منك يا عمر » . . !!

ومن جهة أخرى ، فإن هذا الأمر ـ أمر المتعتين ، لا شأن لشخص عمر فيه ، ولا مصلحة لذاته منه . . وإنما هو ناصح المؤمنين ، يأخذهم بما

شرع الله تعالى لهم ، فكيف يعدل عن أمر أباحه الرسول ﷺ ، دون أن يكون ذلك الأمر مستمداً من سنة رسول الله ؟

ونعم إن زواج المتعة ، كان مباحاً فى فترة من حياة رسول الله ﷺ، وذلك فى إحدى الغزوات التى غزاها الرسول الكريم بأصحابه وقد بعدوا عن أزواجهم وطال مقامهم فى تلك الغزوة ، فكان من الحكمة أن يبيح الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بأمر من ربه هذا الزواج ، حتى لا يفتن المسلمون ، وحتى لا يكون منهم ما يكون من الجيوش الغازية من هتك الأعراض والاعتداء على الحرمات . .

فزواج المتعة فى تلك الحال ، على ما فيه من خروج عن الزواج الشرعى الذى أول شروطه ألا يوقت بزمن ، طال أو قصر ـ هذا الزواج ـ على هذا الذى به ـ هو مما ينزل على حكم الضرورة .. فهو وإن كان فيه ضرر ، هو أخف ـ فى تلك الحال ـ من الضرر المترتب على منعه .. فالضرر القليل ، إذا دفع به ضرر أكبر منه ، كان مباحاً مثل ، أكل الميتة ، وشرب الخمر ، مثلا ، عند تعرض الإنسان للموت جوعاً ، أو ظمأ ، وليس بين يديه إلا الميتة ، أو لحم الخنزير ، أو الخمر .. فإذا كان ذلك ، جاز مقاربة هذه المحرمات ، بالقدر الذى يحفظ على المسلم حياته .. فإذا زالت حال الضرورة والاضطرار ، رجع الأمر فى هذه المحرمات إلى الحرمة التى كانت عليها ..

هذا ، وقد كان ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ممن يقولون بالعمل بالمتعة ، فى حال الاضطرار ، وغير الاضطرار ، حتى إذا سمع فى هذا شعراً جرى على ألسنة الناس يقول :

قد قلت للشيخ لما طال مجلسه

يا صاح هل لك فى فتوى ابن عباس

في رخصة الأعطاف مائسة
تكون مثواك حتى آخر الناس

فلما سمع ابن عباس هذا الشعر ، رجع عن فتواه هـــذه ، وقال بحرمة المتعة .

يقول قاضي القضاة : « ابن عبد الجبار » : « واعتمد — أي عمر — في تصويبه ، في تحريم زواج المتعة ، على كف الصحابة عن التنكير عليه ، وأن علياً — رضي الله عنه — أنكر على ابن عباس ، إحلال المتعة ، وروى عن النبي ﷺ تحريمها ..

« وأما متعة الحج ، فإنما أراد عمر بمنعها ، ما كانوا يفعلونه من فسخ الحج — أي قطعه بالمتعة — لأنه كان يحصل لهم عنده التمتع — أي التحلل من كل ما يوجبه الإحرام — ولم يرد عمر بذلك ، التمتع الذي يجري مجرى تقدم العمرة ، وإضافة الحج إليها بعد ذلك ، لأنه جائز لم يقع فيه قبح » .

ثم يقول قاضي القضاة : « إن الحج بهاء من بهاء الله ، وإن التمتع — بغير العمرة — يكسفه ، ويذهب نوره ورونقه ، وأنهم — أي الحجاج — يظلون معرسين تحت الأراك[1] ثم يهلون بالحج ورءوسهم تقطر »[2] .

هذا ، ويتمسك الشيعة بحل زواج المتعة إلى اليوم ..

يقول الشريف المرتضى في الرد على قاضي القضاة من أن علياً — كرم الله وجهه — أنكر على ابن عباس قوله بإحلال المتعة . .

يقول الشريف المرتضى في الرد على هذا : « فالأمر بخلافه وعكسه ، فقد روى عنه — أي عن علي عليه السلام — من طرق كثيرة ، أنه كان يفتي بها ، وينكر على محرمها والناهي عنها ، وروى عمر بن سعد الهمداني . عن حبيش

---

(١) أي يظلون قائمين تحت الأراك ، أي شجر الأراك

(٢) أي تقطر ماء من الغسل بعد الجنابة .

ابن المعتمر ، قال : سمعت علياً — عليه السلام ، يقول « لولا ما سبق من ابن الخطاب — في المتعة .مازني إلا شقي » . وروى أبو بصير قال : سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر — عليه السلام ، يروي عن جده أمير المؤمنين عليه السلام : « لولا ماسبق من ابن الخطاب — أي في تحريمه المتعة ، مازني إلا شقي » وقد أفتى بالمتعة جماعة من الصحابة والتابعين ، كابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وجابر بن عبد الله الأنصاري ، وسلمة بن الأكوع ، وأبي سعيد الخدري ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد .. » .

ونقول : إذا كان علي — رضي الله عنه — يرى حل المتعة ، فكيف يقبل على دينه ألا يعترض على عمر — رضي الله عنه — وهو ينادي بحرمتها ؟ أكان علي — رضي الله عنه — مما يخاف أن يجهر بكلمة الحق في أي وجه من وجوه الناس ، ولو كان عمر — رضي الله عنه ؟ .

وإذا كان علي — رضي الله عنه — يخشى أن يجهر بكلمة الحق — في وجه عمر — رضي الله عنه — وحاشاه — فكيف يقبل — وهو خليفة على المسلمين — أن يظل على الرأي رآه عمر ، في أمر المتعة أو المتعتين ، وهو يعلم أنهما من سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولا يغير ما يراه منكراً ، ولا يعلن هذا على الملأ من المسلمين حين ولي الخلافة ؟

إن هذا الذي تحتج به الشيعة — على حل المتعة — وأن علياً — رضي الله عنه — كان يرى حلها لولا أن عمر — رضي الله عنه — أنكر أن تكون حلالا — إن هذا هو حجة عليهم في أحقية علي للخلافة ، وأنه الوصي على المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، بل هو حجة عليهم في أن يكون علي — رضي الله عنه — أهلا للخلافة أصلا !

وأما ما يدعونه على علي — رضي الله عنه — من قوله : « لولا ماسبق

من ابن الخطاب فى المتعة ما زنى الأشقى » فإنه يحمل فى معناه الدليل على بطلانه . . فإن المتعة فى ذاتها لا تحجز من لا يحجزه دينه وتقواه عن الزنا . . وذلك أنها على أحسن ما يفترض فيها أن تكون زواجاً شرعياً ! ! وهل عصم الزواج الشرعى من لا يعصمه دينه عن أن يزنى ؟

أما أن تكون المتعة ــ فى غير اضطرار ، كذلك الاضطرار الذى أباح فيه النبى ــ ﷺ المتعة فى الحال التى أباحها فيه ــ فإنها لا تعدو أن تكون من الزنا ، وأنها تلبس ثوباً من الشرعية الزائف ، وعلى هــــذا فلا يعد مرتكبها زانياً . . وإذن فليس ثمة من يزنى ، وهو متستر بهذا الستر الزائف ! .

* * *

وإذن ، فقد كان موقف عمر ــ رضى الله تعالى عنه ــ من زواج المتعة ، ومن التمتع فى الحج بغير العمرة ــ هو الموقف الذى تقتضيه سنة رسول الله ﷺ ، وقد أقره على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، وأما ما يقال من أن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا يرون ما يراه ابن عباس من حل زواج المتعة ، فإنه لا يعدو أن يكون رأياً رأوه ، كما رأى ابن عباس ، ثم عدلوا عنه ، كما عدل عنه ابن عباس .

* * *

هــذا ، ويتمسك الشيعة فى حل زواج المتعة ، وجعله زواجاً شرعياً بالآية الكريمة : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة »[1]

---

(١) سورة النساء : ٢٤ .

ولا حجة للشيعة فى هذا ، فالآية الكريمة واردة فى سياق ، ما حرم على المسلمين الزواج منهن ، وما أحل لهم مما وراء ذلك .. والمراد بالأجور هنا المهور ، فى زواج صحيح ، لا يحده أجل ، زواج يكون منه السكن والولد ، كما يقول سبحانه : « ومن آياته أنه خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » (١)

* * *

ولا شك أن زواج المتعة ، الموقوت بأجل ، يعلم منه كل من الرجل والمرأة ، أنه زواج متعة جسدية طارئة ، لا يمكن أن يكون منه سكن ، ولا تتخلق منه مشاعر الرحمة والمودة بين كل منهما .

يقول الله تعالى : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون »(١) .

فأين البنون الذين يكونون من زواج المتعة ؟ بل أين الحفدة ؟ إن ذلك لايكون إلا من زواج صحيح ، غير موقوت بوقت حتى يثمر البنين والحفدة ، الذين هم زينة الحياة الدنيا ..

فرحم الله عمر بن الخطاب ، وأحسن جزاءه ، إذ قطع رأس هــذه الفتنة التى توقع المرء فى الزنا ، وهو يرى أنه يأتى أمراً مشروعاً .. إن

(١) سورة الروم : ٢١ .

(٢) سورة النحل : ٧٢ .

الذى يزنى ، وهو يعلم أنه يأتى أمراً منكراً . يلقى عليه جزاءه من عذاب الله ومقته ، لهو على طريق الندم ، والتوبة ، حتى يتخلص من هذا البلاء ..
أما الذى يقضى أربه بهذا الزواج الصورى ، فإنه يزنى ، وقد خلا قلبه من كل أثر للمعصية ، فيموت مصراً عليها ..

* * *

الفصل الثالث

جعله الثلاث فى الطلاق طلاقاً بائناً

يقول الله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان »[1] . ومعنى هذا أن الطلاق يتم على مرحلتين ، لا مرحلة واحدة .. فالمرة الواحدة مرحلة من مرحلتى الطلاق ، ثم تكون المرحلة الثالثة وهى التى أشار إليها سبحانه بقوله : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

وقد كان الطلاق فى الجاهلية ، يجرى بلا حدود ، فكان الرجل يطلق ثم يراجع ، والمرأة فى العدة ، ثم يطلق ويراجع ثم يطلق ويراجع ، وهكذا إلى ما لا نهاية .. يقول ابن جرير فى تفسيره : « إن هذه الآية أنزلت ، لأن أهل الجاهلية ، وأهل الإسلام ــ قبل نزول هذه الآية ــ لم يكن لطلاقهم نهاية تبين بالانتهاء إليها امرأته منه ، فجعل الله تعالى ذكره لذلك حداً ، حرم بانتهاء الطلاق إليه على الرجل مراجعة امرأته المطلقة إلا بعد زواج وجعلها حينئذ أملك بنفسها منه » .

وروى عن قتادة أنه قال : كان أهل الجاهلية ، كان الرجل يطلق الثلاث والعشر ، وأكثر من ذلك ، ثم يراجع ما كانت فى العدة ، فجعل الله حد الطلاق ثلاث تطليقات .

فلما كان عهد عمر ــ رضى الله عنه ــ ورأى كثرة تواارد الناس على الطلاق ، والتعجيل بالخلاص من زوجاتهن ، بأن جرت على ألسنتهم كلمة

(١) سورة البقرة ٢٢٨

« الطلاق ثلاثاً » على غير ما كان ينطق به من قبل نزول الآية ، وهى قولهم: « أنت طالق » ..

رأى عمر ـ رضى الله عنه ـ حينئذ أن يأخذهم بما نطقت به ألسنتهم ، فجعل التلفظ بالثلاث طلاقاً بائناً ، لا رجعة فيه . . فقد جاء فى صحيح مسلم عن ابن عباس أنه قال : « كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ ، وأبى بكر ، وسنتين من خلافة عمر ، طلاق الثلاث واحدة ، فقال عمر بن الخطاب : « إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ؟ ! فأمضاه عليهم » .

وفى قول ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ « كان الطلاق فى عهد رسول الله ﷺ ، وأبى بكر ، وسنتين من خلافة عمر ، طلاق الثلاث واحدة » . لا يعنى بحال أن طلاق الثلاث ، كان معروفاً فى الجاهلية ، ولا فى الإسلام قبل نزول قوله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » إذ لم يكن معنى لتقييد الطلاق بالثلاث ، إذ لم يكن للطلاق حد من العدد يقف عنده .. فالتلفظ بالثلاث ، إنما جاء بعد نزول الآية الكريمة لإنهاء عملية الطلاق بالتلفظ بالثلاث .. ولكن الآية ظلت بمفهومها ، وهى أن يكون الطلاق على مرتين ، مهما كان العدد الذى يتلفظ به المطلق ، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى من ذلك ، وهى أن يكون للزوجين فرصة يراجع كل فيها نفسه ، ويذكر فيها ما بعد الطلاق من فراق لا لقاء بعده ، وما قد يعقب هذا الفراق من ندم على هدم الحياة الزوجية ، وما يلحق الأبناء منها ..

ولكن فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وبعد سنتين من

خلافته ، كانت فتوحات الشام والعراق قد تمت ، ووقع ليد كثير من المسلمين أعداد غير قليلة من الإماء ، من بنات فارس والروم ، فرغب كثير من المسلمين التخلص من زوجاتهم العربيات، ليتزوجوا ببنات فارس والروم، فيطلق أحدهم زوجته ثلاثاً بلفظ واحد ، وربما وقع فى نفسه أن هذا الطلاق ينهى العلاقة الزوجية فى الحال ..

وقد رأى عمر – رضى الله عنه – أن يأخذ المتلفظين بالطلاق ثلاثاً بما طلقوا به ، وذلك لأمرين :

أولهما : أن يكون ذلك عقاباً لهم من جنس عملهم ، كما يشير إلى ذلك قوله : « إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم !! فأمضاه عليهم ، وبذلك لاتخدع من طلقها ، ولا من تزوجها . .

ثانيهما : أن يمسك الذين يطلقون زوجاتهم مرة واحدة بالثلاث عن التلفظ بهذا اللفظ الخادع ، وبذلك يطلقون – إن أرادوا – بلفظ واحد ، حتى يكون هناك سبيل إلى المراجعة ، وبهذا لا يافتت المسلمون كثيراً إلى الفارسيات والروميات . فقد كان عمر – رضى الله عنه – يخشى على نساء العرب من هذا الغزو الوافد عليهن من بنات الفرس والروم .

وهذا عمر – رضى الله عنه – يبلغه أن واليه على المدائن من بلاد فارس وهو حذيفة بن اليمان – رضى الله عنه – أنه تزوج امرأة من نساء أهل الكتاب ، فكتب إليه عمر كتاباً يقول له فيه :

« بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن ، من أهل الكتاب ، فطلقها » !

فكان رد حذيفة على أمير المؤمنين عمر :

« لا أفعل ، حتى تخبرنى : أحلال ذلك أم حرام ، وماذا أردت بذلك » ؟

فكتب إليه عمر : « لا بل حلال ، ولكن فى نساء الأعاجم خلابة[1] ، فإذا أقبلتم عليهن ، غلبنكم على نسائكم » .

فلما جاء كتاب عمر إلى حذيفة ، طلق زوجته هذه .

فهذا الزواج من الكتابية حلال ، لا شبهة فيه بنص القرآن الكريم : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات . والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين ، غير مسافحين ولا متخذى أخدان » .[2]

فعمر - رضى الله عنه - واقف عند حدود الكتاب والسنة ، لا يحل إلا ما أحل الله ورسوله ، ولا يحرم إلا ما حرم الله ورسوله ، وقد جعل الله تعالى زواج المسلمين من الكتابية حلالا ، وأدخل هذا الحلال فى الطيبات .

ولكن الطيبات درجات .. فهناك الطيب ، وهناك ما هو أطيب منه ، ولا شك أن المرأة المسلمة ، أطيب من الكتابية ، ولهذا لم يبح الله تعالى زواج الكتابى من المسلمة ..

ولهذا ، فإن عمر - رضى الله عنه - قال لحذيفة رضى الله عنه : « بل حلال ، ولكن فى نساء الأعاجم خلابة ، فإذا أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » .. ومعنى هذا أن يترك كثير من نساء العرب بلا زواج ، حيث يرغب عنهن الرجال فيتزوجن بالأعجميات من أهل الكتاب ، وفى هذا فتنة لهن !

---

(١) أى إغراء بحسنهن وجمالهن .

(٢) سورة المائدة : ٥ .

إن عمر إنما يعالج فى هذا الموقف أمراً عارضاً ، فيتلقاه ، بما فيه المصلحة للمسلمين ، وإذا زالت تلك الحال العارضة رجع الأمر إلى ما كان عليه . .

ولهذا رجع المسلمون - فى مصر ، وفى كثير من أمصار المسلمين - إلى ما كان جارياً فى عهد النبى ﷺ ، وعهد أبى بكر ، والسنتين الأوليين من خلافة عمر ، باعتبار التلفظ بالطلاق بأكثر من عدد ، طلقة واحدة . .

وطبيعى أن الشيعة ، لم يأخذوا بما رأى عمر فى تلك الحال العارضة ، بل عدوا هذا من افتيات عمر على الشريعة . .

وقد بان لك ما كان من رأى عمر فى هذه الحال العارضة ، وكيف سد بها كثيراً من المفاسد التى كان يتعرض لها نساء المسلمين من بنات العرب . .

* * *

الفصل الرابع

مجاوزته حدود الله

ومما تشنع به الشيعة على عمر – رضى الله عنه – أنه كان يتهجم على شرع الله تعالى بدون علم ، متبعاً فى ذلك رأيه ، وما يمليه عليه هواه .

ويضربون لهذا أمثالا ..

منها ، ما كان منه – رضى الله عنه – من منع المغالاة فى مهور النساء ، وقد أعلن ذلك على الملأ فى خطبة له بمسجد رسول الله ﷺ ، حتى قامت امرأة ونبهته بقوله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطاراً »[1] حتى قال : « كل الناس أفقه من عمر » !

وقد أجاب قاضى القضاة « ابن عبد الجبار » على ذلك بقوله :

« علمنا بتقدم عمر فى العلم ، وفضله فيه ضرورى ، فلا يجوز أن يقدح فيه بأخبار أحاديث غير مشهورة ، وإنما أراد فى المشهور[2] أن المستحب الاقتداء برسول الله ﷺ ، بما كان منه ﷺ فى صداق « فاطمة » رضى الله عنها ، وأن المغالاة فى المهور ليس بمكرمة .. ثم عند التنبيه ، علم – أى عمر – أنه – أى المهر الكثير – مبنى على طيب النفس .. فقال ما قاله ، وهو كل الناس أفقه من عمر ، على جهة التواضع ، لأن من أظهر الاستفادة من غيره ، وإن قل علمه ، فقد تعاطى الخضوع ، ونبه على أن طريقته أخذ الفائدة أينما

(١) سورة النساء ٢٠

(٢) أى من الأحاديث المشهورة .

وجدها ، وصير نفسه فى ذلك أسوة وقدوة ، وذلك حسن من الفضلاء ..

وقد اعترض الشريف المرتضى على هذا التعليل من قاضى القضاة بقوله :

«أما معويلك على العلم الضرورى بكونه - أى عمر - من أهل الاجتهاد والعلم ، فذلك إذا صح لم ينفعك ، لأنه قد يذهب على من هو بهذه الصفة كثير من الأحكام حتى ينبه عليها ويجتهد فيها ، وليس العلم الضرورى ثابتاً بأنه عالم بجميع أحكام الدين[1] فيكون قاضياً على هذه الأخبار (أى مبطلا لهذه الأخبار التى رويت عن عمر - رضى الله عنه - فيما نسبته الشيعة له من أخطاء فى الاجتهاد) ..

ثم يمضى الشريف المرتضى . فيقول :

« فأما تأويله الحديث [2] - أى قاضى القضاة - وحمله على الاستحباب ، فهو دفع للعيان ، لأن المروى أنه - أى عمر - منع من ذلك وحظره ، حتى قالت المرأة ما قالت ، ولو كان غير حاظر للمغالاة - فى المهور - لما كان فى الآية حجة ، ولا كان لكلام المرأة موقع ، ولا كان يعترف لها بأنها أفقه منه ، بل كان الواجب أن يرد عليها ويوبخها ، ويعرفها أنه ما حظر لذلك ، وإنما تكون الآية حجة عليه لو كان حاظراً مانعاً . . فأما التواضع فلا

---

(١) يرى الشيعة أن الإمام القائم بالأمر ، يجب أن يكون عالماً بجميع أحكام الدين ، معصوماً من الخطأ ، لأنه يتلقى علمه من الله تعالى ، بوحى أو إلهام ، ومن هنا فلا يقع فى خطأ أبداً ، ولهذا فإنهم يرون فى أئمتهم العصمة .. والعصمة فى شرعنا لا تكون إلا للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فيما يتصل بشريعة الله ، لانه فى هذا المقام لاينطق عن الهوى .. وعمر ليس معصوما من الخطأ ، شأنه شأن البشر جميعاً — عدا رسل الله المؤيدين بالوحى — فلا حرج من أن يخطىء عمر فى اجتهاده ، ثم يتعدل إذا استبان له وجه الخطأ !!

(٢) أى هذا الخبر المروى عن عمر والمرأة .

يقتضى إظهار القبيح ، وتصويب الخطأ ، ولو كان ماتوهمه صاحب الكتاب - ابن عبد الجبار - لكان هو المصيب ، والمرأة مخطئة ، فكيف يوهم أنه المخطىء ، وهى المصيبة » ؟

ونقول : إن هذا من المرتضى ، تعنت فى هذا التخريج لهذا الخبر .. فإن الموقف ليس موقف مجادلة ومناظرة بين عمر - رضى الله عنه - وبين المرأة . . فعمر - رضى الله عنه - ينظر إلى المسألة من جانب ، وهو عدم المغالاة فى المهور ، اقتداء بالرسول ﷺ وبزواجه ابنته فاطمة - رضى الله عنها - من على - رضى الله عنه - الذى كان مهره لا يجاوز دريهمات معدودات .. والمرأة إنما نظرت إلى الآية الكريمة ، من حيث ظاهرها .. فالله تعالى يقول: «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً ، فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه ، وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظا » .

فذكر القنطار هنا ليس المراد منه حقيقة القنطار ، وإنما المراد منه التأكيد على عدم أخذ أى شىء مما أعطيت المرأة من مهر ، ولو كان ما أعطيته المرأة قنطاراً من ذهب .. فإذا امتنع أخذ شىء من هذا الكثير ، كان الأولى عدم أخذ أى شىء من القليل !!

ثم أين هو الذى كان يعطى القنطار من الذهب أو الفضة مهراً ، فى زمن عمر من المسلمين ؟ إن الآية الكريمة إنما تشير - كما قلنا - إلى التحذير من أخذ شىء من المهر المفروض للمرأة ، وخاصة فى حال استبدال امرأة بامرأة أخرى فى الزواج ، بأن يتزوج أحد الرجلين بأخت الرجل الآخر ، فيزوجه هذا أخته فى مقابلها بدون مهر .. فجاءت الآية لتقرر حق كل من المرأتين فى المهر ، إذ هو حق خالص لها ، ولا يصح أن يأخذ الزوج شيئاً

منه إلا برضاها ، كما يشير إلى قوله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه ، فكلوه هنيئاً مر »[١] .

ونسأل بعد هذا : أيكون عمر — رضى الله عنه — لم يقرأ هذه الآية الكريمة : « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » ؟ هذا محال !! وإذا كان قد قرأها — وهو المقطوع به — أفلم يدرك معناها وهو بين ظاهر لا خفاء فيه ، على النحو الذى فهمتها عليه المرأة التى راجعت عمر !

وإذن فإن الذى ذهب إليه عمر فى عدم المغالاة فى المهور ، لم يكن خروجاً على معنى الآية ، إذ لم يحدد — رضى الله عنه — قدراً معيناً للمهر ، وإنما كل الذى كان منه هو ألا يشتط أولياء الأمور فى المهور ، حتى ليعجز كثير من الشباب عن الزواج ، الأمر الذى يعطل قول رسول الله — ﷺ : « تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » . . وخاصة ، فإن كثرة النسل العربى ، كانت مطلوبة فى زمن عمر — رضى الله عنه — لأكثر من وجه :

فأولا : أن العرب قد خاضوا معارك كثيرة ، استشهد فيها كثير منهم ، فكان لابد من تعويض هذا بالزواج ، والإكثار من النسل ، حتى يظل العرب — وهم وجه الدولة الإسلامية — هم العنصر الغالب فى جيوش المسلمين . .

وثانياً : فتح العرب كثيراً من الأمصار ، فاستولوا على مملكتى فارس والروم ، كما استولوا على مصر ، وفى هذه الأمصار أعداد كثيرة من الفرس والروم ، تتجاوز أعداد العرب الفاتحين بأضعاف المرات . . فكان لابد

---

(١) سورة النساء : ٤ .

من أن يكثر سواد العرب فى هذه البلاد بالزواج والتناسل ، حتى يتوازن عدد العرب من الأعاجم ، فالعرب هم مادة الإسلام . ولسان شريعته !

فالذى ذهب إليه عمر – رضى الله عنه – من عدم المغالاة فى المهور ، هو عدم تعجيز الراغبين فى الزواج . ومطالبتهم بمهور لا يقدرون عليها . . فإذا كان الزوج ذا مال كثير وثراء عريض ، فله أن يقدم من المهر مايشاء ، ولو كان قنطاراً ، أو أكثر من قنطارا من المال . . والله تعالى يقول : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسراً »[1] .

ومع هذا ، فإن الإسلام يحض على القصد والاعتدال ، وينهى عن السرف حتى فى الطيبات ، بل وفى العبادات ، فيقول الله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما »[2] ويقول سبحانه : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[3] . . فالنهى عن الإسراف هنا ، واقع على الأكل من هذه الطيبات ، كما هو واقع على الزكاة المفروضة فى هذه الزروع ، حتى إذا أخرج المرء الزكاة المفروضة فيها ، كان عليه بعد هذا ، إذا تصدق ألا يسرف فى الصدقة ، بحيث لا يجور على حق من يعول من أهل وولد .

---

(١) سورة الطلاق : ٧ .
(٢) سورة الفرقان : ٦٧ .
(٣) سورة الأنعام : ١٤١ .

الفصل الخامس

تعطيل حدود الله

من أعجب ما يؤخذ على عمر ، أنه يعطل حداً من حدود الله ، فلا يقيم حد الزنا على أحد ولاته ! ! .

وهذه قولة مفضوحة تنادى بالخزى على من يتقولها على عمر ، الذى أقام الحد على ولده ، حتى مات تحت ضربات السوط بيد عمر نفسه ! والولد مريض يصرخ تحت ضرباته ، وينادى : ياأبى ارحمنى ، والصحابة يضجون: ارحمه ، فإنه مريض !

وإذا كان عمر يرى أنه إن رحم الناس جميعاً ، فإنه لا يرحم ابنه ، لما له من حق فى تأديبه ، بعد ما لله تعالى من حق فى إقامة الحد عليه ، وفى تأجيل إقامة الحد إلى أن يعافى من مرضه – فلم ينتظر عمر بإقامة الحد على ولده إلى أن يشفى ، إلا لغيرته الشديدة على حرمات الله . . وإنه إذا كان ذلك العدوان على حدود من ولده ، فإن الغيرة على حرمات الله تشتد ، وتتضاعف ، فلا يأخذه بما يأخذ به غيره ، ممن يقترفون مثل ما اقترف . . عمر وهذا شأنه فى ولده ، أيكون منه تفريط فى إقامة الحد على من وجب عليه الحد ؟ إنه لا يقول بهذا منصف أبداً ، ولا يقبله ذو عقل أبداً . .

والرجل الذى يقال إن عمر – رضى الله عنه وأرضاه – عطل إقامة حد الله عليه – هو المغيرة بن شعبة ، الذى كان والياً على البصرة ، لأمير

المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ . فاتهم هناك بأنه زنى بامرأة كان يتردد على بيتها ..

والروايات فى هذا كثيرة ..

فهذا محمد بن جرير الطبرى ، يروى الحادثة فى تاريخه ، فيقول :

«وفى هذه السنة ــ أى سنة سبع عشرة من الهجرة ــ ولى عمر أبا موسى (الأشعرى) البصرة ، وأمره أن يشخص إليه المغيرة بن شعبة ، وذلك لأمر بلغه عنه ! قال الطبرى : حدثنى محمد بن يعقوب بن عتبة قال : حدثنى أبى ، قال : كان المغيرة يخالف إلى أم جميل ، وهى امرأة من بنى هلال بن عامر ، وكان لها زوج من ثقيف هلك ، قبل ذلك ، يقال له الحجاج بن عبيد ، وكان المغيرة ــ وكان أمير البصرة ــ يختلف إليها سراً ، فبلغ ذلك أهل البصرة ، فأعظموه[1] .. فخرج المغيرة إلى المرأة يوماً ، فدخل عليها ، وقد وضعوا عليهما الرصد ، فانطلق القوم الذين شهدوا ــ بعد ذلك ــ عند عمر ، فكشفوا الستر ، فرأوه قد واقعها ، فكتبوا بذلك إلى عمر ، وأوفدوا بالكتاب أبا بكرة ، فانتهى أبو بكرة إلى المدينة ، وجاء إلى باب عمر ، فسمع عمر صوته ، وبينه وبينه حجاب فقال ، أبو بكرة ؟ فقال : نعم ، فقال عمر : لقد جئت لسر[2] ! قال : إنما جاء به المغيرة !! ثم قص عليه القصة ، وعرض عليه الكتاب ، فبعث عمر أبا موسى عاملا ، وأمره أن يبعث إليه المغيرة . . فلما دخل أبو موسى البصرة ، وقعد فى الإمارة ، أهدى إليه

---

(١) أى وجدوا هذا الأمر عظيما من الوالى المسلم .

(٢) حيث لم ينتظر حتى يلقى عمر خارج بيته فى المسجد ، وحتى جاء إلى بيته ، وهذا مما ينبىء عن شر قد جاء به .

المغيرة عقيلة [١] . وقال : إنى قد رضيتها لك ، فبعث أبو موسى بالمغيرة إلى عمر !

قال الطبرى : قال الواقدى : حدثنى عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر ابن عمرو بن حزم الأنصارى ، عن أبيه عن مالك بن أوس بن الحدثان ، قال : قدم المغيرة على عمر ، فتزوج فى طريقه امرأة من بنى مرة ، فقال له عمر : إنك لفارغ القلب !! ..

قال الطبرى : وكتب إلىّ السرى عن شعيب ، عن سيف : أن المغيرة يبغض أبا بكرة [٢] ، وكان أبو بكرة يبغضه ، ويناغى كل منهما صاحبه — أى يباريه ويفاخره — وينافره ، عند كل ما يكون منه ، وكانا متجاورين بالبصرة ، بينهما طريق ، وهما فى مشربتين متقابلتين . . فاجتمع إلى بكرة رجال يتحدثون فى مشربته ، فهبت ريح ففتحت باب الكوة ، فقام أبو بكرة ليصفقه — أى يرده — فبصر بالمغيرة ، وقد فتحت الريح الباب الذى فى مشربته ، وهو بين رجلى امرأة ، فقال : قوموا ، فانظروا فنظروا ، ثم قال : اشهدوا قالوا : ومن هذه؟ قال : أم جميل ، إحدى نساء بنى عامر بن صعصعة . فقالوا : إنما نرى أعجازا ، ولا نرى وجوهاً .. فلما قامت صمتوا .. وخرج المغيرة إلى الصلاة ، فحال أبو بكرة بينه وبين الصلاة وقال : لا تصل بنا . . وكتبوا إلى عمر بذلك ، وكتب المغيرة أيضاً ، فأرسل عمر إلى أبى موسى فقال : يا أبا موسى : إنى مستعملك وإنى باعثك إلى الأرض التى باض فيها الشيطان وفرخ .. فالزم ما تعرف ولا تستبدل فيستبدل الله بك ! فقال : يا أمير المؤمنين ،

---

(١) هى فتاة ذات شباب وجمال من الموالى ، وعقيلة اسمها ..

(٢) وأبو بكرة هذا ، هو الذى قاد الحملة باتهام المغيرة ، وأول الشاهدين عليه ، وهو الذى حمل كتاب الذين شهدوا على المغيرة ، إلى عمر ..

أعنى بعدة من أصحاب رسول الله ﷺ ، من المهاجرين والأنصار ، فإنى وجدتهم فى هذه الأمة وهذه الأعمال ، كالملح لا يصلح الطعام إلا به ! قال فاستعن بمن أحببت ، فاستعان بتسعة وعشرين رجلا ، منهم أنس بن مالك، وعمران بن حصين ، وهشام بن عامر . . وخرج أبو موسى بهم حتى أناخ بالبصرة فى المربد[1] . . وبلغ المغيرة أن أباموسى قد أناخ بالمربد . فقال: والله ما جاء أبو موسى زائراً ، ولا تاجراً ، ولكنه جاء أميراً . . فإنهم لفى ذلك إذ جاء أبوموسى حتى دخل عليهم . فدفع إلى المغيرة كتاباً من عمر ، وإنه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس: أربع كلم ، عزل فيها، وعاتب، واستحث ، وأمر !

«أما بعد، فإنه قد بلغنى نبأ عظيم ، فبعثت أباموسى ، فسلم مافى يدك إليه ، والعجل ! » .

وكتب عمر إلى أهل البصرة : « أما بعد ، فإنى بعثت أبا موسى أميراً عليكم ، ليأخذ لضعيفكم من قويكم ، وليقاتل بكم عدوكم ، وليدفع عن ذمتكم ، وليجبى لكم فيئكم ، وليقسم فيكم ، وليحمى لكم طرقكم ».

« فأهدى المغيرة إلى أبى موسى ، وليدة من مولدات الطائف تدعى عقيلة ، وقال : إنى رضيتها لك ، وكانت فارهة[2] . .

« وارتحل المغيرة ، وأبو بكرة ، ونافع بن كلدة ، وزياد ، وشبل بن معبد البجلى ، حتى قدموا على عمر » . . هذا ما رواه الطبرى فى تاريخه . .

ولابد من وقفة هنا قبل أن نرى ما كان من عمر من نظر فى هذه القضية ، قضية اتهام المغيرة بالزنا ، وهؤلاء هم الشهود الأربعة عليه وننظر فنرى :

---

(١) المربد : مكان على أطراف البصرة ، أشبه بالسوق .

(٢) أى طويلة .

أولا : أن أبا بكرة ، وهو الشاهد الأول فى هذه القضية ، قد كان بينه وبين الوالى « المغيرة » منافسة ، ومنافرة ، وأنهما كان متجاورين فى السكنى ! وهـذا من شأنه أن يطلع أبا بكرة على كثير من خفايا المغيرة ، حيث كان راصداً لحركاته ، متربصاً به ، ملتمساً العثرات له .. ورجل كهذا لا بد أن يقع على عثرة ، وعثرات ، ما دام جاعلا ذلك همه ، وقديما قيل : « من طلب عيباً وجده » .

وثانياً : أن أبا بكرة ، حين رأى ما رأى من المغيرة ، وهو مع المرأة ، لم يكف نظره عن النظر ، ولعل المغيرة يكون مع امرأته ، لأن البيت بيته ، لا بيت المرأة التى اتهم فيها بالزنا .. لم يفعل أبو بكرة هذا ، بل دعا الجالسين معه إلى أن ينظروا .. فلما نظروا ، قالوا : إنا نرى أعجازاً ، ولا نرى وجوهاً !! أى أنهم لم يتبينوا إن كان الرجل هو المغيرة أو غيره ، وإن كانت المرأة هى زوجته أو غيرها . . ولـكنهم انتظروا حتى قامت المرأة ، فصمتوا . . أى لم يقولوا شيئا ! وهذا الصمت قد يدل على أنهم رأوا المرأة ، فعرفوا أنها التى كان المغيرة يهواها ، ويتردد عليها ، فكان صمتهم إمساكا عن إذاعة الفاحشة . . وقد يدل هذا الصمت على أنهم لما رأوا المرأة وجدوها امرأة المغيرة ، فخجلوا من أنفسهم فسكتوا خزياً ...

وعلى أى ، فإن أبا بكرة : هو القائد لهـــذه الحملة ضد الوالى ، والمشنع علية . .

وثالثا . أن الوالى ـ المغيرة ـ حين خرج للصلاة ، حال أبو بكرة بينه وبين الصلاة .. وهذا لا شك إسقاط لحق الوالى ، ممن لا يملك هذا الإسقاط ، وتعطيل لأداة الحكم ، وعزل له عن أهم وظيفة له ، وهو إمامة الصلاة لا

وإذا كان الوالى متهما ، فإن التهمة لم تثبت عليه ، إذ لا سبيل إلى إثباتها إلا بعد عرض الأمر على الخليفة ، وشهادة الشهود ، ثم الحكم بما يرى الخليفة ، حسب عدل الشهود ، أو تجريحهم ، أو نكولهم . . وكل هذا قد جعله أبو بكرة من حقه ، فيتهم ، ويحاكم ، ويحكم ، وينفذ !! ثم ماذا لو أن الوالى قد أخذ على يد أبى بكرة وأدبه ؟

إن أبا بكرة - فيما يظهر - كان معتزاً بقبيلته بالبصرة ، الأمر الذى جعله يتحدى الوالى هذا التحدى ، ويتعقب خطواته ، ثم يبلغ به الأمر إلى أن يحول بين الوالى وبين الصلاة . ولو أن الوالى أخذه بشىء من التأديب ، فربما كان هذا مثار فتنة تراق فيها الدماء .. ولكن المغيرة كان من دهاة العرب المعروفين ، فأمسك بالأمر على مضض . وكتب إلى الخليفة بما حدث .

هذا هو أبو بكرة الذى قاد هذه الفتنة ، وقدح شرارتها ، ثم ما زال ينفخ فيها ، ويلقى إليها بالحطب ، حتى صارت ناراً تتوهج !

وننظر الآن ما كان من أمر عمر - رضى الله عنه - وهو ينظر فى هذه القضية !

ونمضى مع الطبرى - شيخ المؤرخين - فى روايته لهذه الحادثة . . فيقول :

« فجمع عمر بينهم - أى بين الشهود الأربعة الذين جاءوا من البصرة . وعلى رأسهم أبو بكرة - وبين المغيرة ..

« فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين . . سل هؤلاء الأعبد [1] : كيف

---

(١) وصفهم المغيرة بأنهم أعبد ، أى عبيد ، لأنهم كانوا منقادين لأبى بكرة .

رأونى ؟ مستقبلهم أم مستدبرهم ؟ وكيف رأوا المرأة وعرفوها ؟ . فإن كانوا مستقبلى، فكيف لم أستتر، وإن كانوا مستدبرى فبأى شىء استحلوا النظر إلى فى منزلى . وعلى امرأتى .. والله ما أتيت إلا امرأتى ! » .

ونقول : إن هذا دفاع منطقى . يدفع التهمة على المغيرة ، وإن كان زانياً .. إنهم لو رأوه وهو مستقبلهم لاستتر منهم ، ولو رأوه مستدبرهم ، لكان الحق يقتضيهم ألا ينظروا إليه !

ويمضى الطبرى قائلا :

« فبدأ أبو بكرة ، فشهد عليه ، أنه رآه بين رجلى أم جميل . وهو يدخله ويخرجه ؟

« قال عمر : كيف رأيتهما ؟ قال مستدبرهما ؟ قال . كيف استثبت رأسها ؟ قال : تجافيت »[1].

وهذه الشهادة مشبوهة ، غير مقبولة .. إذ كيف يكون قد رآها وهو مستدبرها ، حيث لم يتبين وجهيهما . ثم إذا سئل : وكيف عرفت وجه المرأة . قال : تجافيت !! أى ظل يدور ويدور ، يميناً ويساراً ، حتى رأى رأس المرأة ! ! وهذا ما لا يحل له ، ولو كان الخليفة ذاته . والله تعالى يقول : « ولا تجسسوا » وهذا عين التجسس ، للاطلاع على عورات الناس ! .

ثم يمضى الطبرى قائلا :

« فدعا عمر بشبل بن معبد . فشهد مثل ذلك . . وقال : استقبلتهما واستدبرتهما — بمعنى أنه دار حولها — .

« وشهد نافع بمثل شهادة أبى بكرة .. ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم :

---

(١) تجافى ، أى مال بجانبه ، حتى رأى رأس المرأة .

قال : رأيته جالساً بين رجلى امرأة ، ورأيت قدمين مرفوعتين تخفقان . وسمعت حفزا شديداً[١] فقال عمر . هل رأيت فيها كالميل[٢] فى المكحلة؟ قال : لا . قال : فهل تعرف المرأة ؟ قال : لا . ولكن أشبهها » .

وهنا نجد أن أبا بكرة واثنين معه ، قد شهدوا بأنهم رأوا ، وأنهم داروا حول الرجل والمرأة ، حتى تثبتوا منهما . . أما الشاهد الرابع ، فإنه لم يتحقق من الرجل والمرأة . وإن كان قد رآهما فى وضع الرجل مع امرأته . .

وبصرف النظر عن تجريح شهادة أبى بكرة ، فإنه على فرض قبولها . وقبول شهادة صاحبيه . فإن ذلك لا يثبت جريمة الزنا على المغيرة . بحيث يقام عليه حد الرجم ، بل يقع هؤلاء الشهود الثلاثة تحت حكم الحد بالقذف . .

ولهذا أمر عمر ـ رضى الله عنه ـ بالثلاثة فجلدوا . وقرأ الآية الكريمة «لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون »[٣] . . فقال المغيرة : الحمد لله الذى أخزاكم . فصاح عمر : اسكت ، أسكت الله نأمتك[٤] . . أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك » .

هذه رواية الطبرى ـ شيخ المؤرخين ـ قد رأينا أن نقف عندها وإن كانت هناك روايات كثيرة . كالروايات التى نقلها صاحب الأغانى فى الجزء

---

(١) أى سمع أصواتا من أنفاسهما ، من الجهد .
(٢) الميل ـ المرود .
(٣) سورة النور ـ ١٣ .
(٤) النأمة ـ الحس المنبعث من الحركة ، والمراد به هنا الموت .

السادس عشر من كتاب الأغانى . فقد جمع روايات كثيرة ، حول هذه الحادثة ، ولكنها قريبة من بعضها ، لا تخرج عما جاء فى تاريخ الطبرى .

* * *

هذا ، وقد شنع الشيعة على عمر — رضى الله عنه — بأنه لم يقم الحد على المغيرة ، وقد اشتهر أمره بالزنا ، وأن عمر — رضى الله عنه — حين شهد الثلاثة : أبو بكرة وأخويه ، ثم جاء الرابع وهو زياد ليشهد ، قال عمر : « أرى وجه رجل لا يفضح الله به رجلا من المسلمين » .. فهذا الذى قاله عمر لزياد — إن صح نسبته إليه — إنما لما رأى من خلل فى شهادة الشهود الثلاثة ، ومن تحاملهم على المغيرة ، وخاصة أبا بكرة ، الذى قاد هذه الحملة ضد المغيرة ..

ولكن عمر — رضى الله عنه — لم ير أن يرد شهادة هؤلاء الثلاثة ، إذ لم يكن بين يديه الدليل المادى على تجريح شهادتهم .

وإن كانت دلائل الحال تنطق بتحاملهم ، وهذا أمر تنطوى عليه القلوب التى لا يعلم مستودعاتها إلا علام الغيوب .. فلما جاء الشاهد الرابع ليشهد ، رأى عمر — رضى الله عنه — أن يحذره من أن يشهد بغير ما رآه محققاً ، وأن شهادته على المغيرة ، إذا جرى فيها على نحو ما شهد به الثلاثة قبله ، كان فيها الحكم على المغيرة بالرجم ، وفى هذا قتل لنفس ، وفضح وخزى لصاحبها ..

إن هناك شبها كثيرة بين يدى عمر — رضى الله عنه — فى شهادة الثلاثة ، وما كان لعمر ألا يدرأ الحد بالشبهة ، والرسول ﷺ يقول : « ادرءوا الحدود بالشبهات » !

وإنه لولا ماقام بين يدى عمر من شبهة فى هذه الواقعة ، لأخذ المغيرة بالحد ولرجمه .. فليس المغيرة أعز على عمر من ولده الذى أقام عليه الحد، وهو مريض ، حتى مات بضربات السوط بيد عمر نفسه !

وليس يعنى هـذا براءة المغيرة من الزنا ، فذلك أمر قد شاع عنه ، ولكن إثبات الزنا لا يكون إلا بشروط محدده . واضحة ، وهى أن يشهد أربعة شهود أنهم رأوا من الرجل والمرأة ما يكون بين الرجل وزوجته ، من مباشرة مكشوفة ، يراها الشهود رأى العين ، من إيلاج الرجل فى المرأة كإيلاج الميل فى المكحلة .. وهذه الصورة المفضوحة ، من النادر أن تكون، وإذا كانت فلا تقع على ملأ من الناس ..

أما ما يقال وما يشاع من هذا الأمر ، فلا يوجب الحد أبداً ..

وفى السياسة الشرعية ـ لابن تيمية رضى الله عنه ـ أنه كان فى زمن النبى ﷺ امرأه تعلن الفجور ، فقال صلوات الله وسلامه عليه: « لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمت هذه »[1] والمراد بالبينة هنا ، هو أن يشهد عليها أربعة شهود ، يرونها رأى العين مع من تزنى به ، على تلك الصورة المفضوحة العارية ..

إن الإسلام وهو يحرص أشد الحرص على إقامة الحدود ، فإنه يحرص كذلك أشد الحرص على درء هذه الحدود بأية شبهة تعرض فى الشهادة على من يقدم للتجريم .. ذلك أن الإسلام لا يتشهى فضح الناس ، وإسقاط مروءاتهم ، فإذا لم تقم بينة قاطعة ، لا لبس فيها على المتهم ، فإن هذا المتهم واقع تحت رحمة الله فى الدنيا ، وأمره إلى الله فيما أجرم يوم العرض على

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٩٠ ـ ٩٨

رب العالمين ، إن شاء سبحانه عفا ، وإن شاء عاقب .. وقد روى أن النبى ﷺ أتى بسارق ، فقال له : « لا تقر » . . حيث لا شهود يشهدون بأنه سرق ! ! كما روى أنه ﷺ لما جاء صفوان بن أمية بسارق سرق عباءته ، ومعه ما سرق ، فأمر النبى ﷺ بقطع يده ، قال صفوان : يا رسول الله ، هى له . . فقال صلوات الله وسلامه عليه : « هلا قبل أن تأتينى به » ؟

ولهذا يقول قاضى القضاة – ابن عبد الجبار – فى حادثة المغيرة :

« فلا يمتنع من عمر – رضى الله عنه – ألا يحب أن تستكمل الشهادة ، وينبه الشاهد – الرابع – على ألا يشهد .. لأن الحيلة فى إزالة الحد على المغيرة ولما تتكامل الشهادة عليه ، ممكنة ، بتلقين ، وتنبيه ، وغيره ، ولا حيلة فيما وقع من الشهادة ، فلذلك حدهم .. وليس فى إقامة الحد عليهم من الفضيحة ، ما فى تكامل الشهادة على المغيرة ، لأنه يتصور بأنه زان ، ويحكم بذلك ، وليس كذلك حال الشهود !

« وحكى عن أبى على ، أن الثلاثة كان القذف منهم للمغيرة قد تقدم بالبصرة ، لأنهم صاحوا به من نواحى المسجد ، بأنا نشهد أنك زان . . فلو لم يعيدوا الشهادة – أمام عمر – لكان يحدهم لامحالة[1] ، فلم يمكن فى إزالة الحد عنهم ما أمكن فى المغيرة » .

ثم يقول قاضى القضاة :

« وإنما قلنا : إن عمر – رضى الله عنه – لم يخطىء فى درء الحد عن المغيرة ، لأن الإمام يستحب له ذلك ، وإن غلب على ظنه أنه قد وجب الحد عليه .. فقد روى المدائنى أن أمير المؤمنين علياً – كرم الله وجهه – أتى برجل قد وجب عليه الحد ، فقال : أها هنا شهود ؟ قالوا : نعم . . قال :

(١) لأنهم قذفوا مؤمنا بالزنا ، وهم ثلاثة ليس معهم رابع ، ولأن المقذوف لم يكن فى حالة محاكمة .

«فأتونى بهم إذا أمسيتم ، ولا تأتونى إلا معتمين[1] فلما أعتموا جاءوه ،
«فقال لهم : نشدت الله رجلا ما لى عنده مثل هذا الحد[2] إلا انصرف ..
«قال : فما بقى منهم أحد ، فدرأ عنه الحد » .

ويمضى قاضى القضاه ، فيقول :

« والخبر المشهور ، الذى كاد يكون متواتراً أن رسول الله ﷺ قال
« إدرءوا الحدود بالشبهات » ..

« ومن تأمل المسائل الفقهية فى باب الحدود ، علم أنها بنيت على
«الإسقاط ، عند أدنى سبب وأضعفه » ..

«ألا ترى أنه لو أقر الزانى بالزنا ، ثم رجع عن إقراره ، قبل إقامة
«الحد ، أو فى وسطه ـ أى وهو يقام عليه الحد ـ قبل رجوعه ، وخلى
« سبيله ؟ .

« وقال أبو حنيفة وأصحابه : يستحب للإمام أن يلقن المقر الرجوع[3]
« ويقول له : تأمل ماتقول .. لعلك مسستها ، أوقبلتها ـ كما فعل الرسول
« الكريم مع « ماعز ».. ويجب على الإمام أن يسأل الشهود : ما الزنا؟
« وكيف هو ؟ وأين زنى ، وبمن زنى ؟ ومتى زنى ؟ وهل رأوه وطئها فى
« فرجها كالميل فى المكحلة . . فإذا ثبت ذلك ، سأل عن الشهود ـ من
« حيث عدلهم وأمانتهم ـ فلايقيم القاضى الحد ، حتى يعدلهم ـ أى يتحقق
« من عدلهم ـ فى السر والعلانية »[4] .

---

(١) أى فى وقت العتمة ، وظلام الليل .
(٢) أى غير منهم فى مثل هذه التهمة .
(٣) وفى هذا ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أنه أتى بسارق ، فقال له ..
« لا تقر » .

ذلك هو «عمر» فى قيامه على شريعة الله ، وفى شدته فى أخذ الخارجين عليها دون رحمة أو هوادة .. وذلك هو « عمر » حين تبدو له شبهة يدرأ بها حدود الله . ويبقى بها على إنسانية المسلم وكرامته بين المسلمين . . وقد روى أنه ـ رضى الله عنه ـ رأى قوماً يتبعون رجلا ، قد أخذ فى ريبة ، فنهرهم قائلا : « لا مرحباً بهذه الوجوه التى لا ترى إلا فى الشر » . .

فرحم الله ابن الخطاب ، رحمة واسعة ، وجاد على المسلمين بمثله ، فى زماننا هذا الذى نحن فيه أشد ما نكون حاجة إلى نسمة من أنسام عمر ، فى عدله ، وحزمه ، وتقواه .

وإذا كان يمكن أن يؤخذ على عمر شدته فى أخذ الخارجين على حدود الله ـ كما فعل مع ابنه الذى مات تحت ضربات يده ـ فإنه لا يمكن أبداً أن يؤخذ عليه أى تفريط ـ ولو قيد شعرة ـ فى حد من حدود الله ..

وعمر ـ رضى الله عنه ـ لا يقبل عدله أن يأخذ الولاة بالظنة ، ولا بما يدبر لهم من تهم ، أو يشنع عليهم بها ، لأن الولاة قائمون على أمر الناس ، وهيهات لقائم على أمر الناس أن يسلم من سخط بعضهم ، وشنآن بعضهم ، فيشكونه بالحق والباطل . . فكان من الحكمة والعدل ، التوقف الطويل ، والتثبيت الدقيق فى هـــذا المقام ، حتى يتبين الحق ، ويتضح الأمر . .

فهذا أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ كان والياً من ولاته الشام لعمر ، وقد جاء إلى عمر أحد الأعراب يتهم عنده أبا موسى ، بجملة من التهم .. منها :

أنه انتقى لنفسه من أبناء الدهاقين[1] ، ستين غلاماً ، وأن له جارية

---

(١) أى أبناء الفرس ، واحدهم دهقان .

تدعى عقيلة - وهى جارية كان أهداها المغيرة بن شعبة إليه ، عندما أرسله عمر ليتولى البصرة - تغذى جفنة ، وتعشى جفنة ، وليس بين القوم رجل غيره يقدر على ذلك ، وأن له - أى لأبى موسى - قفيزان وخاتمان[1] وأنه فوض الأمر إلى زياد بن أبيه (أى ابن أبى معاوية) وأنه أجاز الحطيئة بألف درهم !

هذه هى التهم الموجهة من هذا الأعرابى ، إلى أبى موسى الأشعرى ..

وقد استدعى عمر - رضى الله عنه - أبا موسى ومعه الجارية ، وسأله عن هذه التهم ، واحدة واحدة ، فى مواجهة هذا الأعرابى .. فقال أبو موسى أما الستون غلاما ، فإنى أعلم أن لهم فداء كبيراً ، فنداهم ، وأخذ الفدية ، فقسمها بين المسلمين ..

وأما القفيزان ، فأحدهما للوالى والثانى للمسلمين يأخذون به أرزاقهم .

وأما تعويض زياد ، فإنه رأى لزياد نبلا ، وعقلا ، فاستعان به .

وأما أنه أجاز الحطيئة بألف درهم ، فلكى يمسك بذلك لسانه عن الهجاء له ، وللمسلمين ..

ولكن أبا موسى لم يقدم عذراً مقبولا عن الجارية ، وما يساق إليها من طيب الطعام ، غداء وعشاء ..

وإذ لم ير عمر فى هذه التهم دليلا عليها ، فقد رد أبا موسى الأشعرى إلى عمله .. ثم استدعى زياداً فسأله ، فوجده عالماً بالفرائض والسنن ، بليغاً فصيحاً ، ذكياً . فرده ليعمل مع أبى موسى . .

وأما الجارية فقد استبقاها عمر فى المدينة ..

---

(١) القفيز - مكيال يكال به .

(٢) الحطيئة : شاعر فحل معروف ، أدرك الجاهلية والإسلام .

هذا ، وقد كتب عمر إلى ولاته بالشام فى شأن هذا الشاهد ، واسمه « ضبة العنزى » فقال :

« إن ضبة العنزى ، غضب على أبى موسى فى الحق أن أصابه مراغما ، وفارقه أن فاته أمر من أمور الدنيا ، فصدق عليه وكذب ، فأفسد كذبه صدقه ، فإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى النار » .

أى أن هذا الشاكى لم يشك للحق ، وإن أصاب بعض الحق فى شكواه ، وقد جاء ذلك على غير قصد للحق منه ، وقد دفعه بغضه للوالي ، أن يخلط الحق بالباطل .. فكذب وصدق .. صدق فى أمور ـ كما هو الحال فى أمر الجارية ـ وكذب فى أمور ، فأفسد كذبه صدقه ، وبهذا فشهادته مجروحة لا تقبل ! !

وإذا كان عمر ـ رضى الله عنه ـ قد توقف فى إقامة الحد على المغيرة بعد أن لاحت له كثير من الشبهات حول شهادة الشهود ، وخاصة شهادة أبى بكرة ، فإنه لم يتوقف فى إقامة الحد على قدامة بن مظعون ، وهو ممن شهد بدراً ، ثم هو خال عبد الله بن عمر ، وحفصة بنت عمر — زوج النبى ﷺ .

وكان عمر قد استعمل قدامة على البحرين ، وقد جاء « الجارود » إلى عمر يشكو قدامة أنه شرب الخمر ، فقال له عمر : من يشهد على ماتقول ؟ فقال : أبو هريرة ، فقال : علام تشهد يا أبا هريرة ؟ فقال : لم أره يشرب وقد رأيته سكرانا يقىء ؟ فقال عمر : لقد تنطعت أبا هريرة فى الشهادة[1] ، وتردد عمر فى الأخذ بشهادتهما ، ولكن امرأة قدامة «هند بنت الوليد» شهدت عليه ، فلما ثبتت التهمة أقام عمر الحد عليه » .

---

(١) تنطع فى شهادته : أى داو وتفلسف ، وكان عليه أن يقول فى شهادته على ابن مظعون : إنه شرب الخمر ، لأن السكر أصدق شهادة على ذلك .

وتوقف عمر بعد شهادة الشاهدين فى إقامة الحد ، إنما كان ذلك لأنهما لم يتفقا على أمر واحد فى شهادتهما ، فشهادة أبو هريرة أنه رآه سكران يقىء ، وشهادة الجارود أنه يشرب الخمر ، وقد تكون الحال التى رأى فيها أبو هريرة قدامة سكران يقىء غير الحال التى رآه الرجل الآخر يشرب الخمر .

فلما شهدت امرأة قدامة عليه بأنه يشرب الخمر ، كانت شهادتهما مؤيدة لشهادة الرجل الآخر ، فتمت بذلك شهادتان على قدامة ، فأقيم الحد عليه » .



الفصل السادس

ما قيل من أنه أبدع فى الدين

ومما تشنع به الشيعة على عمر ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ أنه أبدع فى الدين ، أى أحدث بدعاً فى الدين ، ويستشهدون على هذا بما كان من عمر فى صلاة التراويح ، وفى جعلها جماعة فى المسجد ..

يقول الشريف المرتضى : « أما التراويح ، فلا شبهة أنها بدعة ، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أيها الناس : إن الصلاة بالليل فى شهر رمضان من النافلة جماعة ، بدعة ، وصلاة الضحى بدعة .. ألا فلا تجتمعوا ليلا شهر رمضان فى النافلة ، ولا تصلوا صلاة الضحى . . فإن قليلا فى سنة ، خير من كثير فى بدعة ، ألا وإن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة سبيلها فى النار » .. وقد روى ـ والكلام للمرتضى ـ أن عمر خرج شهر رمضان ليلا ، فرأى المصابيح فى المسجد ، فقال : ماهذا ؟ فقيل له : إن الناس قد اجتمعوا لصلاة التطوع فقال : « بدعة !! فنعمت البدعة » !! فاعترف ـ كما ترى ـ بأنها بدعة وقد شهد رسول الله ﷺ أن كل بدعة ضلالة » .

« وقد روى — والكلام للمرتضى أيضاً — أن أمير المؤمنين علياً لما اجتمعوا إليه بالكوفة ، فسألوه أن ينصب لهم إماماً يصلى بهم نافلة رمضان ـ أى صلاة التراويح ـ زجرهم ، وعرفهم أن ذلك خلاف السنة ، فتركوه ، واجتمعوا لأنفسهم وقدموا بعضهم ، فبعث إليهم ابنه الحسن رضى الله عنه ،

فدخل عليهم المسجد ومعه الدرة، فلما رأوه تبادروا الأبواب، وصاحوا: واعمراه!! » .

وإذ ننظر فى هذا الذى يأخذه الشريف المرتضى على عمر — رضى الله عنه — وما يسوقه من أخبار، نرى :

أولا : أن النبى ﷺ قال عن صلاة النافلة فى شهر رمضان فى جماعة، بدعة .. وقد أعلن النبى ﷺ هذا على المسلمين فى خطبة عامة، إذ بدأ ذلك بهذا الخطاب : « أيها الناس » ..

وثانياً : يقول المرتضى : إن عمر خرج فى شهر رمضان ليلا فرأى المصابيح فى المسجد، فقال : ما هذا ؟ فقيل له : إن الناس قد اجتمعوا لصلاة التطوع — أى التراويح — فقال : بدعة .. فنعمت البدعة . .

والسؤال هنا : كيف ينهى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — عن صلاة التراويح جماعة، وكيف يصرح بأن ذلك بدعة، ثم يصليها المسلمون جماعة بالليل، ويوقدون لذلك المصابيح فى المسجد ؟ وهل كان هذا الاجتماع بأمر من عمر — رضى الله عنه — ؟ ونقول : كلا، فإن عمر خرج، فرأى الناس يصلون التراويح جماعة !! .. وهل كان ذلك فى أول رمضان من خلافة عمر ؟ أم كان ذلك متبعاً فى خلافة أبى بكر، فهل يرضى أبو بكر بهذا لو لم يكن الأمر جارياً هكذا فى عهد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ؟ أسئلة كنا نود لو أن الشريف المرتضى أجاب عليها ..

ثم إن قول عمر — رضى الله عنه — حين رأى المسلمين يصلون التراويح جماعة — كما يقول المرتضى — قال : بدعة ! ومعنى هذا أنه أنكر هذا الأمر أول ما رآه، فقال عنه بدعة .. ثم إنه راجع نفسه حين رأى اجتماع المسلمين وهم يحيون ليل رمضان بهذه الصوره، فقال : فنعمت البدعة ! .. فعمر هنا

إنما يرد على نفسه فى قوله أول الأمر « بدعة » ثم استدرك فقال : ولكن ذلك شيء طيب لا بأس به !

هذا فيما نراه فى هذا الخبر الذى رواه المرتضى ..

ونأتى بعد ذلك بما رد به قاضى القضاة - ابن عبد الجبار - على الشريف المرتضى ، حيث يقول :

« أما كون صلاة التراويح بدعة ، وإطلاق عمر عليها هذا اللفظ ، فإن لفظ البدعة يطلق على مفهومين :

أحدها : ما خولف به الكتاب والسنة ، مثل صوم يوم النحر وأيام التشريق ، فإنه وإن كان صوماً ، إلا أنه منهى عنه ..

والثانى : ما لم يرد فيه نص ، بل سكت عنه ، ففعله المسلمون بعد وفاة النبى ﷺ .. فإن أريد بكون صلاة التراويح بدعة بالمفهوم الأول ، فلا نسلم أنها بدعة بهذا التفسير ..

والخبر الذى رواه المرتضى غير معروف [1] ولا يمكن أن يسنده إلى كتاب من كتب المحدثين ، ولو قدر على ذلك لأسنده ..

ولعله من أخبار أصحابه [2] من محدثى الإمامية ، والإخباريين منهم .. والألفاظ فى آخر الحديث وهى : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » مروية مشهورة ، ولكن على تفسير البدعة بالمفهوم الأول .. وقول عمر : « إنها لبدعة » خبر مروى مشهور ، ولكن أراد به البدعة بالتفسير الثانى والخبر المروى عن أمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - ينفرد هو - أى المرتضى - وطائفة بنقله ، والمحدثون لا يعرفون ذلك ، لا يثبتونه !

---

(١) يشير إلى الحديث المنسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم عن التراويح وصلاة الضحى .

(٢) أى أصحاب المرتضى .

ثم يمضى ابن عبد الجبار ، فيقول :

« فأما إنكاره — أى المرتضى — أن تكون — صلاة التراويح — نافلة شهر رمضان ، صلاها رسول الله ﷺ فى جماعة ، فإنكار لست أرتضيه لمثله ، فإن كتب المحدثين مشحونة برواية ذلك ، وقد ذكره أحمد بن حنبل فى مسنده غير مرة بعدة طرق ، ورواه الفقهاء وذكره الطحاوى فى كتاب « اختلاف الفقهاء » وذكره أبو الطيب الطبرى الشافعى ، فى شرحه كتاب المزنى ، وقد ذكره المتأخرون أيضاً ، وذكره الغزالى فى كتاب « إحياء علوم الدين » . وقال إن رسول الله ﷺ صلى التراويح فى شهر رمضان ليلتين ، أو ثلاثاً ، ثم ترك ذلك ، وقال : « أخاف أن يوجب عليكم » وأجاز لى الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى ، بروايته عن شيخه محمد بن ناصر ، عن شيخه ورجاله ، أن رسول الله ﷺ صلى نافلة شهر رمضان فى جماعة يأتمون به ليالى ، ثم لم يخرج وقام فى بيته ، وصلى الناس فرادى بقية أيامه وأيام أبى بكر ، وصدراً من خلافة عمر ، فخرج عمر ليلة فرأى الناس أوزاعاً — أى فرادى — يصلون فى المسجد ، فقال : لو جمعتهم على إمام ؟ فأمر أبى بن كعب أن يصلى بهم ، فصلى بهم تلك الليلة ، ثم خرج فرآهم مجتمعين إلى أبى بن كعب يصلى بهم ، فقال بدعة ، ونعمت البدعة ، أما إنها لفضل ، والتى ينامون عنها أفضل [1] .

وفى هذا الخبر أمور :

أولا : أن النبى ﷺ صلى صلاة التراويح بالمسلمين جماعة فى رمضان .

---

(١) يقصد التى ينامون عنها ، قيام آخر الليل ، فإنها أفضل من قيام أوله .

ليالى .. ثم قام فى بيته بعد ذلك ولم يخرج لصلاة هذه النافلة بهم جماعة ، خشية أن تفرض عليهم .. ثم مضى الأمر على ذلك فى حياة النبى ﷺ ، وخلافة أبى بكر ..

« وثانياً : أنه لما كان فى أول خلافة عمر ، رأى عمر الناس يصلونها فرادى فى المسجد ، فرأى أن اجتماعهم فى الصلاة خير من تفرقهم ، فدعا أبى بن كعب أن يصلى بهم جماعة .. ولم يصل عمر معهم ، لأنه لو صلى معهم لكان هو الإمام ، كما كان الحال يومئذ . . وهذا يعنى أن عمر لم يكن يرى صلاة التراويح فى جماعة ، إلا حين جاء المسلمون يصلونها فرادى فى المسجد .

وثالثاً : أن عمر – رضى الله عنه – قال عن هذه الصلاة فى جماعة أفضل ثم فضل عليها الصلاة فى آخر الليل على انفراد .. ومعنى هذا أنه وقد جاء المسلمون يصلون التراويح فى المسجد فرادى ، فإن صلاتهم إياها جماعة أفضل من صلاتهم فرادى .. وقد صلاها رسول الله ﷺ جماعة بالمسلمين ، ولكنه رحمهم من أن تفرض عليهم ، فأمسك عن صلاتها جماعة !

ثم يعترض الشريف المرتضى على أن تكون صلاة النافلة فى جماعة[1] ..

ويرد عليه قاضى القضاه ابن عبد الجبار ، بقوله :

« فإن قال – أى المرتضى – كيف تكون نافلة ، وهى جماعة ؟ قيل له : قد رأينا كثيراً من النوافل ، تصلى جماعة ، نحو صلاة العيدين ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستسقاء ، وصلاة الجنازة ، إذا لم يتعين للمصلى بأن يقوم غيره مقامه فيها »[2] .

وقد اختلف الفقهاء فى أيهما أفضل : أن تصلى التراويح فى جماعة ،

(١) لأن صلاة الجماعة لا تكون إلا فى الصلاة المفروضة ، وصلاة العيدين ، الجنائز والاستسقاء .

(٢) الشافى ، لابن عبد الجبار ص ٢٦٢ .

أم أن تصلى فرادى ، فقال قوم : الجماعة أفضل ، لأن الاجتماع بركة ، وله فضيلة ، ولولا فضيلته لم يسن فى المكتوبة ، ولأنه ربما يكسل المرء فى الانفراد وينشط عند مشاهدة الجمع . .

وقال قوم : الانفراد أفضل لأنها سنة ، ليست من الشعائر كالعيدين . فإلحاقها بتحية المسجد أولى ، وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع ما ، ثم لا يصلون تحية المسجد جماعة . . وقد روى القائلون بهذا القول عن النبى ﷺ أنه قال : « فضل صلاة المتطوع فى بيته ، على صلاة المتطوع فى المسجد كفضل صلاته المكتوبة فى المسجد على صلاته فى البيت » . . وقد روى عنه ﷺ قوله : « إن أفضل النوافل ركعتان يصليهما المسلم فى زواية بيته لا يعلمها إلا الله وحده » .

قالوا — أى القائلون بصلاتها فرادى — إذا صليت فرادى ، كانت الصلاة أبعد من الرياء والتصنع . .

وبالجملة ، فإن الاختلاف محصور فى أيهما أفضل ، صلاتها — أى التراويح — فى جماعة أو صلاتها فرادى . . فأما تحريم هذه الصلاة ، ولزوم الإثم بفعلها ، فهو ما لم يذهب إليه أحد إلا الإمامية . . وقد روى أن عليا — كرم الله وجهه — خرج ليلا فى شهر رمضان فى خلافة عثمان ، فرأى المصابيح فى المساجد ، والمسلمون يصلون التراويح ، فقال : نور الله قبر عمر ، كما نور مساجدنا . . والشيعة يروون هذا الخبر ، ولكن يحملون لفظه على معنى آخر ! !

* * *

وبعد ، فماذا يكون حظ عمر من هذه المخالفة لرسول الله ﷺ ، وفى إحداث هذه البدعة — كما يقول الشيعة ؟ أهو لمجرد الخلاف ، وإحداثه .

البدع فى دين الله ؟ هذا أبعد ما يكون من مسلم ، فضلا عن أن يكون عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وهو الذى عاش حياته متأسياً برسول الله ﷺ ، فلم يأخذ من الحياة الجديدة التى طلعت على المسلمين فى عهده قليلا ، أو كثيراً ، فكان لباسه المرقعات . وكان إدامه الخل أو الزيت ، فإذا اجتمع الإدامان . رفع يده وقال : إدامان فى طعام واحد ؟ .

ولكن حين ينظر إلى الإنسان بعين كارهة مبغضة . فإنها ترى الحسن قبيحاً ، والطيب خبيثاً ، والحق باطلا . .



الفصل السابع

عزل خالد بن الوليد

هذه مسألة كثر فيها القول، واختلف عليها الرأى، حتى لقد غمز فيها بعض الناس عمر - رضى الله عنه - ونسبوا عزل عمر له إلى أمور شخصية بينه وبين خالد، بعضها فى الجاهلية، وبعضها فى الإسلام ..

قالوا إنه كان بين عمر وخالد مشاحنة فى الجاهلية. وأنهما تصارعا، وأن خالدا نال من عمر، وصرعه!!

وقالوا: إن خالدا غلبت عليه طبيعته العسكرية، وهو يقود جيوش المسلمين، فى عهد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وكذلك فى خلافة أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فكان يأخذ الموقف الذى يراه، ويجرى أموره على غير سابقة معهودة، أو استشارة لولى الأمر!

وقال المعتذرون لعمر - رضى الله عنه -: إن خالدا لم يستبرىء لدينه بالتروى والتوقف عند ورود الشبهات عليه، وأنه كان يستعمل رأيه كما يستعمل سيفه، من غير لين ولا هوادة!

ويعدون على خالد فى هذا أموراً، منها:

أولا: موقفه من جذيمة[1] حين بعثه الرسول ﷺ إليهم ليخبر حالهم: إن كانوا على الإسلام، أو على الشرك، فقتلهم خالد، وأخذ أموالهم

(١) قبيلة عربية معروفة من قبائل العرب، ذات شرف، وحسب، وكان منها أمراء فى الجاهلية.

لرأى رآه ، قبل أن يستوثق ويستيقن . . وقد فزع رسول الله ﷺ لهذا ، ورفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إنى أبرأ إليـــك مما صنع خالد ! » .

ومع هذا ، فقد كان خالد عند رسول الله ﷺ بالمكان الذى لا يغنى فيه كثير غيره من الرجال ، حتى لقد أطلق عليه الرسول الـكريم : « سيف الله » . .

وثانياً : أن خالداً فى خلافة أبى بكر ، قتل مالك بن نويرة على وجه شبهه . ثم تزوج امرأته . . كما قتل فى خلافة أبى بكر أيضاً ، ضرار بن الأزور وتزوج امرأته وهى فى عدتها ، وكان ذلك فى حروب الردة . بل إن خالداً — على ما قيل — لم تشغله دماء آلاف من المسلمين ، قتلوا فى معركة اليمامة ، حتى لقد تزوج غداة المعركة بفتاة بكر ، أراق دم بكارتها على حين كانت الدماء تجرى أنهاراً من قتلى صحابة رسول الله ، وحفظة كتاب الله ، حتى لقد أفزع ذلك الخليفة أبا بكر ، وأخرجه عن حلمه المعروف ، فكتب إلى خالد كتاباً جاء فيه :

« لعمرى يا ابن أم خالد ، إنك لفارغ ، تنكح النساء ، وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجف بعد »!! وحين قرأ خالد الكتاب تألم لغضب أبى بكر ، ولكنه سرعان ما نظر إلى أبى بكر ، وحلمه ولينه ، فرأى إلى جواره عمر بن الخطاب ، فى شدته وصرامته ، ورأيه فى خالد ، فنسب هذا الأمر إلى عمر ، وأنه هو الذى حمل أبا بكر على كتابة ما كتب ! فقال خالد : «هذا عمل الأعسر»[1] !

---

(١) يريد عمر بن الخطاب ، لأنه — رضى الله عنه — كان أيسر ، وكان يعمل بكلتا يديه .

وقد راجع عمر أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ فى أمر خالد ، حين قتل مالك بن نويرة وتزوج امرأته ، وأشار عليه بعزله ، فأبى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وقال : أترانى أغمد سيفاً سله رسول الله ﷺ . ؟

* * *

والذى يعرف شيئاً من سيرة عمر ، ويعرف عدله ، وخوفه من الله ، ومراقبته الشديدة لنفسه ، وتحريه الدقيق لخير الإسلام والمسلمين ، لا يبحث فى عزل عمر لخالد عن سبب أو أسباب ، وحسبه أن عمر قد عزله ، ولن يعزله إلا لمصلحة راجحة رآها لخير الإسلام والمسلمين .

وهل ينتظر من عمر أن يفعل غير هذا ؟

وهل يعرض عمر جيوش المسلمين لهذه الهزة العنيفة التى ربما انكسرت بها موجة الإسلام ، وانكمش ظله ، وضاع جيش المسلمين ـ هل يعمل عمر هذا ، إرضاء لهوى فى نفسه ، أو إرواء لغل فى صدره ؟

وهل كان عمر ممن يستجيب لشهوة كانت تدعوه إليها نفسه ؟ وهل عرف فى صحابة رسول الله ﷺ من أمسك نفسه عن أى مورد من موارد الشهوات ، وهى حاضرة بين يديه ، تدعوه إليها ، وتهتف به ـ مثل هذا الذى كان من عمر ، وقد واجه هذه التجربة القاسية من تلك الدنيا التى فتحت أبوابها له ، وجاءت بين يديه بدولتى فارس والروم ؟

عمر الذى يرى قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، فلا يزيد على أن يقول له : « والله لا يحبك قلبى أبداً حتى تحب الأرض الدم المسفوح ». فيجيبه القاتل : « وهل يمنع ذلك حقاً لى ؟» فيقول عمر : « أما هذا فلا » فيقول الرجل : « إذن لا أبالى ، إنما يبكى على الحب النساء !! » .

وعمر الذى يعرض نفسه كل ساعة من ساعات الليل والنهار ، يناقشها الحساب ، ويسوق إليها التهم ، فتجيش وتضطرب ، وتستذرف دموعه ، حتى لقد رسم الدمع على وجهه خطين أسودين من كثرة البكاء !

وعمر الذى يحمل القربة على عاتقه يسقى بها الناس ، فيسأله الصحابة فى هذا ، فيقول : « إن نفسى أعجبتنى ، فأردت أن أذلها » !!

عمر ، وهذا قليل من كثير مما عنده من ورع وخشية ، وتواضع ، يستبقى فى نفسه ثأرا من أيام الجاهلية يثأر لها به ، ليترضاها ، وليقيم لشهوتها معالم الزهو والنصر بين جنبيه !!

أعمر يفعل هذا ؟ وعلى حساب من ؟

على حساب الإسلام كله . . الإسلام كعقيدة ، يكون أو لا يكون . . والإسلام كدولة تقوم أو لا تقوم . . فإن المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم والتى يتقرر فيها مستقبل الإسلام ، والتى يتولى قيادتها خالد ، لا تزال قائمة ، وسيف الله « خالد » فيها هو الراية التى تخفق بالأمل فى الظفر بالعدو ، والعدو يبيت مفزعا مكروباً ، وهو يرى خالد يتأهب للانقضاض عليه ! .

أيغامر عمر بمستقبل الإسلام هذه المغامرة الكبرى ليرضى هوى ، أو يشبع شهوة ؟ .

إن أقل المسلمين دينا ، وأكثرهم غفلة ، بل وأشدهم جرأة على المعصية ، لا تسول له نفسه — فى مثل تلك الحال التى يتقرر فيها مصير الإسلام — أن يفعل هذه الفعلة المنكرة ، إن لم يكن قد وزن الأمر بين يديه ، وقلبه على جميع وجوهه ، ثم رجح عنده أن عزل خالد فى هذا الموقف الحرج المتأزم ، هو لمصلحة الإسلام ، ولا شىء غير مصلحة الإسلام ؟

أما تقدير هذه المصلحة ، وأما ضمان تحقيقها ، فهو ما يراه عمر ، وإن خفى ذلك على غيره ، حتى جاءت الأيام بتأويله ، فكشفت عن وجه جديد من الكياسة ، والعبقرية ، عند عمر !

عمر الذى أعطى الإسلام كل لحظة من لحظات حياته ، حتى أقام صرحه عالياً شامخاً على قواعد راسخة من العدل والحق والإحسان . .

عمر الذى قطع حياته ، ساهراً ، جائعاً ، باكياً وهو قائم على حراسة الإسلام والمسلمين . . عمر يفعل هذا الذى كان منه لخالد من غير أن يرى فى ذلك مصلحة راجحة للإسلام ؟ .

لا ، إن فى عزل خالد ، وجها آخر غير هذا الوجه ، وجها ترجح فيه المصلحة بعزله على الخير المرجو المرتقب فى بقائه !

فما هو هذا الوجه ؟ وما حساب هذه المصلحة ؟

فلننظر ! !

خالد فارس الإسلام غير مدافع . اجتمع له مع القوة والبأس . يمن النقيبة ، فما دخل معركة إلا كان النصر له ، والغلب فى جانبه ، وما قاد جيشاً إلا أدار به المعركة على أحكم الخطط وأبرعها ، ماهزم فى معركة قط . . ولا شك أن لسوابق هذا النصر المعقود تحت لواء خالد ، أثراً عظيما فى مشاعر المحاربين معه ، حيث يقاملون والنصر مطلوبهم ، والظفر بالعدو يهتف بهم ! !

وحسب خالد من الشجاعة ، ونفاذ البصيرة ، وحسن التدبير ، أنه أنقذ جيش المسلمين فى غزوة « مؤتة » وقد كاد الجيش كله يقع فى يد العدو . . ولم يكن خالد فى هذا الجيش إلا جندياً من جنوده ، ولم يكن قائداً من قواده الثلاثة الذى عينهم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه . .

فقد كان ﷺ سير جيشاً إلى مؤتة فى ثلاثة آلاف رجل ، وجعل القيادة لزيد بن حارثة ، وقال : « إن أصيب زيد ، فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة » ولم يشر الرسول ﷺ إلى أحد بقيادة الجيش بعد ابن رواحة .

وكان الروم قد استعدوا للقاء هذا الجيش فى مئتى ألف مقاتل بالعدد والعتاد الذى لا عهد للعرب به .. فالتقى الفريقان .. وقتل قواد جيش المسلمين الثلاثة ، واحداً بعد واحد على الترتيب الذى رتبه النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه .

وهنا يطلع خالد من بين هذا الجيش الذى قتل قادته ، وذهب كثير من جنده ، شهداء فى سبيل الله .. ولم يكن مفر من أن يستشهد الجميع لا يرجع منهم أحد . . وهنا أشارت الأصابع كلها إلى خالد : أن كن أنت لهذا الموقف !!

وقد كان خالد رجل هذا الموقف ، فأحكم خطته ، وخادع العدو حتى تمكن من الإفلات بالبقية الباقية من الجند ، وعاد بهم إلى المدينة ، وحين علم الرسول الكريم بأنباء المعركة ، وما كان لخالد من هذا الموقف العبقرى فيها قال : « لقد أمر خالد نفسه » !!

وقد لقى المسلمون جماعة المجاهدين الذين عاد بهم خالد ، لائمين لهم على أن لم يقاتلوا حتى يستشهدوا جميعاً ، وكانوا يقولون عنهم : هؤلاء الفرار !! فلما سمع النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال : « ليسوا الفرار ، ولكن الكرار إن شاء الله » .

وقد صدق الرسول الكريم ، فما هى إلا سنوات معدودات ؛ حتى عاد المسلمون ، وفيهم بقية هؤلاء المجاهدين إلى بلاد الروم ، فاتحين !

وللرسول الكريم رأى فى خالد . . فإنه مع تلك المهنات التى كانت تقع من خالد فى الحرب ، لم ير الرسول الكريم أن يفت فى عضده ، وأن يكسر من شوكته ، وأن يحرم المسلمين هذه القوة التى تعدل جيشاً كثيفاً ، بل أبقاه حيث هو قائداً من قواد المسلمين ، يبلى بلاءه لنصرة الإسلام ، ورفع رايته .. ولهذا كان الرسول الكريم ﷺ يقول : « إن خالداً سيف سله الله على المشركين » .

ولبلاء خالد وشجاعته ، ورأى رسول الله ﷺ فيه ، ولاه أبو بكر حروب الردة التى كانت تهدد الدعوة الإسلامية ـ ولم يستمع لرأى عمر فيه ـ على كثرة ما كان يستجيب لرأى عمر ، لأنه كان يرى أن ينتفع المسلمون بهذا السيف فى هذا الموقف الحرج ، وقد كان ، فأطفأ خالد تلك النار ، وأحالها رماداً ، ودفن تلك الفتنة فى هذا الرماد !!

* * *

هذا هو خالد بن الوليد ، وتلك مكانته فى مواقف الحرب ، وهذا بلاؤه فى الإسلام .. فهل كان عمر يجهل هذا من خالد ؟ كلا ، فعمر أعرف الناس بالرجال ، وهو أعرف الناس بخالد !!

فلم إذن عزله عمر ، والموقف بين المسلمين وعدوهم موقف فاصل ، يتقرر فيه مصير الإسلام ومستقبله ؟ أفما كان من الحكمة أن ينتظ عمر بخالد ، حتى تنتهى المعركة ، ثم يعزله ؟ ولم يعزله فى هذا الموقف الذى هو أحرج موقف للإسلام ؟

وأود أن أنبه هنا إلى أن كلمة « عزل » كلمة غليظة ، أكبر من الواقع

الذى لنا فى هذا الوقت من مسيرة الإسلام .. والذى هو أقرب إلى الحق أن نقول : استبدل به غيره ، بدلا من القول بأنه عزله !

طيب هذا !!

ولم استبدل به غيره ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال ، نجيب أولا على سؤال آخر ، هو من هو المستبدل بخالد ؟ وما حظه من الصفات التى تؤهله لهذا المكان بالنسبة لخالد ، أو بالنسبة لخالد إليه ، وللظرف الذى يواجهه أى منهما ؟ .

ونعرف أن أباعبيدة بن الجراح هو الذى ولاه عمر القيادة العامة لجيوش المسلمين بدلا من خالد !

فمن هو أبو عبيدة ؟ وما ملامح شخصيته ! وما أهليته لهذه القيادة العامة ؟

عرفنا من قبل أن أبا عبيدة بن الجراح ، هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأنه من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وفيه يقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » !

ولهذه الصفات ، ولإيثار النبى ﷺ لأبى عبيدة بالحب ، ووصفه بأنه أمين هذه الأمة — أجله عمر ، ووثق صانه الطاقة به ، ولم يكن عمر ليتردد أبداً فى أن يوليه الخلافة من بعده ، لو أمتد به أجله ، وحضر وفاة عمر .

بل إن أبا بكر — رضى الله عنه — بعد أن احتج على الأنصار بأحقية المهاجرين بالخلافة ، أشار إلى الجميع ، بأن يبايعوا لأحد الرجلين : عمر ، أو أبى عبيدة .

هذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، الذى حل محل خالد . . إنه مؤهل لمنصب الخلافة عند أبى بكر ، ثم عند عمر من بعده .. ولا شك أن منصب الخلافة أعظم وأجل من أى منصب من مناصب الدولة ، ولو كان قيادة الجيوش ، وإدارة الحروب . . لأن الخليفة هو الرأس المدبر لكل القوى العاملة فى الدولة الإسلامية ، وإليه ، وإلى حسن رأيه وتدبيره ، يرجع ضبط أمور الدولة كلها ، فى السلم والحرب على السواء .

وقد يقول قائل : إن قيادة الجيوش ، وإدارة الحروب ، تحتاج إلى مواهب وصفات خاصة ، قد لا تتوفر فيمن يؤهل للخلافة أو يقوم عليها ، وإنه ليس من الضرورى أن يكون الخليفة رجل حرب ، وإن كان رجل حق وعدل ، وحسن سياسة وتدبير !!

فأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ لم يعرف عنه أنه كان رجل حرب ، ولا ذا مكانة معروفة فى مواقع القتال ، وإن كان له من الصفات الروحية ، والنفسية ، والعقلية ، ما كان به قمة على أصحاب رسول الله . . ومع هذا ، فقد كان خليفة رسول الله ﷺ ، وأنه قد سد الثلمات كلها التى تفتحت فى الجبهة الإسلامية ، بعد وفاة الرسول الكريم .. ومع هذا فإن أبا بكر الذى صلح للخلافة كل الصلاحية ، لا يقوم مقام خالد فى الحروب ! وكذلك الأمر بالنسبة لعمر ، فهو كأبى بكر ليس رجل حرب .

وإذن ، فأبو عبيدة الذى رجح خالدا فى كثير من الصفات ، قد لا تكون فيه الميزات التى تؤهله لخوض المعارك وقيادة الجيوش .

قد يقول قائل هذا ، ونحوه ..

وردنا على هذا من وجوه :

فأولا : أن أباعبيدة ـ رضى الله عنه ـ كان فى المحاربين البارزين مع رسول الله ﷺ وشهد غزوات الرسول وشارك فيها بسيفه ، وكان رسول الله ﷺ يبعثه على رأس السرايا فى كثير من الأحيان . فبعثه ﷺ على رأس أربعين رجلا فى سرية « ذى القصة » . . كما بعثه على رأس ثلثمائة من المهاجرين والأنصار إلى حى من جهينة ، فى غزوة تسمى غزوة « الخبط » .

فأبو عبيدة من هذه الجهة ـ فارس من فرسان الحرب ـ وإن لم يشتهر شهرة على بن أبى طالب ، أو خالد بن الوليد مثلا .

وثانياً : لمكانة أبو عبيدة التى عرفت له فى الحرب فى غزوات الرسول ﷺ ، فقد ندبه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ قائداً لجيش من جيوش المسلمين الأربعة التى وجهها لحرب الشام .. وإذن فلم يكن أبو عبيدة دخيلا فى المعركة الدائرة بين المسلمين والروم هناك ، بل هو مشارك فيها ، عارف بالكثير من خباياها ، على حين كان خالد قائداً لجيوش المسلمين فى فتح فارس ، ثم جاء إلى الشام نجدة للمسلمين المحاربين هناك .

فلما جاء خالد إلى الشام تشاور مع قواد الجيوش هناك لتوحيد القيادة فاختاروه قائداً عليهم .

وإذن فلم يكن خالد قائداً عاماً لجيوش الشام بأمر من الخليفة أبى بكر ، وإنما كان باختيار القواد له .. ونذكر هنا قول الرسول الكريم فى خالد عندما تولى أمر المسلمين فى غزوة مؤتة : « لقد أمر خالد نفسه » .

وثالثاً : أن أبا عبيدة ، وقد كان محارباً للروم من أول قتال المسلمين لهم ، فقد كان أعلم بمواقع العدو ، ومكايده فى الحرب من الذى كان محاربا للفرس .

ومع هذا ، فإن السؤال ما زال قائماً ، وهو : هل يعد أبو عبيدة على الرغم من كل ماله من صفات تؤهله للخلافة ومع بلائه فى الحرب ، هل يعد فى منزلة خالد ، أو أصلح منه ليحل محله ، ويأخذ مكانه فى القيادة ؟

ونقول فى غير تردد : إن خالد لا يقوم مقامه قائد آخر ، أيا كان فى هذا الموقف ، خاصة وقد بلغت أخباره الروم ، وما كان منه فى الانقضاض على دولة فارس ، وتقويض صرحها ، واستيلاء المسلمين عليها .

وهنا نعود إلى السؤال الأول ، الذى أرجأنا الإجابة عليه ـ وهو :

لم استبدل عمر بخالد غيره ، وإن كان هذا الغير أبا عبيدة بن الجراح ؟

ونقول : إن عمر — رضى الله عنه — مع تقديره للرجلين — خالد ، وأبى عبيدة ، كان يرى أن أبا عبيدة يرجح خالداً ، ويفضله فى قيادة هذه المعركة بالذات ، وذلك لوجوه ، منها :

أولا : أن جيش خالد ، قد جاء من العراق ، مثقلا بالغنائم ، مزهواً بالنصر ، مفتوناً بخالد ، وكان هذا جديراً بأن يقيم بين جيوش المسلمين عزلة نفسية . . فهناك فريق قد أنهى معاركه ، وقضى على أعظم دولة ، ممثلا فى جيش خالد ، وهناك فريق آخر لم يصل بعد إلى نتائج حاسمة فى المعارك الدائرة فى الشام ، ممثلا فى جيوش الشام . . فإذا تولى خالد قيادة الجيوش كلها فى الشام أوقع هذا ـ دون شعور ـ انكساراً فى نفوس الجنود والقادة الذين كانوا يواجهون الروم ، فى الحال التى يوقع فيها ـ ومن غير شعور أيضاً — زهواً فى جيش خالد ، الذى جاء ظافراً غانماً .

وكان خير علاج لهذا أن يقوم على معركة الشام قائد من قواد جيوش الشام ، وأن يكتب الله تعالى نصر المسلمين على يده .. وذلك من شأنه أن

يرى الروم أن المسلمين الذين ندبوا لحربهم من أول الأمر ، هم الذين سيلقونهم في المعركة ، وأن الجيش القادم من فارس ، وقائده ليس إلا مجرد مدد للمســـلمين ، بعد أن فرغ من مهمته ، ليشارك في الغنائم الذي تنتظره في الشام !!

وثانياً : لو ظل خالد هو قائداً معركة الشام ، لدخل على نفوس كثير من الجند الذين وجهوا لحرب الروم أول الأمر بعض الفتور ، وأنه إن تحقق النصر للمسلمين على الروم بقيادة خالد ، لما شك أحد في أنه لولا خالد لما كتب للمسلمين النصر . . هذا شيء أوشبهه ، لا بد أن يدور في كثير من النفوس !

وأما ما يقال من أن المعركة معركة عقيدة ، وأن المشتركين فيها من المسلمين إنما يجاهدون في سبيل الله ، ويبذلون لذلك الأرواح في سخاء ، غير ناظرين إلى ما وراء ذلك من نصر أو هزيمة ، وإنما الذي يعنيهم أولا ، وقبل كل شيء ، هو إخلاص النية ، وصدق البلاء في الجهاد ، ثم ليكن ما شاء الله وقدر .

وذلك حق ، ولكن مثله من الحق أن النفوس البشرية لا يمكن بحال أبداً أن تنفصل عن طبيعتها ، وإحساسها بوجودها . . فهؤلاء الجنود — أياً كانوا من إخلاص النية وصدق البلاء — فيهم طبيعتهم البشرية ، ويحبون أن يروا مكانهم وآثارهم في المعركة ، وألا يضاف النصر إلى غيرهم !!

وثالثاً : كان خالد في هذه الفترة يحتل مكانا عظيما من نفوس الجند — وبخاصة جنده الذين جاءوا معه من العراق — وهذا المكان يكاد يبلغ حد الافتتان به والثقة في النصر تحت رايته ، وأنه لو أخلى مكانه لزلزلت هذه الثقة من كثير من النفوس . . أما كتيح دولة مترامية الأطراف هي

دولة الفرس ، ثم هو قبل هذا قضى على جيوش المرتدين فى الجزيرة العربية التى كانت تهدد الإسلام . . ثم ها هو ذا مقبل على التهام دولة أخرى مترامية الأطراف ، هى دولة الروم .. فأى إنسان هذا ؟ وماذا يكون رأى الجند فيه ؟ إنه معجزة ، وإن النصر معقود بيمينه دون غيره من قادة الجيوش الإسلامية ..

أفلا يرى المستبصرون فى هذا ، أن خالداً سيكون بعد أن يكسب الحرب مع الروم ، ويستولى على دولتهم فى الشام ، سيكون موضع افتتان بل وفتنة للمسلمين ؟ فربما افتتن خالد نفسه ، وربما دعاه ذلك إلى أن يخالف الخليفة فى يوم من الأيام ، ويخرج عن سلطانه ، إن وقع بينه وبين الخليفة ما يقتضى الخلاف ، فى شئون هذه الدولة التى أقامها بسيفه ؟ إن لم يكن ذلك فى خلافة عمر ، فقد يكون فى خلافة من يخلفه ! ! ولو امتد أجل خالد سنوات فرأى بعينه كيف كان موقف معاوية من الخليفة على بن أبى طالب ، وكيف رفع راية العصيان فى وجهه ، وجرد السيف لمحاربته ؟ .

فهل كان خالد يقف متفرجا فى هذا الموقف ؟ ألا تنزع به نفسه أن يقف جبهة وحده — وسيفه معه — لينازع علياً ومعاوية معاً ؟ ثم ألا يرى أنه أولى من معاوية الذى أصبح والياً على الشام الذى هو إحدى الدول التى فتحها خالد بسيفه ؟

لقد وضع عمر — رضى الله عنه — هذه الصورة فى نفسه لخالد ، ونظر إليه من هذه الجوانب كلها ، بما تنفذ إليه بألمعيته ، وبصيرته فى الاستهداء إلى مواطن القوة أو الضعف فى الرجال ، وربطهم بالتبعات التى يحملونها ، أو إعفائهم منها ، فرأى من المصلحة أن يخلى خالداً من هذا المكان ، إذ رأى فيمن بين يديه من الرجال ، من يقوم مقامه ، ولا يتوقع منه شىء مما يمكن أن يتوقع من خالد ! !

ولقد هم رسول الله ﷺ من قبل ، أن يعزل « خالداً » لما كان منه ، ولكن الإسلام فى ذلك الوقت كان فى حاجة شديدة إلى القوة ، كى يشتد ويقوى ، وخسارة الإسلام فى تخلى خالد عن مكانه إذ ذاك ، أكبر من الهنات التى كانت تقع منه .. ورسول الله ﷺ يقول : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .. ذلك أن للإسلام نصره ، وعليه هو فجوره .. لكن يحارب لمغنم ، أو شهرة ، أو حمية !

وكذلك كان الشأن فى خالد فى خلافة أبى بكر — رضى الله عنه — فلقد هم أبو بكر بعزله ، وكاد يمضى هذا العزل لو وجد من يسد مكان خالد ؛ ويغنى غناءه ، وخاصة فى حروب الردة ، التى لو لم يقف لها أبو بكر بحزمه ، ويلقاها خالد بسيفه ، لوهنت قوة المسلمين ، ولما تحققت للإسلام تلك الفتوحات التى تمت فى عهد الخليفتين : أبى بكر وعمر ، رضى الله عنهما ..

يقول ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » وهو يتحدث عن القوة ، وما لها من حساب فى موازين الرجال :

« ولهذا — أى والقوة — كان النبى ﷺ ، يستعمل خالد بن الوليد على الحرب ، منذ أسلم ، مع أنه كان — أى خالد — يعمل ما ينكره النبى ﷺ ، حتى إنه — أى النبى — رفع مرة يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما فعل خالد » ! ومع هذا فما زال ﷺ يقدمه فى إمارة الحرب ، لأنه كان أصلح فى هذا الباب من غيره » . . . . .

« وهكذا كان أبو بكر ، خليفة رسول الله ﷺ ، يستعمل خالداً فى حروب أهل الردة ، وفى فتوح العراق والشام ، وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل ، وقد ذكر له عنه أنه كان له — أى خالد — فيها هوى ، فلم

يعزله ، بل عتبه عليها ، لرجحان المصلحة على المفسدة فى بقائه ، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه » [(١)]

* * *

التقت نظرة عمر ، مع نظرة رسول الله ﷺ ، ومع نظرة أبى بكر ، فى خالد ، فى أنه قوة مسعفة للمسلمين حين الحاجة إليه ، وإن كان فى هذه القوة موضع لذم ، أو عتب ! فإنه مع الضرر القليل إلى النفع الكثير ، يتجاوز عن هذا الضرر لكثرة النفع !

ولو وجد الرسول ﷺ قوة يستغنى بها عن خالد لنحاه عن موضعه ، ولو وجد من يغنى غناءه لنحاه عن موضعه ، ولكنه أبقاه على هناته لغلب الخير فى بقائه على الخير فى عزله .

وكذلك كان شأن أبى بكر مع خالد إلى جانب الخير فيه ، ورجحان هذا الجانب على ما كان يقع منه من هنات !

أما فى عهد عمر ، فإن الوضع قد اختلف :

فأولا : قويت شوكة الإسلام ، وخلصت الجزيرة العربية كلها من الشرك ، وأصبح العرب جميعا يداً واحدة مع الإسلام .. ثم فتح الله على المسلمين دولة الفرس ، وملك كسرى .. وها هم أولاء يدقون أبواب مملكة « قيصر » .. فالإسلام اليوم يملك من قوة الرجال والعتاد مالم يكن له من قبل ، وحاجة الإسلام اليوم إلى خالد دون حاجته إليه بالأمس .

وثانياً : هناك الرجل الذى يقوم مقام خالد ـ وهو أبو عبيدة ـ وهو وإن فاته شىء من قوة خالد ، وبصره بالحروب ، فإن هذا الشىء لا يقوم

(١) السياسة الشرعية ، فى إصلاح الراعى والرعية ، لابن تيمية .

إلى جانب الأضرار التى قد تنجم من الاحتفاظ بخالد فى مكانه ، والتى نجملها فيما يلى :

١ — خلق جو من الانفصال النفسى بين الجنود القادمين من العراق بقيادة خالد ، وما بين أيديهم من مغنائم ، وما فى صدورهم من اعتزاز بالغلب والظفر — وبين إخوانهم المحاربين فى الشـــام الذين لم يظفروا بعدوهم بعد .

٢ — ما يدخل على نفوس الجند وقادتهم الموجهين لحرب الشام من فتور وانـكسار فى معالجة الحرب ، إذ يقدرون أنهم إذا انتصروا فى المعركة على الروم ، فإن هذا النصر إنما يضاف إلى خالد ، وجيش خالد !

٣ — ما يتسرب إلى نفوس الجنود ، وغيرهم من الافتتان بخالد ، وما قد يدخل على نفس خالد من الافتتان بنفسه .

٤ — ما قد يقع فى صفوف المسلمين من انـكسار ، وضعف لو أن خالداً قد مات ، أو قتل ، قبل المعركة ، أو أثناءها ، وهذا أمر محتمل وقوعه فى آية لحظة ، وما قد يدخل على جند الروم من طمع فى المسلمين ، وقد مات أو قتل قائدهم الذى يعلقون النصر عليه . من أجل هذا ، رأى عمر أن ينحى خالداً ، وأن يعطى زمام المعركة ، وقيادتها لأبى عبيدة بن الجراح ، وفى حسابه أنه إذا خسر شيئاً فى عزل خالد ، فإنه سيكسب أضعاف هذا الشىء فى عزل خالد أيضاً .

والذى يكسبه المسلمون المواجهون للروم من عزل خالد ، واستبدال أبى عبيده بن الجراح به ، هو :

أولا : أن الروم ، الذى سمعوا الـكثير عن خالد ، وما فعله فى حربه

مع الفرس ـ إذ سمعوا بعزل خالد ، وتوليته قائد آخر مكانه ، دخل عليهم أن عند المسلمين من هو أعظم من خالد ، وأقدر فى مواجهة الأعداء ، وأنهم إذا كانوا قد سمعوا عن خالد ما سمعوا من أفانين بطولاته فى الحروب ، فإن ما خفى عنهم من أمر القائد الجديد أعظم .. وهذا من شأنه أن يلقى الرعب والفزع ، من هذا المجهول الذى رماهم به خليفة المسلمين !!

وثانيا : أن يرى الروم ، والمسلمون أيضاً ، قوة السلطان القائم على أمر الدولة ، وأن هذا السلطان الممثل فى الخليفة ، سلطان نافذ الأمر مطاع الحكم ، لا يراجعه أحد ، حتى ولو كان أكبر قائد عرفه المسلمون . . وفى هذا دلالة على قوة الدولة ، وتماسكها ، وأنها جسد واحد : رأس يفكر ، وأعضاء تعمل . . وهذا من شأنه أن يرهب العدو ، ويريه أنه إن كسب معركة ، فإنه سرعان ما تلقاه الدولة كلها بقوى مهيأة لمعالجة مثل هذا الأمر المتوقع ، والذى لا يغفل عنه القائد الحكيم ، القائم على أمور الدولة !

وثالثاً : أن خالداً ـ رضى الله عنه ـ كان عظيما ، حين تلقى الأمر بأن ينزل عن القيادة ، ليتولاها أبو عبيدة .. حيث استجاب خالد على الفور ، ودخل فى صفوف الجيش جنديا من جنود المسلمين .. وهذا مما أكد للروم أن تولية أبى عبيدة وراءها خطر دونه الخطر الذى كانوا يتوقعونه من خالد . . خاصة وأنه لم يقع فى صفوف الجند الذى كانوا مع خالد أى تذمر ، ولم يستشعر الروم الراصدون لجيش المسلمين أية بادرة تدل على أن شيئاً ما قد حدث فى صفوف المسلمين !!

• • •

الفصل الثامن

عمر وجمع القرآن الكريم
في عهد أبي بكر الصديق

توفى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولم يكن القرآن مكتوباً كتابة جامعة ، وإن كان عند بعض الصحابة الكتاب كله ، فى نسخ خاصة بهم ، فى حين أنه كان محفوظاً حفظاً كاملا فى صدور كثير من صحابة رسول الله ﷺ .

فلما كانت خلافة أبى بكر ، وحروب الردة ، التى استشهد فيها كثير من حفظة القرآن ، كانت الحال داعية إلى كتابة كتاب الله ، فى نسخة تكون عند خليفة المسلمين ، يرجعون إليها ، إذا اختلفوا فى آية ، أو كلمة من آية . .

أخرج البخارى ، عن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال :

« أرسل إلى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ لمقتل أهل اليمامة ، وعنده عمر ، فقال أبو بكر : « إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر ـ أى اشتد وكثر ـ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بقراء القرآن فى المواطن كلها ، فيذهب قرآن كثير ، وإنى أرى أن يجمع القرآن » قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى فى ذلك حتى شرح .

وصدقت فراسة عمر ـ رضى الله عنه ـ فى هذا الموقف فى أكثر من أمر :

فأولا : فى تقديره لقوة المسلمين الروحية ، والنفسية ، وقوة عدوهم ، نفسياً وروحياً ، كما لمح بفراسته وألمعيته ، أن موجة الزحف الإسلامى لن تنكسر ، بعد أن بلغت ما بلغت ، وخاصة بعد أن هوى عرش كسرى ، واهتز عرش قيصر !

وقد تحقق هذا فعلا بانتصار المسلمين بقيادة أبى عبيدة على الروم فى المعركة الفاصلة ، التى انتهت بحصار بيت المقدس ، ثم تسليمه ، واستسلام أهله للمسلمين ، وليد الخليفة عمر بالذات .

ثانياً : فيما أحس به عمر ـ رضى الله عنه ـ من افتتان الجند بخالد ، وما حسب لهذا من نتائج خطيرة على مستقبل الإسلام ، مضافاً إلى هذا ، تلك النكسة التى تحدث فى الجبهة الإسلامية ، فيما لو أخلى خالد مكانه بالموت أو الاستشهاد !

ولقد ظهرت بوادر هذا فعلا حين أبطأ فتح الشام ، وتأزمت الأمور فى يد أبى عبيدة ، بعد أن تولى القيادة العامة ولم تأخذ المعركة طريقها إلى الأمام ، كما كان يقدر لها .. حتى لقد كثر تلفت المسلمين ، وسمعت أصوات كثيرة تقول : لو كان خالد !! لو كان خالد !؟

روى عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ وكان جندياً فى جيش أبى عبيدة القائد العام ـ أنه سمع رجلا يقول : لو كان خالد بن الوليد ما كان بالناس ذو كان[1] » . . فقال معاذ منكراً هذا القول : « فإلى أبى عبيدة

---

(١) ذو كان ، أى الذى كان ، فذو عند بعض قبائل العرب — وهى قبيلة طىء — بمعنى الذى .. يقول شاعرهم :

فإن الماء ماء أبى وجدى ... وبئرى ذو حفرت وذو طويت

أى وبئرى الذى حفرته ، والذى طويته .

تجر المعجزة[٢] لا أبالك ؟ والله إنه لخير من على الأرض »! وتلك شهادة لأبى عبيدة من هذا الصحابى الجليل ، حسبه بها من شهادة !

ولا يقف هذا الشعور بالحاجة إلى خالد فى ساعة العسرة عند قولة تقال ثم تمضى . . بل لقد تنادى الناس بهذا ، وارتفعت به أصواتهم فى ميدان المعركة ، حتى لقد بلغت أسماع الخليفة فى المدينة !!

ولهذا ، فإنه — رضى الله عنه — حين استقبل بشارة الفتح والنصر على يد أبى عبيدة ، لم يملك شعوره فى هذه اللحظة ، فهتف قائلا : «الله أكبر . . رب قائل لو كان خالد ؟ ! «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . . فلو كان النصر بالرجال والعتاد لكان الروم أولى به ، ولكنه النصر الذى وعد الله تعالى به المؤمنين من عباده ، الذين باعوا أنفسهم لله . . والله تعالى يقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

وثالثاً : فيما كان قدره عمر ، وتخوف منه ، هو أن شيئاً من الزهو والغرور ، قد يلابس خالداً ، فتسول له نفسه أن يشق عصا الطاعة ، أو يخرج على الجماعة ، بما اجتمع له من حب وولاء فى نفوس المجاهدين ، وذلك إذا لم يجد القوة التى تصده ، وتحد من سلطانه ، وتنزله وهو فى أوج عظمته من مكانه ، الذى تجلت فيه قوته وشخصيته فى أرفع منازلها . .

وقد ظهر صدق هذه الفراسة العمرية ، حين كشف خالد عن بعض نفسه فإذا هو كما قدر عمر . . فخور بمكانته ، معتز بأمجاده ، يطاول الخليفة ويجادله !

وأى خليفة يطاوله خالد ، ويجادله ؟ .. عمر ؟ فكيف بغير عمر إذن ؟ . .

---

(٢) أى العجز .

روى أنه حين عزل خالد ، وتولى أبو عبيدة القيادة العامة مكانه ، قام خالد ، فخطب فى الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « إن أمير المؤمنين أبا بكر استعملنى على الشام ، حتى إذا كانت بثنية[1] وعسلا ، عزلنى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وآثر بها غيرى . » فقام إليه رجل فقال : صبراً أيها الأمير ، فإنها الفتنة إذن ؟ فقال خالد : أما وابن الخطاب حى فلا » ! !

« أما وابن الخطاب حى ، فلا ؟ » إذن فالفتنة كانت محتملة لو كان الخليفة غير عمر !!

ظاهرة جديدة فى ولاة عمر وقواده ، تلك التى كانت من خالد فى موقفه هذا ! فما وقف أحد من الخليفة عمر هـــذا الموقف الذى يشبه التحدى والعصيان ! ! وأى شىء فى أن يعزل الخليفة أحـد ولاته أو قواده ؟ لقد فعل عمر ذلك عشرات المرات ، فما راجعه أحد !! ولكن المعزول فى هذه المرة ، خالد بن الوليد ! ! !

فها هو ذا خالد يجمع الجند ، ويخطبهم ويتهم الخليفة بالظلم والمحاباة .. فما هذا ؟ أليس ذلك دعوة سافرة إلى العصيان والتمرد ؟ أليس ذلك الصوت المنبعث من بعض جنوده : « صبراً أيها الأمير ، فإنها الفتنة ! ! » أليس هذا نذير حرب بإعلان التمرد على الخليفة ؟ وكيف ينادى خالد المعزول بلقب الإمارة بعد عزله ؟ أليس هذا رفضاً لقرار العزل ؟ وخالد لا يسكت هذه الصيحة ، ولا ينكرها ، ولا يغير صفتها بأنها فتنة ، وإنما يرجئها إلى الوقت المناسب .. فعمر هو الخليفة .. وهيهات أن ينال أحد من عمر !

---

(١) البثنية : نوع من دقيق الحنطة الناعم ، يريد أن الشام قد أصبحت لحمة سائغة فى يد العرب !

«أما وعمر حى فلا» !! فتى إذن؟ لا ندرى .. ولكن قد حسم عمر الداء وأمات هذه الفتنة ! !

* * *

إن ما فعله عمر - رضى الله عنه - مع خالد ، هو الذى تمليه المصلحة وتتطلبه الحكمة ، ويقضى به النظر البعيد ، فى تقدير الرجل المسئول عن صيانة الدولة ، ودفع ماقد يهدد سلامتها ، ووحدتها ، وطابعها الذى طبعت به ، ونظامها الذى قامت عليه !

وإذن ، فإن الذى ينبغى أن نطمئن إليه كل الإطمئنان ، هو أن عزل خالد لم يكن عن هوى فى نفس عمر ، كما أنه لم يكن عن انتقاص لفضل خالد ، وما أبلى فى سبيل الإسلام .. فعمر فى دينه ، وخلقه ، ومروءته أجل من أن يغلبه هواه ، وما غلبه هواه أبداً ، فى قائد من قواد المسلمين ، أو فى وال من ولاتهم - فكيف يغلبه هواه فى أبرز قواد المسلمين وأشدهم بأساً على العدو ، ونكاية فيه ؟ وخالد فى خلقه ، ودينه ، ومروءته ، أكبر من أن يكون موضع ظنة أو تهمة عند عمر ! !

ولكن مقتضيات الأمور ، ورعاية الصالح العام ، كان لهما الشأن الأول فى هـــــذا الحدث ، ومنهما استملى عمر رأيه ، وعنهما أصدر عمر حكمه !

وقد شهد الواقع بهذا ، فجاءت النتائج كلها مصدقة لما كان يتخوفه عمر أو يتوقعه ..

وانتصر المسلمون بإيمانهم ، ولم ينتصروا بخالد ، الذى كاد يطغى الشعور به فى بعض النفوس على الشعور بالدين الذى يدافعون عنه ، ويقاتلون تحت

رايته ، وينتصرون بما يمدهم الله تعالى به من روحه . . فعلم من لم يكن يعلم أن الله ينصر دينه بخالد ، أو بغير خالد !

ثم لقد سلم لخالد إيمانه بهذا التدبير الحكيم من عمر بعزله ، فلم يفتتن بانتصاراته ، وقد شهد بعينيه انتصار المسلمين العظيم بقيادة أبى عبيدة ابن الجراح .

* * *

وواقع الحال فى هذه الحادثة لم يكن ليستوجب الخوض فيها ، والجدل حولها على هذا النحو الذى وقع فى كتب السيرة ، وجرت به أقلام كتابها من قدامى ومحدثين . . فالأمر فى ذاته قد مر فى حينه ، غير مخلف وراءه أثراً فى نفس كل من صاحبيه : عمر وخالد . .

فعمر كان يعرف قدر خالد وفضله ، فإذا ذكر خالداً ، فلا يذكره إلا بخير . . يحمد له بلاءه فى المنافحة عن الدين ، ويمجد بطولاته فى المعارك التى كسبها للإسلام . . وإذا سأله خالد عن سبب عزله قال له : « إن الناس قد افتتنوا بك ، فخشيت أن تفتتن بالناس !! » .

ويذكرنا هذا بما فعله عمر مع نصر بن حجاج . إن كل جناية نصر ، هو جماله الذى فتن الحرائر به . . وقد نفاه عمر إلى البصرة خشية أن يفتن حرائر مدينة الرسول ، وخوفاً على نصر ذاته أن يفتتن !! فالعبقرية الحربية عند خالد ، تعدل هذا الجمال الآسر عند نصر بن حجاج . . كلاهما مصدر افتتان وفتنة للناس ؛ ولصاحبها !

ثم إن عمر – رضى الله عنه – يستبرىء لدينه فى عزل خالد ، فيكتب إلى أمراء الأمصار بالسبب الذى من أجله عزل خالداً ، فيقول : « لم أعزله

لسخطة . ولا لخيانة ، ولـكن الناس فتنوا به ، وخشيت أن يوكلوا[1] ويبتلوا . فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة !! » .

أما خالد ـ رضى الله عنه ـ فإنه يعلم عن يقين أن عمر لم يعزله عن هوى فى نفسه ، ولا لسابق عداوة فى الجاهلية كانت بينه وبينه ، وإن تـكن من خالد غضبة لهذا العزل ، فهى غضبة طارئة ، أعجلها فى نفسه بعض ماله من مجد فى صناعة الحرب .. ولـكنه سرعان مافاء إلى دينه ومروءته ، فوجد أن للخليفة ما يرى ، وعليه هو الامتثال والطاعة .. وقد فعل ، فانضوى إلى جيوش المسلمين جندياً من الجنود ، يقاتل تحت إمرة أبى عبيدة الذى كان هو أميراً عليه بالأمس .. إنه يجاهد فى سبيل الله ، حيث كان مكانه بين المجاهدين ، جندياً أو قائداً ، سواء أكان الخليفة عمر أو غيره .

ويسوى الحساب على هذا ، بين الرجلين .. فيلقى كل منهما ربه راضياً عن صاحبه ..

فهذا عمر ـ رضى الله عنه ـ يقف بين جنود المسلمين فى الجابية بالشام ويخطب فيهم ، فيقول : « إنى أعتذر إليكم عن عزل خالد ، فإنى أمرته أن يحبس هذا المال ـ أى مال الفىء ـ على ضعفة المهاجرين فأعطى ذا البأس وذا الشرف ، وذا اللسان ، فأمرت أبا عبيدة ! !

ولمكانة خالد من نفس عمر ، فإن عمر ـ رضى الله عنه ـ لم يمنع نساء قريش البكاء عليه ، وكان يقول : « وما على نساء قريش أن يبكين أبا سليمان ، مالم يكن نقع أو لقلقة[2] على مثل خالد تبكى البواكى » .. وسمع عمر أم خالد تندبه بقولها :

(١) أى يتكلوا على يمن خالد وعبقريته ، فتفتر نفوسهم عن الحرب وهو معهم .

(٢) المراد بالنقع ، هو أن يذرن الغبار ، على وجوههن ، واللقلقة : الندب على المفقود ، وشق الجيوب .

أنت خير من ألف ألف من الـ قوم إذا ما كبت وجوه الرجال[1]

فقال عمر : صدقت ، والله إنه لكذلك .

هذا ما انتهى إليه أمر الرجلين فيما كان بينهما : صفاء في القلوب ، ورضى في النفوس .. ولكن نزعات الفرقة التي بدأت تظهر في جماعة المسلمين بعد موت عمر ، لفتت الأنظار إلى هـذه الحادثة ، فجعلوها مادة القول ، ومداراً للجدل والفرقة .. ففريق ينتصر لعمر ، ويصوب رأيه في عزل خالد ، وفريق ينتصر لخالد ويخطىء عمر في هذا العزل .. ولم لا يكون هذا ، وهناك فرق متخالفة تولد كل يوم في محيط الإسلام؟ فريق مع عثمان - رضى الله عنه - وفريق عليه ، وفريق مع علي ، وطائفة مع عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها وطلحة والزبير ، وجبهة مع علي - كرم الله وجهه - وجبهة أخرى مع معاوية . وهكذا تتولد الفرق ، حتى تطل فرقة الخوارج برأسها .. فيفتح الباب على مصراعيه !

* * *

---

(١) كبا الرجل يكبو ، إذا سقط على وجهه !

الله صدرى للذى شرح له صدر عمر ، ورأيت فى ذلك الذى رأى . فقال زيد ، قال أبو بكر : « وإنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى ، لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن ، فاجمعه » .

قال زيد : فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل على ، مما كلفنى به من جمع القرآن .. فقلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر : هو والله خير !! . . فلم يزل يحث مراجعتى ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، ورأيت فى ذلك الذى رأيا .. فتتبعت القرآن أجمعه من العسب (أى جريد النخل) والرقاع ، واللخاف (الخزف) وصدور الرجال فوجدت آخر سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخرها مع أبى خزيمة ، فألحقتها فى سورتها ، وكانت الصحف عند أبى بكر حياته ، حتى توفاه الله عز وجل ، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر ، وعنها نسخ عثمان مصاحفه التى أرسلها إلى الأمصار » .

هذا ما كان من عمر — رضى الله عنه — فى كتابة المصحف ، أيام خلافة أبى بكر . وقد كان ذلك عملا جليلا ، لم يكن يجرؤ عليه أحد غير عمر ، رفع به الخلاف بين المسلمين ، وسد على ذوى الأهواء أن يدخلوا فى كتاب الله ، كلمة ، أو يحذفوا كلمة ، وإن كان الله تعالى قد تولى حفظة القرآن الكريم إذ يقول سبحانه . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

فإن هذا الذى كان من عمر — رضى الله عنه — هو مما حفظ الله تعالى به كتابه .

---

(١) سورة الحجر . ٩

عمر وموقفه من السنة :

يروى عن رسول الله ﷺ قوله : « لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب شيئاً سوى القرآن فليمحه » . . وذلك حتى لا يخالط القرآن شيء من حديث رسول الله ، من حديث قدسى ، أو غير قدسى ، وحتى لا يشغل المسلمون بشيء غير القرآن ، كتابة وحفظاً ، وفهماً وعملا . . وذلك حسبهم ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قائم فيهم ، مرشداً ومعلماً ومقوماً .

فلما أخلى رسوله ﷺ مكانه من بينهم ، كان لا بد من أن يظل — صلوات الله وسلامه عليه — قائماً فيهم بأقواله ، وأفعاله ، وأوامره وزواجره . . فإذا جاءهم أمر لم يجدوا فى كتاب الله بياناً له ، رجعوا إلى سنة رسول الله ﷺ الذى هو مبين لما فى كتاب الله ، كما يقول الله سبحانه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم ولعلهم يتفكرون »[1] .

وقد رأينا كيف أقدم عمر على جمع القرآن ، وكيف أنه مازال يراجع أبا بكر فى هذا الأمر حتى وافقه على ذلك !!

ولكن عمر — رضى الله عنه — كان فى موقفه من جمع السنة وكتابتها ، حذراً ، بل ومحذراً . .

وذلك ، لأن رسول الله ﷺ كان قد نهى عن كتابة سنته ، بل وأمر من كتب شيئاً منها أن يمحوه . .

ثم إن أبا بكر — رضى الله عنه — ألزم الناس ذلك مدة خلافته . . فقد

---

(١) سورة النحل : ٤٤ .

روى أنه ـ رضى الله عنه ـ جمع الناس بعد وفاة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقال : « إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ ، أحاديث تختلفون فيها ، والناس بعدكم أشد اختلافاً ، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً ، فمن سألكم فقولوا : بيننا وبينكم كتاب الله ، فاستحلوا حلاله ، وحرموا حرامه » .

وليس يعنى هذا من أبى بكر ألا يستحضر الشاهد ما يحضر من أقوال رسول الله وأفعاله فى أى أمر يعرض للمسلمين مما ليس فى كتاب الله .. وكيف؟ وقد كان أبو بكر وعمر ، وغيرهما من الصحابة ، يطلبون أقوال رسول الله وأفعاله فى الأمر الذى لا يجدون له متأولا فى كتاب الله ، وينشدون أصحاب رسول الله أن من كان عنده من رسول الله ﷺ شيئاً من هذا ، فليأت به؟ فإذا جاء بالخبر من يوثق به فى دينه ، وخلقه ، كان ذلك مقطع الحكم فى الأمر الذى بين أيديهم .

فلما كانت خلافة عمر سار سيرة أبى بكر فى شأن السنة النبوية ، وأمر الناس ألا يحدثوا عن رسول الله ﷺ لئلا يختلفوا !!

وإنما يقع الاختلاف هنا ، حين يكون الهوى ، حيث لا يمكن أن يقع اختلاف فى حديث عن رسول الله ، قد صحت روايته عنه ، لأنه لا يكون إلا بيـــاناً لما فى كتاب الله ، ينزل من قلب كل مسلم برداً وسلاماً !!

وقد كان من حرص عمر ، على ألا تكثر الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى هذا الوقت الذى لم يكن بعد عن زمن النبوة ، ولم تجد أحداث كثيرة ، تتطلب أحكاماً لم تكن جارية فى عهد الرسول الكريم .. فكان منه ـــ رضى الله عنه ـــ هذا الزجر لثلاثة من كبار الصحابة ، حين أكثروا

من الحديث عن رسول الله ، وهم ابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو مسعود الأنصارى . .

ومن وصاة عمر — رضى الله عنه — لبعض الصحابة ، وهم ذاهبون إلى العراق ، قوله لهم : « إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث ، فتشغلوهم ، ولكن جودوا القرآن ، وأقلوا من الرواية عن رسول الله ، وأنا شريككم » أى وأنا أفعل هـــذا الذى أدعوكم إليه . .

فالذى نهى عنه عمر — رضى الله عنه — هو الإكثار من رواية الأحاديث النبوية فى غير الحال الداعية إلى ذلك ، أما إذا دعت الحال إلى استحضار حديث أو أكثر لرسول الله فى واقعة من الواقعات . فذلك أمر واجب لابد منه ، لأن غير ذلك يعد من كتمان الحق فى مقام الشهادة على هذه الواقعة وهذا ما قصد إليه عمر — رضى الله عنه — من دعوته إلى الإقلال من التحديث بأحاديث الرسول — صلوات الله وسلامه عليه .

والحق أن عمر — رضى الله عنه — كان ينظر إلى سنة رسول الله نظرته إلى كتاب الله تعالى ، من حيث إنها المبينة لكتاب الله ، والمصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى . وأنه — رضوان الله عليه — فكر طويلا فى أن يجمع السنة كما جمع القرآن بمشورته ، فى عهد أبى بكر — رضى الله عنه — ولكنه ، فكر — من جهة أخرى — فرأى أن ذلك مما قد ينازع القرآن مكانته من المسلمين ، حفظاً ، وتلاوة ، وفهماً . .

ولم يشأ عمر — رضى الله عنه — أن يقطع فى هذا الأمر برأى ، فعرض الأمر على الصحابة — رضوان الله عليهم — فوافقه أكثرهم على جمع الحديث . . ولكنه مع هذا ظل زمناً يراجع نفسه ، ويطيل المراجعة ، ويستخير الله

ـ عز وجل ـ فى أن يمضى هذا الأمر ، أو يدعه على ما هو عليه ؟ ثم إنه انتهى إلى الرأى الذى ارتضاه ، فجمع الناس ، وقال لهم : « إنى كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم إنى ذكرت أن أناساً من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبداً »!! وعدل عن كتابة أحاديث الرسول ، وأعلم الأمصار بذلك ..

وقد كانت نظرة عمر فى هذا من النظرات الصائبة ، فإن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، قد ألحقوا بالتوراة والإنجيل ، كثيراً من الكتب المنسوبة إلى الأنبياء ، والحواريين ، حتى انكمش ظل التوراة والإنجيل بين هذه الكتب ، التى عمل بها اليهود والنصارى ، وتركوا العمل بالتوراة والإنجيل ، وحتى لقد حملهم ذلك على أن يغيروا كثيراً من نصوص التوراة والإنجيل ، حتى يستقيم وجهها على ما فى هـــذه الكتب من مفتريات وأباطيل ..

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما أحدثه « بولس » الملقب بالرسول عند المسيحيين ، وما أودعه من رسائل ألحقت بالأناجيل ، مخالفة للكثير مما فيها ـ على ما لحقها من تحريف ـ فقد أصبحت هذه الرسائل وغيرها مما ضم إلى الإنجيل منها ، هى الحاكمة على الإنجيل ، والمصححة لمفاهيمه ، حيث أحل للمسيحيين فيها أكل الخنزير ، المحرم فى التوراة والإنجيل ، كما حرم عليهم فى هذه الرسائل « الختان » إذ قال بولس : « إنما الختان بالقلب » .. مع أن الختان هو شريعة التوراة ، التى هى شريعة كل من يدين بالمسيحية ، وقد اختتن المسيح نفسه ، كما اختتن الحواريون ، اتباعاً لشريعة التوراة ، [

وإمضاء للعهد الذى أخذه الله تعالى على إبراهيم – عليه السلام – وذريته من بعده ، بأن يختتنوا جميعاً..

وهكذا ترك المسيحيون العمل بالإنجيل ، وعملوا بما فى رسائل « بولس » وغيره ، مما ألحق بالإنجيل من رسائل دعاة المسيحية الأولين !!

وإذن ، فقد كان عمر – رضى الله عنه – يخشى على المسلمين ، حين يستكثرون من رواية الأحاديث النبوية ، أو فى جمعها فى كتاب أو كتب – أن يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى . من أن يكثر الكذب على رسول الله ، وأن يروى عنه – ﷺ – عمداً ، أو غير عمد – ما لم يقله ، وهنا تفتح أبواب الفتنة على المسلمين ، الأمر الذى حذر منه الرسول ﷺ وتوعد المتقولين عليه ، وذلك فى قوله : « من كذب علىّ متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار » .

وقد وقع ما حذر منه رسول الله ، وتوعد عليه ، فإنه ما إن وقع الخلاف بين المسلمين ، وما إن تفرقت فرقهم ومذاهبهم ، حتى كثر الوضاعون الذين تقولوا على الرسول الكريم ، حتى لقد كان الذى افتراه المفترون على النبى أكثر مما صح عنه .. حيث ذهبت كل فرقة وكل جماعة تؤيد مذهبها بأقوال تنسبها إلى رسول الله ﷺ فإذا أعوزها الحديث الصحيح ، جاءت بالمفتريات على رسول الله ، وخاصة إذا كان افتراقها عن هوى ، لغاية تبتغيها من مال أو سلطان . . فهذا الذى كان يخشاه عمر – رضى الله عنه – حين نهى عن جمع أحاديث الرسول – صلوات الله وسلامه عليه .

ونسأل : لو أن عمر – رضى الله عنه – جمع أحاديث الرسول ﷺ فى عهد خلافته ، وختم عليها بحيث لا يقبل حديث يضاف إلى هذا المكتوب

المختوم - أكان يمكن أن تدخل هذه الأحاديث الموضوعة التى تبلغ عشرات الألوف على الأحاديث الصحيحة ، كما حدث هذا ، بعد عمر ؟

ونجيب على هذا من وجهين :

الوجه الأول : أنه ما كان يمكن - فى أيام عمر - جمع ما صح عن رسول الله - ﷺ - من سنته القولية والفعلية ، والتقريرية . وذلك لأن الذين سمعوا من رسول الله ورأوا من أفعاله وتقريراته ، هم أعداد كثيرة ، لا تحصر ، وأن كثيراً من هؤلاء ، قد تفرقوا فى جهات كثيرة ، فى مصر ، والشام ، والعراق .. ومنهم الرجال ، والنساء .. فجمع الأحاديث التى كان يمكن أن تجمع فى عهد عمر ، والوقوف عند هذا الذى جمع ، يذهب بكثير من السنة النبوية ، التى تحمل كثيراً من الهدى النبوى ، فى الأحكام ، والأخلاق ، والآداب !

والوجه الثانى : أنه لو جمع عمر الأحاديث النبوية ، وحصرها فى العدد الذى جمعه ، فإن ذلك لا يمكن أن يمنع صحابة رسول الله - ﷺ ، أن يتحدثوا بما سمعوا ، ورأوا من رسول الله ، فى أية حال تعرض لهم ، مما فيه خير الناس ، لأنهم بهذا إنما يحملون علماً ، من أصدق العلم وأنفعه ، فكيف يكتمونه ، والرسول - ﷺ يقول : « من علم علماً فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار » .

هذا ، وقد عرض المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، فى كتابه : « الفاروق عمر » - عرض لهذه القضية ، وناقشها مناقشة العالم الباحث عن الحقيقة ، لا يبغى غيرها ..

يقول المرحوم « هيكل » : أكان عمر على حق حين عدل عن كتابة السنن ، وأمر بمحو ما كان مكتوباً منها ، أم كان مخطئاً ، فكان لخطئه نتائجه من بعده ؟ » .

ويجيب المرحوم هيكل على هذا التساؤل بقوله :

« تستطيع أن تقول إنه أخطأ ، وإن مر الزمن على خطئه ، فقد بدأت الأحاديث من بعده تتوالد ، وتتداول إلى غير حد .. فمنذ عادت الخصومة بين بنى أمية وبين بنى هاشم إلى الظهور ، فى أعقاب مقتل عثمان ، ثم لما قامت الحرب الأهلية بين على ومعاوية ، فخاصمت عائشة علياً ، وأيد علياً من أيده ، كثرت الأحاديث الموضوعة لعلى وعليه كثرة أنكرها على فى حياته ، فقال : وقد سئل : هل عندكم من علم اختصكم به رسول الله - ﷺ «ما عندنا من كتاب نقرؤه عليكم إلا ما فى القرآن ، وما فى هذه الصحيفة التى أخذتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها فرائض الصدقة » - أى الزكاة - .

ثم يقول الدكتور هيكل :

ولم يمنع هذا القول - من على رضى الله عنه - واضعى الحديث عن وضعه ، لهوى يدعون الناس إليه ، أو لفضائل يحسبون أن الناس أحرص عليها ، حين ينسب إلى رسول الله حديثها .. وكثرت الأحاديث الموضوعة لأغراض سياسية أو غير سياسية ، كثرة راعت - أى أخافت - المسلمين ، لمنافاة الكثير منها ، لما فى كتاب الله ..

ويمضى « هيكل » فيقول :

« تستطيع أن تقول هذا — أى أن عمر قد أخطأ فى موقفه هذا من تدوين السنة — وأن تكون لك شبهة فى هذا » .

ونلاحظ أن المرحوم هيكل إنما يجعل هذا الذى يقال فى حق عمر - رضى الله عنه - جارياً على لسان غير لسانه وهو الذى لا يرى هذا الرأى ، الذى قد يراه غيره ..

ولهذا نرى المرحوم هيكل ، يتصدى لتفنيد هذا الرأى الذى يخطىء عمر — رضى الله عنه — فى عدم تدوينه السنة ، ونهيه الناس عن ذلك . فيقول:

« ولكنك تكون غير منصف فى هذا الحكم ، وإن قامت لك الشبهة فيه. فقد كان عمر يحسب أن الذين يخلفونه من أمراء المسلمين سيسيرون سيرته فى النهى عن رواية الحديث ، وسيحبسون مثله من يكثرون من الحديث عن رسول الله ، فإذا لم يفعل هؤلاء الخلفاء ، بل تغاضوا — متعمدين — عن الأحاديث التى توضع لأسباب سياسية وغير سياسية ، فالذنب ليس ذنب عمر ، بل ذنب أولئك الخلفاء ، والذين شجعوا منهم على وضع الأحاديث أكبر جريرة وأعظم وزراً . . أفيكون من العدل — والأمر كذلك — أن ينسب الخطأ إلى عمر ؟

ثم يقول المرحوم « هيكل » :

« وهب أن عمر أمر بكتابة السنة ، ثم حدثت الفتنة من بعده ، وقامت الحرب الأهلية بين على ومعاوية ، وبين الأمويين وبنى هاشم ، واتخذت رواية الحديث عن رسول الله أداة للدعاية فى هذه الحروب وهذه الفتنة — أترى أن الناس كانوا يصدون عن كتابة الحديث الموضوع وروايته ؟ أم ترى كان الدعاة السياسيون ، يشجعون عليه ، ويجمعون منه مثل الذى جمع عمر ، ثم يضفى عليه أصحاب المصلحة فيه من سلطانهم الرسمى ما لم يضف مثله أحد ؟ ولا يكون عجباً بعد ذلك أن يصبح لهذه المدونات الرسمية من القيمة الدينية ، ما خشيه عمر ، حين قال : « والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبداً » . .

ثم ينتهى المرحوم هيكل إلى هذه النتيجة ، فيقول :

« أحسبك بعد هذا الذى سبق ، ترى أن اجتهاد عمر فى تدوين السنة ، وانتهائه إلى العدول عنه ، اجتهاد له ما يسوغه ، وافقته أنت على رأيه أو خالفته فيه » .

* * *

وندع القضية الآن بين يديك ، لترى رأيك ، ولتحكم بما ترى ، بعد أن اجتمعت لك الأدلة والشواهد ، التى لها أو عليها . .

* * *

الفصل التاسع

موت عمر

إذا كان مما قضى الله تعالى به فى خلقه أنه « كل نفس ذائقة الموت » ، و « لكل أجل كتاب » فقد ذاق عمر ـ رضى الله عنه ـ الموت ، واستوفى أجله المقـــدور له ، ولقى ربه بما قدم من عمل ، يرجو من الله سبحانه قبوله ومثوبته . .

وقد أكرم الله تعالى عمر ـ رضى الله عنه ـ فمات الميتة التى كان يشتهيها ، إذ مات بطعنة من أبى لؤلؤة المجوسى ـ لعنه الله ـ وهو ـ رضى الله عنه ـ يؤم المسلمين فى صلاة الصبح .. وكان ـ رضى الله عنه ـ يدعو الله أن يموت شهيداً ، فقيل له : وكيف ذلك وأنت هنا ؟ فقال : يفعل الله الخير !

عن عمرو بن ميمون ، قال ـ فيما رواه البخارى فى صحيحه ـ : إنى لقائم فى الصف ، ما بينى وبين عمر إلا عبدالله بن عباس ، غداة أصيب ، وكان إذا مر بين الصفين قال : استووا ، حتى إذا لم ير فيهم خللا تقدم ، فكبر .. وربما قرأ بسورة يوسف والنحل ، ونحو ذلك فى الركعة الأولى ، حتى يجتمع الناس .. قال فما هو إلا أن كبر ، حتى سمعته يقول : قتلنى ـ أو أكلنى ـ الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة ، فطار العلج[1] بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد ، يميناً ، ولا شمالا إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم تسعة ـ وفى رواية سبعة ـ فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه ثوبه ،

---

(1) العلج : صفة دم لكل أعجمى .

فلما ظن العلج أنه مأخوذ، نحر نفسه.. وتناول عمر ـ رضي الله عنه ـ عبد الرحمن ابن عوف، فقدمه للصلاة .. قال : فأما من كان يلي عمر، فقد رأى الذي رأيت، وأما من كانوا في نواحي المسجد، فإنهم لايدرون ما الأمر، غير أنهم فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله.. سبحان الله !! فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة .. فلما انصرفوا، قال عمر : يا ابن عباس : انظر من قتلني، فجال ساعة، ثم قال : غلام المغيرة بن شعبة !! فقال الصَّنَع؟[١] قال : نعم، فقال عمر : قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً، ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام . . قال، ثم حملوا عمر إلى بيته، وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ . . فقائل يقول : لا بأس، وقائل يقول : أخاف عليه . . فأتي بنبيذ[٢] فشربه، فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت !

قال : فجاء الناس يثنون عليه، فقال شاب : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله عز وجل، لك من صحبة رسول الله، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة ! ! فقال عمر : وددت أن ذلك كان كفافاً، لا عليّ ولا لي .. ثم نادى ابنه عبد الله، فقال له : انظر ما علي من دين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألف درهم، أو نحوها، فقال : إنْ وَفَى به آل عمر، فأده من أموالهم، وإلا فسل بني عدي ـ قبيلة عمر ـ فإن لم تف أموالهم فسل قريشاً، ولا تَعْدُهم إلى غيرهم . . انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل تقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست

---

(١) أي الذي يحسن صنعة من الصنائع . .

(٢) أي تمر مخلوط بماء، والماء الذي خلط بالتمر يسمى نبيذاً، وهو غير النبيذ المعروف الذي يخمر ويسكر . .

اليوم المؤمنين أميراً . . وقل يستأذنك عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فمضى عبد الله بن عمر إلى أم المؤمنين عائشة ، واستأذن ، وسلم ، ثم دخل عليها ، وقال : يقرأ عمر عليك السلام ، ويستأذنك أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسي ، ولأوثرنه به اليوم على نفسي . . وجاء عبد الله إلى أبيه ، فأخبره الخبر ، فقال عمر : الحمد لله ، ما كان شيء أهم لدي من ذلك الموضع ، فإذا أنا قبضت فاحملوني ، فإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين » .

لقد كان من أعز أمنيات عمر أن يلحق بصاحبيه ، رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان يقدر أن ذلك لن يكون له حتى يتأسى بهما ، وينهج نهجهما ، فإن هو خالف طريقهما خولف به ، ولم يصحبهما ميتاً ، كما كان يصحبهما حياً ، وهذا الشعور الذي كان مستولياً على عمر ـ رضي الله عنه ـ كان ذا أثر كبير في سياسة عمر ، وما أخذ نفسه به ، من أن يحيا حياة الرسول ، وحياة أبي بكر ، لا يلبس إلا ما كانا يلبسان ولا يأكل إلا ما كانا يأكلان ، على الرغم من أن ظروف الحياة قد تغيرت في عهده تغيراً كبيراً ، فكان وقوفه حيث هو أمراً لا يحتمله إلا أولو العزم من الرجال ، أولئك الذين كان عمر واحداً فذاً فيهم .

هذا ، ويروي ابن أبي الحديد ، عن وفاة عمر — رضي الله عنه — فيقول :

« فأما تاريخ موته ، فإن أبا لؤلؤة ـ لعنه الله ـ طعنه يوم الأربعاء ، لأربع بقين من ذي الحجة ، منذ ثلاثة وعشرين ، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين . . وكانت ولايته عشر سنين ، وستة أشهر . . وهو ابن ثلاثة وستين سنة ، في أظهر الأقوال . .

ثم يقول ابن أبى الحديد :

« وقد كان عمر — رضى الله عنه — قال على المنبر يوم جمعة ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأبا بكر : إنى قد رأيت رؤيا أظنها لحضور أجلى ، رأيت كأن ديكا نقرنى نقرتين ، فقصصتها على أسماء بنت عميس ، فقالت : يقتلك رجل من العجم ! ! وإنى فكرت أن أستخلف ، ثم رأيت أن الله لم يكن ليضيع دينه ، وخلافته التى بعث بها رسوله »[1] .

وروى ابن شهاب قال : كان عمر — رضى الله عنه — لا يأذن لصبى من غلمان العجم — قد احتلم فى دخول المدينة ، حتى كتب له المغيرة ، وهو على الكوفة ، يذكر له غلاماً صنعاً عنده ، ويستأذنه فى دخول المدينة ، ويقول عنه ، إنه ذو أعمال كثيرة فيها منافع للناس .. إنه حداد ، نقاش ، نجار ، فأذن له عمر أن يرسل به إلى المدينة ، وضرب عليه المغيرة مائة درهم فى كل شهر . . فجاء إلى عمر يوماً يشتكى إليه الخراج ، فقال له عمر : ماذا تحسن من الأعمال ، فعد له الأعمال التى يحسنها ، فقال له : ليس خراجك بكثير فى كنه عملك !!..

« وروى أن هذا الرومى ، لبث أياماً ، بعد شكاته إلى عمر ، ثم مر بعمر ، فدعاه وقال له: قد حدثتك أنك تقول : لو أشاء صنعت رحى تطحن الريح !! فالتفت العبد عابساً ساخطاً إلى عمر ، ومع عمر رهط من الناس ، وقال : لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها ، فلما ولى العبد ، قال عمر للرهط الذى معه : ألا تسمعون إلى العبد ، ما أظنه إلا أوعدنى آنفاً . . فلبث ليالى ، ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذى رأسين ، نصابه فى وسطه ، فكمن فى زاوية من زوايا المسجد ، فى غلس السحر ، فلم يزل هناك حتى جاء

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد . . جزء : ١٢ — ص ١٨٤ وما بعدها .

عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر ، كما كان يفعل ، فلما دنا منه طعنه ثلاث طعنات ، إحداهن تحت السرة ، قد خرقت الصفاق [1] ، وهى التى قتلته ..

قال ابن عباس . . فلما نقل عمر إلى البيت ، وهو مغمى عليه ، لم يزل فى غشية واحدة ، حتى أسفر الصبح ، فلما أسفر الصبح أفاق ، فنظر فى وجوه من حوله ، وقال : أصلى الناس ؟ فقيل : نعم ، فقال : لا إسلام لمن ترك الصلاة .. ثم دعا بوضوء ، فتوضأ وصلى » .

وروى عن عبد الله بن عمر أنه قال : سمعت أبى يقول : لقد طعننى أبو لؤلؤة طعنتين ، وما أظنه إلا كلباً ، حتى طعننى الثالثة » .

وروى معمر ، عن الزهرى ، عن سالم عن عبد الله بن عمر ، قال : دخلت على أبى فقلت : سمعت الناس يقولون مقالة ، وآليت أن أقولها لك ، زعموا أنك غير مستخلف ، وأنه لو كان لك راعى إبل أو غنم ، ثم جاءك وتركها ، رأيت أنه ضيع ، فرعاية الناس أشد ، قال : فوضع رأسه ثم رفعها ، فقال : إن لم أستخلف ، فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف ، وإن استخلفت ، فإن أبا بكر قد استخلف .. يقول ابن عمر : فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله ، وأبا بكر ، فعلمت أنه لم يكن يعدل برسول الله ﷺ أحداً ، وأنه غير مستخلف ! » .

وروى أنه ـ رضى الله عنه ـ قال : وقد أذنت له عائشة رضى الله عنها فى أن يدفن فى بيتها ، مع رسول الله ﷺ ، وأبى بكر ، قال : إذا مت فاستأذنوها مرة ثانية ، فإن أذنت وإلا فاتركوها ، فإنى أخشى أن تكون قد أذنت لسلطانى [2] فاستأذنوها بعد موته فأذنت !

---

(١) أى الجلد ، الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر . .

(٢) أى وهو حى . .

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : كنا فى بيت عمر ، وهو يعالج الموت من الطعنات التى طعن بها ، فسمعنا صوت أم كلثوم : واعمراه .. وكان معها نسوة يبكين ، فارتج البيت بكاء ، فقال عمر : ويل عمر ، إن الله لم يغفر له . . يقول ابن عباس : فقلت ، والله إنى لأرجو ألا تراها - أى النار - إلا مقدار ما قال الله تعالى : «وإن منكم إلا واردها »[1]. إن[2] كنت - ما علمنا - إلا أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، تقضى بالكتاب وتقسم بالسوية . . قال : فأعجبه قولى ، فاستوى جالساً ، فقال : أتشهد لى بهذا ياابن عباس ؟ فكععت - أى توقفت خوفاً - فضرب «علىّ» رضى الله عنه - بين كتفى ، وقال : اشهد ! وأنا معك ، فقلت : نعم اشهد !!

وفى صحيح البخارى ، عن ابن عباس وعن جعفر بن محمد عن أبيه ، قال : لما غسل عمر وكفن وحمل على سريره ، وقف عليه « علىّ » - كرم الله وجهه - فقال : والله ما على الأرض رجل أحب إلىّ أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى بالثوب » .

وعن سعيد بن زيد أنه كان كلما ذكر عمر - رضى الله عنه - بكى ، فيقال له ما يبكيك ؟ فيقول : أبكى على الإسلام ، إن موت عمر ، ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة» .

وعن أبى طلحة قال: «ما من بيت حاضر ولا باد ، إلا وقد دخل عليه من موت عمر نقص» !

وعن أبى عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - أنه كان يقول : «إن مت عمر رق الإسلام ، ما أحب أن يكون لى ما تطلع عليه الشمس

---

(١) سورة مريم : ٧١ .

(٢) « إن » هنا نافية ، بمعنى « ما » .

أو تغرب ، وأن أبقى بعد عمر ! ! فقال قائل : ولم ؟ قال سترون ما أقول إن بقيتم .. إن ولى بعده وال فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطعه الناس، وإن ضعف عنه قتلوه ! » وقد مات أبو عبيدة — رضى الله عنه — قبل عمر !

وعن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ قال : « كان الإسلام فى زمن عمر كالرجل المقبل ، لا يزداد إلا قرباً ، فلما مات صار كالرجل المدبر ، لا يزداد إلا بعداً » .

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : ود الله لو أن كلباً كان يحب عمر لأحببته ، ولوددت أنى كنت خادماً لعمر حتى أموت ، ولقد وجد فقده حتى العضاه ـ وهو شجر ضعيف ـ وإن هجرته كانت نصراً ، وإن سلطانه كان رحمة » .

* * *

وكما أن حياة العظيم من الرجال ، يجتمع حولها الكثير من المتناقضات، وتستجلب له الغرائب ، من الفضائل والمعايب على السواء .. كذلك يكون موت هذا العظيم حدثاً من الأحداث ، يجىء على غير مألوف الحياة ، حتى لكأن الموت غير وارد على كل حى ، وحتى كأن هذا العظيم مستثنى من هذا الحكم العام على الناس جميعاً ..

لقد مات عمر ـ رضى الله عنه ـ شهيداً بطعنات من يد غادر أثيم .. وما أكثر الذين ماتوا بمثل هذه الطعنات الغادرة ؟

ولكن موت عمر ، دخل على الناس منه ، ما أدار رءوسهم ، وقلب

وجوه الحياة عليهم ، وخيل إليهم أنهم مقبلون على مواجهة عواصف عاتية ، تهب عليهم من كل اتجاه ، فتعصف بكل شىء ، وتأتى على كل شىء ..

ومن هنا سبح الناس فى بحر متدافع الأمواج ، من التصورات والخيالات .. حول موت عمر ، وما بدا من ظواهر الحياة عند موته .

ونحن إذ نذكر شيئاً من هذا الذى قيل من تلك الظواهر ، فإنا لا نذكرها على أنها واقع فعلا ، بقدر ما نستدل بها على ما يقع فى مشاعر الناس من موت الرجل الذى كانت تدور حياتهم فى فلكه .. وأقرب شاهد لهذا ما كان من عمر نفسه ، حين قيل له إن النبى — ﷺ — قد مات ! فلقد أنكر هذه الحقيقة ، وشهر سيفه مهدداً به كل من يقول هذا القول ، فى رسول الله !

فمن ذلك ما يروى عن كعب الأحبار ، أنه جاء إلى عمر — رضى الله عنه — فقال : يا أمير المؤمنين ، اعهد فإنك ميت بعد ثلاثة أيام . فلما قضى ثلاثة أيام طعنه أبو لؤلؤة ، فدخل عليه الناس ، ودخل عليه كعب فى جملتهم ، فقال — عمر — : القول ما قلت يا كعب ، وما بى حذر الموت ، ولكن حذر العذاب » .

وهذا خبر — إن صحت نسبته إلى كعب الأحبار ، فإنا لا نستبعد أن يكون كعب ضالعاً فى هذه المؤامرة ، محرضاً عليها ، وخاصة إذا علمنا أنه يهودى ، دخل الإسلام ، ورأى ما فعل المسلمون باليهود ، الذى كادوا للمسلمين بالمدينة ، حتى أجلاهم الرسول ﷺ منها ، ثم أجلاهم عمر — رضى الله عنه — من الجزيرة العربية كلها ..

ومن جهة أخرى ، فإن كعب الأحبار هذا ، إذ يتحدث بهذا الخبر ،

الذى يعلم أنه واقع لا محالة بتدبيره هو ، فإنما ليدل على أنه ذو علم من التوراة ، وفى هذا ما يدير بعض العقول إلى اليهودية ، المتأصلة فى نفس هذا اليهودى ..

ومن ذلك ما يروى عن الحسن بن أبى جعفر أنه قال : لما قتل عمر أظلمت الأرض ، فجعل الصبى يقول : ياأماه أقامت القيامة ؟ فتقول : لا ، ولكن قتل عمر بن الخطاب » .

والحق أنه ما أظلمت الدنيا لموت عمر ، ولا تغير وجه الشمس والقمر لموت رسول أو نبى ، ولكن الغواشى التى تغشى الناس عند موت من يحبون ، هى التى تغير وجه الحياة لديهم ..

ومن ذلك ما يروى من أن الجن رثت عمر .. حيث يروون عن السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن الجن ناحت على عمر قبل أن يموت بثلاثة أيام فقالت الجن فى رثائه :

أبعد قُتيل بالمدينة أظلمتْ ... له الأرض تهتز العضا بأسوق
جزى الله خيراً من إمامٍ وباركت ... يدُ الله فى ذاك الأديم الممزّقِ
فمن يسعَ أو يركب جناحَى نعامةٍ ... ليدرك ما قدّمت بالأمس يُسبقِ
قضَيتَ أموراً ثم غادرت بعدها ... بوائق فى أكمامها لم تُفتّقِ

ونسبة هذا الشعر إلى الجن نسبة مكذوبة ، كما أن نسبة روايتها إلى عائشة ــ رضى الله عنها ــ أكذب الكذب ، والذى يصح فى هذا المقام أن هذا الشعر مما قد يكون من شاعر ، رثى به عمر ــ رضى الله عنه ــ ثم عزاه إلى الجن ، حتى يشيع فى الناس ، ويجرى على الألسنة .

ومن هذا القبيل ، ما يروى عن معروف الموصلى ، أنه قال : لما قتل عمر ، سمع صوتاً يقول :

لِيَبْكِ على الإسلام من كان باكياً
فقد أوشكوا هلكى وما قدم العهدُ
وأدبرت الدنيا ، وأدبر خيرها
وقد ملّها من كان يؤمن بالوعد

وهذا الخبر مثل سابقه ، فما هذا الشعر إلا لشاعر من شعراء الإنس ، قد نسب إلى الجن ليذاع وينتشر في الناس !

* * *

ومع هذا ، فإن الذى لا شك فيه ، أن موت عمر - رضى الله عنه - كان هزة عظيمة للإسلام ، ومدخلا جديداً للمسلمين إلى حياة جديدة مليئة بالأحداث ، التى كان عمر سداً منيعاً دونها ، فلما خلا مكانه لم يقم من بعده من يكون سداً فى وجه هذه الأحداث ، فكان الذى جرى بعد عمر ، مما تعانى منه الأمة الإسلامية إلى اليوم ..

فيا لرحمة الله لعمر ، ويالطف الله بالإسلام ، وأمة الإسلام !

* * *

[خاتمة]

(١)

وإذا كان ما أخذناه من سيرة عمر، لا يعدو أن يكون قطوفاً من حواشي الرياض المونقة الفسيحة لسيرته المباركة.. التي تظل على امتداد الزمن، ظلا ممدوداً، يفيء إليه المصلحون كلما أضناهم المسير، ولفحتهم سموم الصراع بين الحق والباطل، والخير والشر، فيجدون من هذا الظل الوارف الظليل ما ينعش نفوسهم، ويقوى عزائمهم على مواصلة المسيرة نحو الغاية المنشودة ـ نقول: إذا كان ما أخذناه من سيرة عمر، هو تلك القطوف التي طالتها أيدينا من مجانى سيرته العظيمة الرحيبة ـ فإن ذلك هو غاية جهدنا، في هذا الإطار المحدود، الذى كانت غايتنا منه، هو التذكير بحياة هذا الإنسان الكريم، العظيم، الذى تمثلت فى شخصه أروع صورة لشريعة الإسلام، وما تجد النفوس المهيأة لقبولها، والتجاوب معها من قدرة على احتواء العظمة من جميع جوانبها، فتعلوا بذاتها عن الصغائر، وتعف عن الدنايا، وتقهر نوازع الهوى، وترسم للإنسانية طريقاً مستقيما آمنا، تجد فيه وجودها الحق، حيث لا يهضم لضعيف حق، ولا يباح لقوى أن يأخذ غير ما له من حق، فلا جور، ولا بغى، ولا عدوان، حيث تنطلق طاقات الجماعة كلها إلى العمل فى هذا الجو المواتى لكل عامل أن يعمل ما وسعته القدرة، وما واتته العزيمة، ونزعت إليه الهمة..

ففى حياة عمر ـ رضى الله عنه ـ جندياً من جنود الإسلام، فى عهد الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وفى حياته صاحباً لخليفة رسول الله، أبى بكر ـ رضى الله عنه، وفى حياته خليفة وقائماً على أمر المسلمين ـ فى

هذه الحيوات كلها صحف كريمة منشورة ، يتلقى من آياتها الطالبون للكمال الإنسانى ، فى أى حال يكونون عليها ، ما يجعلهم قمما فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، يتمثل فيهم خير ما فى الجماعة من مكارم الأخلاق ، وحميد الفعال ، و دا العيون شاخصة إليهم ، وإذا الهمم نازعة إلى التعلق بهم ، والتخلق بأخلاقهم .. وذلك لما طبعت عليه النفوس من التنافس على مواقع القيادة والزعامة ، وإن لم تسعفها القوى الكامنة فيها ، وذلك على أى حال هو كسب عظيم للإنسان ، فإنه إن لم يبلغ الغاية التى ينشدها ، فبحسبه أنه خطا خطوات نحوها ، أو بحسبه أنه لم ينزل عن مستواه الذى هو فيه إلى مستوى دونه !!

(٢)

وفى هذا الذى قدمناه من السيرة العمرية ، داعية تدعو المصلحين ، والباحثين ، والدارسين ، وطلاب السمو الإنسانى ، أن يقلبوا صحف التاريخ الإسلامى ، فى عصر النبوة والخلافة الراشدة ، ليشهدوا كيف قامت دولة الإسلام ، وكيف علا صرحها ، بأيدى رجال ، قبسوا من هدى رسول الله وتأسوا بسيرته العظيمة ، فملأوا ساحة الأمة الإسلامية بصور من البطولات ، فى كل ميدان من ميادين الحياة : فى القوة والشجاعة ، فى الحكم والسياسة ، فى الدين والدنيا ، فى العفة والأمانة ، فى الزهد والقناعة ، فى التضحية والفداء ، فى الإيثار والمواساة ، فى الرحمة والمودة ، فى الحب والإخاء : ففى كل هذه المعانى الكريمة ، وفى كثير غيرها ، قدم الإسلام من رجالاته أبطالا ، سيظلون على امتداد الأزمان ، ملء العيون ، والقلوب ، مهابة وإجلالا ، وإكباراً ، عند الأولياء ، والأعداء على السواء ..

وقد جمع عمر — رضى الله عنه — من البطولات ما يضم هذه المعانى كلها ، على حال من التآخى والتوازن بينها جميعاً ، فلم يجر فيها معنى على معنى ، ولم تتحيف منها صفة على مكان صفة.. ومن هنا حق لنا أن نصفه بأنه: « الوثيقة الخالدة ، للدين الخالد » . . فهو بحق وثيقة خالدة ، كاشفة عن حقائق هذا الدين ، فى أكمل صورة يمكن أن يبلغها بشر غير نبى ـ من الكمال الإنسانى ، فى حدود البشرية .

(٣)

وإذا كانت الشدة والصرامة ، فقد أخذت لوناً ظاهراً فى سيرة عمر ـ رضى الله عنه ـ فكانت بهذا مدخلا من مداخل الذين أملى عليهم الهوى أن يقفوا موقف العداوة منه ، وأن يشنعوا عليه ، تارة بالخروج على سنة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إرضاء منه لنزعة السلطان والتسلط ، وتارة بالعدوان على أهل البأس والنجدة ، حتى يخفض رءوسهم عن مساماته، ومنازعة هذا السلطان ـ نقول : إذا كانت شدة عمر وصرامته قد فتحت لأعدائه باباً للتقول عليه ، والطعن فيه ـ فإن ذلك لا يضيره فى شىء ، فما كان ينتظر من عدو صاحب هوى أن يقول فى خصمه غير الكذب والافتراء ، ليترضى هواه ، وليغذى عداوته من هذا الطعام الحرام ..

ونعم ، إنه كان فى عمر شدة وصرامة ، ولكنها فى مواقع الحق أن يجار عليه ، وفى مجال حرمات الله أن يعتدى عليها .. فإذا لم يكن شىء من هذا ، فعمر ـ رضى الله عنه ـ هو اللين كله ، والرقة كلها ، والتواضع كله . أما أن يقال إن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان يجافى سنة رسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ويعطى نفسه الحق فى نقضها والأخذ بغيرها ، استجابة لهوى متسلط عليه ، فهذا قول لم يستطع أعداء الإسلام أنفسهم أن يحملوا أنفسهم على

النطق بكلمة منه ، لأن بين أيديهم من شواهد التاريخ الناطقة ، ما يرد ذوى الحياء عن أن ينكروا الشمس فى رابعة النهار . . أما إذا تجرد المرء من الحياء ، فلا شىء يمسكه عن أن ينزع ثيابه ، وأن يلقى الناس عريانا . . ورسول الله ﷺ يقول : « من لاحياء فيه لا خير فيه » وفى الأثر : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » !

وهل كانت شدة عمر ، وصرامة عمر ، إلا حفاظاً على سنة رسول الله ، وإلا غيرة على هذه السنة ؟ وهل كان موت ابن عمر بيد عمر إلا حفاظاً على هذه السنة وغيرة عليها ؟

روى أنه كان للعباس - عم النبى - ميزاب يسيل منه المطر على مسجد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فما كان من عمر إلا أن اقتلعه بيده » . .

فهذا لا شك من شدة عمر ، ومن صرامته . . وقد كان من الممكن أن يدعو العباس نفسه إلى اقتلاع هذا الميزاب ، بعد أن يرى آثاره فى المسجد ولو فعل عمر هذا ، لما كان للعباس — رضى الله عنه — إلا أن ينتزع هذا الميزاب !

ولكن هل وقف الأمر عند هذا ؟ وكلا . .

فهذا هو العباس ، يجىء إلى عمر ، بعد أن فعل بالميزاب ما فعل ، فيقول له : « والذى بعث محمداً بالحق ، إنه - ﷺ - هو الذى وضع هذا الميزاب فى هذا المكان ، فنزعته أنت يا عمر ! !

فماذا كان من عمر ؟

إنه يعزم على العباس أن يصعد على كتفه ، حتى يعيد الميزاب إلى مكانه . . وقد فعل العباس !

أو كانت شدة عمر وصرامته هنا إرضاء لهوى ، أو استجابة لداعى السلطان ؟ إنه لو كان الأمر كذلك ، لما كان من عمر أن يرجع عن هواه ، أو ينزل عن شىء من سلطانه ، حتى يعطى ظهره للعباس ، فيضع العباس رجليه على ظهر عمر ، ليعيد الميزاب إلى مكانه !! إن أياً من الناس لو فعل بالميزاب ما فعل عمر ، لما كان منه إلا أن يدع العباس يعيد الميزاب إلى مكانه ، أو يعيده هو بنفسه ، أو بأحد من الناس غيره ! !

هذه واحدة ! !

وأخرى ، وهى أن عمراً كان يطوف فى طرقات المدينة ليلا ، فسمع صوت رجل وامرأة فى بيت ، وقد علا صخبهما ، وضحكهما على غير المألوف ، فوقع فى نفس عمر أن الرجل والمرأة على حال سوء . . فتسور عليهما الحائط ، وإذا هما وبين أيديهما زق خمر ! فقال عمر للرجل : يا عدو الله ، أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على المعصية ؟ فقال الرجل : يا أمير المؤمنين : إنى عصيت الله فى واحدة ، وأنت فى ثلاث : فالله يقول : « ولا تجسسوا » وأنت تجسست علينا . والله يقول : « وأتوا البيوت من أبوابها » وأنت صعدت إلى الجدار ونزلت منه !! والله يقول : « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وأنت لم تفعل ! ! فقال عمر هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال : نعم ، والله لا أعود ! فقال عمر : اذهب فقد عفوت عنك !!

فهذا عمر – رضى الله عنه – يأخذ الحق من نفسه ، ولا يرى أن من حقه أن يهجم على الناس فى بيوتهم ، وإن ظن أنهم على معصية ! فإن للناس حرمة ، وللبيوت حرمة .. فلقد دفعته غيرته على حرمات الله ، أن يتسور الدار ، وأن يهجم على أهله .. ثم ينبه إلى ما ليس له حق فيه ، فيرجع إلى الحق !

وهذه أخرى ..

وثالثة .. عن أبى سلامة . قال : انتهيت إلى عمر ، وهو يضرب نساء ورجالا فى الحرم ، قد اجتمعوا على الحوض ، يستقون ويتوضئون منه ، حتى فرق بينهم ، ثم قال للقائم على الحوض : ألم آمرك أن تتخذ حياضاً للرجال ، وحياضاً للنساء ؟ .

ثم مضى عمر ، وفى نفسه شىء من هذا الذى فعله بالمجتمعين على الحوض ، فلقيه على بن أبى طالب ، فقال له عمر : أخاف أن أكون قد هلكت ؟ فقال على : وما أهلكك ؟ قال : ضربت نساء ورجالا فى حرم الله عز وجل ، فقال على : يا أمير المؤمنين : أنت راع من الرعاة ، ترد الشارد !! » .

فهذا هو عمر ، فى غيرته على حرمات الله ، وفى خوفه من الله !! فأين هوى السلطان المتسلط ، ممن يخاف الله ؟

لقد كان عمر ، يحرض الناس على مراجعته ، ونقده ، والتصدى له ، إذا هو خرج ولو قيد شعرة على شريعة الله . .

فهذا حذيفة بن اليمان ، يقول : دخلت على عمر بن الخطاب ، فرأيته مهموماً حزيناً ، فقلت له : ما يهمك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنى أخاف أن أقع فى منكر ، فلا ينهانى أحد منكم تعظيما لى ! ! فقال حذيفة : والله يا أمير المؤمنين : لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك .. قال : ففرح عمر ، وقال : الحمد لله الذى جعل لى أصحاباً يقومونى إذا اعوججت ! » .

ويقوم عمر على المنبر ، فيخطب الناس ، ويقول : يا معشر المسلمين : ماذا لو ملت برأسى إلى الدنيا هكذا ـ وميّل رأسه ـ فقام إليه رجل ، فقال : كنا نقول بالسيف هكذا ـ وأشار إلى رقبته بالقطع ـ فقال عمر :

أإياى تعنى ؟ قال الرجل : نعم ! فقال عمر : رحمك الله ، الحمد لله الذى جعل فى رعيتى من إذا تعوجت قومنى ! » .

وهذا عمر ، يقوم إليه رجل من المسلمين ، فيقول له : اتق الله ياعمر !! ويعيد هذا القول مرة ومرة ، فيقول له قائل : أتنتقص أمير المؤمنين . . فيقول عمر : دعه ، فلا خير فيكم إذ لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبل » !!

وهذه امرأة ، قد زنت ، وجاءت إلى عمر وأقرت بالزنا ، فلما استوفت الإقرار أمر عمر برجمها ، ونظر على إلى المرأة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لعل لها عذراً فيما فعلت . . ثم سألها على : ما حملك على الزنا ؟ قالت : كان لى خليط – أى جار – وفى إبله ماء ولبن ، ولم يكن فى إبلى ماء ولا لبن ، وظمئت فاستسقيته ، فأبى أن يسقينى إلا إذا أعطيته نفسى ، فأبيت عليه ، ثلاثاً ، فلما ظمئت ، وظننت أن نفسى ستخرج ، أعطيته الذى أراد فسقانى ، فقال على : الله أكبر « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » فأخلى عمر سبيلها .

وهكذا نقض عمر حكمه ، حين استبان له الحق ، من وجه لم يكن قد كشف عنه ..

فالذين يقولون عن عمر – رضى الله عنه – إنه كان يكره المراجعة من أحد فيما يفعل أو يقول ، هم أهل اختلاق وافتراء ، تكذبهم الأخبار الكثيرة المشهورة التى تشهد بأن عمر : كان يدعو الناس ويحرضهم على مراجعته !

ثم كيف يأبى عمر على الناس أن يراجعوه ، وهو الذى كان يراجع رسول الله ﷺ فى كثير من المواقف ؟

ألم يراجع عمر رسول الله ﷺ فى صلاته على عبد الله بن أبى ، وقد كان منافقاً ، ظاهر النفاق ؟ وقد نزل فى هذا قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولاتقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون »[١] ؟ وألم يراجع عمر رسول الله ﷺ ، فى حجب نسائه ؟ ثم نزل بعد هذا قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن[٢] » .

ثم ألم يراجع عمر رسول الله ﷺ فى صلح الحديبية ، حتى لقد أثقل فى ذلك على رسول الله ﷺ وحتى لقد قال له الرسول الكريم : « يا ابن الخطاب ، إنى رسول الله ، ولن يضيعنى الله أبداً » وعندها علم عمر أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنه يعمل فى هذا الأمر بوحى من ربه ، فأمسك عمر ، وثاب إلى رشده ! وظل حياته يستغفر الله لموقفه هذا !؟

فكيف يكون من عمر ، وهذا موقفه فى مراجعة رسول الله ، أن يستنكف من مراجعة الناس له ؟ ذلك هو المستحيل بعينه !

ليس بعمر ـــ رضى الله عنه ـــ شدة أو صرامة إلا فى الحق ، الذى لا يدخل عليه شبهة ، فإذا لاحت لعمر شبهة ، توقف طويلا ، يحاسب نفسه ، ويراجعها ، ويسأل من حوله ، حتى يمسك بحجة قاطعة ، فإن لم تكن حجة قاطعة ، عالج الأمر بالحكمة ، والموعظة الحسنة . .

---

(١) سورة التوبة : ٨٤ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥٣ .

روى أنه ـ رضى الله عنه ـ سأل عن أحد المسلمين المجاهدين من أهل النجدة والبأس ، فقيل له : إنه يشرب الخمر ! ولما لم يكن من الرجل إقرار ، أو لم يقم عليه شهود ، فقد كتب إليه عمر كتاباً يقول له فيه :

« من عمر بن الخطاب ، إلى فلان بن فلان .. سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله ، الذى لا إله إلا هو ، غافر الذنب ، وقابل التوب شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير » .

فلما قرأ الرجل كتاب عمر ، جعل يقرأ ويعيد « غافر الذنب » ! وقد وعدنى الله أن يغفر لى ، و « قابل التوب شديد العقاب » قد حذرنى من عقابه . . فلم يزل الرجل يردد الآية الكريمة ، ويقف عند كل مقطع من مقاطعها ، ويبكى ، ثم رجع إلى الله تائباً !!

ولما بلغ عمر خبر الرجل ، وما كان منه ، قال لأصحابه : هكذا ، فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة ، فسددوه ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه » .

وهذا الذى فعله عمر ، هو من هدى النبى ﷺ .. فقد أتى إلى رسول الله برجل شرب خمراً وقامت عليه البينة ، فأمر الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يقام عليه الحد .. قالوا فمنا الضارب بثوبه ، ومنا الضارب بيده ، فلما ولى الرجل ، قال أحد الناس : لعنه الله .. قالوا ، فغضب رسول الله ، وقال : لا تقولوا هكذا ، فتعينوا الشيطان عليه » !

ومن عمريات عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه ظل فى خلافته ، كلما لقى أسامة ابن زيد ، يقول له : السلام عليك أيها الأمير ، ويقول : إنى لا أدعوك إلا بالأمير ، لأن النبى ﷺ ، مات وأنت علىّ أمير !!

وذلك أن أسامة ـ رضى الله عنه ـ كان على رأس الجيش الذى أعده رسول الله ﷺ قبيل وفاته ، لغزو أطراف الروم ، وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ جندياً فى هذا الجيش ، تحت إمرة أسامة !

وهكذا ظل عمر ـ رضى الله عنه ـ فى مكانه من زيد ، الذى أمّره النبى عليه ، فلا يناديه إلا بقوله : يا أميرى !! وهو الخليفة على المسلمين ! أفيكون هذا من رجل محب للسلطان ، نزاع إلى التعالى والتسلط ؟ ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ..

(٤)

من الميراث الطيب ، الذى ترثه الإنسانية من عظماء الرجال ، فوق ما يرثونه من أفعالهم العظيمة ، وسيرتهم الحميدة ـ ما يجرى على ألسنتهم من كلمات فى كثير من مواقفهم ، تظل آثاراً خالدة بعدهم ، وأمثالا سائرة ، يتمثلها الناس كلما عرضت لهم حال ، يكون المثل منها كاشفاً لها ، قاضياً بالحكم فيها ..

فالكلمات التى ينطق بها أولو الرشاد من الناس ، هى نضيج أفكارهم ، وثمرات عقولهم . . وما الناس فى هذا إلا أشبه بالأشجار ، وما تحمل من ثمارها .. فالعظماء الحكماء الراشدون من الناس ، تثمر أفواههم ثمراً طيباً مباركا . . فهم فى حياتهم ظل ظليل ، وثمر حاضر ، وهم بعد مماتهم ثمر مدخر للطالبين .. وفى الناس من لا ظل له ولا ثمر !!

وقد كان عمر ـ رضى الله عنه ـ من هذا الشجر المبارك الطيب ، الممدود الظل ، الكثير الثمر ، الحاضر منه والمدخر ..

فكما ترك عمر — رضى الله عنه — من سيرته العطرة ، الأسوة الحسنة ، والقدوة الطيبة للحاكم العادل المصلح ، ترك من بعده تراثاً عظيما طيبا من الكلمات الحكيمة ، ذات المضمون المبارك ، الذى يحمل علماً نافعاً ، وحكمة بالغة ..

ولا يمكن حصر هذا التراث المظيم من كلمات عمر ، التى أودعها رسائله إلى عماله ، بما فيها من مقاطع القول ، ودستور العمل .. وحسبنا هنا ، أن نقطف بعضاً من هذه الثمرات المباركة ، التى تمثل جوانب من علم عمر وفقهه ، وحكمته ، وسياسته .

فمن ذلك قول عمر :

« إياكم والراحة ، فإنها غفلة » ..

وقوله :

« إن للناس حدوداً ومنازل ، فأنزلوا كل رجل منزلته ، وضعوا كل إنسان فى حده ، واحملوا كل امرىء بفعله على قدره » ..

وقوله :

« من يأس من شىء استغنى عنه ، وعز المؤمن استغناؤه عن الناس» ..

وقوله :

« لا تضعفوا همتكم ، فإنى لم أر شيئاً أقعد برجل عن مكرمة ، من ضعف همته » ..

وقوله :

« ترك الخطيئة ، أيسر من معالجة التوبة » ..

وقوله :

« رب نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة أورثت حزنًا دائمًا » . .

وقوله :

« إذا أسأت فأحسن ، فإنى لم أر شيئًا أشد طلبًا ، ولا أسرع إدراكًا من حسنة حديثة ، لذنب قديم » . .

وقوله :

« كل عمل كرهت من أجله الموت ، فاتركه ، ثم لا يضرك متى مت » . .

وقوله :

« احذروا عاقبة الفراغ ، فإنه أجمع لأبواب المكروه ، من السكر » . .

وقوله :

« ثلاث خصال من لم تكن فيه ، لم ينفعه الإيمان ، حلم يرد به جهل الجاهل ، وورع يحجزه عن المحارم ، وخلق يدارى به الناس » . .

وقوله :

« إياكم وهذه المجازر ، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر »[1]

وقوله :

« أقلل من الدين تعش حراً . وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت »[2]

---

(١) يريد البعد عن المجازر ، والنظر الى ما فيها من لحم ، هذا يحرك الشهوة إليها ، ثم لا يملك المرء لها دفعاً ، فيحمل على ما لا يقدر عليه . .

(٢) لأن المرء فى تلك الحال يحب لقاء الله ، فيحب الله لقاءه ، كما فى الحديث الشريف : « من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه » . .

هذه بعض من كلمات عمر ـ رضى الله عنه ـ وهى بعض من دستور الحياة عنده . . فما كلمة من هذه الكلمات إلا وكان عمر عاملا بها ، وملتزماً حدودها . فكان — رضى الله عنه — من الذين يقولون ما يفعلون ، ويفعلون ما يقولون » .

فرضى الله تعالى عنه وأرضاه ، ونفع به أمة الإسلام ميتاً ، كما نفعها به حياً . .

* * *

وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله وخاتم النبيين وعلى آله وأصحابه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . . . وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . . .

المؤلف

القاهرة فى محرم ١٣٧٨ هـ
يناير ١٩٧٨ م

***

الفهرس

صفحة

الباب الرابع

[illegible]

الفصل السابع

خليفة الله

الباب الخامس

عمر وحدود الله

الباب السادس

عمر ومطاعن الطاعنين عليه

الفصل الثامن

في عهد أبي بكر الصديق

الفصل التاسع

موت عمر

دار التراث العربي للطباعة والنشر
ميدان المشهد الحسيني
تليفون ـ ٩٣٦١٤٥


دار الفكر العربي